

كبرياء وهوى

جين اوستن

- ♦ المؤلف: جين أوستن
- ♦ العنوان : كبرياء وهوى
- ♦ ترجمة : نبيل حلمي
- ♦ طبعة آفاق الأولى 2022
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢١ / ٢٥٩٧١

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 315 - 2

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

_____ Afaq Bookshop & Publishing House _____

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ / ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ / ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٢٧٨٧ / ٠١١١١٦٠

جين أوستن
كبرياء وهوى

ترجمة
نبيل حلمي

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

أوستن، جين

كبرياء وهوى

ترجمة: نبيل حلمي

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2022

576 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 25971 / 2021

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 315 - 2

1 - روايات

2 - العنوان

مقدمة

عاصرت الرواية الإنجليزية جين أوستن (١٧٧٥ - ١٨١٧) فترة انتقالية هامة في تاريخ إنجلترا؛ فقد هبَّت على بلادها في ذلك الحين ريح الثورة الفرنسية، وانغمست إنجلترا بعد هذا في حرب طاحنة مع نابليون وعانت ما عانت من حصاره القاتل لشواطئها، هذا بالإضافة إلى ما أخذ يتبدى من نبضات الثورة الصناعية التي أخذت تهز الأسس الاجتماعية والاقتصادية للنظام كله، وتنبئ عن نشوء قوى جديدة تحتل مكانها في الخريطة الاجتماعية للبلاد.

على أن روايات جين أوستن الست لم تعكس من كل ذلك شيئاً؛ والسبب في هذا أن جين أوستن نفسها كانت تنتمي إلى ذلك الجانب من المجتمع الذي لم يُضَرَّ كثيراً بالتغيرات التي كانت تختمر في أرضية البلاد في ذلك الوقت. لقد كانت تنتمي -سواء من حيث وضعها الطبقي أو اهتماماتها أو عواطفها- إلى فئة المالكين الذين كانوا يعيشون على ما تدره عليهم ضياعهم الواسعة في الريف الإنجليزي من خير وفير. ومن ثم فقد استقت شخصياتها الأساسية من هذه الفئة التي تضم مُلاك الأرض وأغنياء الريف والفئات العليا من الطبقة الوسطى عموماً، كما عملت على تصوير ما بالريف الإنجليزي من استقرار ورفاهية. والحق

أن هذه الفئات بالذات، بالإضافة إلى انعزالها النسبي عما كان يجيش في المدينة من اضطرابات اجتماعية واقتصادية، قد أصابت نفعاً كبيراً من جرّاء الحصار الذي فرضه نابليون على شواطئ إنجلترا؛ فقد ارتفع سعر القمح ارتفاعاً كبيراً بعد توقف استيراده، الأمر الذي ساعد مُلّاك الأرض وأغنياء الريف على تحقيق ثروات طائلة، فضلاً عما جناه أبناء هذه الفئات ممن خدموا كضباط في الجيش والأسطول من سعة ويسار، خصوصاً إذا علمنا أن الإرث كان موقوفاً إذ ذاك على الأبنكار وحدهم.

ولهذا أخذ بعض النقاد على جين أوستن هذه النظرة المحدودة التي لم تَر أبعد من ذلك الإطار الاجتماعي الذي كانت تعيش فيه. وصحيح أن رواياتها كانت تعتمد في بناء أحداثها ومواقفها على شخصيات مقتبسة من فئات المالكين المحظوظين، وأنها اعتبرت رجال الدين والضباط والتجار والمحامين والحاضنات شخصيات ثانوية، إلا أن ذلك لا ينتقص من قدرتها الفنية في شيء، إن لم يؤكد في ذات الوقت صدقها وأمانتها والتزامها بتصوير التجربة الإنسانية التي تدركها حق الإدراك. وما كان تاريخ الأدب الإنجليزي ليفيد كثيراً لو كانت جين أوستن قد كتبت رواية عن أحداث الثورة الفرنسية أو حروب نابليون أو دلائل في الثورة الصناعية، وهي التي لم ترتبط عضويّاً بهذه الأحداث. وإذا سلمنا بأن جين أوستن كانت تفتقر إلى الرؤية «البانورامية» لحياة المجتمع الإنجليزي، فإن الواقع يدل على براعتها الفائقة في تصوير مجموعات من الشخصيات المتباينة التي تنبض بالحياة، وفي تسجيل أدق الخلجات التي تهز قلوب أبطالها، وفي إشاعة جو من التندر

الشفيق على سوءات البشر وأوجه ضعفهم، الأمر الذي يوحى بلا نزاع بتعمق الروائية العظيمة في دراسة الطبيعة البشرية واتساع قلبها ورحابة أفقها وشمول أحكامها. لقد كانت نظرتها محدودة، ولكنها كانت ثرية ومركزة إلى أبعد الحدود.

وتُعتبر جين أوستن علامة مميزة في تاريخ الرواية الإنجليزية؛ فإليها يرجع الفضل في إنقاذ الفن الروائي في نهاية القرن الثامن عشر من الوقوع في براثن الأسلوب القوطي في الرواية، أو ما يُعرف عادة باسم رواية الرعب. فقد شاع بين الروائيين الإنجليز في النصف الثاني من ذلك القرن اتجاه إلى استلهام القصص والأساطير والأحداث التي حفل بها العصر الوسيط، والتي اعتمدت في نسيجها على القلاع العتيقة ذات السرايب الخفية، والأشباح التي تجوب التلال والغابات وتبعث صرخات الهلع في جوف الليل، والصبايا المستسلمات اللائي يقعن ضحايا لنوازع الشر الغامضة وينتظرن الخلاص على أيدي العشاق البواسل، مع كل ما يصاحب ذلك من دماء تنزف وأصوات تعول وطبوف تسري وظلام دامس يحبس أنفاس البشر. وكان هوراس والبول (١٧١٧-١٧٩٧) وآن رادكليف (١٧٦٤-١٨٢٢) من أبرز كتّاب هذا اللون الروائي. وقد كتب الأول «قلعة أوترانتو» (١٧٦٤) كما كتبت الثانية «غوامض أدولفو» (١٧٩٤)، وكلٌّ من الروائيتين تستهدف إثارة نوازع الرهبة والتوتر عن طريق التهويل والمبالغة في المشاعر والمواقف على السواء.

ولكن جين أوستن عزفت عن الانسياق في هذا التيار، وهي التي كانت بطبعها لا تميل إلى الإفراط في المشاعر أو الاعتماد على القوى الخارقة أو استحثاث الخيال الجامح لقرائها. هذا بالإضافة إلى أن اهتمامها بقوانين الشكل الفني وأصوله في كتابتها قد حتم عليها الالتزام بحدود صارمة لا تتعداها؛ فلا بد للشخصية أن تتطور منطقيًا، ولا بد للحدث أن ينمو من داخله دون إقحام عوامل خارجية، ولا بد من إخضاع الأجزاء المنفصلة لكل الواحد. ولهذا فقد أشاحت جين أوستن بوجهها بعيدًا عن هذا التفرُّع الجانبي الذي سلكته الرواية الإنجليزية على يدي هوراس والبول وأن رادكليف وأتباعهما، ومدت بصرها إلى التيار الأصيل الذي استمد مصادره من عملاقي الفن الروائي في إنجلترا، وهما صامويل ريتشارد سون (١٦٨٩ - ١٦٧١) وهنري فيلدنج (١٧٠٧ - ١٧٥٤). وهكذا كانت أعمال جين أوستن استطرادًا طبيعيًا لتراث الرواية الإنجليزية. فقد استمدت من ريتشارد سون نزوعه إلى تصوير الحياة الأسرية ومشكلات الزواج وعلاقة الآباء بالأبناء والقديم بالجديد واللحظات الحرجة التي تدفع الإنسان لاتخاذ قرار يتوقف عليه مستقبله، كما اشتقت من فيلدنج أسلوبه الدرامي سواء في تصوير الشخصيات أو استخدام الحوار أو تقديم المشاهد المتتابعة التي يترتب أحدها على الآخر. ومعنى هذا أن روايات جين أوستن هي استمرار للاتجاه الواقعي الذي ميَّز الرواية الإنجليزية منذ نشأتها. فأحداث رواياتها جميعًا تستند إلى أساس صلب من الواقع الحي النابض سواء من ناحية الخلفية الاجتماعية أو البيئية، كما أن شخصياتها

كانت من لحم ودم تشعر وتفكر وتتصرف بطريقة منطقية في ظل حياة تزخر بمشكلات العصر وكل عصر. بل إنها خصصت إحدى رواياتها الست وهي «دير نورثانجر» للسخرية من الاتجاه الرومانسي الذي ساد روايات الرعب والفرع. لقد تركت جين أوستن القلاع المتهمة والغابات الكثيفة والقوى الخارقة للطبيعة، والتزمت بتصوير الحياة المنزلية والمزوج المألوفة ونوازع الإنسان العادي.

وتُعتبر «كبرياء وهوى» (١٨١٣) من روايات المرحلة المتأخرة في حياة جين أوستن، رغم أن تاريخ كتابتها يرجع إلى الفترة ما بين أكتوبر ١٧٩٦ وأغسطس ١٧٩٧. ففي تلك الفترة انتهت جين أوستن من كتابة رواية «انطباعات أولية» ودفعت بها إلى الناشر الذي رفضها. وعلى أثر ذلك انصرفت عنها إلى كتابة رواية «العقل والعاطفة» (١٨١١) التي قُوبلت باستحسان من الناشر والقراء على السواء. ولكنها ما لبثت أن انعطفت إلى روايتها المرفوضة، فعُدلت فيها وحورت ودفعتها إلى الناشر تحت اسمها الجديد «كبرياء وهوى»، فصادفت قبولاً وخرجت إلى النور في يناير من عام ١٨١٣.

ومن الصحيح أن جين أوستن قد بلغت فيما تلا هذه الرواية درجة كبيرة من التقدم في الفن الروائي، كما أن رؤياها الفنية قد أصبحت أكثر نضجاً وشمولاً، إلا أن «كبرياء وهوى» تظل على الدوام أشد ذيوغاً وأقرب إلى أفئدة القراء. وربما يُعزى السبب في هذا إلى أن هذه الرواية تعرض -دون روايات جين أوستن كلها- أشد القصص تشويقاً وإثارة، وتصور أشد بطلاتها ظرفاً وتوقد ذهن، علاوة على اشتمالها على اثنتين

على الأقل من الشخصيات الهزلية، تحتلان مكاناً مرموقاً بين شخصيات التأليف الروائي في إنجلترا.

وقد التزمت جين أوستن في معظم رواياتها بتصوير موضوع الزواج، وما يتفرع عنه من سعي إليه ونتائج مترتبة عليه. وليست «كبرياء وهوى» استثناء من هذه القاعدة؛ فهي تتعرض لهذه العلاقة الحيوية من كافة زواياها الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والعاطفية. ولا تستمد إليزابيث بطل الرواية أهميتها إلا من حيث إنها تتوصل في النهاية إلى تحقيق أفضل الزيجات على الإطلاق، من حيث قيام علاقة الحب بين الزوجين ونشوء الفهم المتبادل بينهما عبر كثير من العقبات والمشكلات التي خلقتها الظروف أمامهما.

وفي هذا المجال تُعدّ جين أوستن معبرة عن عصرها تماماً؛ فقد كانت تؤمن بأن الزواج هو المطمح الوحيد الذي يجب أن تسعى إليه كل فتاة، فهو السبيل إلى كفالتها وإعالتها. ولكنها مع ذلك تقيم اعتباراً كبيراً لنوازع القلب، فلا تقبل أن يكون ضمان مستقبل الفتاة سبباً في إماتة عواطفها أو في دفعها لإنشاء علاقة مع رجل لا تكن له حباً أو احتراماً. وفي هذه الرواية بالذات تتفاقم المشكلة إلى حدٍّ بعيد. فمستر بينت وزوجته لهما من البنات خمس، صغراهن في السادسة عشرة من عمرها، وكلهن غير متزوجات. ومما يُضاعف قلق الأم ولهفتها على بناتها أن ضيعة زوجها موقوفة على ابن عمه. فنظام الملكية يحرم الإناث حق الإرث. ولما كان مستر بينت وزوجته قد تقدما في العمر دون أن ينجبا ولداً يحل هذا الموقف ويستبقي الضيعة في نطاق الأسرة، لذلك

كان من المحتم أن تؤول الضيعة في حالة وفاة مستر بينت إلى أقرب أقربائه من الذكور، وهو ابن عمه مستر كولنز راعي أبرشية «هنسفورد». ومن ثم تُعالج جين أوستن في «كبرياء وهوى» موقفًا عصيبًا. ورغم ما في هذا الموقف بالطبع من جوانب فكاهية لا تفوت الروائية الكبيرة، إلا أنها ترى أن الزواج هو المخرج الوحيد من الأزمات كافة.

وحتى تُصور جين أوستن موضوعها أفضل تصوير، فقد لجأت إلى استخدام عنصرَي المقابلة والمقارنة. فقبل بدء أحداث الرواية نرى بعض الزيجات القائمة فعلاً، فهناك أسرة بينت وأسرة جاردينر وأسرة لوكاس وأسرة فيليس. ولكن الروائية تختار الزوجتين الأوليين لتقارن إحداهما بالأخرى تدليلاً منها على ما تدعو إليه أو ما تستنكره من خصال. فإذا كان الحب قد نضب بين مستر بينت وزوجته، فهو لا يزال نابضاً بين الزوجين الآخرين، وإذا كان التفاهم مفقوداً هناك، فهو يعتبر أحد الدعامات الأساسية التي يستند إليها الزواج الآخر. وتلمح إليزابيث بينت إلى أن من حُسن حظها أن تستلهم من زيجة خالها ما يعوضها عن المثل السيئ الذي تراه مجسماً أمامها ليل نهار. وإنه لمما يحزن بطلّة الرواية أن ترى مغبة هذا الزواج غير الموفق وتأثيره على الأطفال؛ فقد كان تراخي مستر بينت وعدم اكترائه بأمور بيته من ناحية، وضيق أفق مسز بينت وضعف إدراكها لمسائل الصواب والخطأ من ناحية أخرى، سبباً في فساد البنيتين الصغيرين وإشاعة الاستهتار في سلوكهما.

كذلك تقارن الكاتبة بين الزيجات التي تتم خلال أحداث الرواية؛ فهناك زواج شارلوت بمستر كولنز، وجين بمستر بينجلي، وليديا

بمستر ويكهام، وإليزابيث بمستر دارسي. ولكل من هذه الزيجات طابعها المميز. فزواج شارلوت لوكاس بمستر كولنز هو زواج مصلحة ترضى به الفتاة طمعاً في الاستقرار المادي وانتهازاً لفرصة قد لا تُتاح ثانية. وليس لمقتضيات العاطفة هنا مجال؛ فالفتاة تُقدم على هذا الزواج وهي تعلم أنها لا تُكِنُّ لزوجها حباً، بل إننا نعرف أن الزوجة تخصص لزوجها حجرة بعيدة في أطراف البيت حتى تتقي وجوده المستمر معها. أما زواج جين بنت بمستر بينجلي فلا يتم إلا لحسن حظ الطرفين ومساعدة الظروف لهما؛ فجين من الطيبة والاستكانة والامتنال بحيث تقف سلبيتها حائلاً دون التقدم خطوة واحدة، أما بينجلي فليس من طبعه أن يُقدم على شيء إلا بمشورة صديقه الذي كان يفرض عليه نوعاً من الوصايا في معظم تصرفاته. فهذا الزواج إذنٌ محكوم بتطور الظروف الخارجية التي لولاها ما أمكن للطرفين أن يسعدا باللقاء. وليس في زواج ليديا بنت بمستر ويكهام أي كسب على الإطلاق اللهم إلا صيانة سمعة الفتاة المستهترّة التي فرت مع عشيقها وعاشت معه دون زواج. إنها زيجة تقوم على الترميم لا على أصالة المشاعر أو شرف السلوك أو اعتبارات الفضيلة. ولم يكن من الغريب أن ينتهي هذا الزواج إلى اللامبالاة بين الطرفين وإلى استمرار الزوج الغائب في مغامراته الشائنة. وتمنح جين أوستن كامل تأييدها إلى الزواج الأخير وهو زواج إليزابيث بنت بمستر دارسي، فهذا زواج مثالي يقوم بين شخصين يتمتعان بذكاء وحساسية وحسن تقدير للأمور، بالإضافة إلى القدرة على تقويم ما في سلوك كل منهما من اعوجاج، والرجوع إلى مقتضيات الحق. كما أنه

زواج يقوم على الحب الذي يشتد عوده ويقوى من خلال التجارب والصعاب ومشكلات سوء الفهم والتفاهم، والذي يستطيع أن يقهر حواجز التفرقة الاجتماعية ومظاهر التكلف الأرستقراطي.

وهكذا تظهر واقعية جين أوستن في تصويرها لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الزوجين. فكفالة مستقبل الفتاة بالزواج أمر لا غنى عنه. ولكن تحقيق هذا الزواج لا بد أن يسترشد بمقتضيات الفكر والعاطفة معاً، ناهيك عن مراعاة جوانب الحشمة واعتبارات الفضيلة واعتدال السلوك.

وتتبع جين أوستن في سردها أحداث روايتها أسلوباً يحدد للقارئ نطاقاً من الرؤية لا يتجاوز المدى الذي تجول فيه عينا البطلة. فنحن لا نرى إلا ما تراه إليزابيث بينت، ولا نُوجد إلا حيث تُوجد، ولا نعرف من الشخصيات والأحداث والمواقف إلا ما نعرف، فنُخدع كما تُخدع ونُحار كما نُحار، وتشرق علينا في النهاية حقائق الأمور بنفس التآلق الذي تشرق به على البطلة. ولا تشذ جين أوستن عن هذه القاعدة إلا فيما ندر، حيث تتدخل بشخصها فتروي علينا بشكل مباشر بعض ما خفي عن البطلة نفسها حيثما كانت ذلك ضرورياً بالنسبة لتطور الحدث. وتكمن أهمية هذا الأسلوب الفني في تمكيننا من رؤية الشخصية الأساسية في الرواية من خلال تطورها عبر الأحداث والمواقف. فالقارئ يتحد مع هذه الشخصية ويعيش بفكرها وينظر بعينها، الأمر الذي يجعلها أقرب إليه وأشد واقعية وإقناعاً عما لو حدثته عنها الكاتبة بشكل مباشر. هذا بالإضافة إلى أن الحدث يتطور في هذه الحالة تدريجياً وبطريقة تتناسب

مع تطور البطلة نفسها ومع احتكاكها بالعالم من حولها. فالشخصيات الجديدة لا تُقدَّم إلى القارئ إلا حين يكون في وسع إليزابيث أن تلتقي بها. ومن هنا ينمو الحدث وتتكشف المواقف من خلال حركة تدريجية منطقية محكومة بوحدة الرؤية ومحدودية وجود البطلة في مكان وزمان معينين. أما الأحداث التي تجري في مواقف لا تشهدها البطلة نفسها، والتي يلزم تنوير البطلة والقارئ معًا بحقائقها، فُتروى عن طريق الرسائل المتبادلة، أو تتضح من خلال حوار يقوم بين البطلة وغيرها من الشخصيات التي عاصرت هذه المواقف.

وتعتبر جين أوستن بحق أستاذة ماهرة في فن التندر والسخرية. وهي في سخريتها من الناس ومواقفهم لا تنتزع من القارئ ضحكات مجلجلة وإنما تستثير ابتسامه الهادئ. وعنصر الفكاهة عندها يستمد أصوله من عدة مصادر، فهي تعتمد من ناحية على إطلاق التعميمات والأحكام الشاملة التي تتبدى في صورة الحقائق، والتي لا تلبث غرابتها (وربما زيفها) أن تظهر للقارئ بمجرد انتهائه من قراءة العبارة. فالقول في ظاهره جاد رصين يتسم بمظهر الحق، ولكن السخرية النافذة تشيع في الأعماق. وليست الجملة الافتتاحية في هذه الرواية إلا دليلاً ناصعاً على مقدرة جين أوستن على إتقان هذا النوع من التهكم. ومن ناحية أخرى تكمن سخرية الكاتبة في تصويرها لما تلجأ إليه بعض الشخصيات من مبالغة في إبداء مشاعرها وإفراط في تأكيد ميولها، وإذا بتطور الحدث يدفع هذه الشخصيات نفسها إلى الانقلاب من النقيض إلى النقيض بنفس الحماسة والتهويل. وتزخر مواقف مسز بينت وآراؤها بكثير من

الأمثلة في هذا الصدد، وخصوصًا في مشاعرها إزاء مستر دارسي، تلك المشاعر التي تتحول من الكراهية المفرطة إلى الإعجاب غير المحدود. كذلك تسخر الكاتبة من الشخصيات التي تسعى إلى تحقيق أمر ما، مدفوعة في غالبية الأحيان بالحقْد أو الحماسة، فإذا سعيها ينقلب إلى عكس ما تنويه، ويرتد السهم إلى صاحبه. فمستر ويكهام يحاول جاهدًا تلوّث سمعة مستر دارسي وإيغال صدر إليزابيث عليه، ولكن ما يرويه هذا الرجل من أمور زائفة يكون سببًا في الجمع بين إليزابيث ودارسي. كذلك تحاول ليدي كاثرين أن تحول دون زواج إليزابيث بابن أختها، فإذا بمساعيها المحمومة الحمقاء تؤدي إلى التوفيق بينهما.

وأخيرًا تظهر قدرة جين أوستن على السخرية في تصويرها البارع للشخصيات الهزلية الأربع التي تثرى بها هذه الرواية، فهناك مسز بينت وابنتها ميري وليدي كاثرين ومستر كولنز. ولهذه الشخصيات شبه كبير بالرسوم الكاريكاتيرية من حيث اعتمادها على ما في الحياة من مواقف وطباع تجتذب عين الفنان الناقدة، فتضخمها وتبالغ فيها؛ سعيًا إلى إبرازها ورشقها بالسهام. ولا شك أن الفنان الساخر هو إنسان حاد البصر، نفاذ إلى طبائع البشر مقوم لسلوك الناس. إنه فنان يرفع المرأة أمام كل منا فيكشف له سوءاته ويعرّفه بحقيقته. وهنا تكمن أهمية جين أوستن وعظمتها سواء في إطار الرواية الإنجليزية أو الأدب العالمي بوجه العموم؛ فهي وإن كانت تصور لنا من الناس من عاشوا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، ومن سكنوا ضياع الريف الإنجليزي الشاسع المطمئن، إلا أنها تلمس أدق جوانب الحياة والسلوك في كل

زمان ومكان، وتسخر من كل الرذائل الاجتماعية والشخصية التي تتبدى
في خصال البشر. وهي بنفادها إلى أعماق الطبيعة البشرية إنما تستشرف
آفاق الإنسانية كلها، وتحقق بالإضافة إلى المذاق المحلي المحدود
عالمية النظرة الإنسانية الشاملة.

نبيل حلمي



الفصل الأول

من الحقائق التي يقر بها الناس جميعًا، أن الأعزب الذي يمتلك مالا وفيرا لا بد أن يكون في حاجة إلى زوجة.

وبرغم أن معرفة مشاعر مثل هذا الرجل أو آرائه قد لا تكون شائعة على نطاق واسع لدى ظهوره لأول مرة في الجيرة المحيطة به، فإن هذه الحقيقة تُعد راسخة تمامًا في عقول الأسر المجاورة، لدرجة يُعتبر معها هذا الرجل ملكية مشروعة لهذه الفتاة أو تلك من كريمات هذه الأسر.

قالت مسز بينت لزوجها في يوم ما:

- يا عزيزي مستر بينت، هل بلغك أن «نيذرفيلد بارك» قد شغله مستأجر بعد أن ظل خاليًا لمدة طويلة؟

وأجاب مستر بينت أنه لم يسمع بشيء من هذا.

فردت زوجته قائلة:

- ولكنه استؤجر بالفعل، فقد زارتني مسز لونج منذ قليل، وأخبرتني بكل شيء عن هذا الموضوع.

ولم يحرمستر بينت جوابًا.

وصاحت زوجته وقد نفذ صبرها:

- أو لا تريد أن تعرف من الذي شغله؟

- إنك أنت التي تريدين أن تخبريني، وليس لديّ اعتراض على

سماع ما عندك.

وكان هذا القول بمثابة دعوة كافية.

- حتمً عليك أن تعلم يا عزيزي؛ فمسز لونج تقول إن «نيدر فيلد» قد

شغله شاب من شمال إنجلترا يمتلك ثروة كبيرة، وإنه وصل يوم الاثنين

في عربة تجرها أربعة جياذ ليلقي نظرة على المكان، فسُرَّ به غاية السرور

لدرجة أنه اتفق مع مسز موريس في التواللحظة. ولسوف يشغل البيت

قبل عيد القديس ميخائيل، على أن يسبقه بعض خدمه الذين يجب أن

يكونوا في المنزل مع نهاية الأسبوع القادم.

- وما اسمه؟

- بينجلي.

- أمتزوج هو أم أعزب؟

- أعزب بالتأكيد يا عزيزي! أعزب يمتلك ثروة طائلة؛ أربعة أو

خمسة آلاف جنيه في العام. يا له من شيء رائع لبناتنا.

- كيف ذلك؟ كيف يتأثرن بشيء كهذا؟

وأجابت زوجته:

- يا عزيزي مستر بينت، كيف تكون متعباً لهذا الحد؟ يجب أن تعرف أنني أفكر في زواجه بإحداهن.

- أهذه خطته التي يرمي إليها بإقامته هنا؟

- خطته؟ هراء، كيف تقول هذا! ولكن من المحتمل جداً أن يقع في غرام إحداهن، ولذلك فحتمٌ عليك أن تزوره بمجرد قدومه.

- لست أرى مناسبة لهذه الزيارة. تستطيعين أنتِ أن تذهبي بصحبة البنات، أو ربما يستحسن أن تبعثي بهن وحيدات، فهذا أفضل ولا شك، فطالما أنكِ على قدر من الوسامة مساوٍ لما تتحلّى به أي منهن، فلربما مال إليك مستر بينجلي من دون الجماعة كلها.

- إنك تملقني يا عزيزي. لقد كنت أتمتع ولا شك بنصبي من الجمال، ولكنني لست أدّعي أن هناك الآن شيئاً فريداً يميزني عن غيري. فعندما تكون المرأة أمّاً لخمس بنات في سن الشباب. فمن واجبها أن تكفّ عن التفكير في جمالها.

- في مثل هذه الحالات لا يكون لدى المرأة في كثير من الأحيان قدر كبير من الجمال يسمح لها بالتفكير فيه.

- ولكن عليك يا عزيزي أن تذهب حقاً لرؤية مستر بينجلي عندما يصل إلى الناحية.

- أوكد لك أن هذا يخرج عن نطاق اهتماماتي.

- ولكن تدبر أمر بناتك، فكّر فقط في قيمة الاستقرار الذي يمكن أن يكون من نصيب إحداهن. لقد استقر رأي سير وليم وليدي لوكاس

على الذهاب لنفس هذا السبب؛ فأنت تعلم أنهما، على وجه العموم، لا يقومان بزيارة السكّان الجدد. الحق أنه يجب أن تذهب، فسيكون من المحال أن نزوره نحن إن لم تزره أنت قبلنا.

- من المؤكد أنك تبالغين في الحيلة. إني أميل إلى الظن بأن مستر بينجلي سيطير فرحاً لرؤيتك؛ ولسوف أبعث معك بكلمة صغيرة أؤكد له فيها موافقتي القلبية على زواجه بمن يقع عليها اختياره من البنات، علماً بأنني لا بد أن أقول كلمة طيبة في صف صغیرتي ليزي.

- أريدك ألا تفعل شيئاً من هذا القبيل. فليست ليزي بأفضل من الأخريات في شيء، وإنني على يقين من أنها لا تصل إلى ملاحه جين ولا تتمتع بمثل ما لليديا من خفة ظل. ولكنك تدأب دائماً على تفضيلها. فأجاب قائلاً:

- ليس لدى أي واحدة منهن شيء يميزها، فكلهن حمقاوات جاهلات مثل غيرهن. ولكن ليزي تتمتع بقدر من الحيوية يفوق ما تتمتع به أخواتها.

- كيف يتسنّى لك يا مستر بينت أن تسيء إلى بناتك على هذا النحو؟ إنك تستمتع بمضايقتي. إنك لا تشفق على أعصابي المسكينة. - أنت تسيئين فهمي يا عزيزتي، فأنا أكنّ احتراماً شديداً لأعصابك. إني أرتبط بها بصداقة قديمة، فقد سمعتك باهتمام كبير وأنت تذكريها طوال هذه السنوات العشرين الأخيرة على الأقل.

- أنت لا تعلم ما أعاني.

- ولكنني أتعشم أن تتغلبني على ألمكِ، وأن يمتد بكِ الأجل فتشهدني شابًا كثيرين يمتلك كل منهم أربعة آلاف جنيه في السنة، يردون هذا المكان.

- لن نفيد شيئًا لو حضر من هؤلاء عشرون، طالما أنك لن تزورهم.
- كوني على ثقة يا عزيزتي من أنه عندما يتوفر العشرون، فسوف أزورهم جميعًا.

كان مستر بينت يمتلك مزاجًا عجيبيًا تختلط فيه سرعة البديهة بالفكاهة اللاذعة بالتحفظ في القول بنزوات النفس، لدرجة لم تكن معها خبرة ثلاثة وعشرين عامًا كافية لتمكين زوجته من فهم شخصيته. كان من الصعب على عقلها أن يتطور؛ فقد كانت امرأة ذات قدرة ضئيلة على فهم الأمور، وذات معارف قليلة وطبع متقلب. وعندما كان الاستياء يملكها، كانت تخال نفسها متوترة الأعصاب. أما شغلها الشاغل في حياتها فكان السعي لتزويج بناتها، كما كانت تجد العزاء في التزاور وتسقط الأخبار.



الفصل الثاني

كان مستر بينت من أوائل الناس الذين زاروا مستر بينجلي في منزله؛ فقد عقد العزم منذ وقت مبكر على زيارته، برغم أنه ظل يؤكد لزوجته حتى آخر لحظة أنه لن يذهب إلى هناك. ولقد ظلت جاهلة تمامًا بأمر هذه الزيارة حتى مساء اليوم الذي تمت فيه. أما الخبر فقد أُذيع على النحو التالي، حيث لاحظ مستر بينت أن ثانية بناته قد عكفت على تزيين قبعة في يدها، ففاجأها بحديثه قائلاً:

- أتعشم أن يعجب مستر بينجلي بها يا ليزي.

فقالت أمها بامتعاض:

- لسنا في وضع يسمح لنا بمعرفة ما يعجب مستر بينجلي طالما أننا لن نزوره.

فقالت إليزابيث:

- ولكنكِ نسييتِ يا أماه أننا سنلتقي به في الحفلات التي تقيمها الأسر، وأن مسز لونج قد وعدت بتقديمه إلينا.

- لا أعتقد أن مسز لونج سوف تفعل شيئاً من هذا؛ فعندها ابتنا شقيقها؛ وهي امرأة أنانية منافقة، لا أضع لها كبير اعتبار.

فقال مستر بينت:

- ولا أنا أيضاً، وإنني لسعيد إذ أرى أنك لا تعتمدين على خدماتها. وأنفت مسز بينت من الرد بأي جواب؛ ولكنها شرعت في تقرير إحدى بناتها بعد أن استعصى عليها ضبط نفسها:

- لا تستمري في السعال هكذا يا كيتي بحق السماء! رفقاً بأعصابي. إنك تمزقينها إرباً.

فقال والدها:

- إن سعال كيتي ليس من الحصافة في شيء، فهي تسيء توقيته. فأجابت كيتي مغتاظة:

- لست أسعل تسليّةً لنفسي! ما موعد حفلتك الراقصة التالية يا ليزي؟

- بعد أسبوعين من الغد.

فصاحت أمها:

- فعلاً؛ ولن ترجع مسز لونج إلا في اليوم السابق على الحفلة، ومن ثم لن تستطيع أن تقدمه لنا؛ إذ إنها هي نفسها لن تكون على معرفة به. - إذن فقد يكون لك يا عزيزتي فضل الامتياز على صديقتك حين تقديمين مستر بينجلي إليها.

- محال يا مستر بينت، محال أن يحدث هذا وأنا لا أعرفه. كيف تضايقني هكذا؟

- إني أقدر هذا الحرص من جانبك، فمعرفة أسبوعين تعتبر بالتأكيد ضئيلة للغاية. فالمرء لا يستطيع معرفة كنه إنسان ما على وجه الصدق بعد انقضاء أسبوعين. ولكننا إذا لم نخاطر، خاطر غيرنا، وعلى كل حال فلا يصح أن نحبط آمال مسز لونج وابتتي شقيقها. ولذلك، فيما أنها ستري أن في إحجامك عن القيام بمسؤولية التعارف نوعاً من طيبة القلب، فسأتولى أنا الأمر بنفسني.

وحدقت البنات في والدهن، أما مسز بينت فقد اكتفت بأن قالت:

- هراء، هراء!

فصاح قائلاً:

- ما معنى هذا الصياح ذي النبرة الأكيدة؟ أتعبرين شكليات التعارف والأهمية التي تتصل بها هراء في هراء؟ إنني لا أتفق معك تمامًا في هذا الرأي. ما قولك يا ميري؟ فأنت كما أعلم فتاة ذات فكر ثاقب. تقرأين كتباً عظيمة وتقتبسِينَ منها بعض الفقرات.

وأرادت ميري أن تقول شيئاً معقولاً للغاية. ولكنها لم تدر كيف السبيل إلى ذلك.

فاستمر يقول:

- لنعد إلى مستر بينجلي ريشما تنسق ميري أفكارها.

فصاحت زوجته:

- لقد ضقت ذرعًا بمستر بينجلي.

- إني آسف لسماع ذلك، ولكن لِمَ لم تخبريني بهذا من قبل؟
لو كنت قد علمت برأيك هذا الصباح، لكنت أحجمت بالتأكيد عن
زيارته. إنه حظ سيئ؛ ولكن حيث إنني قد قمت بالفعل بواجب الزيارة،
فلا سبيل الآن أمامنا للفكاك من علاقة التعارف.

كانت الدهشة التي ارتسمت على وجوه السيدات مساوية بالضبط
لما أراد، ولربما فاقت مسز بينت غيرها في هذا الصدد؛ إلا أنه بمجرد
انحسار أولى موجات الفرح، بدأت في إعلان رأيها بأن ذلك بالضبط هو
ما كانت تتوقعه طوال الوقت.

- كم هو جميل منك هذا يا عزيزي مستر بينت! بيد أنني كنت أعلم
بقدرتي على إقناعك آخر الأمر. لقد كنت على يقين من أنك تحب
بناتك حبًا جمًّا لا يسمح لك بتجاهل هذه العلاقة. يا لسعادتي! وإنها
لمحة لطيفة كذلك أن تذهب هذا الصباح ولا تفاتحنا بالخبر حتى الآن.
- والآن يمكنك يا كيتي أن تسعلي كيفما شئت.

هكذا قال مستر بينت وهو يغادر الحجرة بعد أن أنهكته علامات
الفرحة الغامرة التي بدت على زوجته.
وقالت الأم بعد أن أغلق الباب:

- يا له من رجل ممتاز والدكنّ هذا يا بنات! لست أدري كيف
ستعوضنه عن طيبة قلبه، أو طيبيتي أنا أيضًا فيما يختص بهذا الموضوع.
أوكد لكنّ أنه بعد بلوغنا هذه السن لم يعد من المستساغ أن ننشئ

علاقة جديدة كل يوم؛ ولكننا لا نتردد عن القيام بأي شيء في سبيلكن.
يا حبيبتي ليديا، إنني أميل إلى الاعتقاد بأن مستر بينجلي سوف يراقصك
في الحفلة التالية، رغم أنك أصغر الجميع.

فقالت ليديا بثقة:

- لست أخشى شيئاً، فرغم أنني أصغر الجميع، إلا أنني أطولهن
قامة.

وانقضى ما بقي من المساء في تخمين الوقت الذي سينصرم قبل
أن يرد مستر بينجلي زيارة مستر بينت، وتحديد اليوم الذي سيدعونه فيه
لتناول الغداء.



الفصل الثالث

لم تكن كل الجهود التي بذلتها مسز بينت، بمساعدة بناتها الخمس، في السؤال عن هذا الموضوع كافية لكي تستخلص من زوجها أي وصف مُرضٍ لشخصية مستر بينجلي. فقد هاجمته من زوايا عدة، بأسئلة مباشرة وافتراضات ذكية وضروب من الحدس ذي الاحتمالات البعيدة، ولكنه تفادى المهارة الكامنة في هذا كله، مما دفعهن آخر الأمر إلى القناعة بالمعلومات غير المباشرة التي استقينها من جارتهم ليدي لو كاس. كان ما قالته مناسباً للغاية؛ فقد سُرَّ به سير وليم إذ كان شاباً في مقتبل العمر وسيماً، لطيف المعشر إلى حد بعيد، كما أنه كان -زيادة على كل ذلك- ينتوي شهود الحفل القادم مصحوباً برفقة كبيرة. لم يكن هناك أبدع من ذلك! فالشغف بالرقص خطوة أكيدة تفضي إلى الوقوع في أسر الغرام؛ وبدأت الآمال المشرقة تراود الجميع فيما يتعلق بفؤاد مستر بينجلي.

وقالت مسز بينت لزوجها:

- لو قُيِّضَ لي أن أرى إحدى بناتي وقد ظللتها السعادة في «نيدر فيلد» وأن أرى الأخريات وقد أصبن حظًا مماثلًا في زيجاتهن، لما تمنيت شيئًا آخر.

ولم تمضِ بضعة أيام حتى رد مستر بينجلي زيارة مستر بينت، وقضى معه عشر دقائق في مكتبته. ولقد راودته الآمال، في لقاء الأنسات اللاتي سمع عن جمالهن الشيء الكثير، ولكنه لم يرَ أحدًا بخلاف الوالد. أما الأنسات فقد كنَّ أسعد حظًا إلى حد ما، إذ استمتعن بمزية التأكد من ارتدائه معطفًا أزرق اللون وامتطائه جوادًا أسود حين أبصرنه من نافذة في الطابق العلوي.

وفي أقرب فرصة أرسلت دعوة إلى الغداء؛ ولم تكد مسز بينت تفرغ من إقرار أنواع الأطعمة التي تضيفي حسن السمعة على تصريحها لشؤون منزلها، حتى وردت رسالة أَجَلَّتْ كل التدابير. فقد كان مستر بينجلي مضطرًا للذهاب إلى لندن في اليوم التالي، ومن ثَمَّ فلم يكن في استطاعته الاستمتاع بشرف دعوتهم... إلخ. واضطربت مسز بينت أشد الاضطراب. لم تكن لتتصور أي عمل يمكن أن يشغله في لندن ولما يمضِ على قدومه إلى «هارتفوردشير» إلا وقت قصير، وانتابها المخاوف من احتمال أن يكون دائم الترحال من مكان إلى آخر، وألا يستقر به المقام أبدًا في «نيدر فيلد» كما يجمل به أن يفعل. وهذأت ليدي لو كاس قليلًا من مخاوفها عندما أرجعت ذهابه للندن إلى احتمال سعيه لدعوة صحبة كبيرة إلى الحفل الراقص؛ وسريعًا ما وردت الأخبار بأن مستر بينجلي سوف يصحب في عودته اثنتي عشرة سيدة وسبعة رجال

شهود الحفل. وحزنت البنات لدى سماعهن بعدد السيدات، ولم يهدأ بالهن إلا في اليوم السابق على الحفل عندما سمعن أنه لم يصحب معه من لندن إلا ستاً بدلاً من اثنتي عشرة: شقيقاته الخمس وابنة عمه. وعندما دلفت الجماعة إلى الحجرة التي يُقام فيها الحفل، كانت تتألف من خمسة أشخاص فقط، مستر بينجلي وشقيقته وزوج الكبرى وشاب آخر في مقتبل العمر.

كان مستر بينجلي حسن الطلعة مهذباً، وكانت ملامح وجهه لطيفة، كما كان سلوكه سلساً لا أثر فيه للتكلف. أما شقيقته فكانتا امرأتين رقيقتين تلوح عليهما علامات الأناقة. وبدا صهره مستر هيرست في صورة الإنسان المهذب، أما صديقه مستر دارسي فسريراً ما شد انتباه الحجرة بقامته الرشيق الفارعة وملامحه الوسيمة وهيئته النبيلة، وبالأخبار التي تناقلها الجميع في بحر خمس دقائق بعد دخوله الحجرة والتي تفيد امتلاكه ثروة تبلغ عشرة آلاف جنيه في العام. واعتبره الرجال شخصاً لطيفاً، أما السيدات فقد صرحن بأنه أشد وسامة من مستر بينجلي، وأصبح هدفاً لنظرات الإعجاب الشديد طوال نصف الوقت الذي استغرقه الحفل، حتى بدر من سلوكه ما يبعث على الضيق، الأمر الذي أضر بشعبيته؛ فقد اكتشف الناس أنه شخص متكبر يستعلي على صحبته ولا يرضى بما يُرضى الآخرون. ولم تفلح ضيعته الشاسعة في «داربيشير» في إنقاذه عند ذاك من اعتباره صاحب أشد الوجوه تنفيراً ودمامة ومن عدم أحقيته في مقارنته بصديقه.

ولم يلبث مستر بينجلي أن تعرّف على أهم الناس في الحجرة، فقد كان دافق الحيوية بعيداً عن التحفظ، كما ساهم في كل رقصة، وتولاه السخط لانتهاء الحفل في ساعة مبكرة، وألمح إلى عزمه على إقامة حفل في «نيدر فيلد». إن مثل هذه الخصال الحميدة تتحدث عن نفسها. وأي تناقض هذا الذي يقوم بينه وبين صديقه! إن مستر دارسي لم يرقص إلا مرة واحدة مع مسز هيرست ومرة أخرى مع مس بينجلي، وامتنع عن التعرّف على أي سيدة أخرى، وقضى ما بقي من المساء يسير في أرجاء الحجرة ويتبادل الحديث بين الحين والآخر مع أحد أفراد صحبته. لقد تحدت ملامح شخصيته، فهو أشد رجال الدنيا تكبراً وأبغضهم إلى النفس، وراود الجميع الأمل في عدم قدومه مرة أخرى إلى هذا المكان. وكانت مسز بينت من بين أشد الناس تحاملاً عليه، فقد استحال استياؤها من سلوكه العام إلى امتعاض ذي طابع محدد عندما أهان إحدى بناتها. فقد اضطرت إليزابيث بينت، نتيجة لقلّة الرجال، إلى عدم الاشتراك في رقصتين. وفي خلال شطر من هذا الوقت الذي جلست فيه خالية، كان مستر دارسي يقف منها على مقربة، الأمر الذي مكّنها من الاستمتاع إلى محادثة جرت بينه وبين مستر بينجلي الذي تخلف عن الرقصة لبضع دقائق ساعياً إلى إقناع صديقه بالمشاركة فيها. وسمعه يقول:

- تعال يا دارسي. إنني مُصرّ على انضمامك إلينا. فأنا أكره أن أراك واقفاً بمفردك على هذا النحو السخيف. من الأفضل أن ترقص.

- قطعاً لن أفعل؛ فأنت تعلم كم أمقت هذا الأمر، إلا لو كنت على صلة وثيقة مع شريكتي في الرقص. وفي حفل مثل هذا يصبح

من العسير عليّ احتمال هذا الوضع. فشقيقتك مشغولتان، وليست هناك امرأة واحدة في الحجرة إلا ويكون في وقوفي إياها عقاب لي أي عقاب.

وصاح بينجلي:

- إنني لا أحب لنفسي أن أكون مثلك هكذا صعب الإرضاء، حتى لو منحت مملكة بأكملها! وأنا أقسم لك بشرفي أنني لم ألتق في حياتي بمثل هذا العدد الكبير من الفتيات اللطاف اللاتي رأيتهن في هذا المساء! وهناك كما ترى كثيرات منهن يتحلين بجمال غير عادي.

وقال مستر دارسي وهو ينظر إلى الابنة الكبيرة لمستربينت:

- إنك تراقص الفتاة الوسيمة الوحيدة في الحجرة كلها.

- إنها أجمل مخلوق رأيته في حياتي! ولكن ها هي ذي إحدى شقيقاتها تجلس خلفك مباشرة؛ وهي جميلة جدًا، وأظنها لطيفة للغاية، دعني أطلب من شريكتي أن تقدمك إليها.

- أيهن تعني؟

واستدار على عقبه ونظر إلى إليزابيث برهة قصيرة إلى أن التقت عيناه بعينيها، فحول ناظره وقال ببرود:

- إنها معقولة، ولكنها ليست جميلة بالدرجة التي تغريني؛ كما أنني لست في حالة تسمح لي في الوقت الراهن بترضية الأنسات اللاتي أهملهن غيري من الرجال. يحسن بك أن تعود إلى شريكتك وأن تستمتع بابتساماتها، فأنت تضيع وقتك معي.

واستمع مستر بينجلي إلى نصحه. ومشى مستر دارسي بعيداً، بينما لُزمت إليزابيث مكانها تراودها مشاعر غير ودية تجاهه. إلا أنها حكّت القصة لصديقاتها بروح خفيفة الظل. فقد كانت تتمتع بطبع يتصف بالحيوية ويتهج لكل ما يبعث على السخرية.

وانقضى المساء عموماً على نحوٍ بعث السرور إلى الأسرة كلها. فقد رأت مسز بينت أن كبرى بناتها كانت موضع إعجاب جماعة «نيذرفيلد». لقد راقصها مستر بينجلي مرتين، كما اصطفتها شقيقته. أما جين فقد ابتهجت كوالدتها لهذا الأمر، وإن اتخذ سرورها طابعاً أكثر هدوءاً. وشعرت إليزابيث بسرور جين. وسمعت ميري اسمها يُذكر لمس بينجلي باعتبارها أكثر فتيات الجيرة كمالاً؛ وكذلك كانت كاثرين وليديا محظوظتين بحيث لم ينقصهما شركاء الرقص أبداً، وهو الأمر الوحيد الذي تعلمتا أن تحرصا عليه حتى الآن في أي حفل راقص. وهكذا عدن في حالة طيبة إلى «لونجبورن»، وهي القرية التي كن يعيشن فيها، والتي كُن يُعتبرن أهم قاطنيتها. ووجدن مستر بينت لا يزال مستيقظاً. فبصحبة الكتاب كان لا يعبأ بمرور الوقت؛ وفي المناسبة الحالية كان يراوده كثير من الفضول لمعرفة ما دار في أمسية بعثت كل هذه الآمال العراض. وعلى كل حال فقد كان يأمل في أن تنهار كل آراء زوجته عن القادم الغريب، ولكنه سرعان ما اكتشف أن ما يصفح سمعه حكاية مختلفة أشد الاختلاف.

وقالت زوجته وهي تدلف إلى الحجرة:

- يا عزيزي مستر بينت، لقد قضينا أمسية بهيجة للغاية - كان حفلًا راقصًا أكثر من رائع. لقد تمنيت أن تكون هناك. إن جين كانت موضع إعجاب عظيم. وليس هناك ما يرقى إلى مستوى ما لقيته. لقد أطرى الجميع هيئتها، أما مستر بينجلي فقد اعتبرها جميلة تمامًا وراقصها مرتين. تدبر هذا يا عزيزي! لقد راقصها بالفعل مرتين؛ وكانت هي الوحيدة في الحجرة كلها التي طلب منها أن تراقصه مرة ثانية. فقد طلب من مس لوكاس أول ما طلب. وتولاني الضيق حين رأيته يقف إلى جوارها؛ إلا أنه مع هذا لم يعجب بها على الإطلاق - فالحق أنه لا أحد يستطيع أن يعجب بها كما تعلم - وبدا عليه أنه بُهت لمرأى جين وهي تخطر في رقصتها، ومن ثم فقد سأل عنها وتعرّف بها، وطلب منها أن تشاركه في الرقصتين التاليتين. وبعد هذا شارك مس كينج في الرقصتين الثالثتين، ورقص مع ماريا لوكاس في الرابعتين، ثم عاد إلى جين في الخامسةتين، أما السادسةتان فقد رقصهما مع ليزي؛ وفيما يختص برقصة البولانجير...

وصاح زوجها بنفاد صبر:

- لو كان قد شعر بأي شفقة نحوي لما انغمس في نصف هذا العدد من الرقصات! لا تزيد بالله شيئًا عن شريكاته. يا ليت كان قد لُوي كاحله في الرقصة الأولى!

واستمرت مسز بينت قائلة:

- إنني شديدة السرور به يا عزيزي، فهو على درجة كبيرة من الوسامة! أما شقيقته فامرأتان ساحرتان، لم أرَ في حياتي ثيابًا تفوق ما

ترتديانه أناقة. أغلب ظني أن الشرائط المزخرفة التي طرز بها رداء مسز هيرست...

وهنا قُوطعت مرة أخرى، فقد اعترض على سماع أي أوصاف لفاخر الثياب. ولهذا اضطرت إلى البحث عن زاوية أخرى من الموضوع. وقصت بمرارة شديدة وبشيء من المبالغة ما بدا على مستر دارسي من وقاحة مذهلة.

وأضافت قائلة:

- ولكنني أؤكد لك أن ليزي لا تخسر كثيرًا بعد ملاءمتها لمزاجه، فهو رجل بغيض وشنيع إلى أبعد الحدود، ولا يستحق السعي لكسب رضائه؛ فهو من التعالي والغطرسة بحيث لا يحتمله أحد! لقد كان يمشي هنا وهناك ويخال نفسه شديد العظمة! ثم إنه ليس على درجة من الوسامة تسمح لامرأة بمراقبته! كنت أتمنى أن تكون هناك يا عزيزي حتى توجه إليه إحدى ملاحظاتك التي تلزمه حده. إنني أمقت هذا الرجل تمامًا.



الفصل الرابع

عندما اختلّت الأختان جين وإليزابيث، أفصحت جين لشقيقتها عن شديد إعجابها بمستر بينجلي، وهي التي كانت من قبل متحفظة في ثنائها عليه؛ وقالت:

- إنه مثال لما يجب أن يكون عليه كل شاب، فهو شخص عاقل سلس الطباع دافق الحيوية. فلم يسبق لي أن رأيت مثل هذه الخصال الحميدة، وهذه البساطة في السلوك مصحوبة بأدب جم! وأجابت إليزابيث قائلة:

- وهو وسيم أيضاً، الأمر الذي يجب أن يكونه أي شاب، إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً. ولهذا السبب فشخصيته مكتملة الأبعاد.

- لقد تولاني شعور غامر بالفرح عندما طلب مني أن أراقصه للمرة الثانية، فلم أكن أتوقع مثل هذا الشاء.

- ألم تتوقعي؟ لقد توقعت أنا نيابة عنك. بيد أن هذا هو الفرق الكبير بيننا. فدائماً ما تفاجئك عبارات الشاء، أما أنا فأكون مستعدة لها.

أي شيء أكثر طبيعية من طلبه إياك ثانية؟ لم يكن في طوقه إلا أن يراكِ تفوقين أي امرأة أخرى في الحجرة جمالاً بمقدار خمسة أضعاف. فلا مجال للثناء على سمو خلقه في هذا الصدد. ولكنه بالتأكيد رجل لطيف للغاية، وإنني أسمح لك بأن تميلي إليه، فقد مال قلبك إلى كثيرين من الأغبياء.

- يا عزيزتي ليزي!

- إنك، كما تعرفين، عرضة لحد كبير للإعجاب بالناس عموماً. فأنت لا ترين في أي امرئ عيباً، والدنيا كلها طيبة ولطيفة في عينيك. إنني لم أسمعك في حياتي تذكرين أحداً بسوء.

- أنا لا أحب أن أتسرع في لوم أي إنسان؛ ولكنني أفصح دائماً عما يدور بخلدِي.

- أعلم أنكِ تفعلين هذا، وهو بالتحديد مصدر العجب. فرغم رجاحة عقلك، تغضين الطرف بإخلاص عن حماقات الناس وتفاهاتهم! إن ادعاء الصراحة هو أمر شائع يلتقي به المرء كل يوم وجهاً لوجه. ولكن أن يكون الإنسان صريحاً دون تظاهر أو تعمد - وأن يضع المرء يديه على كل ما هو طيب في شخصية غيره فيطوره، ويسكت عما هو سيئ - فذلك هي شيمتكِ وحدك. وهكذا فأنتِ تعجبين بشقيقتي هذا الرجل أيضاً، أليس كذلك؟ إنهما لا تحليان بمثل ما يتحلى به من خصال.

- كلا بالتأكيد كما يتبادر لأول وهلة، ولكنهما امرأتان لطيفتان إذا تحدثت معهما. من المقرر أن تعيش مس بينجلي مع أخيها وأن تُعنى

بمنزله؛ وإني لأكون مخطئة تمامًا لو لم نجد فيها جارة ساحرة إلى حد بعيد.

وأنصت إليزابيث في سكون، ولكنها لم تقنع بما سمعت؛ فسلوك الشقيقتين في الحفل لم يكن يستهدف إرضاء الحاضرين عمومًا. ولم تكن تميل كثيرًا إلى استحسان تصرفاتهما؛ لأنها كانت تمتاز عن شقيقتها بسرعة في الملاحظة وتشدد في الطبع، وقدرة على وزن الأمور لا يضعفها أي اعتبار تضعه هي لنفسها. لقد كانتا في الحقيقة سيدتين على غاية من الرقة لا تنقصهما سلاسة الطبع عندما تكونان راضيتي البال، كما لا تعوزهما القدرة على التصرف بلطف إذا أرادت؛ بيد أنهما كانتا متكبرتين مغرورتين. وكانتا على شيء من الأناقة؛ تلقيا تعليمهما في واحد من أميز المعاهد الخاصة في لندن، وتتمتع كل منهما بثروة تبلغ ألفين من الجنيهات في العام. ولقد جرت بهما العادة على الإنفاق أكثر مما يحق لهما وعلى الاتصال بذوي المكانة في المجتمع، وكانتا لهذا السبب جديرتين من جميع النواحي بإعلاء شأن نفسيهما وبالخط من شأن الآخرين. وكانتا سليلتي أسرة محترمة في شمال إنجلترا، وهو أمر يعلق بذاكرتيهما أكثر مما يعلق بها أن ثروة شقيقتيها وثروتيهما قد آلت إليهم جميعًا عن طريق التجارة.

وكان مستر بينجلي قد ورث ثروة تقدر بحوالي مائة ألف من الجنيهات عن والده الذي كان ينوي شراء ضيعة، وإن لم يمهل الأجل ليحقق أمله. وبالمثل نوى مستر بينجلي، وكان اختياره يقع في بعض الأحيان على مقاطعته. ولكن حيث إنه قد أُتيح له الآن منزل جيد، وزمام

يستمتع بحرية التصرف فيه، فلم يشك الكثيرون ممن كانوا يعرفون سلاسة طبعه في احتمال قضائه بقية أيامه في «نيدر فيلد» وترك الجيل التالي يشتري كيفما شاء.

أما شقيقته فكانتا شديدتي الشغف بامتلاكه ضيعة خاصة. ولكن رغم أنه استقر الآن بصفته مستأجرًا ليس إلا، فلم تكن مس بينجلي بأي حال عازفة عن تصدُّر مائدته، كما لم تكن مسز هيرست -التي تزوجت من رجل يُعرف بمركزه الاجتماعي لا بثروته- أقل ميلًا لاعتبار بيته بيتها إذا خطر لها النزول فيه. ولم يكد مستر بينجلي يتخطى سن الرشد بعامين حتى أغرته توصية عارضة بالتفكير في سكنى «نيدر فيلد هاوس». وأخذ يتأمله ويدقق النظر داخله لمدة نصف ساعة، وسرَّ لموقعه ولحجراته الأساسية، ورضيت نفسه بما قالتها المالكة في الشاء عليه، فاستأجره دون إبطاء.

وكانت بينه وبين دارسي صداقة وطيدة الأركان رغم التعارض الكبير القائم بين شخصيتهما. فقد كان دارسي يعز بينجلي بسبب بساطته وصراحته ومرونة طبعه، رغم أنه لم يكن هناك أشد من هذا المزاج تعارضًا مع مزاجه، ورغم أنه كان راضيًا تمام الرضى بما جبل عليه هو نفسه من طباع. وقد كان بينجلي يعتمد اعتمادًا وثيقًا على مكانة دارسي عنده، كما كان يضع اعتبارًا كبيرًا لقدرته على وزن الأمور. فقد كان دارسي أميز من زميله في مجال تفهّم الأشياء. ولم يكن بينجلي قاصرًا بحال ما، ولكن دارسي كان حاذقًا. وكان متعاليًا متحفظًا يصعب إرضاءه؛ أما خصاله فلم تكن مشجعة، رغم أنه نشأ نشأة كريمة. ولقد

تفوق عليه صديقه في هذا الصدد تفوقًا عظيمًا. كان بينجلي واثقًا من إعجاب الناس به أينما ظهر، أما دارسي فكان يتسبب في الإساءة لغيره باستمرار.

وكانت الطريقة التي تحدث بها كل منهما عن حفل «ميريتون» كافية لتمييز أحدهما عن الآخر. فلم يكن بينجلي قد التقى في حياته أبدًا بأناش أطف أو بفتيات أجمل مما رأى هناك، كما كان كل الحاضرين على غاية من الرقة معه والتقدير له، وخلا الجو من الرسميات والتمسك بالأصول، وسرعان ما أحس بالألفة مع الموجودين بالحجرة، وأما فيما يختص بمس بينت فلم يكن يتصور أن هناك ملاكًا أشد منها جمالًا. وعلى النقيض من ذلك رأى دارسي مجموعة من الناس لم يكن فيها من الجمال إلا القليل ومن الأناقة شيء على الإطلاق، فلم يشعر إزاء أي منهم بأقل اهتمام، كما أنه لم يلقَ من أحدهم التفاتًا إليه أو سرورًا به. وصحيح أنه اعترف بجمال مس بينت، ولكنه لاحظ أنها كثيرة الابتسام. ووافقت مسز هيرست وشقيقتها على هذا الرأي، ومع ذلك فقد أعجبتا بها ومالتا إليها، وصرحتا بأنها فتاة ذات عذوبة، لا يريان وجهًا للاعتراض على تعميق معرفتهما بها، ومن ثم فقد اعتبرت مس بينت فتاة حلوة، وشعر شقيقهما بأنه مخول بمقتضى هذه التزكية للتفكير فيها كيفما أراد.



الفصل الخامس

على مقربة من «لونجبورن» كانت هناك أسرة تقوم بينها وبين أسرة بينت صداقة وطيدة. فقد عمل سير وليم من قبل في ميدان التجارة في «ميريتون»، حيث كوّن لنفسه ثروة معقولة، وارتقى إلى مرتبة الفروسية حين تقرب -وقت أن كان يشغل منصب رئيس البلدية- إلى أعتاب الملك. ولربما أثر فيه هذا الوضع الممتاز تأثيرًا قويًا، فقد نفر من عمله وسكنه في مدينة صغيرة تعتبر مركزًا للسوق، فهجرهما معًا وانتقل مع أسرته إلى منزل على مبعدة ميل من «ميريتون». وقد أطلق على هذا المنزل منذ ذلك الوقت اسم «لوكاس لودج» حيث كان سير وليم يفكر باغتياب في أهمية شخصه ويشغل نفسه، بعد أن تحرر من قيود العمل، بمؤانسة الناس جميعًا. فرغم أنه كان يتيه عجبًا بمكانته، إلا أن ذلك لم يدفعه إلى الغطرسة، بل على العكس من ذلك كان شديد المراعاة للناس كافة. ولأنه بطبيعته كان رجلًا مسالمًا ودودًا مفضلاً، فإن مثوله في قصر «سانت جيمز» قد جعل منه إنسانًا مهذبًا.

أما ليدي لوكاس فكانت امرأة ذات طيبة بالغة، وإن لم تكن ماهرة بالدرجة التي تجعلها جارة لمسز بينت ذات شأن. وقد أنجبا أطفالًا

كثيرين؛ وكانت أكبر هؤلاء فتاة عاقلة ذكية في حوالي السابعة والعشرين من عمرها، نشأت بينها وبين إليزابيث صداقة وطيدة.

وقد كان من قبيل الضرورة القصوى أن تلتقي بنات سير وليم لوكاس ببنات مستر بينت ليتحدثن معًا عما يكون قد جرى في أي حفل راقص؛ ولهذا فقد شهد الصباح التالي للحفل مقدم الأوليات إلى «لورنجبون» ليسمعن ويتكلمن.

وقالت مسز بينت لمس لوكاس بنبرة مهذبة تنم عن ضبط النفس:
- لقد بدأتِ الأمسية على أحسن وجه يا شارلوت، فكنت أول من وقع عليها اختيار مستر بينجلي.

- نعم، ولكن يبدو عليه أنه كان أشد إعجابًا باختياره الثاني.
- إنكِ تقصدين جين على ما أظن؛ لأنه راقصها مرتين، فعلاً، لقد بدا هذا وكأنه إعجاب بها من ناحيته. أعتقد حقاً أنه أعجب بها. لقد سمعت شيئاً عن هذا الموضوع، ولكنني أكاد لا أعلم بالضبط ما هو؛ إنه شيء خاص بمستر روبنسون.

- لعلكِ تقصدين ما سمعته عفواً من حديث بينه وبين مستر روبنسون؛ ألم أذكر لكِ تفاصيل هذا الحديث؟ لقد سأله مستر روبنسون عن رأيه في حفلاتنا التي نقيمها في «ميريتون» وعما إذا كان لا يرى أن هناك عدداً وافراً من النساء الجميلات في الحجرة، وعن رأيه في أجملهن؛ وعندئذ أجاب بسرعة على السؤال الأخير ما يفيد بأن أجمل الحاضرات هي كبرى بنات مستر بينت دون شك، وأن هذا الموضوع لا يحتمل قولين.

- حقًا! إنه لقول قاطع فعلاً. إن هذا يبدو وكأن... ولكن، قد ينتهي كل هذا إلى غير نتيجة، كما تعلمين.
وقالت شارلوت:

- إن ما سمعته أنا عفوًا يا إيزا يفوق في أهميته ما سمعته. فليس الاستماع إلى مستر دارسي بذي قيمة مثل الاستماع إلى صديقه، أليس كذلك؟ مسكينة يا إيزا! أن تكوني معقولة ليس إلا.

- أرجوك ألا تدخل في روع ليزي ما يكدرها بسبب معاملته السيئة؛ إذ إنه رجل بغض لدرجة يكون من سوء طالع أي امرأة أن تصبح محط إعجابه. لقد أخبرني مسز لونج في الليلة الماضية أنه جلس قريبًا منها لمدة نصف ساعة لم ينطق فيها بكلمة واحدة.

وقالت جين:

- أنتِ واثقة من ذلك يا سيدتي؟ أليس هناك خطأ طفيف؟ إنني واثقة أنني رأيت مستر دارسي وهو يحادثها.

- نعم، لأنها سألته أخيرًا عن رأيه في «نيدر فيلد»، فلم يملك إلا أن يجيبها؛ ولكنها قالت إنه بدا شديد الاستياء؛ لأن شخصًا ما وجّه إليه الحديث.

فقالت جين:

- لقد أخبرني مس بينجلي أنه لا يكثر من الحديث إلا بين معارفه المقربين. فهو معهم لطيف بشكل ملحوظ.

- لا أصدق كلمة من هذا يا عزيزتي، فلو كان لطيفًا إلى هذا

الحدث لتحدث مع مسز لونج. ولكني أستطيع أن أتكهن بالسبب. فالجميع يقولون إن الكبرياء تتملكه؛ وأغلب ظني أنه سمع بطريقة ما أن مسز لونج لا تمتلك عربة خاصة، وأنها قدمت إلى الحفل في مركبة استأجرتها لهذا الغرض.

وقالت مس لو كاس:

- إنني لا أعبأ بعدم محادثته مسز لونج، ولكني وددت لو أن راقص إليزا.

فقالت أمها:

- مرة أخرى يا ليزي؛ ولو أني لو كنت مكانك لما رقصت معه.

- أعتقد يا سيدتي أنني أستطيع التعهد لك بمنتهي الاطمئنان بأنني لن أراقصه أبداً.

وقالت مس لو كاس:

- إن كبرياءه لا تُسيئني كثيراً بنفس الدرجة التي تُسيء الكبرياء إليّ بها في بعض الأحيان، إذ إن هناك مبرراً لتصرفه. فلا يستطيع المرء أن يدهش إذا تاه مثل هذا الشاب الرقيق عجباً بنفسه وهو سليل الأسرة الكريمة وصاحب الثروة ومالك ما يشتهي. ولو جاز لي أن أعبر عن رأيي، فهو على حق في كبريائه.

وأجابت إليزابيث قائلة:

- هذا صحيح تماماً؛ ولقد كانت باستطاعتي أن أغفر له كبرياءه بسهولة لو لم يُسئ إلى كبريائي أنا.

أما ميري التي كانت تغبط نفسها على عمق أفكارها؛ فقد علّقت
قائلة:

- أعتقد أن الكبرياء إحساس شائع جدًّا. فأنا مقتنعة من واقع
قراءاتي بأنه في الحقيقة شائع للغاية، وبأن الطبيعة الإنسانية ميالة إليه،
وبأن هناك قلة ضئيلة منا لا تستشعر إحساسًا بالرضى عن النفس استنادًا
إلى خصلة معينة، حقيقية كانت أو وهمية. فالغرور والكبرياء شيئان
منفصلان، رغم أن الكلمتين تستخدمان أحيانًا كمترادفين. فالإنسان قد
يكون متكبرًا دون أن يكون مغرورًا. والكبرياء ترتبط برأينا في أنفسنا،
أما الغرور فيقترب بما نريد من غيرنا أن يظنوا بنا.

وصاح واحد من صغار سير وليم أتى مع شقيقاته:

- لو كنت غنيًّا مثل مستر دارسي، لما ألقيت بالآ إلى كبريائي،
ولا قنيت مجموعة من كلاب الصيد واحتسيت زجاجة كاملة من النبيذ
كل يوم.

وقالت مسز بينت:

- إذنُ لكنت قد شربت أكثر مما ينبغي. ولو قدّر لي أن أراك وأنت
تفعل ذلك، لانتزعت منك زجاجة حاليًّا.

واحتج الصبي بأن ليس من حقها ذلك، أما هي فاستمرت تعلن عن
عزمها هذا، ولم تنتهِ المناقشة إلا بانتهاء الزيارة.



الفصل السادس

سرعان ما قامت سيدات «لونجبورن» بزيارة سيدتي «نيدر فيلد»، وُرُدت الزيارة على النحو الذي يليق. وازداد تقدير مسز هيرست ومس بينجلي للخصال الحميدة التي تتمتع بها مس بينت. ورغم أن الأختين قد وجدتا أن الأم لا تُحتمل، وأن الشقيقات الصغيرات لسن جذيرات بتبادل الحديث معهن، إلا أنهما عبرتا للأختين الكبيرين عن رغبتهما في تعميق صلتهم بهما. واستقبلت جين هذه اللفتة بسرور بالغ، ولكن إليزابيث أصرت على أنها ترى علامات الغطرسة في معاملتهما للجميع، دون استثناء حتى لشقيقتها، ولم تستطع أن تعجب بهما، وذلك رغم أن هذا الحنو الذي أظهرته تجاه جين كان ذا قيمة في حد ذاته حيث إنه نشأ غالبًا كأثر من آثار إعجاب شقيقتها بها. ولقد كان واضحًا بشكل عام أيهما التقيا أنه يعجب بها. كذلك اتضح لها أن جين أخذت تميل إليه أكثر فأكثر انسياقًا منها فيما استشعرته نحوه منذ البداية. وأنها في طريقها للوقوع كلية تحت سلطان الحب. ولكنها اغتبطت إذ دخلها إحساس بأن هذا الحب لن يكون في الغالب موضع اكتشاف الناس جميعًا، طالما أن جين كان لها من قوة الشعور ما يسمح لها بأن تمزج هدوء الطبع

بمرح السلوك، الأمر الذي قد يحميها من ارتياب المتطفلين. وفاتحت صديقتها مس لوكاس بهذا الأمر، فأجابت شارلوت قائلة:

- قد يكون شيئاً لطيفاً أن يستطيع المرء خداع الناس في مثل هذه الحالة، غير أنه من الضرر في بعض الأحيان أن يتحفظ إلى هذا الحد البعيد. فإذا أخفت امرأة مشاعرهما عن تحب بنفس المهارة التي تخفيها بها عن الناس، فقد تضيع منها فرصة الاحتفاظ به. وحينذاك لن يكون الاعتقاد بأن الدنيا كلها لا تعلم عن الموضوع شيئاً إلا بمثابة العزاء التافه القدر. فأغلب الروابط تشتمل على قدر كبير من الامتنان أو الزهو، لدرجة يصبح من الخطر معها أن تترك كل علاقة وشأنها. فنحن جميعاً نستطيع أن نبدأ دون أن نتقيد بشيء، فأني ميل طفيف هو شعور طبيعي؛ ولكن قلة قليلة منا لديهم من المشاعر ما يكفيهن لكي يعشن حقاً دون أي تشجيع من الطرف الآخر. ففي تسع حالات من عشر، يحسن بالمرأة أن تظهر من الود أكثر مما تشعر به. ولا شك أن بينجلي معجب بشقيقتك، ولكنه قد لا يزيد على إعجابه بها إن لم يجد منها أي عون.

- ولكنها تعينه بالفعل، بقدر ما تسمح به طبيعتها. فإذا استطعت أنا أن ألمح إعزازها له، فلا بد أن يكون غيباً حقاً إن هو لم يشعر به أيضاً.

- تذكرني يا إيلزا أنه لا يعرف مثلك طباع جين.

- ولكن إذا مالت امرأة إلى رجل، وإن هي لم تسع إلى إخفاء هذا الميل، فحتمً عليه أن يكتشفه.

- ربما تحتم عليه ذلك لو كان يراها كثيراً. ولكن رغم أن بينجلي وجين يتقابلان في أوقات متقاربة، إلا أن لقاءهما لا يستمر أبداً لساعات

متصلة. وحيث إنهما يلتقيان ضمن جماعات كبيرة من الناس يختلط فيها هذا بذاك، فمن المحال أن تستغل كل لحظة في تبادل الحديث بينهما. ولذلك يجب على جين أن تحسن استغلال كل نصف ساعة من الزمن فيها أن تسيطر على انتباهه. فعندما تستحوذ عليه، تمنح لها فرصة الوقوع في غرامه كما تشاء وتهوى.

وأجابت إليزابيث قائلة:

- إن أختك صالحة حيث لا يكون هناك من هدف سوى الرغبة في إتمام زواج مناسب. ولو استقر عزمي على الظفر بزواج ثري، أو أي زوج كان، فلربما تبنيّت هذه الخطة. ولكن جين لا تستحثها مثل هذه المشاعر، فهي لا تتصرف بوحى تدبير معين. إنها لا تستطيع حتى الآن أن تستوثق من درجة تقديرها لشخصه ولا من صواب هذا التقدير. لقد عرفته منذ أسبوعين لا أكثر، وراقصته أربع مرات في «ميريتون»، والتقت به في صباح أحد الأيام في منزله، وتناولت معه طعام الغداء ضمن مجموعة من الناس أربع مرات منذ أن تعرفت به. وليس هذا كافياً لجعلها تفهم شخصيته.

- ليس كافياً بالطريقة التي تصورها. فلو أنها تناولت معه طعام الغداء ليس إلا، فربما تكون قد اكتشفت فحسب ما إذا كان يتمتع بشهية طيبة. ولكنك يجب أن تتذكري أنهما قضيا معاً كذلك أربع أمسيات، وهو زمن كفيلاً بإنجاز أمور كثيرة.

- نعم، فقد مكنتهما هذه الأمسيات الأربع من التثبت من أنهما يحبان لعب الورق أكثر من الحديث في أمور التجارة. أما فيما يختص

بأي صفة بارزة أخرى، فلا أظن أن الستار قد أزيح عن أي شيء ذي قيمة.

فقلت شارلوت:

- على كلِّ فأنا أتمنى النجاح لجين من كل قلبي. ولو قُدِّرَ لها أن تتزوجه غداً، فأغلب ظني أن فرصتها في السعادة ستكون مساوية لما يمكن أن تجنيه لو ظلت تدرس شخصيته عامًا بأكمله. إن السعادة في الزواج هي مسألة صدفة ليس غير. فلو أن ميول الطرفين كانت معروفة مقدماً لكل منهما تمام المعرفة، أو كانت متشابهة منذ البداية، فلن يكون ذلك مدعاة لتدعيم سعادتهما بأي حال. فداًئماً ما يزداد التباين بين الزوجين بعد ذلك إلى الحد الذي يورث كلاً منهما نصيبه من الكدر، ومن الأفضل ألا يعرف المرء إلا أقل ما يمكن من نواقص الشخص الآخر الذي سيقضي حياته معه.

- إنكِ تدفعينني إلى الضحك يا شارلوت، فليس هذا بصحيح، أنتِ تعلمين أن هذا ليس صحيحاً، وأنتِ أنتِ نفسك لن تتصرفي على هذا النحو.

وفي الوقت الذي كانت إليزابيث مشغولة فيه بملاحظة اهتمام مستر بينجلي بشقيقتها، كانت أبعد ما تكون ارتياباً في أنها هي نفسها قد أصبحت موضع اهتمام بسيط في نظر صديقه. ففي مبدأ الأمر لم يقر لها بجمال الطلعة إلا بالكاد، ونظر إليها في أثناء الحفل الراقص دونما إعجاب. وعندما التقيا في المرة الثالثة لم ينظر إليها إلا لينتقدها. غير أنه لم يكد يعلن لنفسه ولأصدقائه أن وجهها يكاد لا يتسم بسمه واحدة من

سمات الجمال، حتى بدأ يكتشف أن هذا الوجه تشيع فيه مخايل الذكاء بشكل غير عادي بسبب الملامح الفاتنة لعينيها الداكتين. وأعقب هذا الكشف اكتشافات أخرى مساوية له في إثارة الكمد. فرغم أنه كان قد لاحظ بعين ناقدة أكثر من مظهر للنقص في تناسق جسمها، إلا أنه اضطر إلى الاعتراف بأن قوامها رشيق مقبول. ورغم زعمه بأن سلوكها لم يكن خليقاً بالأوساط المهذبة، غير أنه سحر بما في هذا السلوك من نزعة إلى المزاح غير المتكلف. وكانت هي غافلة تماماً عن كل هذا. فلم يكن بالنسبة لها إلا الرجل الذي لم يكن لطيفاً معها والذي لم يرَ فيها من الحسن ما يدفعه إلى مراقبتها.

وأخذت تراوده الرغبة في معرفة المزيد عنها، وبدأ يصغي إلى حديثها مع الآخرين توطئة للتحديث معها بنفسه. وجذب تصرفه هذا انتباهها؛ وكان هذا في منزل سير وليم لوكاس حيث أقيم حفل كبير. ووجهت حديثها لشارلوت قائلة:

- ماذا يقصد مستر دارسي من وراء إنصاته لحديثي مع الكولونيل فورستر؟

- هذا سؤال لا يستطيع الإجابة عليه إلا مستر دارسي نفسه.

- ولكن إذا عاد إلى هذا الأمر مرة أخرى، فسأشعره يقيناً بأنني أدرك ما يرمي إليه. إن له عيناً ناقدة، فإذا لم أبادر إلى معاملته بوقاحة، فسرعان ما سيتملكني الخوف منه.

وإذ كان يدنو منهما بعد انقضاء فترة قصيرة على هذا الحديث دون

أن تبدو عليه أي نية للكلام، تحدث مس لوكاس صديقتها أن تفاتحه في مثل هذا الموضوع، الأمر الذي استفز إليزابيث على وجه السرعة فاستدارت إليه قائلة:

- ألا تظن يا مستر دارسي أنني عبرت عن نفسي أحسن تعبير منذ قليل عندما كنت أغيظ الكولونيل فورستر لأستحثه على دعوتنا إلى حفل راقص يقيمه في «ميريتون»؟

- بمنتهى الحيوية، ولكن هذا موضوع دائماً ما يضيء الحيوية على أي امرأة.

- إنك تقسو علينا.

وقالت مس لوكاس:

- سيأتي الآن دورها لكي نغيظها. سأجهز المعزف يا إليزا، وأنتِ تعرفين ما يتبع ذلك.

- إنكِ مخلوقة غريبة تتخذين هيئة الصديق، فأنتِ دائماً ترغبين في أن أعزف وأغني أمام أي إنسان وكل إنسان! ولو كنت أزهو بنفسي كثيراً في مجال الموسيقى لأصبحت ذات قيمة لي لا تقدر، ولكني أفضل في الحقيقة، والحال هذه، ألا أجلس أمام أولئك الذين تعودوا على الاستماع إلى أمهر العازفين.

على أنها أضافت تقول بعد أن أصرت مس لوكاس:

- حسن إذن، لا بد مما ليس منه بد.

والتفتت إلى مستر دارسي في رزاة وقالت:

- هناك مثل قديم لطيف يعرفه كل الحاضرين هنا، يقول «احفظ جهدك لنفسك» وسأحتفظ بجهدى حتى أؤدي أغيتى.

وكان أداؤها مقبولاً، إلا أنه لم يكن بأي حال عظيمًا. وبعد انتهاء أغنية أو اثنتين، وقبل أن ترد على رجاء الكثيرين الذين كانوا يلحون عليها بالغناء ثانية، إذا بشقيقتها ميرى تحتل مكانها بشغف على مقعد المعزف. وكانت ميرى تتحفز دائماً لإظهار مواهبها، وهي التي بذلت جهداً شاقاً لاكتساب المعارف والمهارات؛ لأنها كانت الإنسانية الوحيدة العاطلة من الجمال في صفوف تلك الأسرة.

وكانت ميرى تفتقر إلى العبقرية والذوق الحسن معاً. ورغم أن الخيلاء قد زودها بمقدرة على الأداء، إلا أنه قد زودها كذلك بمظهر متحذلق وسلوك يشيع فيه الغرور، مما كان يمكن أن يلحق الأذى بدرجة من التفوق تعلو عما وصلت إليه فعلاً. ولقد أصغى الناس إلى إليزابيث البسيطة غير المتكلفة بمزيد من الغبطة، رغم أن أداؤها لم يرق إلى مستوى أداء شقيقتها. أما ميرى فقد أسعدها، بعد انتهائها من عزف «كونشرتو» طويل، أن تتابع الثناء والامتنان على طريقة أهل اسكتلندا وإيرلندا، وذلك نزولاً على رغبة شقيقتها الصغرى، اللتين انغمستا مع بعض بنات سير وليم لوكاس وضابطين أو ثلاثة في رقصة مشتركة عند طرف من الحجرة.

ووقف مستر دارسى على مقربة منهم وقد اعتمل في قلبه حنق دفين على مثل هذه الطريقة التي يقضون بها المساء، فلم يتحدث إلى أي شخص بكلمة واحدة، وانغمس في أفكاره لحد منعه من ملاحظة

أن سير وليم لو كاس كان يقف إلى جواره، حتى بدأ سير وليم الحديث قائلاً:

- يا لها من تسلية ممتعة للشباب يا مستر دارسي! وفضلاً عن ذلك فليس للرقص مثيل. إنني أعتبره من أولى علامات سلامة الذوق في المجتمعات المهذبة.

- حقاً يا سيدي؛ وهو يمتاز كذلك بشيوعه بين مجتمعات الدنيا الأقل صقلاً؛ فكل همجي يعرف كيف يرقص.

وابتسم سير وليم دون أن ينطق بحرف، ولكنه استأنف حديثه بعد برهة حين رأى بينجلي وهو ينضم إلى الجماعة:

- إن صديقك يؤدي حركاته على نحو رائع، ولست أشك أنك ضليع في ذات الفن يا مستر دارسي.

- أظنك رأيتني أرقص في «ميريتون» يا سيدي.

- نعم، فعلاً؛ ولقد جنيت من النظر إليك غبطة عظيمة. أترقص كثيراً في الحفلات التي تُقام في قصر سانت جيمز؟
- على الإطلاق يا سيدي.

- ألا تعتقد أن في ذلك تحية مناسبة للمكان؟

- إنها تحية لا أقدمها لأي مكان لو استطعت إلى ذلك سبيلاً.

- إذن فأنت تمتلك بيتاً في لندن؟

وحنى مستر دارسي رأسه.

- فكرت في يوم ما في الاستقرار بلندن، فأنا مغرم بالمجمعات الراقية، ولكنني لم أكن على يقين من أن هواء لندن قد يتفق ومزاج ليدي لوكاس.

وتوقف بأمل الحصول على جواب، ولكن صاحبه لم يكن ميّلاً إلى الإجابة بشيء. وإذ كانت إليزابيث تدنو منهما في تلك اللحظة، فقد خطر له أن يقوم بتصرف لبق، وناداهما قائلاً:

- يا عزيزتي مس إليزا، لم لا ترقصين؟ اسمح لي يا مستر دارسي أن أقدم لك هذه الأنسة كشريكة يتمنى الجميع صحبتها. يقيني أنه ليس بوسعك أن ترفض عندما تلتقي عيناك بكل هذا الجمال.

وأمسك بيدها، وكان على وشك تسليمها لمستر دارسي الذي لم يكن -رغم دهشته الشديدة- عازفاً عن الإمساك بها، حينما تراجعت في الحال، وقالت لسير وليم بشيء من الارتباك:

- ليست لدي في الحق يا سيدي أي نية للرقص. وإني ألحف عليك في الرجاء ألا تظنني مررت من هذا المكان سعيًا مني وراء شريك أراقصه.

وفي احتشام رزين طلب مستر دارسي أن تسمح له بشرف مراقبتها، ولكن عبثاً، فقد كانت إليزابيث مصممة؛ كما لم يفلح سير وليم على الإطلاق في زحزحتها عن موقفها بمحاولته إقناعها.

- إنك تتفوقين في الرقص يا مس إليزا لدرجة يصبح من القسوة أن تحرميني سعادة النظر إليك. ورغم أن هذا السيد لا يميل إلى هذه

التسلية عمومًا، فإني على ثقة من عدم اعتراضه على إرضاء خاطرنا لنصف ساعة من الزمان.

وقالت إليزابيث مبتسمة:

- إن مستر دارسي هو الأدب بعينه.

- إنه لكذلك حقًا؛ ولكننا إذا تدبرنا موطن الإغراء في هذه الحالة يا عزيزتي مس إлиза، فليس لنا أن نتعجب للطفه ورقته، فمن ذا الذي يعترض على شريكة مثلك؟

ونظرت إليزابيث بدهاء، ثم استدارت ومشّت بعيدًا. ولم يسنّ عنادها إلى مكانتها في نظر الرجل، فقد كان يفكر فيها بشيء من الرضى عندما بادرت به مس بينجلي بالحديث قائلة:

- أستطيع أن أحس أسباب شرودك.

- لا أظن ذلك.

- إنك تتأمل أي وضع لا يحتمل هذا الذي يدعوك لقضاء أمسيات كثيرة على هذا النحو، وفي مثل هذا الوسط. والحق أنني أشاركك الرأي تمامًا. لم يسبق لي أن تولاني من الضيق مثل ما أنا فيه الآن! يا لتفاهة هؤلاء الناس جميعًا! ومع ذلك فيا للصخب الذي يحدثونه! يا لخواء نفوسهم، ولما يسبغونه على أشخاصهم من أهمية! كم أنا على استعداد لأن أهب أي شيء لسماع أحد انتقاداتك لهم!

- أؤكد لك أن حدسك خاطئ تمامًا، فقد كان فكري مشغولًا بموضوع أشد لطفًا. لقد كنت أفكر في الغبطة العظيمة التي يمكن أن تسببها عينان جميلتان في وجه امرأة حسناء.

وثبتت مس بينجلي عينها على الفور في وجهه، وأبدت رغبتها في أن يخبرها بشخصية السيدة التي كان لها الفضل في ابتعاث مثل هذه الأفكار. وأجاب مستر دارسي بجسارة:

- مس إليزابيث بينت.

ورددت مس بينجلي قوله:

- مس إليزابيث بينت! إني في غاية من الدهشة. منذ متى أصبحت أثيرة لديك؟ ومتى بالله أستطيع أن أتمنى لك السعادة معها؟

- هذا بالضبط هو السؤال الذي توقعته منك. إن خيال المرأة ذو سرعة خاطفة؛ فهو يشب من الإعجاب إلى الحب، ومن الحب إلى الزواج في لحظة. كنت أعلم أنك تتمنين لي السعادة.

- لو كنت جاداً في هذا الموضوع، فسأعتبر الأمر منتهياً تماماً. ستكون لك حماة رائعة حقاً، وستبقى معك بالطبع في «بيمبرلي» دائماً. وأنصت إليها بمنتهى عدم الاكتراث، بينما رأت هي في هذا الحديث تسلية لها. وإذ أقنعتها رباطة جأشه أن الخطر معدوم، تمادت في فكاهاتها.



الفصل السابع

كانت ثروة مستر بينت تكاد لا تزيد على ضيعة تدر عليه ألفين من الجنيهات كل عام. وكانت هذه الضيعة، لسوء حظ بناته، موقوفة على شخص يمتُّ للأسرة بصلة قرابة بعيدة، وذلك في حالة عدم وجود ورثة من الذكور. أما ثروة والدتهما فكانت -رغم ضخامتها بالنسبة لمركز مسز بينت في المجتمع- أعجز من أن تسد النقص في ثروة زوجها. لقد كان أبوها محامياً في «ميريتون» وترك لها أربعة آلاف جنيه.

وكانت لها أخت متزوجة من شخص يُدعى مستر فيليبس، كان يعمل في الأصل موظفاً عند والدهما، وتولى العمل من بعده، كما كان لها شقيق يقيم في لندن ويعمل في فرع من التجارة ذي شأن.

ولم تكن قرية «لونجبورن» تبعد إلا بمقدار ميل واحد عن «ميريتون»، وهي مسافة جد مناسبة للأنسات اللاتي كُنَّ عادةً ما يقعن تحت إغراء الذهاب إلى هناك ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع لزيارة خالتهن وللمرور على محل قبعات يقع في الطريق إلى هناك. وكانت كاثرين وليديا، وهما أصغر أعضاء الأسرة، كثيرتي الإسهام في مراعاة هذه العادة، فقد كان عقلاهما أشد فراغاً من عقول شقيقتاهما. فإن لم

توفر لهما الظروف متعة أفضل مما هما فيه، أصبح لزامًا عليهما أن تقطعا الطريق إلى «ميريتون» لتسليا ساعات نهارهما، وتزودا المساء بمادة للحديث. ورغم خلوّ الريف من الأخبار على وجه العموم، فقد كانتا دائمًا تسعيان إلى معرفة بعض الأنباء من خالتهما. والحق أنهما كانتا مزودتين في الوقت الراهن بالأخبار وبالسعادة معًا؛ نتيجة وصول فرقة من «الميليشيا» إلى الناحية منذ وقت قصير. وكان على هذه الفرقة أن تقضي الشتاء كله متخذة من «ميريتون» مركزًا لقيادتها.

ومن ثم فقد أصبحت زيارتهما لمسز فيليس مصدرًا لأشد المعلومات تشويقًا. فقد أضاف كل يوم جديدًا إلى معرفتهما بأسماء الضباط وأسراهم. ولم يعد مكان إقامتهم سرًا من الأسرار، فشرعنا من ثم في التعرف على الضباط أنفسهم. وقام مستر فيليس بزيارتهم جميعًا، الأمر الذي زود ابنتا أخته زوجته بمصدر للسعادة لم تعدها من قبل. فلم يجز حديثهما عن شيء سوى الضباط؛ أما ثروة مستر بينجلي الطائلة التي كان مجرد ذكرها يبعث الحيوية في نفس أمهما، فقد أصبحت عديمة القيمة في نظرهما بالمقارنة بالكسوة العسكرية لحامل بيارق الفرقة.

وبعد أن أنصت مستر بينت في صباح أحد الأيام لسيل حديثهما في هذا الموضوع، قال ببرود:

- على أساس ما استقيته من طريقتكما في الحديث، أستطيع القول بأنكما اثنتان من أشد البنات حماقة في البلاد. لقد داخلني الشك في هذا يومًا ما، ولكنني الآن مقتنع تمامًا.

وارتبتك كثرين فلم تحر جوابًا، أما ليديا فقد استمرت بغير
اكتراث في التعبير عن إعجابها بالكابتن كارتر، وعن أملها في لقياءه في
بحر ذلك اليوم حيث إنه كان ذاهبًا إلى لندن في اليوم الذي يليه.

وقالت مسز بينت:

- إنني مندهشة يا عزيزي من استعدادك لاعتبار ابنتيك حمقاوين.
فلو ارتأيت أن أقلل من قدر أطفال إنسان ما، فلن أفعل ذلك بأطفالي أنا.
- لو كانت بناتي حمقاوات، فإني أتعشم ألا تغيب عني هذه الحقيقة
أبدًا.

- حقًا، ولكن الحاصل فعلاً أنهن جميعًا بارعات للغاية.

- هذا هو الموضوع الوحيد - وإني أطري نفسي على ذلك - الذي
نختلف بشأنه. فقد كان أُملي أن تتفق آراؤنا في كل الخصوصيات،
ولكنني يجب أن أشدّ عنك على نحو أعتقد فيه أن أصغر فتاتينا حمقاوات
بشكل غير عادي.

- يا عزيزي مستر بينت، لا يخلق بك أن تتوقع من هاتين البنتين
أن تتحليا بمثل ما يتحلى به أبواهما من راحة عقل. فعندما تبلغان ما
بلغناه من عمر، فأغلب ظني أنهما لن تفكرا في الضباط إلا بمقدار ما
نفكر نحن. إنني أتذكر جيداً ذلك الوقت الذي كنت أعجب فيه بالمعطف
العسكري الأحمر؛ والحق أنني ما زلت أعجب به في أعماق قلبي. فإذا
أبدى ضابط أنيق شاب يمتلك خمسة أو ستة آلاف جنيه في العام رغبته
في الزواج من إحدى بناتي، فلن أردّه خائبًا. أظن أن الكولونيل فورستر

قد بدا على أنسب ما يكون من هيئة في بزته العسكرية في تلك الليلة التي قضيناها بمنزل سير وليم.

وصاحت ليديا:

- ماما، تقول خالتي إن الكولونيل فورستر والكابتن كارتر لا يترددان كثيرًا على منزل مس واطسون كما كانا يفعلان عند مقدمهما. إنها كثيرًا ما تراهما الآن يقفان في مكتبة كلارك.

وحال بين مسز بينت وبين الإجابة دخول الخادم حاملًا رسالة إلى مس بينت واردة من «نيدر فيلد». وكان الخادم الذي أتى بها يقف في الخارج في انتظار رد عليها. ومضت عينا مسز بينت من فرط السرور، وأخذت تصيح في شوق بابتها التي كانت تقرأ الرسالة:

- حسن يا جين، ممن هذه الرسالة؟ ماذا بها؟ ما محتواها؟ حسن يا جين، أسرع وخبرينا، أسرع يا حبيبتى.

وقالت جين:

- إنها من مس بينجلي.

ثم قرأتها بصوت عالٍ.

صديقتي العزيزة،

إذا لم تكوني من الرقة بحيث تقبلين تناول طعام الغداء اليوم مع لويزا ومعى، فلسوف نتعرض أنا وهي لخطر كراهية بعضنا بعضًا طيلة أيام حياتنا. إن الخلوة التي تستمر طول اليوم بين امرأتين لا يمكن أن تنتهي أبدًا بغير عراك. تعالي بأسرع ما

تستطيعين بمجرد استلامكِ هذه الرسالة. ولسوف يتناول أخي
وبقية السادة طعام الغداء مع الضباط.

صديقتك

كارولاين بينجلي

وصاحت ليديا قائلة:

- مع الضباط! عجبي على خالتي التي لم تخبرنا بهذا.

وقالت مسر بينت:

- يتناولون طعام الغداء في الخارج؟ إن هذا من سوء الطالع!

وقالت جين:

- هل أستطيع استخدام العربية؟

- لا يا عزيزتي، يحسن بك أن تمتطي جوادًا، فالجو يوحى باحتمال

سقوط المطر، ومن ثم فلا بد أن تقضي الليلة كلها هناك.

وقالت إليزابيث:

- هذه خطة جيدة، لو كنت واثقة من أنهما لن تعرضا عليها توصيلها

إلى منزلها.

- ولكن السادة سوف يستخدمون مركبة مستر بينجلي في الذهاب

إلى «ميريتون»، وليس لدى مستر هيرست وزوجته جوادًا لمركبتهم.

- إذن فإنني أفضل استخدام العربية الكبيرة.

- ولكني واثقة يا عزيزتي أن والدك لا يستطيع الاستغناء عن الجياد.

إن الجياد مطلوبة في المزرعة يا مستر بينت، أليس كذلك؟

- إنها مطلوبة في المزرعة بشكل يتعذر معه الحصول عليها.

وقالت إليزابيث:

- ولكنك لو أبقيتها اليوم حيث هي، لتحقق لأمي ما ترمي إليه.

وانتزعت من والدها آخر الأمر اعترافاً بأن العمل في المزرعة يتطلب وجود الجياد. ولهذا اضطرت جين إلى الذهاب على صهوة جواد، ورافقتها أمها حتى الباب وهي تتنبأ لها في مرج بيوم عاصف. وتحققت آمالها، إذا لم تكد جين تبعد مسافة قصيرة، حتى هطل المطر مدراراً. وقلق عليها أخواتها، ولكن أمها كانت مسرورة. واستمر هطول المطر طوال المساء دون انقطاع. ولم يكن بإمكان جين يقيناً أن تعود إلى البيت.

- كانت فكرتي هذه موفقة حقاً!

هكذا قالت مسز بينت أكثر من مرة، وكأن انهلال المطر كان من فضلها وحدها. ولم تكن حتى صباح اليوم التالي مدركة لكل جوانب التوفيق الذي أحرزته حيلتها. فلم تكد الأسرة تنتهي من طعام الإفطار حتى دخل خادم من «نيدر فيلد» يحمل الرسالة التالية إلى إليزابيث:

ليزي، يا أعز الأعزاء،

أجد نفسي متوعدة جداً هذا الصباح. الأمر الذي يُعزى فيما أظن لابتلال ملابسني تماماً بالأمس. ولن يسمح أصدقائي الكرام بعودتي إلى المنزل قبل أن تتحسن صحتي. كذلك فهم يصرون على استشارتي لمسترجونز، فلا تقلقي إذا سمعت أنه

أني لعيادتي. وفيما عدا التهاب في الحلق وصداع، لا أشكو من شيء.

أختك

وقال مستر بينت عندما فرغت إليزابيث من قراءة الرسالة بصوت عالٍ:

- لو وقعت ابتك يا عزيزتي فريسة مرض خطير، وإذا مات بعد هذا، فسيكون عزاؤنا أن نعلم أن كل ذلك تمّ سعيًا وراء مستر بينجلي، وتنفيذًا لأوامرك.

- لست أخاف عليها من الموت، فالناس لا يموتون بنزلات برد خفيفة. ولسوف يضعها الناس هناك موضع العناية الكافية. فكلما بقيت هناك كان ذلك أفضل؛ ويمكنني أن أذهب لرؤيتها لو أُتيح لي استخدام العربية.

أما إليزابيث فقد راودها بالفعل شعور بالقلق على أختها، فقررت الذهاب إليها رغم عدم توفر العربية. ولما كانت لا تجيد ركوب الخيل، فلم يكن هناك من السير بديلاً. وصرحت عن عزمها. وصاحت والدتها قائلة:

- كيف تكونين غبية إلى هذا الحد، فتفكرين في الذهاب وسط كل هذا الوحل! لا يليق أن يراك الناس على هذه الصورة عندما تصلين إلى هناك.

- سيليقي بي جدًّا أن أرى جين، وهو كل ما أريد.

وقال والدها:

- أهذه إشارة إليّ يا ليزي لكي أرسل في طلب الجياد؟
- كلا، صدقني، فلست أرغب في تجنّب المسير، وليست المسافة
بعائق عندما يتوفر الدافع. إنها ثلاثة أميال ليس إلا؛ وسأكون هنا قبل
حلول موعد الغداء.

وقالت ميري:

- إنني أعجب بأريحتك الفياضة، ولكن كل دافع شعوري يجب أن
يهتدي بنور العقل. وفي رأيي أن كل جهد يُبذل لا بد أن يتناسب دائماً
مع الهدف المطلوب.

وقالت كاثرين وليديا:

- سنسير معك حتى «ميريتون».

وقبلت إليزابيث صحبتها، وبدأت الأنسات الثلاث رحلتهم.

وقالت ليديا وهنّ يسرن قدماً:

- لو أسرعنا، فقد نستطيع رؤية كابتن كارتر لفترة وجيزة قبل سفره.
وافترقن في «ميريتون»، فانعطفت الأختان الصغريان إلى منزل
زوجة أحد الضباط، وواصلت إليزابيث سيرها وحيدة، تعبر الحقول
واحدًا إثر آخر بخطوات سريعة، وتتخطى الحواجز، وتنب من فوق
البرك التي أحدثها ماء المطر مدفوعة بنشاط نافذ الصبر، لتجد نفسها
آخر الأمر على مقربة من المنزل بكاحلين متعبين وجورب قذر ووجه
يتوهج بحرارة المجهود.

وقيدت إلى ردهة الإفطار، حيث اجتمع الكل باستثناء جين،
وحيث أثار ظهورها دهشة كبيرة. ولقد كان ما قطعت من ثلاثة أميال
في وقت مبكر من النهار في مثل ذلك الجور المكفهر، وبمفردها،
يعتبر بالنسبة لمسز هيرست ومس بينجلي أمرًا يكاد لا يُصدق.
وتأكدت إليزابيث أنهما نظرنا إليها نظرة ازدراء لهذا السبب. إلا
أنهما استقبلتاها بأدب جم، وكان في سلوك شقيقهما ما هو أفضل
من الأدب، فقد استقبلها ببشاشة ولطف. ولم يقل مستر دارسي إلا
القليل، أما مستر هيرست فلم يفتح فمه على الإطلاق. وقد تنازع
الأول إعجابًا بالتألق الذي أضفاه المجهود على بشرتها، وشك
في أهمية المناسبة التي تبرر قطعها هذه المسافة الطويلة وحيدة بلا
رفيق؛ أما الثاني فلم يفكر إلا في إفطاره.

ولم تكن الإجابة عن أسئلتها عن شقيقتها شافية تمامًا. فقد ذهبت
مس بنت إلى فراشها في الليلة الماضية وهي تحس بالمرض، ورغم
أنها استيقظت من نومها إلا أنها محمومة للغاية وليست في حالة تسمح
لها بمغادرة حجرتها. واغتبطت إليزابيث عندما قيدت إليها على وجه
السرعة، أما جين فقد سُرّت لدخولها، وهي التي تتحرق شوقًا لمثل هذه
الزيارة، وإن كانت قد أمسكت عن التعبير عن هذه الرغبة في رسالتها
خوفًا من إزعاج أهلها أو إقلاق راحتهم. ولم يكن في إمكانها على
أي حال أن تتحدث كثيرًا؛ وعندما تركتهما مس بينجلي على انفراد،
لم تستطع أن تعبر إلا عن امتنانها للركة الشديدة التي عُوملت بها.
واستمعت إليزابيث إليها في صمت.

وعندما انتهى الجميع من إفطارهم لحقت بهما الأختان، وبدأت إليزابيث نفسها تميل إليهما عندما لاحظت مقدار المحبة والاهتمام اللذين أبديهما إزاء جين. وجاء الصيدلي، وقال بعد أن فحص مريضته ما توقعه الجميع من أنها قد أُصِبت بنزلة برد حادة، وأنهم يجب أن يسعوا للتغلب عليها، ونصحها بالتزام الفراش ووعدا ببعض جرعات الدواء. ونفذت النصيحة في الحال، فقد تفاقمت أعراض الحمى وازداد الصداع حدة. ولم تغادر إليزابيث حجرتها لحظة، كما أن السيدتين لم تطيلا فترات غيابهما عنها، إذا إنهما لم تجدا في الواقع ما تفعلائنه، حيث إن الرجال كانوا قد غادروا المنزل.

وإذ دقت الساعة ثلاث دقائق، أحست إليزابيث بضرورة عودتها، وعبرت عن هذا الإحساس على رغم منها. وعرضت عليها مس بينجلي العربة؛ ولم تكن في حاجة إلَّا لقليلٍ من الإلحاح حتى تقبل العرض، عندما أبدت جين عند الوداع من علامات القلق ما دفع مس بينجلي إلى إبدال عرض العربة بدعوة للإقامة في «نيذرفيلد» لفترة ما. ووافقت إليزابيث شاكراً، وبُعث أحد الخدم إلى «لونجبورن» لإبلاغ الأسرة بإقامتها وإحضار بعض الملابس.



الفصل الثامن

في الساعة الخامسة ذهبت السيدتان لارتداء ثياب المساء، وفي السادسة والنصف دعيت إليزابيث لتناول العشاء. ولم تستطع أن تقدم إجابات شافية للاستفسارات المهذبة التي انهالت عليها، والتي كان من دواعي سرورها أن تميز من بينها الاهتمام العظيم الذي أبداه مستر بينجلي، فلم تكن جين أفضل مما كانت بحال من الأحوال. وردت الأختان لدى سماعهما ذلك، ثلاث أو أربع مرات، أسفهما العميق، وجزعهما من إصابة أي امرئ بنوبة برد شديدة، وكراهيتهما المتناهية لإصابتهم بأي مرض، ثم لم تفكرا في الموضوع بعد ذلك. وكان عدم اكترائهما بجين في حالة عدم وجودها أمامهما سبباً أن تعود إليزابيث إلى الشعور بسابق كراهيتها لهما.

وكان شقيقهما في الواقع هو الوحيد بين الجماعة كلها الذي كانت تستشعر إزاءه إحساساً بالرضى؛ فقد كان قلقه على جين واضحاً، كما كانت مراعاته لها مرضية للغاية، الأمر الذي لم تشعر معه بإحساس المتطفلة، وهو ما كانت تعتقد أن الآخرين يظنونها، فلم تلقَ من غيره إلا أبسط انتباه؛ فقد كانت مس بينجلي مستغرقة في الحديث مع مستر دارسي، كما كانت شقيقتها أيضاً. أما مستر هيرست الذي جلست

إليزابيث إلى جواره فقد كان رجلاً بليد الإحساس يعيش ليأكل ويشرب ويلعب الورق، ولا يجد ما يقوله لها حينما يكتشف أنها تفضل الطعام الخفيف على طبق متبل من الخضراوات واللحم.

وعندما انتهى العشاء رجعت مباشرة إلى جين، وبدأت مس بينجلي في اغتيالها بمجرد خروجها من الحجرة. فقد أعلنت أن سلوكها كان في غاية من السوء، فهو مزاج يجمع بين الكبرياء والوقاحة، كما أنها لم تكن تعرف فن الحديث، ولم يكن لها من الأناقة والذوق والجمال أي نصيب. وكانت مسز هيرست من رأي شقيقتها، وأضافت قائلة:

- ليس لها باختصار ما يزيكها، سوى أنها تجيد فن المشي. لن أنسى ما حييت منظرها في هذا الصباح. لقد بدت وكأنها أصيبت بمس من الجنون.

- فعلاً يا لويزا. لقد استطعت بالكاد أن أتمالك نفسي. إن حضورها أمر لا معنى له أبداً. فما الذي يدعوها لأن تقطع الحقول عدواً بسبب نزلة برد أُصيبت بها شقيقتها؟ وتظهر هكذا مهوشة الشعر محتقنة الوجه! - نعم، وإزارها أيضاً، أرجو أن تكوني قد رأيت إزارها. لقد لطخ الوحل منه ست بوصات. إني واثقة من هذا؛ كما أن الرداء الذي أسدلته عليه لإخفائه لم يفلح في أداء مهمته.

وقال بينجلي:

- ربما كانت الصورة التي رسمتها يا لويزا متقنة تماماً، ولكني لم أتنبه لشيء من هذا كله. لقد خُيِّل إليّ أن مس إليزابيث قد بدت في أبهى

صورة عندما جاءت إلى الحجرة هذا الصباح. إن إزارها الملوث لم يلفت نظري.

وقالت مس بينجلي:

- أما أنت يا مستر دارسي فأني واثقة أنك لاحظته؛ ولعلك لا تحب أن ترى شقيقتك على هذه الصورة.

- كلا بالتأكيد.

- أن تسير ثلاثة أو أربعة أو خمسة أميال، أو أي مسافة كانت وحيدة بلا رفيق، بينما يغوص كاحلاها في الوحل! ما الذي تقصد إليه بهذا العمل؟ يخیل إلي أنها تريد إظهار نوع كرهه من النزعة الاستقلالية المزهوة، وضرب من عدم الاكتراث بقواعد اللياقة، الأمر الذي يميز أهل الريف.

وقال بينجلي:

- إن سلوكها يظهر شعورًا بالمحبة إزاء شقيقتها، وهو يعتبر مقبولاً تمامًا.

وقالت مس بينجلي فيما يشبه الهمس:

- أخشى يا مستر دارسي أن يؤثر ما حدث على إعجابك بعينيها الجميلتين.

فأجاب قائلاً:

- على الإطلاق. لقد زاد الجهد الذي بذلته من بريق عينيها.

وتلت هذا الحديث فترة صمت قصيرة، استأنفت مسز هيرست بعدها حديثها قائلة:

- إني أعتر بـجين بينت إلى حد بعيد، فهي في الحقيقة فتاة بالغة العذوبة، وأتمنى من كل قلبي أن تتوفر لها زيجة جيدة. ولكنني أخشى ألا تُتاح لها أي فرصة ولها مثل هذين الأبوين ومثل هذه الصلات بالفئات الدنيا من الناس.

- أظنني سمعتك تقولين إن زوج خالتهما محامٍ في «ميريتون»؟

- نعم، ولهما خال يعيش في مكان ما بالقرب من «تشيبسايد».

- عظيم جدًّا.

هكذا قالت شقيقتها، ثم استغرقت الأختان في الضحك من أعماقهما.

وصاح بينجلي:

- لو كان لديهما عدد من الأخوال يكفي لملء «تشيبسايد» كلها، لما انتقص ذلك من لطفهما على الإطلاق.

وأجاب دارسي قائلاً:

- ولكن ذلك سوف يضعف بشكل محسوس من فرصتهما في الزواج من أي رجال ذوي مكانة في هذا العالم.

ولم يجب بينجلي بحرف واحد على هذا الكلام وإن كانت شقيقتها قد أظهرتا موافقتهما الكاملة عليه. وأطلقتا لمرحهما العنان فترة من الوقت استهزأً منهما بما لدى صديقتهما العزيزة من صلوات بسوق الناس.

ومع هذا فقد ذهبنا إلى حجرتها بعد مغادرتهما قاعة الطعام مدفوعتين بما جدتاه في نفسيهما من حنوٍ وإزاءها، وبقيتا معها إلى أن دُعيتا لتناول القهوة. وكانت جين لا تزال في حالة سيئة، ولم تقبل إليزابيث أن تتركها حتى فترة متأخرة من المساء، وذلك حين هدأت نفسها بعد أن استغرقت شقيقتها في النوم، وحين بدا لها من الصواب -لا من دواعي البهجة- أن تهبط إلى الطابق الأرضي. وعند دخولها حجرة الاستقبال وجدت الجماعة كلها منهمكة في لعب الورق، فدعيت على الفور للانضمام إليهم، ولكنها امتنعت عن مشاركتهم؛ إذ لاحظت أنهم يلعبون بمبالغ كبيرة، واتخذت من شقيقتها ذريعة، فقالت إنها ستستعين بكتاب على قضاء الوقت القصير الذي ستقضيه بعيداً عنها. ونظر إليها مستر هيرست في دهشة.

- أفضّلين القراءة على لعب الورق؟ هذا أمر فريد.

وقالت مس بينجلي:

- إن مس إليزابيث تحتقر لعب الورق. إنها قارئة عظيمة، وهي لا تجد متعة في أي شيء آخر.

وقالت إليزابيث:

- إنني لا أستحق هذا الثناء ولا هذا اللوم؛ فلست بقارئة عظيمة، كما أنني أجد المتعة في أشياء كثيرة.

وقال بينجلي:

- إنني واثق بأنك تستمعين بتمريض شقيقتك. وعشمي أن تتزايد متعتك برؤيتها في أحسن حال.

وشكرته إليزابيث من قلبها، ثم سارت صوب منضدة ووضعت عليها بعض الكتب. وعرض عليها في الحال أن يأتي لها بكتب أخرى، بكل ما احتوت عليه مكتبته.

- وإني أتمنى لو كانت مجموعة كتبي أكبر من هذه، فيزداد انتفاعك ويرتفع قدري، ولكنني شخص تافه. فبرغم أنني لا أمتلك كتباً كثيرة، فإن لديّ منها أكثر مما عنيت بالنظر إليه في حياتي. وأكدت له إليزابيث أن الكتب الموجودة بالحجرة تناسبها تماماً. وقالت مس بينجلي:

- إني دهشة من أن والدي قد ترك لنا مثل هذه المجموعة الصغيرة من الكتب. يا لها من مكتبة رائعة تلك التي تحتفظ بها يا مستر دارسي في «بيمبرلي»!
فأجاب قائلاً:

- لا بد أن تكون مكتبة قيمة، فهي محصول أجيال كثيرة.
- ثم إنك أضفت إليها الكثير من الكتب أيضاً، فأنت لا تكف عن شراء الكتب.

- لا أستطيع أن أتصور الإهمال في إنشاء مكتبة للأسرة في مثل هذه الأيام.

- الإهمال! إني واثقة أنك لا تهمل في القيام بشيء يزيد من جمال ذلك المكان الجليل. تشارلز، عندما تبني منزلك أتمنى أن يكون في نصف روعة «بيمبرلي».

- أتمنى ذلك.

- ولكنني أنصحك حقاً بأن تبتاع موقعك في تلك الناحية، وأن تتخذ من «بيمبرلي» نموذجاً. فليس هناك في إنجلترا كلها مقاطعة تفوق «داربيشير» جمالاً.

- أعدك بذلك من كل قلبي. سوف أبتاع «بيمبرلي» ذاته لو عرضه دارسي للبيع.

- إنني أتحدث عن الممكنات يا تشارلز.

- بشرفي يا كارولان يُخَيَّل إليّ أن ابتاع «بيمبرلي» أكثر مكاناً من محاكاته.

وانشغلت إليزابيث بما جرى من حديث لدرجة لم تستطع معها أن تخصص لكتابها إلا أقل انتباه. وسرعان ما تخلت عنه كلية، واقتربت من منضدة اللعب، واحتلت مكاناً بين مستر بينجلي وشقيقته الكبرى لتراقب سير اللعب.

وقالت مس بينجلي:

- هل كبرت مس دارسي كثيراً منذ الربيع الماضي؟ أستصبح طويلة القامة مثلي؟

- أظن ذلك. إنها الآن في طول مس إليزابيث بنت. وربما أطول!
- كم أتمنى أن أراها ثانية! لم يسبق لي أن التقيت بأي إنسان أسعدني بهذا القدر. مثل هذا المحيا وهذا السلوك! إنها كاملة الصفات إلى أقصى حد بالنسبة لسنها. كما أن أداءها على المعزف رائع جداً.

وقال بينجلي:

- إنه لمما يدهشني أن يتسنى للآنسات صبر يرقى بهن إلى ما هن عليه جميعاً من كمال.

- جميع الآنسات كاملات! ماذا تعني يا عزيزي تشارلز؟

- أجل، جميعهن فيما أظن، فهن يرسمن اللوحات ويزين الشُّر ويجدلن أكياس النقود. إني أكاد لا أعرف أي آنسة لا تستطيع أن تفعل كل هذا. وأنا واثق بأنني لم أسمع من قبل عن أي آنسة لأول مرة إلا وقيل لي عنها إنها على غاية من الكمال.

وقال دارسي:

- إن البيان الذي تقدمه بما تواضع عليه الناس من مآثر صحيح إلى حد بعيد. فكلمة الكمال تنسحب على كثير من النساء اللاتي لا يستحقنّها إلا لأنهن يعرفن كيف يجدلن كيس نقود أو يزين ستاراً. ولكني لا أوافقك أبداً على تقويمك للسيدات عموماً. فليس في استطاعتي أن أفاخر بمعرفتي إلا لست من النساء الكاملات حقاً وسط نطاق معارفي جميعاً.

وقالت مس بينجلي:

- ولا أنا أيضاً؛ إني واثقة من ذلك.

فقالت إليزابيث:

- إذن فلا بد أنك تفترض الشيء الكثير في صورتك عن المرأة الكاملة.

- نعم، إنني أفترض فيها الشيء الكثير.

وصاحت معاونته المخلصة:

- بالتأكيد؛ فلا يمكن اعتبار أي امرأة كاملة حقاً إلا إذا تفوقت
بدرجة عظيمة على ما نلتقي به عادة من صفات. فحتمً على المرأة
أن تتزود بمعرفة كاملة للموسيقى والغناء والرسم والرقص واللغات
الحديثة، حتى تستحق أن توصف بالكمال. ويجانب هذا كله، فلا بد أن
تتصف بشيء ما في هيئتها وطريقة سيرها ورنّة صوتها وأسلوب حديثها
وتعبيراتها، وإلا لما استحققت من الكمال إلا نصفه.

وأضاف دارسي قائلاً.

- إن عليها أن تتحلى بهذا كله، وأن تضيف إليه أيضاً ما يزيد من
ترقية فكرها عن طريق القراءة المستفيضة.

- إنني لم أعد مندهشة لمعرفةك ست نساء كاملات ليس غير؛ بل
إنني أتعجب الآن لمعرفةك واحدة فقط بهذا الوصف.

- هل أنتِ قاسية على بنات جنسكِ إلى الحد الذي يدفعكِ إلى
الشك في إمكان هذا كله؟

- لم يسبق لي أبداً أن رأيت امرأة مثل هذه؛ لم يسبق لي أن رأيت
مثل هذه القدرة وهذا الذوق وهذه المثابرة وهذه الرشاقة متحدة على
هذا النحو الذي وصفت.

واعترضت مسز هيرست ومس بينجلي على الظلم الكامن في
شكها المستور، وشرعتا في الاحتجاج بأنهما عرفتا نساء كثيرات ينطبق

عليهن هذا الوصف، إلى أن طلب منهما مستر هيرست التزام النظام،
شاكياً بمرارة من عدم انتباههما لما كان يجري أمامهما. وإذ انتهى
الحديث عند هذا الحد، نهضت إليزابيث وغادرت الحجرة.

وقالت مس بينجلي عندما أُغلق الباب وراءها:

- إن إليزابيث واحدة من أولئك الأنسات اللاتي يسعين إلى تزكية
أنفسهن في نظر الجنس الآخر عن طريق الحط من قيمة جنسهن. وقد
تفلح هذه المحاولة مع رجال كثيرين، ولكنها في تقديري حيلة تافهة،
واحتيال وضعيع.

وقال دارسي الذي وجهت إليه أساساً هذه الملاحظة:

- لا شك أن هناك خسة في كل الحيل التي تسمح السيدات
لأنفسهن باستخدامها في بعض الأحيان لسلب لب الرجال. إن كل ما
يوشي بالخبث يستحق الاحتقار.

ولم ترضَ مس بينجلي تمام الرضى عن هذه الإجابة، الأمر الذي لم
يشجعها على متابعة الموضوع.

وانضمت إليزابيث إليهم مرة أخرى لتبلغهم أن حالة شقيقتها قد
ازدادت سوءاً، وأنها لن تستطيع أن تتركها وحيدة. واقترح بينجلي
استدعاء مستر جونز في الحال، بينما فضلت شقيقتها الإسراع في طلب
أحد الأطباء المشهورين من لندن، حيث إنهما كانتا مقتنعتين باستحالة
أي نفع في نصائح أطباء الريف. ولم توافق إليزابيث على هذا، وإن
لم تعترض بنفس الدرجة على اقتراح شقيقتهما؛ فاستقر الرأي على

استدعاء مستر جونز في الصباح الباكر، لو لم تتحسن صحة مس بينت بشكل ملحوظ. وكان بينجلي مضطرباً تماماً، أما شقيقته فقد أعلنتا عن تعاستهما، ولذلك فقد التمسنا العزاء لشقائهما في أداء بعض الأغنيات عقب العشاء، بينما لم يجد هو ما يخفف من مشاعره أفضل من إصدار التوجيهات لمديرة منزله كي تبذل كل عناية ممكنة للسيدة المريضة ولشقيقتها.



الفصل التاسع

قضت إيزابيث معظم الليلة في حجرة شقيقتها، واغتبطت في الصباح إذ استطاعت أن تبعث مع خادمة بإجابة طيبة عن الاستفسارات التي وصلتها من مستر بينجلي في وقت مبكر، والتي حملتها بعد ذلك السيدتان الأنيقتان اللتان كانتا تخدمان شقيقتيه. ورغم هذا التحسن، فقد رجت أن تتاح لها فرصة إرسال خطاب إلى «لونجبورن» تطلب فيه من والدتها زيارة جين وتحديد ما تراه من أمرها. وأُرسل الخطاب في الحال، فتمت الموافقة في التو على ما جاء به، ووصلت مسز بينت بصحبة كريمتيها الصغيرين إلى «نيدر فيلد» بعد أن تناولت الأسرة إفطارها مباشرة.

ولو كانت مسز بينت قد وجدت جين في خطر ظاهر، لأحسّت بشقاء عظيم. أما وقد اقتنعت لدى رؤيتها بأن مرضها لا يسبب انزعاجاً، فلم تكن لديها أي رغبة في تماثلها سريعاً للشفاء، حيث إن استعادتها لصحتها قد يبعدها عن «نيدر فيلد». ولهذا السبب لم توافق على ما اقترحه ابنتها من انتقالها إلى منزلها، كما أن الصيدلي الذي وصل في الوقت الذي وصلت فيه تقريباً لم ينصح بهذا الانتقال. وبعد أن قضت

الوالدة وبناتها الثلاث وقتاً قصيراً مع جين، انتقلن إلى حجرة الإفطار
تلبية لدعوة تلقينها من مس بينجلي للجلوس معها هناك. والتقى بهن
بينجلي تحدوه آمال ألا تكون مسز بينت قد وجدت ابنتها أسوأ مما
توقعت؛ فأجابت قائلة:

- لقد وجدتها بالفعل أسوأ مما توقعت يا سيدي. إنها مريضةٌ لحد
لا يسمح بنقلها؛ وعلينا أن نستغل كرمك لفترة قصيرة من الوقت.

وصاح بينجلي:

- نقلها! هذا أمر لا يجب التفكير فيه. وإني واثق أن شقيقتي لن
توافق على انتقالها.

وقالت مس بينجلي بأدب متحفظ:

- ثقي يا سيدتي أن مس بينت سوف تلقى كل عناية ممكنة أثناء
إقامتها معنا.

وقدمت مسز بينت شكرها الجزيل، وأضافت قائلة:

- إني متأكدة أنها كانت ستلاقي صعباً كثيرة لولا وجودها وسط
أصدقاء كرماء، فهي في الحقيقة مريضة للغاية، كما أنها تعاني أشد
المعاناة رغم أنها تتعلل بصبر عظيم. فهذه عاداتها دائماً، إذ إنها تتحلى
بأعذب الطباع التي لقيتها في حياتي. وكثيراً ما أقول لبناتي الأخريات
إنهن لا يساوين شيئاً بجانبها. إنك تستمتع هنا يا مستر بينجلي بحجرة
ذات موقع جميل، تستشرف منظرًا ساحراً يمتد فوق الممشى المزخرف
بالحصى. لست أعرف في الريف مكاناً يرقى في جماله إلى مستوى

«نيدر فيلد». أرجو ألا تفكر في الإسراع بمغادرته رغم قصر مدة عقد الإيجار.

فأجاب قائلاً:

- أنا أفعل كل شيء في سرعة، ولذلك فإذا حزمت أمري على مغادرة «نيدر فيلد»، فقد أفعل ذلك في خمس دقائق. ومع هذا فإنني أعتبر نفسي في الوقت الحاضر مستقرًا تمامًا هاهنا.

وقالت إيزابيث:

- هذا بالضبط ما ظننته بك.

والتفت إليها قائلاً:

- لقد بدأت تفهميني، أليس كذلك؟

- فعلاً، إنني أفهمك تمامًا.

- أتمنى أن أعتبر هذا القول من قبيل المديح، ولكن أن يكون المرء من الشفافية بحيث تخترقه الأعين، فهذا فيما أعتقد أمر يُرثى له.

- هذا هو الأمر الواقع. غير أن هذا لا يستتبع بالضرورة أن تكون الشخصية ذات الأعماق البعيدة والخيوط المتشابكة بأكثر أو أقل استحقاقاً للتقدير من شخصية كشخصيتك.

وصاحت أمها:

- ليزي، تذكرني أين أنت، ولا تستطرد في هذا الشطط الذي يُسمح لك في المنزل بالاسترسال فيه.

واستمر بينجلي في حديثه بسرعة:

- لم أكن أعلم من قبل أنك من دارسي الشخصيات. لا بد أنها دراسة ممتعة.

- نعم، ولكن الشخصيات المعقدة هي أكثرها إمتاعًا. إنها تتحلى بهذه الميزة على الأقل.

وقال دارسي:

- إن الريف بوجه عام لا يستطيع أن يوفر إلا حالات قليلة لمثل هذه الدراسة؛ ففي حيز المجتمع الريفي يتحرك المرء في نطاق محدود ومتشابه الملامح تمامًا.

- ولكن الناس أنفسهم كثيرًا ما يتغيرون لدرجة تستطيع معها أن تلاحظ فيهم دائمًا شيئًا جديدًا.

وقالت مسز بينت وقد ساءت لها طريقة حديثه عن مجتمع الريف:

- فعلاً؛ إنني أؤكد لك أن الكثير من هذا يحدث في الريف بنفس الدرجة التي يحدث بها في لندن.

واستولت الدهشة على الجميع؛ ونظر إليها دارسي لحظة، ثم أدار رأسه بعيداً في سكون. أما مسز بينت التي ظنت أنها حققت انتصاراً كاملاً عليه، فقد استمرت في حديثها بشعور الفوز:

- إنني شخصياً لا أرى أن لندن تمتاز عن الأرياف في شيء باستثناء ما بها من محال وأماكن عامة. فالريف ألطف بكثير جدًّا، أليس كذلك يا مستر بينجلي؟

فأجاب قائلاً:

- عندما أكون في الريف لا أتمنى مغادرته أبداً؛ وعندما أكون في لندن يراودني نفس الإحساس. إن لكل منهما مزاياه، ويمكنني أن أشعر بنفس القدر من السعادة في أيّ منهما.

- فعلاً، إن هذا يرجع إلى أنك تتحلّى بمزاج سويّ. أما ذلك السيد (وهنا نظرت إليّ دارسي) فقد بدا عليه أنه لا يرى في الريف شيئاً على الإطلاق.

وقالت إليزابيث وقد احمرت خجلاً بسبب أمها:

- الحق أنك مخطئة يا أمها، فأنت لم تفهمي مستر دارسي تماماً. إنه لم يقصد أن يقول إلا أن الريف لا يضم مثل هذا العدد الكبير من الناس الذي تغص به لندن، وهو أمر لا بد أن تقرّ بصحته.

- بالتأكيد يا عزيزتي، فلم يقل أحد إن هناك عدداً كبيراً. أما فيما يختص بعدم استطاعة المرء أن يلتقي بأناس كثيرين في هذه الناحية، فأعتقد أن المناطق التي تفوقها حجماً قليلة العدد. فأنا أعلم أننا ندعى إلى العشاء على موائد أربع وعشرين أسرة.

ولم يساعد بينجلي على اصطناع الجد إلا حرصه على مشاعر إليزابيث. ولكن شقيقته كانت أقل كياسة، إذ استدارت بنظرها تجاه مستر دارسي وقد ارتسمت على شفيتها ابتسامة ذات مغزى. أما إليزابيث فقد سألت أمها -سعيّاً منها لحديث قد يحوّل أفكارها- ما إذا كانت شارلوت لوكاس قد زارت «لونجبورن» منذ مجيئها.

- نعم، لقد جاءت لزيارتنا بالأمس مع والدها. يا لظرف سير وليم
يا مستر بينجلي، أليس رجلاً ظريفاً؟ إنه طراز الرجل الحديث! دمث
الأخلاق سلس الطباع! إن لديه دائماً ما يقوله لكل إنسان. تلك هي
فكرتي عن التنشئة الحسنة. وأولئك الذين يتصورون أنفسهم على درجة
كبيرة من الأهمية فلا يفتحون أفواههم أبداً، إنما يخطئون في تقدير
الأمر.

- هل تناولت شارلوت الغداء معكم؟

- كلا فقد أرادت العودة إلى منزلها، وأظنها كانت مطلوبة
بخصوص صنع الفطائر المحشوة. أما أنا يا مستر بينجلي فدايماً ما
أحتفظ بخدمات يستطعن القيام بأعمالهن. لقد نشأت بناتي على نحو
مختلف. ولكن لكل امرئ رأيه؛ وإنني أؤكد لك أن بنات سير وليم من
طراز ممتاز فعلاً. ومن الأسف أنهن لسن وسيمات! لست أعني بهذا أن
شارلوت عاطلة من الجمال، ولكنها على كل حال صديقتنا المقربة.

وقال بينجلي:

- إنها آنسة لطيفة للغاية.

- فعلاً، ولكن لا بد أن تقر بأنها عاطلة تماماً من الجمال. إن ليدي
لوكاس نفسها كثيراً ما قالت هذا الكلام، وحسدني على جمال جين.
لست أحب أن أفاخر بابنتي، ولكن المؤكد أن المرء نادراً ما يرى من
تفوقها حسناً. هذا هو ما يقوله كل الناس، فليس هذا اعتماداً مني على
تحيزي إليها. وعندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها وقع في
غرامها رجل من معارف شقيقي جاردينر في لندن مما أدى بزوجة أخي

إلى الثقة بأنه سيطلب يدها قبل أن يغادر بيتهم. ولكنه على أي حال لم يفعل شيئاً من هذا، إذ ربما وجدها صغيرة جداً. ومع هذا فقد نظم فيها بعض الأشعار، وكانت أبياتاً جميلة للغاية.

وقالت إليزابيث بنفاد صبر:

- وبهذا انتهى إعجابه. أظن أن هناك كثيراً من الناس قد انهزموا أمام عاطفتهم على هذا النحو. وإني لأعجب لهذا الذي كان أول من اكتشف فاعلية الشعر في إبعاد عاطفة الحب!

فقال دارسي:

- لقد درجت على اعتبار الشعر غذاء للحب.

- ربما كان كذلك إذا كان الحب رقيقاً صلب العود سليماً. إن كل شيء يغذي ما هو قوي أصلاً. ولكن إذا لم يكن الحب إلا ميلاً طفيفاً هزياً، فإنني متأكدة بأن قصيدة واحدة جيدة كفيلة بالقضاء عليه.

وابتسم دارسي ولم ينطق بحرف، وكانت فترة الصمت التي أعقبت هذا الحديث سبباً في بعث الرجفة في أوصال إليزابيث خشية أن تفضح أمها نفسها ثانية. وتحرقت شوقاً إلى الحديث، ولكنها لم تجد ما تقوله؛ وبدأت مسز بينت بعد فترة قصيرة تكرر شكرها لمستر بينجلي لما أبداه من كرم إزاء جين وأردفته باعتذار عما أثقلته به كذلك من متاعب متصلة بإقامة ليزي. وأجابها مستر بينجلي بأدب لا افتعال فيه، وألزم شقيقته الصغرى بأن تكون مهذبة أيضاً، وأن تعرب عما تقتضيه المناسبة من مشاعر. وقد أدت دورها في الحق دون لطف كثير، ولكن مسز بينت

أحست بالرضى وأمرت بعد وقت قصير بتهيئة عربتها. وإزاء هذه الإشارة للرحيل تدخلت صغرى بناتها في دائرة الحديث. فقد كانت الأختان تتساران خلال الفترة التي استغرقتها الزيارة، وظهرت نتيجة هذه المسارّة فيما قامت به الأخت الصغرى من مطالبة مستر بينجلي بتنفيذ ما وعد به عند وصوله لأول مرة من الدعوة إلى حفل راقص في «نيذرفيلد».

كانت ليديا فتاة بدينة وافرة الجسم في الخامسة عشرة من عمرها ذات بشرة ناعمة ووجه مرح، وكانت أثيرة لدى أمها التي كان حبها لابنتها سبباً في دفعها إلى الحياة العامة في سن مبكرة. كذلك فقد كانت تتحلى بقدر وافر من نشاط الصحة والشباب ونوع من الشعور الطبيعي بأهمية شخصها، هذا الشعور الذي تزايد إلى ثقة وطيدة بتأثير الاهتمام الذي أحاطها به الضباط ممن وجدوا تشجيعاً من جانب دعوات زوج خالتها إلى الغداء الفاخر، وبسبب سلاسة طبعها. ولهذا فقد كان من المناسب تمامًا أن تخاطب مستر بينجلي في موضوع الحفل الراقص، وأن تذكره بغته بوعده، ثم تضيف أن عدم الوفاء بهذا الوعد سيكون من أكثر الأمور مدعاة للخجل. وكان رده على هذه الهجوم المفاجئ مفرحاً لأسماع أمهما.

- أؤكد لك أنني على أتم استعداد للوفاء بعهدي. وعندما تشفى شقيقتك، ستكرمين بتحديد موعد الحفل. ولكنك بالطبع لا تريدين أن ترقصي وهي مريضة؟

وأعلنت ليديا عن رضاها:

- فعلاً، سيكون من الأفضل كثيراً أن تنتظر حتى تتحسن جين، ومن المرجح عند ذاك أن يكون كابتن كارتر قد عاد إلى «ميريتون».

وأضافت قائلة:

- وعندما تقيم حفلك، فسوف أصر على ضرورة قيامهم بتنظيم حفل من جانبهم. سأقول للكلونيل فورستر إن امتناعه عن ذلك سيكون عاراً كبيراً.

وعلى إثر ذلك رحلت مسز بينت وكريمتها، وعادت إليزابيث في الحال إلى جين، تاركة سلوكها وسلوك أهلها مادة للتعليق من جانب السيدتين ومستر دارسي. على أن مستر دارسي لم يسمح لنفسه بأن يسايرهما في لومهما لها، رغم كل فكاهات مس بينجلي حول العينين الجميلتين.



الفصل العاشر

انقضى ذلك اليوم كما انقضى اليوم الذي سبقه. وقضت مسز هيرست ومس بينجلي بعض ساعات الصباح مع المريضة التي استمرت صحتها في التحسن ببطء شديد؛ وفي المساء انضمت إليزابيث لجماعة أهل البيت في حجرة الاستقبال. إلا أن مائدة اللعب لم تظهر؛ فقد كان مستر دارسي يكتب شيئاً، وكانت مس بينجلي، التي جلست بجواره، تراقب استرسال الخطاب وتستلفت انتباهه بين حين وآخر إلى ما تريد أن تبث به من أخبار إلى شقيقته. أما مستر هيرست ومستر بينجلي فقد كانا يلعبان الورق، بينما أخذت مسز هيرست تلاحظهما.

وانغمست إليزابيث في تطريز قطعة من نسيج، ووجدت متعة كافية في الإنصات إلى ما كان يجري بين دارسي وصاحبته. وكانت كلمات المديح الدائم الذي أبدته مس بينجلي إما لحسن خطه أو استواء خطوطه أو طول خطابه، بجانب عدم الاكتراث الكامل الذي لقيه إطرأؤها، كل هذا شكّل حواراً غريباً، متفقاً كل الانفاق مع رأيها في كل منهما.

- يا لسعادة مس دارسي باستلامها لمثل هذا الخطاب!

ولم يحرج جواباً.

- إنك تكتب بسرعة غير عادية.

- أنت مخطئة، فأنا أكتب ببطء نوعاً.

- يا لكثرة ما تكتب من خطابات كل عام - وخطابات خاصة بالعمل

أيضاً! ويا لها من خطابات كريهة في اعتقادي!

- إذن فمن حسن الحظ أنها مسؤوليتي وليست مسؤوليتك.

- أرجوك أن تذكر لشقيقتك أنني أتوق شوقاً إليها.

- لقد ذكرت لها ذلك بالفعل بناء على رغبتك.

- أغلب ظني أنك غير راضٍ عن قلمك. دعني أصلحه لك. إني

أصلح الأقلام بطريقة رائعة.

- أشكرك، ولكنني أصلح قلمي بنفسني دائماً.

- كيف تستطيع أن تكتب خطوطاً مستوية على هذا النحو؟

ولم ينطق بحرف.

- قل لشقيقتك إنني مسرورة لسماع أنها تقدمت في العزف على

القيثارة. وأرجوك أن تعرفها أنني في فرح غامر بسبب ما صمته من

رسم صغير جميل لمفرش المائدة، وأني أظنه أرقى كثيراً من رسم مس

جرائلي.

- هل تأذنين لي أن أرجئ فرحك الغامر إلى أن أكتب لها مرة ثانية؟

في الوقت الحاضر ليس في خطابي مكان يسمح بالتعبير عنه بما يستحق.

- لا يهم؛ فسوف أراها في شهر يناير القادم. ولكن هل تكتب لها دائماً يا مستر دارسي مثل هذه الخطابات الساحرة الطويلة؟
- إن خطاباتي طويلة في العادة، ولكني لست أهلاً للحكم على ما إذا كانت ساحرة دائماً.

- إنني أؤمن أن الشخص الذي يستطيع أن يكتب خطاباً طويلاً بسلاسة لا يمكن أن يكتب شيئاً رديئاً.
وصاح شقيقها قائلاً:

- ليس هذا مديحاً لدارسي يا كارولان، لأنه لا يكتب بسلاسة؛ فهو يرهق نفسه بحثاً عن كلمات ذات أربعة مقاطع. أليس كذلك يا دارسي؟
- إن أسلوبه في الكتابة يختلف تمامًا عن أسلوبك.
وصاحت مس بينجلي قائلة:

- إن تشارلز يكتب بأقصى ما يتصوره المرء من إهمال. وهو يترك جانباً نصف كلماته، ويشوه بالحبر ما بقي منها.
- إن أفكاره تندفق بسرعة كبيرة لدرجة لا أجد معها الوقت الكافي للتعبير عنها، مما يجعل خطاباتي لا تحمل في بعض الأحيان أي أفكار إلى من أراسلهم.

وقالت إليزابيث:

- إن تواضعك يا مستر بينجلي يقطع الطريق على أي لوم.
وقال دارسي:

- ليس هناك ما هو أشد خداعًا من مظهر التواضع. فكثيرًا ما يكون تهاونًا في الرأي ليس إلا، وأحيانًا ما يكون تباهيًا غير مباشر.

- وبأي الاثنين تسمّي ما أبديته من تواضع منذ قليل؟

- أسميه بالتباهي غير المباشر؛ فأنت في الحق فخور بنواقصك في الكتابة لأنك تعتبرها ناشئة عن سرعة في الفكر وإهمال في العرض، الأمر الذي تظنه شديد التشويق إن لم يكن باعثًا على التقدير. فالمقدرة على إنجاز أي أمر بسرعة هي دائمًا محط تقدير من يمتلكها، دون النظر في كثير من الأحيان لما في أدائها من عيوب. فعندما ذكرت لمسز بينت هذا الصباح أنك في حالة عزمك على مغادرة «نيذرفيلد» سوف ترحل في خمس دقائق، كنت تقصد من وراء ذلك إغداق الثناء على نفسك. ومع هذا فأني مجال هناك لإطراء التهور الذي لا بد أن يخلف وراءه أعمالًا ضرورية لم تنجز والذي ليس فيه من نفع حقيقي سواء لنفسك أو لأي شخص آخر؟

وصاح بينجلي قائلاً:

- إنه لكثير جدًّا أن تتذكر في المساء كل ما قيل في الصباح من سخافات. ومع ذلك أقسم بشرفي أنني كنت أوّمن بصحة ما قلته عن نفسي، وما زلت أوّمن، حتى هذه اللحظة. إنني على أقل تقدير لم أصطنع طابع التهور غير الضروري لمجرد التظاهر أمام السيدات.

- أعتقد أنك كنت تؤمن بما قلت، ولكنني لست مقتنعًا بحال من الأحوال أنك سوف ترحل بمثل هذه السرعة. إن سلوكك سوف يعتمد على الظروف مثلما يعتمد سلوكك من أعرفهم من الناس. وإذا جاءك صديق

في اللحظة التي تهم فيها بامتطاء جوادك وقال لك: «اسمع يا بينجلي، يحسن بك أن تنتظر حتى الأسبوع القادم»، فلربما امتثلت لطلبه، وعدلت عن الرحيل، ولربما مكثت شهرًا بطوله استجابة لكلمة أخرى.

فقالَت إليزابيث:

- لقد برهنت بذلك على أن مستر بينجلي لم يصوّر ما فطر عليه تصويرًا عادلاً. لقد أغدقت عليه من الثناء أكثر مما فعل بنفسه.

وقال بينجلي:

- إنني مبتهج تمامًا بتحويلك ما يقوله صديقي إلى ثناء على عذوبة طباعي. ولكن يُخيّل إليّ أنك توجهين ما قاله إلى ناحية لم يقصدها بأي حال. فلا شك أنه سوف يستحسن موقفي لو أنني في تلك الحالة أبديت لصديقي اعتراضي الصريح وانطلقت بجوادي بأقصى سرعة ممكنة.

- أفيعتبر مستر دارسي إذن أنك قد كفّرت عن طيش ما انتويته أصلاً بإصرارك على التشبث به؟

- لا أستطيع حقاً أن أشرح الأمر بالضبط، فلا بد لدارسي أن يعبر عن رأيه.

- إنك تتوقع مني أن أوضح آراء تفضل أنت اعتبارها آرائِي، وإن كنت لم أقر بها أبداً. ومع ذلك فإذا سلمنا يا مس بينت بتصويرك للحالة، فلا بد لك أن تذكرني أن الصديق الذي يرغب في عودته إلى البيت وفي تأجيل خطة سفره لم يفعل أكثر من إبداء رغبته، دون إبداء حجة واحدة على ما يبرر هذه الرغبة.

- إن الرضوخ بسرعة وسهولة لاستمالة صديق هو أمر ليس جديرًا في نظرك بالتقدير.

- إن الرضوخ دون اقتناع ليس ثناء على مقدرة أي من الاثنين على فهم الأمور.

- تبدو لي يا مستر دارسي وكأنك لا تقيم وزنًا لتأثير الصداقة والمحبة. إن اعتزاز أي امرئ بذي طلبة غالبًا ما يدفعه إلى الرضوخ سريعًا لتحقيق طلبته، دون انتظار لحجج تقنعه. إني لا أتحدث بالذات عن مثل هذه الحالة التي افترضتها بالنسبة لمستر بينجلي، إذ ربما كان يحسن بنا أن ننتظر حتى يتحقق مثل هذا الظرف قبل أن نناقش حصافة سلوكه عند ذاك. ولكن خذ حالات عامة ومألوفة تنشأ بين صديق وصديقه حيث يطلب فيها أحدهما من الآخر أن يغير قرارًا ليس بذي أهمية كبيرة. أتسيء الظن في هذه الحالة بهذا الشخص لاستجابته لرغبة صديقه دون انتظار للاقتناع بوجاهتها؟

- أليس من المناسب، قبل أن نتعمق في هذا الموضوع أن نحدد بدقة أكثر درجة الأهمية التي تتعلق بهذا الطلب، بالإضافة إلى درجة الألفة القائمة بين الطرفين؟

وصاح بينجلي قائلاً:

- بكل سرور، فلنسمع كل التفاصيل، دون أن ننسى طول الصديقين وحجمهما، فسوف يكون لذلك أهمية في النقاش أكبر مما تظنين يا مس بينت، وأؤكد لك أنه لو لم يكن دارسي شخصًا طويل القامة بهذا الشكل بالقياس بي، لما أبديت نحوه ما أبديه من احترام.

فلست أعرف مَنْ هو أقطع من دارسي في مناسبات معينة وفي مواضع بذاتها؛ وعلى الأخص في بيته، وفي بعض أمسيات الآحاد عندما لا يجد ما يشغل به وقته.

وابتسم مستر دارسي، ولكن خُيِّلَ إلى إليزابيث أن دارسي قد استاء نوعاً، فكتمت لذلك ضحكتها. وأبدت مس بينجلي امتعاضها الشديد من الإهانة التي لحقت به، وذلك بمعاقبة شقيقها لما بدر عنه من هراء. وقال صديقه:

- إنني أدرك ما ترمي إليه يا بينجلي، فأنت تكره الجدل وتريد أن تنهي هذا الموضوع.

- ربما. فالمناقشات شديدة الشبه بالمنازعات. فلو أرجأتما -أنت ومس بينت- مناقشتكما حتى أغادر الحجرة، سأكون لكما من الشاكرين. وعند ذاك تستطيعان أن تقولاً عني ما تشاءان. وقالت إليزابيث:

- إن طلبك لا يقتضي تضحية من جانبي، كما أن من الأفضل لمستر دارسي أن ينهي خطابه.

واستمع مستر دارسي لنصيحتها وأنهى خطابه.

وعندما فرغ من هذه المهمة، اقترح على مس بينجلي وإليزابيث الاستماع إلى بعض الموسيقى وانطلقت مس بينجلي بخفة ناحية المعزف؛ وبعد أن طلبت من إليزابيث بأدب أن تفتح العزف، الأمر الذي رفضته بنفس الأدب وبحماس أشد، جلست هي نفسها إلى المعزف.

وأنشدت مسز هيرست بصحبة شقيقتها، وإذ كانتا منغمستين في الغناء، لم تملك إليزابيث إلا أن تلاحظ -وهي تقلب صفحات بعض المدونات الموسيقية التي كانت موضوعة على المعزف- تكرار تصويب عيني مستر دارسي إليها. ولم يكن بوسعها أن تعرف كيف تفترض أنها محط إعجاب مثل هذا الرجل العظيم؛ ومع هذا فقد كان من الأغرب أن تظن أنه ينظر إليها بسبب كراهيته لها. ومع ذلك فلم تستطع إلا أن تتصور آخر الأمر أنها استلقت انتباهه، بسبب ما بدا عليها من أمر أشد نكرًا واستحقاقًا للوم مما وجد في أي من الحاضرين، وذلك حسب ما تقضي به أفكاره عن صواب الأشياء. ولم يسبب لها الافتراض ألمًا، فقد كان إعجابها به من الضالة بحيث لم تكن لتعنى باجتلاب رضاه.

وبعد أن أنشدت مس بينجلي بعض الأغنيات الإيطالية، نوعت من سحرها بأن بعثت في الجو لحناً اسكتلندياً مرحاً. ولم ينقض وقت طويل حتى دنا مستر دارسي من إليزابيث وقال لها:

- ألا تشعرين بميل قوي يا مس بينت إلى اغتنام هذه الفرصة لترقصي على النغم؟

وابتسمت ولكنها لم تحر جواباً. وأعاد عليها السؤال وقد بان عليه شيء من الدهشة لصمتها.

وقالت:

- لقد سمعتك من قبل، ولكنني لم أستطع في التو أن أجزم بجواب. فأنا أعلم أنك أردتني أن أقول نعم، حتى تستمتع بازدراء ذوقي. ولكنني ألتذ دائماً بإفساد تلك الأنواع من الخطط وبحرمان صاحبها مما تستهدفه

من احتقار مرسوم. لذلك فقد حزمت رأبي على إطلاعك بأني لا أريد أن أؤدي هذه الرقصة. والآن لك أن تزدريني إذا جسرت.

- الحق أني لا أجسر.

ودهشت إليزابيث لكياسته وهي التي توقعت أن تسيء إليه. ولكن سلوكها كان يوحى بمزاج من العذوبة والمزاح، الأمر الذي جعل من الصعب عليها أن تسيء إلى أي إنسان، ولم يكن دارسي قد وقع من قبل أسيراً لسحر أي امرأة كما وقع آنذاك. وخامره اعتقاد أكيد بأنه، لولا قلة شأن أهلها، لواجه بعض الخطر.

وكان ما رآته مس بينجلي أو ارتابت فيه كافيًا لإشعال نيران غيرتها، ولقي اهتمامها العظيم بشفاء صديقتها العزيزة جين بعض التعضيد من رغبتها في التخلص من إليزابيث.

وكثيرًا ما حاولت أن تستحث دارسي على كراهية ضيفتها، بالحديث عن زواجهما المنتظر وتخطيط سعادته في ظل هذه العلاقة.

وقالت له في اليوم التالي بينما كانا يسيران معًا بين الأشجار:

- عندما يقع هذا الحادث الذي يتمناه قلبك، فإني آمل أن تلمح إلى حماتك بمزية خلودها إلى الصمت، وأن تسعى -لو استطعت إلى ذلك سبيلًا- إلى علاج الفتاتين الصغريين من مرض الجري وراء الضباط. وإذا جاز لي أن أنوه إلى موضوع بالغ الحساسية، فإني أطلب منك أن تحاول كبح ما يبين على زوجتك من علامات تدنو من حدود الزهو وقلة الحياء.

- ألدك اقتراحات أخرى تختص بسعادتي العائلية؟

- نعم، فلا بد أن تضع صور خالة زوجتك، وزوجها مستر فيليبس في القاعة الكبيرة في «بمبرلي». ضعهما بجوار صورة عمك القاضي. فهم جميعاً كما تعلم أبناء مهنة واحدة، وإن اختلفت الاتجاهات. أما فيما يختص بصورة عزيزتك إليزابيث، فلا تحاول أبداً أن تسمح برسمها، فأني رسام يستطيع أن يحسن تصوير تلك العينين الجميلتين؟

- لن يكون من السهل فعلاً التقاط ما توحيان به من تعبير؛ ولكن ربما أمكن تقليد لونهما وهيئتهما ورموشهما ذات الروعة الفائقة.

والتقيا في تلك اللحظة بمسز هيرست وإليزابيث نفسها قادمتين من ممشى آخر.

وقالت مس بينجلي بنبرة مضطربة خشية أن يكون حديثهما قد تناهى إلى الأسماع:

- لم أكن أعلم أنك كنت تنوين التريض.

وأجابتها مسز هيرست قائلة:

- لقد أسأت إلينا كثيراً حينما جريت وحدكِ دون أن تخبرينا بعزمكِ على الخروج من البيت.

وأعقبت قولها بأن أمسكت ذراع مستر دارسي وتركت إليزابيث لتسير بمفردها. ولم يكن الممر ليسع إلا ثلاثة. وشعر مستر دارسي بوقاحتها. فقال بسرعة:

- ليس هذا الممشى متسعاً بما يكفينا جميعاً. يحسن بنا أن نسير في الطريق المحفوف بالأشجار.

ولكن إليزابيث لم تكن تميل إلى البقاء معهم؛ فأجابت ضاحكة:
- لا، لا، لا تبرحوا مكانكم، فأنتم تشكلون مجموعة رائعة وتبدون بمظهر نادر. إن بهاء الصورة سوف يفسد إذا أضيف إليها شخص رابع.
إلى اللقاء.

ثم أخذت تعدو بمرح، وتنتقل هنا وهناك متهلة طرباً بأمل العودة إلى بيتها في ظرف يوم أو يومين. وكانت جين قد استردت بالفعل صحتها لدرجة أبدت معها نيتها مغادرة حجرتها لمدة ساعتين في ذلك المساء.



الفصل الحادي عشر

عندما انتهت السيدات من تناول طعام الغداء، أسرعت إليزابيث إلى شقيقتها ثم رافقتها إلى حجرة الاستقبال بعد أن استوثقت من تحصينها ضد برودة الجو، حيث رحبت بها صديقتها وقد بانَتْ عليهما علامات السرور البالغ. ولم يسبق لإليزابيث أن رأتهما على هذه الدرجة من الظرف مثلما حدث خلال الساعة التي سبقت ظهور السادة في الحجرة. فقد عظمت قدرتهما على الحديث؛ إذ كان في استطاعتهما أن تصفا أي مشهد مسلٍّ بمنتهى الدقة، وأن تقصا أي نادرة بخفة ظل، وأن تضحكا لما تقوله صديقتهما بروح صافية.

ولكن عندما دخل السادة، لم تعد جين أول ما تستهدفه أنظارهما. فقد استدارت عينا مس بينجلي في الحال إلى دارسي، ووجدت ما تقوله له قبل أن يتقدم بضع خطوات، بينما توجه هو بالحديث مباشرة إلى مس بينت مهنتاً لها في أدب. كذلك حياها مستر هيرست بانحناء خفيفة وبقوله إنه «سعيد للغاية»، أما الإسهاب وحرارة الاستقبال فقد تمثلا في التحيات التي بدرت من بينجلي. لقد كان مفعماً بالفرحة والاهتمام. وانقضت نصف الساعة الأولى في إذكاء نار المدفأة خشية أن تتأثر جين

من تغيير جو الحجرة، وانتقلت هي بناء على رغبته إلى الناحية الأخرى من المدفأة حتى تكون على مبعدة من الباب ثم جلس إلى جوارها ولم يتحدث إلى أحد سواها إلا فيما ندر. أما إليزابيث التي انغمست في عملها في الزاوية المقابلة من الحجرة، فقد رأت كل هذا بفرح غامر.

وعندما انتهى الحاضرون من شرب الشاي ذكرَ مستر هيرست أخت زوجته بمائدة اللعب، ولكن دون فائدة. فقد نما إلى علمها أن مستر دارسي لم يكن يميل إلى لعب الورق، ولم يلبث مستر هيرست أن ووجه برفض طلبه الصريح. لقد أكدت له أن ليس هناك مَنْ له رغبة في اللعب، وبدا من سكوت الجماعة كلها عن هذا الموضوع ما يبرر قولها. ولهذا لم يبقَ أمام مستر هيرست إلا أن يمد جسمه على إحدى الأرائك، وأن يغط في نوم عميق. والتقط دارسي كتابًا، وحذت مس بينجلي حذوه؛ أما مسز هيرست التي كانت مستغرقة أساسًا في اللعب بأساورها وخواتمها فقد شاركت بين الحين والآخر فيما دار من حديث بين شقيقها ومس بينت.

وكان انتباه مس بينجلي منصبًا على متابعة ما يقرأه مستر دارسي بنفس الدرجة التي تركز بها على متابعة كتابها، وكانت دائبة الاهتمام، إما بالاستعلام عن شيء أو بالتحديق في صفحة كتابه. إلا أنها عجزت عن شد انتباهه إلى أي حديث؛ فقد كان يقتصر على الإجابة عن سؤالها، ثم يستمر في القراءة. وأخيرًا، وبعد أن أرهقتها مساعيها معه فأفسدت عليها الاستمتاع بكتابها الذي لم يقع عليه اختيارها إلا لأنه كان المجلد الثاني من نفس الكتاب الذي اختاره هو، تناءبت ثم قالت:

- أي روعة في قضاء المساء على هذا النحو! من رأيي أن ليس هناك متعة تفوق القراءة! ما أسرع ما يضيق المرء بأي شيء خلاف الكتاب! عندما يصير لي بيت مستقل، فسأنشئ فيه مكتبة ممتازة، وإلا أصبحت في غاية من التعاسة.

ولم يجب أحد بشيء. وعند ذاك تئاءبت من جديد، وألقت بكتابها جانباً ودارت بعينها في أرجاء الحجرة بحثاً عن أي مصدر للتسلية. وإذا سمعت شقيقها بحادث مس بينت بشأن حفل راقص، استدارت إليه فجأة وقالت:

- بالمناسبة يا تشارلز، هل أنت جاد حقاً في التفكير في الدعوة لحفل راقص في «نيدر فيلد»؟ أحب أن أنصحك قبل أن يستقر رأيك على شيء من هذا أن تستشير رغبات الحاضرين هنا. إنني سأكون جد مخطئة إن لم يكن بيننا من يعتبرون الحفل الراقص بمثابة عقاب لا تسلية.

وقال شقيقها:

- إذا كنتِ تقصدين دارسي، ففي إمكانه أن يذهب إلى فراشه لو أراد قبل بداية الرقص. أما الحفل فأمر مقرر، وبمجرد أن تنتهي نيكولز من إعداد قدر كافٍ من الحساء، فسوف أرسل بطاقات الدعوة.

وأجابت قائلة:

- إن ميلي للحفلات الراقصة يزداد كثيراً لو اتخذت أسلوباً مختلفاً. بيد أن ما يجري عادة في مثل هذه الاجتماعات إنما يحفل بما يبعث على

الضجر بشكل لا يمكن احتمالها. ولا شك أن الأمر يصبح معقولاً جداً لو حل تبادل الحديث محل الرقص في ملء سحابة اليوم.

- قد يكون ذلك معقولاً جداً يا عزيزتي كارولان، ولكنه لم يشبه الحفل الراقص في كثير أو قليل.

ولم تحر مس بينجلي جواباً، ولم تلبث أن نهضت بعد فترة قصيرة ومشت في أرجاء الحجرة. وكان قوامها رشيماً وخطوتها متناسقة، ولكن دارسي الذي كان هدفاً لكل هذا، كان لا يزال مستغرقاً في مطالعته. وفي غمرة اليأس الذي عانت منه مشاعرها، استقر رأيها على القيام بجهد إضافي، فقالت موجهة الحديث إلى إليزابيث:

- دعيني أستميلك يا مس إليزابيث فتحذين حذوي وتقومين بجولة في أنحاء الحجرة. أؤكد لك أن في هذا تسرية كبيرة بعد جلوسك فترة طويلة.

ودهشت إليزابيث، ولكنها وافقت على العرض بسرعة. وأفلحت مس بينجلي في ما استهدفته من قصد فعلي من وراء كياستها؛ فقد رفع مستر دارسي عينيه. لقد انتبهت حواسه لتلك اللفتة الجديدة من جانب مس بينجلي بنفس القدر الذي انتبهت به إليزابيث، وأغلق كتابه بحركة لا شعورية. ودُعي في التو لمصاحبتهم، ولكنه رفض الدعوة قائلاً إن هناك في تصوره باعثين دفعاهما إلى اختيار السير في الحجرة جيئة وذهاباً، وإن مصاحبته لهما سوف تفسد عليهما تحقيق هذا الباعث أو ذاك. ماذا يقصد؟ لقد كانت مس بينجلي تتحرق شوقاً لمعرفة ما يعنيه، وسألت إليزابيث ما إذا كانت تفهمه على الإطلاق؛ وكان جوابها:

- أبداً. ولكنني ثقي من أنه يريد أن يقسو علينا، ولذلك فإن أفضل طريقة لإحباط مسعاه هي ألا نسأله تفسيراً لما يقول.

غير أن مس بينجلي لم تكن لتستطيع أن تخيب أمل مستر دارسي فيما يسعى إليه، ولذلك فقد أصرت على الحصول على تفسير لما رآه من باعثين.

وقال بمجرد أن منحته فرصة للحديث:

- ليس لديّ أدنى اعتراض على شرحهما. فإما أنكما قد اخترتما هذه الوسيلة لقضاء المساء؛ لأن الثقة بينكما متبادلة ولأنكما تريدان مناقشة بعض أسراركما، وإما لأنكما تدركان أن قوامكما يظهران على أعظم منظر أثناء السير. ففيما يختص بالباعث الأول سأكون عائناً لكما تماماً، وفيما يختص بالثاني أستطيع أن أعجب بكما على نحو أفضل وأنا جالس بجوار المدفأة.

وصاحت مس بينجلي قائلة:

- هذا مثير! لم أسمع من قبل بشيء فظيع كهذا. كيف سنعاقبه على مثل هذا القول؟

وقالت إليزابيث:

- ليس هناك ما هو أسهل من ذلك لو توافرت لك النية. فنحن نستطيع أن نغيظ ونعاقب بعضنا بعضاً. عليك بمكايده والضحك عليه، ولا بد أنك تعرفين كيف تفعلين ذلك طالما أنك على علاقة به وثيقة.

- ولكنني حقًا لا أعرف، وأؤكد لك أن علاقتي الوثيقة به لم تعلمني ذلك. أن أستفز هدوء الطبع وحضور البديهة! لا، لا، إني أحس أنه قد يتحدانا في هذا المجال. أما فيما يختص بالضحك، فلن نفضح نفسي، بعد إذنك، بأن نحاول الضحك دون سبب، إن مستر دارسي قد يهتز لذلك طربًا.

وقالت إليزابيث:

- ليس من السهل أن نضحك على مستر دارسي؛ وتلك حالة نادرة، وأتعشم استمرار بقائها على هذا الحال من الندرة؛ لأن معرفتي بأناس كثيرين من هذا النوع سيكون بالنسبة لي خسارة عظيمة. إني أحب الضحك حبًا جمًّا.

وقال:

- لقد شهدت لي مس بينجلي بأكثر مما أستحق. إن أحكم الرجال وأفضلهم، بل إن أحكم أعمالهم وأفضلها يمكن أن يوضع موضع السخرية من جانب شخص يعتبر الدعابة أهم أهدافه في الحياة.

وقالت إليزابيث:

- هناك بالتأكيد أناس من هذا الطراز، ولكنني آمل ألا أكون واحدة منهم. إني آمل ألا أهزأ أبدًا من كل ما هو حكيم أو طيب. وإني أقر بأن الحماسة والسخف، ونزوات النفس وتقلُّب الطباع تُعتبر من أسباب تسلّيتي، وتستثير ضحكاتي كلما استطعت إلى ذلك سبيلًا. ولكنك تخلو قطعًا من هذه الصفات فيما أظن.

- قد لا يكون في استطاعة أي امرئ أن ينأى بنفسه عن هذه الصفات. غير أنني دأبت طيلة حياتي على تحاشي تلك النواقص التي كثيراً ما تعرض صاحب الفكر الراجح للسخرية.

- نواقص مثل الزهو والكبرياء.

- نعم، فالزهو نقيصة بالفعل. أما الكبرياء فستظل محكومة دائماً ببساطة العقل، إذا توافر للفكر عظمة حقيقية.

واستدارت إليزابيث لتخفي ابتسامتها.

وقالت مس بينجلي:

- أظن أن فحوصك لشخصية مستر دارسي قد انتهت. فهل لك أن تطلعيني على النتيجة؟

- إنني مقتنعة تماماً بأن مستر دارسي يخلو من النواقص، إنه يقر بذلك دون مداراة.

وقال دارسي:

- لا، إنني لم أدع شيئاً من هذا. إن لديّ أخطائي، ولكنها لا تتعلق كما آمل، بفهمي للأمور. أما طبعي فلست أضمنه؛ إذ إنه، فيما أعتقد، ليس سلس القيادة، وهو بالتأكيد أقل سلاسة مما يلائم عامة الناس. كذلك لست أستطيع أن أنسى حماقات الآخرين ورذائلهم بالسرعة التي يقتضيها نسيانها، كما ليس بوسعي أن أنسى إساءاتهم في حقي. أما مشاعري فلا تهتز لكل محاولة تستهدف إثارتها. وقد يوصف مزاجي بسرعة الغضب؛ فإذا خسر أي امرئ تقديري في موقف معين، فقد خسرته إلى الأبد.

وصاحت إليزابيث قائلة:

- هذه في الحق نقيصة؛ فالمزاج الحاد الذي لا يعرف التسامح هو
ظل قاتم في شخصية الإنسان. ولكنك أحسنت اختيار عيبك. ولست
أستطيع حقاً أن أسخر منه. لقد أمنت جانبي.

- أعتقد أن كل طبع إنما يتم عن آفة معينة، عن نقيصة طبيعية، لا
تستطيع حتى أرقى مراتب العلم أن تتغلب عليها.
- ونقيصتك هي ميل إلى كراهية كل إنسان.

فأجاب مبتسماً:

- أما نقيصتك فهي أن تسيئي فهمهم عمداً.
وصاحت مس بينجلي قائلة، وقد ملت الاستماع إلى محادثة لم
يكن لها فيها نصيب:

- فلنسمع شيئاً من الموسيقى. أظنك لا تعبني يا لويزا إذا أيقظت
مستر هيرست من سباته؟

ولم تُبدِ شقيقتها أدنى اعتراض، ففتح المعزف، ولم يأسف مستر
دارسي لهذا التغيير بعد أن تدبر الأمر لبضع لحظات. لقد بدأ يشعر
بالخطر الناجم عن الاهتمام بإليزابيث أكثر مما يجب.



الفصل الثاني عشر

نتيجة لما استقر عليه رأي الأختين، أرسلت إليزابيث في صباح اليوم التالي خطابًا لوالدتها تسألها إرسال العربة خلال النهار لتعود بهما إلى منزلهما. ولكن مسز بينت التي كان في حسابها أن تبقى بنتها في «نيدر فيلد» حتى يوم الثلاثاء التالي، إتمامًا لأسبوع على إقامة جين، لم تستطع أن تروض نفسها على استقبالهما بسرور. لذلك، لم يكن ردها مناسبًا - أو على الأقل لم يكن كذلك بالنسبة لرغبة إليزابيث، التي كانت تتحرق شوقًا للعودة إلى منزلها. فقد أرسلت لهما مسز بينت تقول إنه ليس في استطاعتهما استخدام العربة قبل يوم الثلاثاء، كما أضافت في حاشية الخطاب أنه في حالة إلحاح مستر بينجلي وشقيقته عليهما للبقاء زمنًا أطول، فهي على استعداد للتخلي عنهما. إلا أن إليزابيث كانت مصممة تمامًا على عدم البقاء فترة أخرى، كما أنها لم تكن تتوقع أن يُطلب منها البقاء. وإذا كانت تخشى، على العكس من ذلك، من النظر إليهما كمطفلتين تفرضان نفسيهما دونما حاجة، فقد حثَّ جين على استعارة عربة مستر بينجلي دون إبطاء؛ واستقر رأيهما آخر الأمر على الإعلان عن نيتهما لمغادرة «نيدر فيلد» في ذلك الصباح، وعلى طلب استعارة العربة.

وأثارت الأنباء كثيرًا من علامات الاهتمام، وقيل عن الرغبة في استبقائهما حتى اليوم التالي على الأقل ما كان كافيًا للتأثير على جين، الأمر الذي تأجل معه رحيلهما إلى الغد. وعند ذلك أسفت مس بينجلي لاقتراحها التأجيل، فقد كانت غيرتها من إحدى الشقيقتين وكرهيتها لها، تفوقان إلى حد بعيد محبتها للآخرى.

وأسف رب البيت حقًا حين علم أن موعد رحيلهما قد حان، وحاول مرارًا أن يقنع مس بينت أن في ذلك خطرًا عليها، وأنها لم تُشفَ تمامًا؛ ولكن جين كانت حاسمة في رأيها عندما كانت تشعر بأنها على صواب.

وكانت الأنباء موضع ترحيب من جانب مستر دارسي، فقد مكثت إليزابيث في «نيدرفيلد» أكثر مما يجب. لقد شدت انتباهه أكثر مما أراد، كما أن مس بينجلي كانت غير مهذبة معها وأشد إزعاجًا له أكثر من المعتاد. وقرر في حكمة أن يحرص على ألا تبدو منه آنذاك أي علامة من علامات الإعجاب، أو ما يمكن أن ينعشها بالأمل في التأثير على هناء باله. فقد شعر بأن سلوكه معها خلال آخر أيام إقامتها سيكون له اعتباره القوي في تدعيم ما يمكن أن يكون قد راودها من أفكار أو تحطيمه. واستمسكًا منه بنيته، لم يوجه إليها بالكاد، إلا عشر كلمات خلال يوم السبت كله؛ ورغم أنه تصادف أن بقيا بمفردهما معًا طوال نصف ساعة، فقد تمسك بكتابه بمنتهى الأمانة ولم يرفع إليها عينيه.

وعقب صلاة الصباح في يوم الأحد تمّ الافتراق الذي كان موضع ترحيب من جميع الأطراف تقريبًا. وازدادت كياسة مس بينجلي أخيرًا

وبسرعة مذهلة إزاء إليزابيث، كما تزايدت محبتها لجين. فبعد أن أكدت لجين ساعة الرحيل مدى السرور الذي تستشعره دائماً لرؤيتها سواء في «لونجبورن» أو «نيدر فيلد»، وبعد أن احتضنتها برقة بالغة، مدت يدها إلى إليزابيث. أما إليزابيث فقد ودعت الجماعة كلها بحيوية فائقة.

ولم تلقيا في المنزل ترحيباً ودياً تماماً من جانب أمهما. فقد عجبت مسز بينت لمجيئهما، وعابت عليهما ما في استعارتهما للعربة من إرهاق لأصحابها، وعبرت عن يقينها من أن جين سوف تنتكس ثانية. أما والدهما، فرغم أن تعبيره عن سعادته كان مقتضباً للغاية، فقد كان سعيداً حقاً لرؤيتهما، إذ شعر بأهميتهما في نطاق الأسرة. لقد فقدت أحاديث المساء - عندما كانوا يجتمعون معاً - الكثير من حيوتها، كما افتقرت تماماً، أو كادت، إلى كل مغزاها، بغياب جين وإليزابيث.

ووجدتا ميرى كالعادة مستغرقة في دراسة علم الهارموني والطبيعة البشرية، وعرضت عليهما بعض المقتبسات الجديدة لإبداء إعجابهما بها، وبعض الأقوال الجديدة عن الأخلاقيات البالية للإنصات إليها. أما كاثرين وليديا فقد زودتاها بأبناء من نوع مختلف. فقد وقعت أحداث كثيرة وصدرت أقوال متعددة في محيط الفرقة العسكرية منذ يوم الأربعاء الماضي؛ فتناول عدد كبير من الضباط أخيراً طعام الغداء على مائدة زوج خالتهن، ووقعت عقوبة الجلد على أحد الجنود، كما ظهرت بالفعل تلميحات بأن الكولونيل فورستر يستعد للزواج.



الفصل الثالث عشر

قال مستر بينت لزوجته على مائدة الإفطار في صباح اليوم التالي:

- آمل يا عزيزتي أن تكوني قد أمرت اليوم بإعداد غداء جيد، فلديّ ما يحملني على انتظار ضيف ينضم إلى أسرتنا.

- مَنْ تعني يا عزيزي؟ لا علم لي بقدوم أحد، إلا إذا تصادف زيارة شارلوت لو كاس لنا؛ وأظن أن جودة أطباقي تكفيها وتزيد. لست أعتقد أنها ترى في منزلها هذه الأصناف كثيرًا.

- إن مَنْ أعنيه رجل، وغريب.

والتمعت عينا مسز بينت:

- رجل وغريب! أقطع بأنه مستر بينجلي. جين، إنك لم تشيرى بكلمة عن هذا الأمر، أيتها الماكرة! سأكون سعيدة للغاية لرؤية مستر بينجلي. ولكن... يا إلهي! يا لسوء الحظ، فليس هناك اليوم إمكانية للحصول على أي نوع من الأسماك. يا حبيبتى ليديا، اقرعي الجرس. يجب أن أتحدث حالاً إلى هيل.

وقال زوجها:

- ليس مستر بينجلي. إنه شخص لم أره إطلاقاً طوال حياتي.

ودهش الجميع لهذا القول، أما هو فقد استمتع بالأسئلة المتلهفة التي انهالت عليه من زوجته وبناته الخمس دفعة واحدة.

وبعد أن استمتع بعض الوقت بفضولهن، وضح قصده قائلاً:

- منذ حوالي شهر تسلمت هذه الرسالة، ومنذ أسبوعين تقريباً أرسلت ردي عليها، فقد رأيت أن المسألة حساسة نوعاً، وأنها تحتاج تدبراً وإمعاناً. إنها من ابن عمي، مستر كولنز الذي قد يطر دكن جميعاً من هذا البيت بعد وفاتي بمجرد أن تراوده الرغبة في ذلك.

وصاحت زوجته قائلة:

- لست أحتمل يا عزيزي أن أسمع هذا الذل. أرجوك ألا تتحدث عن هذا الرجل الكريه. إن من أقسى الأمور في العالم، في رأيي، هو أن توقّف ضيعتك فلا تفيد منها بناتك. ولو كنت مكانك لحاولت اتخاذ أي إجراء منذ وقت طويل.

وحاولت جين وإليزابيث أن تشرحا لها طبيعة الملكية الموقوفة/ وكثيراً ما حاولتا ذلك من قبل، غير أن هذا الموضوع كان أبعد مما يمكن لعقل مسز بينت أن يصل إليه، واستمرت في شكواها المرة من القسوة البادية في إيقاف ضيعة وانتزاعها من أسرة ذات خمس بنات، وذلك لمصلحة رجل لا يعبأ به إنسان.

وقال مستر بينت:

- إنه بالتأكيد أمر غير عادل بالمرة. وليس هناك ما يمكن أن يبرئ مستر كولنز من ذنب وراثة «لونجبورن». ولكن إذا أنصتَ إلى خطابه فربما سكنت نفسك قليلاً بفعل الطريقة يعبر بها عن أفكاره.

- لا، أنا واثقة من أنني لن أرتاح إليه، وأظن من الوقاحة والنفاق البالغين أن يكتب إليك أصلاً. إنني أكره مثل هؤلاء الأصدقاء الزائفين. لماذا لا يستمر في العراق معك مثلما فعل والده من قبل؟
- يبدو أن بعض الوسواس المرتبطة بمشاعر البنوة قد راودته في هذا الصدد، كما ستسمعين:

هنسفورد، قرب وسترهام، كنت، في ١٥ أكتوبر.
سيدي العزيز...

إن الشقاق الذي كان قائماً بينكم وبين والدي المبجل رحمه الله، قد سبب لي دائماً كثيراً من القلق. ومنذ أن فقدت صحبته لسوء الحظ، كثيراً ما راودتني الرغبة في رأب الصدع، ولكن شكوكي حالت بيني وبين ذلك لفترة من الوقت؛ إذ كنت أخشى أن يكون من قبيل عدم الاعتبار لذكراه أن أنشئ علاقات طيبة مع أي امرئ كان يلذ له أن يختلف وإياه. (وأنصتي إلى هذا يا مسز بينت) إلا أنني قد حزمت رأيي الآن فيما يختص بهذا الموضوع. فعلى أثر سياسي في عيد الفصح الماضي، أسعدني الحظ إذ اختصتني برعايتها السيدة الفاضلة ليدي كاثرين دي بورو أرملة سير لويس دي بورو، دفعها كرمها وأريحيته إلى اختياري راعياً لهذه الأبرشية القيّمة حيث أسعى إلى بذل قصارى جهدي لإدلال نفسي احتراماً مني وامتناناً لسيادتها، وأتبعها دائماً لأداء تلك الطقوس والشعائر التي سنتها كنيسة إنجلترا. وبالإضافة إلى ذلك فإنني أشعر بأن من واجبي، بصفتي كاهناً، أن أنشر نعمة

السلام على الأسر التي تقطن في دائرة اختصاصي. وعلى هذا الأساس أمني النفس بأن ما أعرضه الآن عليكم من دلائل النية الطيبة هو أمر حميد للغاية، وبأن مسألة كوني صاحب الحق من بعدكم في وقف ضيعة «لونجبورن» سوف تكون موضع صفح كريم من جانبكم، وأنها لن تؤدي بكم إلى رفض غصن الزيتون الممدود. فلا يمكن لي إلا أن أكون مشغول البال باعتباري مصدر إيلام لبناتكم اللطيفات، وأرجو أن تأذنوا لي بالاعتذار عن هذا الوضع، بالإضافة إلى طمأننتكم على استعدادي للقيام بكل ما يمكن أن يصحح لهن أوضاعهن؛ وليكن هذا حديثاً مؤجلاً. فلو لم يكن لديكم اعتراض على استقبالي بمنزلكم، فإني أختص نفسي بحظوة زيارتكم وأسرتكم في يوم الاثنين الثامن عشر من نوفمبر حوالي الساعة الرابعة مساءً، ولربما أثقلت على كرم ضيافتكم حتى يوم السبت بعد الذي يليه، الأمر الذي يمكنني تدبيره دون تعب، حيث إن ليدي كاثرين لا تعترض أبداً على غيابي بين الحين والحين في أيام الأحاد طالما أن هناك كاهناً آخر يتولى القيام بواجبات هذا اليوم.

وإني يا سيدي العزيز، إذ أبعث بتحيات الاحترام لقرينتك وبناتك، أظل على الدوام صديقك وطالب الخير لك.

وليم كولنز

وقال مستر بينت وهو يطوي الخطاب:

- ولهذا فنحن نتوقع وصول هذا الرجل الذي يعرض علينا السلام في الساعة الرابعة مساءً. يبدو أنه شاب حي الضمير ومؤدب إلى أقصى

حد، ولا أشك أنه سيصبح صديقاً لنا ذا شأن، خاصة إذا تساهلت ليدي
كاثرين فسمحت له بزيارتنا ثانية.

- إن هناك جانباً معقولاً فيما يقوله عن البنات. ولو كان في نيته أن
يقوم بأي تصحيح لأوضاعهن، فلن أثبط من عزمه.
وقالت جين:

- رغم صعوبة التكهن بالوسيلة التي سوف يلجأ إليها ليعوضنا عما
يظنه حقنا، فإن الرغبة نفسها تعتبر بالتأكيد شهادة على فضله.
ودهشت إليزابيث أساساً لإذعانه الغريب لليدي كاثرين، ولنيتها
الطيبة في أداء مراسم العمداء والزواج والدفن بين رعيته وقتما يطلب منه
ذلك. وقالت:

- إنه شخص شاذ في تقديري، فأنا لا أستطيع فهمه. إن أسلوبه يدل
على شيء من المباهاة. ثم ماذا يعني بالاعتذار عن كونه صاحب الحق
في الوقف؟ إنه لا يستطيع أن يغير هذا الوضع حتى لو أراد، أيمن أن
يكون رجلاً معقولاً يا سيدي؟

- لا يا عزيزتي، لا أظن ذلك؛ وإنه لتراودني آمال كبيرة في أن يكون
على عكس ما تقولين. ففي خطابه مزاج من المذلة والإحساس بأهمية
شخصه، الأمر الذي يوحي بالكثير. إنني في غاية الشوق لرؤيته.
وقالت ميري:

- إن خطابه يبدو خالياً من النواقص، فيما يتعلق بالجانب الشكلي.
ورغم أن فكرة غصن الزيتون قد لا تكون جديدة تمامًا، فإني أظن أنه عبر
عنها تعبيراً جيداً.

أما كاثرين وليديا فلم يجدا في الخطاب أو في كاتبه ما يمنع. فقد كان من قبيل المستحيل أن يصل ابن عمهما متدثراً بمعطف قرمزي؛ وقد انصرمت الآن بضعة أسابيع على الوقت الذي كانتا تبتهجان فيه لصحبة رجل يتبدى في ثياب ذات لون مختلف. أما أمهما فقد أزال عنها خطاب مستر كولنز كثيراً من حقدتها، وأخذت تتهياً لاستقباله بشيء من سكينّة النفس، مما أدهش زوجها وبناتها.

وكان مستر كولنز دقيقاً في مراعاة الموعد الذي ضربه، واستقبلته الأسرة كلها بأدب جم. صحيح أن مستر بينت كان قليل الكلام، ولكن السيدات كنَّ على أتم استعداد للحديث، أما مستر كولنز فلم يكن فيما يبدو محتاجاً إلى تشجيع أو ميالاً إلى التزام الصمت. لقد كان شاباً طويل القامة ذا ملامح غير جذابة في الخامسة والعشرين من عمره. وكان ذا مظهر وقور جليل كما كان سلوكه رسمياً تماماً. ولم يمضِ على جلوسه وقت طويل حتى حيا مسز بينت على رعايتها لمثل هذه المجموعة الرائعة من البنات، وقال إنه سمع الكثير عن جمالهن، إلا أن الصيت في هذه المرة لم يرقَّ إلى مستوى الحقيقة، وأضاف أنه لا يشك في رؤيتها لهن وقد أصبن في الوقت المناسب أفضل الزيجات. ولم تصادف هذه الكياسة قبولاً لدى بعض مستمعاته، ولكن مسز بينت التي لم تكن لتتعارك مع التحايا، أجابت وهي حاضرة الذهن تماماً:

- إنك بالغ الكرم يا سيدي، وإني لأتعشم من صميم قلبي أن يتحقق قولك، وإلا عشن حياة الكفاف. إن للأمور أوضاعاً شاذة.

- ربما كنت تشيرين إلى وقف هذه الضيعة.

- فعلاً يا سيدي. لا بد أن تقر بأن ذلك أمر محزن لبناتي المسكينات. ولست أقصد أن أحملك مسؤولية الخطأ، فأنا أعرف أن مثل هذه الأمور تحدث في هذا العالم بطريق الصدفة. إن الإنسان لا يعلم مصير الضياع إذا خضعت يوماً لنظام الوقف.

- إني واعي تماماً يا سيدتي بالظلم الواقع على بنات عمي الحسنات، وأستطيع أن أقول الكثير في هذا الموضوع، لولا خشيتي من الظهور بمظهر المندفع المتسرع. ولكنني أؤكد للآنسات أنني جئت متأهباً للإعجاب بهن. ولن أضيف المزيد في الوقت الحاضر، إلا أنه عندما تتوطد صداقتنا، فربما...

وقاطعه إخطار بأن العشاء جاهز، وابتسمت البنات بعضهن لبعض. ولم يكنّ وحدثن محط إعجاب مستر كولنز، فقد فحص الضيف الصالة وحجرة الطعام وأثائها كله، وأطراها جميعاً. وكان يمكن لثنائه على كل شيء أن يمس قلب مسز بينت، لولا الظن المكدر بأنه كان يجيل النظر في المكان بصفته مَلِكاً له في مقبل الأيام. كذلك فقد أخذ العشاء نصيبه من الإعجاب البالغ، وطلب الضيف معرفة إلى أيّ من بنات عمه الحسنات ترجع جودة طهي الطعام. وهنا صححت له مسز بينت رأيه حين أكدت له بشيء من الحدة أنهم كانوا قادرين تماماً على تشغيل طاهية ممتازة، وأن بناتها لم يكن لهن بالمطبخ شأن. وسألها الصفح لما سببه لها من كدر؛ وأعلنت هي في لهجة ناعمة أنها لم تستشعر أي إساءة، ولكنه استمر يعتذر طوال ربع ساعة.

الفصل الرابع عشر

لم يتحدث مستر بينت على مائدة الطعام إلا فيما ندر، ولكن بعد انسحاب الخدم من الحجرة، قدّر أنه من المناسب أن يحدث ضيفه، ففتح موضوعًا توقع منه أن يتألق فيه، عندما أشار إلى حسن حظه لانضوائه تحت ولاية راعيته. فقد كانت مراعاة ليدي كاثرين دي بورو لرغباته وتقديرها لراحته من الأمور الجديرة بالاعتبار. وما كان يمكن لمستر بينت أن يختار موضوعًا أفضل من هذا، فقد كان مستر كولنز بليغًا في الثناء عليها. وسما به الموضوع إلى أرقى مما يسمح به وقار السلوك المألوف، وبانت على ملامحه علائم الأهمية وهو يعلن أنه «لم يشهد في حياته كلها مثل هذا السلوك المهذب من جانب إنسان ذي مركز اجتماعي، ومثل هذه البشاشة وهذا التلطف، مثلما عاد عليه من علاقته بليدي كاثرين. فقد كان من دواعي سرورها الكريم أن تستصوب الموعظتين اللتين كان له شرف إلقائهما في حضرتها. كذلك فقد دعه مرتين لتناول العشاء في «روزينجز»، وطلبت منه الحضور يوم السبت الفائت ليسد النقص في لعبة الورق الرباعية ذلك المساء. ومن الحق أنه كان يعلم أن ليدي كاثرين كانت تُعتبر امرأة متكبرة في رأي الكثيرين، ولكنه لم يرَ منها على الإطلاق إلا كل ود. فدائمًا ما كانت

تحادثه مثلما تحدث أي رجل آخر، ولم يدر منها أدنى اعتراض على انضمامه لمجتمع الناحية، أو على مغادرته الأبرشية بين حين وآخر لمدة أسبوع أو اثنين لزيارة أقاربه. ولقد تعطف فنصحته بأن يتزوج بأسرع ما يستطيع بشرط أن يحسن اختيار عروسه، وزارته في يوم ما في بيته المتواضع، حيث وافقت تمامًا على كل التعديلات التي كان يجريها، بل وتنازلت باقتراح إجراء بعض منها، بما في ذلك وضع بعض الرفوف في حجرات الطابق الثاني».

وقالت مسز بينت:

- هذا دليل على حسن اللياقة والأدب الكاملين، وإني أظنها امرأة لطيفة للغاية. من المؤسف ألا تتشبه بها السيدات الفضليات عمومًا. أتسكن بجوارك يا سيدي؟

- إن الحديقة التي يقوم فيها مسكني المتواضع لا يفصلها عن «روزينجز بارك» وهو مقر سيادتها إلا ممر صغير.

- يخیل إليّ يا سيدي أنك ذكرت أنها أرملة، فهل لديها أبناء؟

- لديها ابنة وحيدة، وهي وريثة «روزينجز» وأملاك شاسعة غيرها.

وصاحت مسز بينت قائلة وهي تهز رأسها:

- إذن فهي أسعد حظًا من فتيات كثيرات. وأي نوع من الأنسات هي؟ أهي جميلة؟

- إنها أشد الأنسات سحرًا وفتنة. وتقول ليدي كاثرين نفسها إن مس

دي بورو تتفوق إلى حد بعيد على أشد بنات جنسها حسنًا، وذلك فيما

يتعلق بخصائص الجمال الحق؛ لأن ملامحها تدل على عراقة أصلها. وهي للأسف تعاني من بنية معتلة، الأمر الذي حرّمها من التفوق في كثير من الإنجازات التي كان يستحيل لولا ذلك أن تقصر دونها. ولقد أخبرني بذلك السيدة التي أشرفت على تثقيفها والتي لا تزال تقطن مع الأسرة. ولكنها فتاة ظريفة تمامًا، وكثيرًا ما تتعطف وتمر بجوار مسكني المتواضع في مركبتها الصغيرة.

- هل تشرفت بلقاء صاحب الجلالة؟ إني لا أذكر اسمها بين سيدات البلاط.

- إن حالتها الصحية المتوقعة تحرمها للأسف من التردد على لندن. وعلى هذا فقد حُرّم بلاط إنجلترا - كما قلت لليدي كاثرين يومًا - من أكثر جواهره تألقًا. وسُرّت سيادتها من الفكرة فيما يبدو؛ ولك أن تتصورني كم يسعدني أن أعرب في كل مناسبة عن تلك التحايا الصغيرة الرقيقة التي تحوز القبول دائمًا عند السيدات. فلقد أُلححت لليدي كاثرين أكثر من مرة أن ابنتها الساحرة تبدو وكأنها وُلدت لتكون إحدى دوقات المجتمع، وأن أسمى مراتب الأرستقراطية لا تضفي عليها علو الشأن، وإنما تتحلّى بشخصها الساحر. هذا هو نموذج من اللفتات الصغيرة التي تسبغ السرور على سيادتها، وهو نوع من الاهتمام أجد نفسي ملزمًا بإبدائه.

وقال مستر بينت:

- إنك قادر على الحكم السليم، وإنه لمن حسن حظك أنك تحظى بملكة المداجاة المصحوبة بالكياسة. هل لي أن أسأل ما إذا كانت هذه

اللفتات اللطيفة تنبع من وحي اللحظة أو أنها تنشأ عن تدبير سابق؟

- إنها تنبع في الأساس من اتجاهات الذوق الشائعة. ورغم أنني أستمتع في بعض الأحيان بابتكار هذه التحايا الصغيرة المتأنقة وإعدادها بما يتلاءم مع المناسبات العادية، إلا أنني أميل دائماً إلى إضفاء طابع التلقائية عليها بقدر الإمكان.

وظهر أن توقعات مستر بينت في محلها تماماً، فقد كان ابن عمه سخيلاً بقدر ما كان يأمل. وأخذ ينصت إليه بمتعة بالغة محتفظاً في ذات الوقت بهدوء وجهه الكامل. وفيما عدا بعض النظرات التي كان يوجهها إلى إليزابيث بين الحين والآخر، فلم يكن في حاجة إلى شريك يقاسمه متعته.

وبحلول موعد تناول الشاي كان الجميع قد أخذوا كفايتهم من جرعة الحديث، وسعد مستر بينت إذ اصطحب ضيفه ثانية إلى حجرة الاستقبال، وسعد أيضاً -حين فرغ الحاضرون من احتساء الشاي- إذ دعاه للقراءة أمام السيدات بصوت عالٍ. ووافق مستر كولنز بسرعة، وقُدِّم إليه كتاب، ولكنه أجفل لدى رؤيته (فقد كانت كل الدلائل تشير إلى أن الكتاب مأخوذ من مكتبة متنقلة). واحتج -طالباً العفو- بأنه لا يقرأ الروايات أبداً. وحملقت فيه كيتي وأطلقت ليديا صيحة استعجاب. وقُدِّمَت إليه كتب أخرى، فتدبر كثيراً ثم اختار كتاب «العظا» الذي وضعه فوردرايس. وتشاءبت ليديا وهو يفتح الكتاب، وقبل أن ينتهي من تلاوة ثلاث صفحات برصانة راتبة، قاطعته بقولها:

- أتعرفين يا أمّاه أن خالي فيليبس يفكر في طرد ريتشارد من خدمته؟ إذا فعل ذلك فسوف يستخدمه كولونيل فورستر. لقد أخبرتني بذلك خالتي نفسها يوم السبت؛ وسأذهب إلى «ميريتون» غدًا لأسمع المزيد عن هذا الموضوع، ولأسأل عن موعد عودة مستر ديني من لندن. وأمرت الأختان الكبريان ليديا بالخلود إلى الصمت، ولكن مستر كولنز وضع الكتاب إلى جانبه وقد استاء كثيرًا، وقال:

- لقد لاحظت كثيرًا أن الأنسات عمومًا لا يعرن الكتب ذات الطابع الجاد إلا أقل اهتمام، رغم أن هذه الكتب قد وُضعت لنفعهن دون غيرهن. وأقر بأن هذا الأمر يدهشني؛ لأنه ليس هناك ما يفيدهن قدر الثقيف. ولكنني لن أثقل ثانية على ابنة عمي الصغيرة.

ثم استدار إلى مستر بينت ودعاه إلى لعب النرد. وقَبِلَ مستر بينت التحدي منوهًا بأنه قد تصرف بحكمة بالغة إذ ترك الفتيات لمتعهن التافهة. واعتذرت مسز بينت وبناتها بمنتهى الأدب عن مقاطعة ليديا له، ووعدن بأن هذا لن يتكرر ثانية لو شاء استئناف القراءة. ولكن مستر كولنز أكد لهن أنه لا يكنّ أي حقد لابنة عمه الصغيرة، ولم يعتبر سلوكها إهانة لشخصه، وأردف هذا القول بأن جلس مع مستر بينت إلى مائدة أخرى وتهيأ للعبة النرد.



الفصل الخامس عشر

لم يكن مستر كولنز رجلاً حسن الإدراك للأمور. ولم يجد هذا النقص في شخصيته إلا أقل التعويض سواء من ناحية الثقافة أو صحبة الناس. فقد قضى الشطر الأكبر من حياته تحت رعاية والد جاهل شحيح اليد؛ ورغم أنه التحق بإحدى الجامعات إلا أنه لم يزد عن الانتظام في الدراسة دون أن ينشئ أي علاقة نافعة. وأدت روح الإذعان التي رباه عليها والده إلى إضفاء طابع المذلة البالغة على سلوكه في مبدأ الأمر. إلا أن هذا الطابع في شخصيته قد تأثر فيما بعد إلى حد بعيد بإحساس بالزهو ناشئ عن تفاهة في الفكر، وبالعيش في عزلة عن الناس، وبما ترتب على إحساسه بالثروة المبكرة غير المتوقعة. وقد أسعده الحظ إذ تعرف على ليدي كاثرين دي بورو في الوقت الذي كان فيه المنصب الكنسي في «هنسفورد» شاغراً. وأدى به احترامه لمنزلتها الرفيعة وتبجيله لها بوصفها ولية نعمته، بالإضافة إلى إعلائته لشأن نفسه وشأن سلطته كرجل من رجال الكنيسة وحقوقه ككاهن، أدى به كل ذلك إلى أن يصبح مزاجاً من الكبرياء والخنوع، من الإحساس بأهمية شخصه والشعور بالضعف.

وإذ كان يحظى الآن بيت ملائم ودخل كافٍ، فقد عقد النية على الزواج. وكان في سعيه للوفاق مع أسرة «لونجبورن» يضع نصب عينيه مسألة الحصول على زوجة، إذ كان ينوي اختيار إحدى بنات الأسرة، إذا وجدهن مليحات لطيفات كراي الناس فيهن. وكانت هذه خطته لتصحيح الأوضاع، وللتكفير عن ورائته لضبيعة والدهن. وكان يظن أن هذه خطة ممتازة، لائقة ومناسبة للغاية، فضلاً عن كونها كريمة لأقصى حد ومنزهة عن الأغراض.

ولم تتغير خطته لدى رؤيتهن. فقد أكد وجه مس بينت الجميل أفكاره، ودعم آراءه الراسخة فيما يختص بمستلزمات السمو، فكانت موضع اختياره في أول أمسية قضاها مع الأسرة. إلا أن صباح اليوم التالي قد استحدث تعديلاً. ففي حديث شخصي بينه وبين مسز بينت دام ربع ساعة قبل موعد الإفطار، بدأ مستر كولنز حوارًا عن بيته واستطرد بشكل طبعي إلى التصريح عن آماله في العثور على سيدة له بين آنسات «لونجبورن»، الأمر الذي أدى بها -وسط ابتسامات ملاطفة وتشجيع كبير- إلى تحذيره من التفكير في جين التي كان رأيه قد استقر عليها. «أما فيما يختص ببناتها الأصغر سنًا، فهي لا تستطيع أن تجزم بأمر، ولا تستطيع أن ترد عليه ردًا قاطعًا، وإن كان ليس لها علم بأي ارتباطات سابقة. أما بالنسبة لابنتها الكبرى، فلا بد أن تشير، ولا بد أن تلمح إليه إحساسًا منها بواجبها، أن من المحتمل عقد خطوبتها في القريب العاجل».

ولم يكن على مستر كولنز إلا أن يتحول من جين إلى إليزابيث، وسرعان ما حدث هذا التحول بينما كانت مسز بينت تقلب جمرات النار في المدفأة. ولما كانت إليزابيث على قدم المساواة مع جين في عراقة النسب وجمال المنظر، فقد احتلت بالطبع منزلتها في نفسه.

واحتفظت مسز بينت بإشارته العابرة وأيقنت أنها ستزوج اثنتين من بناتها في أقرب فرصة. أما الرجل الذي لم تكن تحتل بالأمس الحديث عنه، فقد احتل الآن مركزاً عالياً في تقديرها.

ولم تنسَ ليديا عزمها في السير إلى «ميريتون»، ووافقت كل الشقيقات باستثناء ميري على الذهاب معها. واستقر الرأي على أن يصحبهن مستر كولنز استجابة لطلب مستر بينت الذي كان شديد الرغبة في الخلاص منه والاستئثار بمكتبته؛ إذ إنه بعد الانتهاء من تناول طعام الإفطار تبعه مستر كولنز إلى هناك حيث انشغل شكلاً بواحد من أضخم المجلدات في مجموعة الكتب، وإن استمر في واقع الأمر يتحدث إلى مستر بينت دون توقف عن بيته وحديقته في «هنسفورد». وكانت مثل هذه الفعال تسبب الاضطراب الشديد لمستر بينت. فقد كان يشعر دائماً في مكتبته بالثقة في توفر الراحة والسكينة. ورغم أنه كان يوطد النفس - كما قال لإليزابيث - على ملاقة الحماقة والغرور في كل حجرة من حجرات المنزل، فقد درج على التحرر منهما في مكتبته. ولهذا السبب فقد سارع بالتلطف مع مستر كولنز، داعياً إياه للانضمام إلى بناته في سيرهن. ولما كان مستر كولنز في حقيقة الأمر مهياً ليكون مشاءً لا قارئاً، فقد كان من دواعي سروره العظيم أن يغلق كتابه الضخم ويغادر الحجرة.

وانقضى الوقت في التباهي بالتفاهات من جانبه وفي علامات الموافقة المهذبة من جانب بنات عمه حتى وصلت الجماعة إلى «ميريتون». ولم يعد في إمكانه بعد الآن أن يستلفت انتباه الأختين الصغريين، فقد كانت أعينهما تجول بسرعة في أرجاء الشارع بحثاً عن الضباط؛ وما كان يمكن لأقل من قبعة أنيقة حقاً، أو رداء جديد فعلاً من الحرير في واجهة محل، أن تسترد انتباه تلك الأعين.

ولكن ما لبث انتباه الأنسات جميعاً أن شُدَّ إلى شاب لم تقع عليه أنظارهن من قبل، وكان ذا مظهر نبيل للغاية يسير بصحبة ضابط على الناحية الأخرى من الطريق. أما الضابط فكان هو نفسه مستر ديني الذي جاءت ليديا لتستفسر عن موعد عودته من لندن؛ وقد انحنى تحية للجماعة عند مرورها. ودُهِش الجميع لهيئة الغريب، وتعجبوا متسائلين عن هويته. وإذ عزمت كيتي وليديا على معرفة ما غمض بقدر الإمكان، فقد تصدرتا الجماعة وعبرتَا بها الطريق تحت ستار الرغبة في شراء شيء ما من المحل المقابل. ولم تكادا -لحسن حظهما- تصلان إلى الطوار، حتى كان السيدان قد وصلا إلى نفس المكان، بينما كانا يقفان راجعين. وحياهما مستر ديني على الفور وطلب الإذن ليقدم لهما صديقه مستر ويكهام الذي صحبه في عودته من لندن في اليوم السابق، والذي يسعه أن يقول إنه قبل التكليف بالعمل في كتيبته. وكان هذا بالضبط ما يجب أن يكون، فلم يكن ينقص الشاب إلا الكسوة العسكرية حتى يكتمل سحره. لقد كان مظهره لائقاً تماماً؛ إذ كان يحظى بأفضل علامات الجمال، كوجه دقيق الملامح وقوام رشيق وهيئة محببة إلى النفس. وعلى

أثر التعارف أبدى استعدادًا طيبًا للحديث من جانبه، استعدادًا يتصف بسلامة السلوك وعدم الافعال في ذات الوقت. وكانت الجماعة كلها لا تزال واقفة ولا يزال أفرادها يتبادلون الأحاديث بما يبعث البهجة في النفوس، عندما استلقت انتباه الجماعة صوت وقع جياد، وإذا بدارسي وبينجلي يظهران في الطريق على صهوتي جواديهما. وإذا تعرف السيدان على السيدات، فقد قدما مباشرة ناحيتهن وشرعا في إبداء المجاملات المألوفة. وكان بينجلي هو المتحدث الأساسي أما مس بينت فكانت الهدف الأساسي، وقال إنه كان في طريقه إلى «لونجبورن» خصيصًا ليستفسر عن صحتها. وعزز مستر دارسي هذا القول بانحناءة، وكان على وشك أن يقرر ألا يثبت ناظره على إليزابيث عندما وقعت عيناه فجأة على الرجل الغريب. وإذا تصادف لإليزابيث أن رأت وجهي كل منهما في لحظة أن نظر الواحد منهما للآخر، فقد استولت عليها الدهشة لما أحدثه اللقاء من أثر. لقد تغير اللون في وجه الاثنين معًا، فشح البياض في أحدهما والاحمرار في الآخر. ومضت بضعة لحظات قبل أن يلمس مستر ويكهام قبعته، وهي تحية تنازل مستر دارسي بالكاد وردها. ما معنى ذلك؟ لقد كان التصور ضربًا من المستحيل، كما كان من المحال ألا تحرق شوقًا لمعرفة الحقيقة.

ومضت دقيقة، استأذن بعدها مستر بينجلي دون أن يلحظ فيما يبدو ما جرى، وانطلق بصحبة صديقه.

وسار مستر ديني ومستر ويكهام مع الأنسات حتى باب منزل مستر فيليبس، ثم انحنيا تحية لهن، رغم إلحاح ليديا عليهما بالدخول،

وحتى برغم ما قامت به مسز فيليس من فتح نافذة حجرة الجلوس على مصراعها وتعزيد الدعوة بصوت عالٍ.

وكانت مسز فيليس تشعر دائماً بالسعادة لرؤية بنات أختها، وقد رحبت ترحيباً خاصاً بالكبريين منهن، بسبب غيابهما عنها في الفترة الأخيرة. وأخذت تعبر في حرارة عن دهشتها لعودتهما المفاجئة إلى منزلهما، الأمر الذي ما كان ليتسنى لها أن تدري به - حيث إن عربتها الخاصة لم تعد بهما - لولا أن رأت الصبي الذي يعمل في محل مستر جونز مصادفة في الشارع، والذي أخبرها أن المحل لن يوالي إرسال الدواء إلى «نيدر فيلد»، حيث إن الأختين بينت قد رحلتا من هناك. وسرعان ما اتجهت بمجاملاتها إلى مستر كولنز بعد أن قدمته جين إليها، واستقبلته بكل ما يمكن أن تظهره من أدب جم بادلها إياه، واعتذر لتطفله عليها دون معرفة سابقة، وإن كان لا يملك إلا أن يمني نفسه بتبرير موقفه على أساس علاقته بالآنسات اللاتي قدمته إليها. وحلّت بمسز فيليس رهبة شديدة لهذا الفيض من دلائل كرم المحتد. ولكن تفكيرها في هذا الرجل الغريب ما لبث أن قوطع بالصيحات والاستفسارات عن الغريب الآخر، الذي لم يكن يمكنها أن تضيف جديداً إلى معلومات بنات أختها عنه، من حيث إن مستر ديني قد أتى به من لندن، وأنه سيحصل على رتبة ملازم في كتيبة... وقالت إنها أخذت تراقبه خلال الساعة الأخيرة بينما كان يذرع الشارع جيئةً وذهاباً. ولو كان مستر ويكهام قد عاود الظهور لاستأنفت كيبي وليديا بالتأكيد مهمة المراقبة. ولكن لسوء الحظ لم يمر حينذاك أحد قرب النوافذ إلا بضع ضباط «أغبياء بغيضين إلى النفس»

بالقياس إلى الغريب الوافد. وكان من المقرر أن يتناول بعضهم العشاء مع أسرة مستر فيليبس في اليوم التالي، وقطعت خالتهن على نفسها وعدًا بأن تحث زوجها على زيارة مستر وبكهام وتوجيه الدعوة إليه أيضًا، وذلك إذا ما حضرت أسرة «لونجبورن» في المساء. واتفق الجميع على هذا، وأعلنت مسز فيليبس أنهم سوف يستمتعون بلعبة لطيفة مريحة صاخبة تقوم على تذاكر اليانصيب، ثم يتبعون ذلك بتناول العشاء. وأثار الأمل في التمتع بهذه المباهج الانتعاش في النفوس، ورحلت الجماعة وقد حل المرح بين الجميع. وكرر مستر كولنز اعتذاره عند مغادرته الحجرة، ولكن مسز فيليبس أكدت له بأدب لا يكل أن لا حاجة به إلى الاعتذار أبدًا.

وفي طريق العودة قصت إليزابيث على جين ما دار بين الرجلين، ولكن رغم أن جين كانت تود الدفاع عن أي منهما أو عنهما معًا حتى لو كانا على جانب الخطأ، إلا أنها لم تستطع -شأنها شأن شقيقتها- تفسير هذا السلوك.

وأدخل مستر كولنز عند عودته البهجة على مسز بينت بما أبداه من إعجاب بسلوك مسز فيليبس ودماثة خلقها. وأعلن أنه لم يرَ في حياته أبدًا سيدة تفوقها كياسة، وذلك باستثناء ليدي كاثرين دي بورو. فهي لم تستقبله بمتنهي الأدب فحسب، وإنما أصرت على دعوته في المساء التالي رغم أنه لم يكن بينها وبينه سابق معرفة. وقد رأى أن الأمر قد يعود إلى علاقته بالأسرة، ولكنه مع ذلك لم يصادف مثل تلك الرعاية العظيمة طوال حياته كلها.

الفصل السادس عشر

لما لم يكن هناك أي اعتراض على موعد الأنسات مع خالتهن، ولما كانت مخاوف مستر كولنز المترتبة على تركه مستر ومسز بينت وحدهما طيلة أمسية أكملها أثناء نزوله عندهما قد لقيت مقاومة حاسمة، فقد أفلته العربة هو وبنات عمه الخمس إلى «ميريتون» في موعد مناسب؛ وكان من دواعي سرور الفتيات أن سمعن بمجرد دخولهن حجرة الاستقبال أن مستر ويكهام قد قبل دعوة زوج خالتهن، وأنه موجود بالمنزل.

وعندما ذاع هذا النبأ، ولزم الجميع مقاعدهم، سنحت لمستر كولنز فرصة التطلع حوله وإبداء إعجابه. وقد بلغت دهشته من سعة الشقة وروعة أثاثها حدًا جعله يصرح بأنه كان قد أوشك على الظن بوجوده في صالة الإفطار الصيفية الصغيرة في «روزينجز»، وهي مقارنة لم تحمل في مبدأ الأمر أي إرضاء للخاطر. ولكن عندما فهمت مسز فيليبس منه حقيقة «روزينجز» وشخصية مالكته، وعندما أنصتت إلى وصفه لواحدة فقط من حجرات الاستقبال في منزل ليدي كاثرين، وعلمت أن حلية المدفأة وحدها قد تكلفت ثمانمائة جنيه، حينذاك شعرت بقيمة إطرائه لمنزلها، وبأنها ما كانت لتستنكر مقارنته بحجرة مدبرة ذلك المنزل.

وشملت السعادة وهو يصف لها جلال ليدي كاثرين وفخامة قصرها مع بعض الاستطراد في الشاء على مسكنه المتواضع والتحسينات التي أدخلها عليه، وانغمس في هذا حتى انضم السادة إليهم. وقد رأى في مسز فيليبس امرأة تحسن الإصغاء، كما وجد أن تقديرها لمنزلته قد تزايد نتيجة لما سمعته منه، وأنها مصممة على نشر ما علمته بين جيرانها بأسرع ما تستطيع. وبدأت مهلة الانتظار طويلة على الفتيات اللاتي لم يستطعن الاستماع إلى ابن عمهن، واللاتي لم يجدن ما يفعلن إلا أن يمينن النفس بالاستماع إلى بعض الموسيقى، وأن يسعين عبثاً إلى اكتناه أي شبه بينهم وبين الدمى الصغيرة على رف المدفأة. وانقضى الوقت أخيراً على أي حال، وتقاطر السادة. وعندما خطا مستر ويكهام إلى الحجرة شعرت إليزابيث أن رؤيتها له من قبل، وتفكيرها فيه منذ أن رآته، قد بعثا في نفسها قدراً كبيراً من إعجاب في محله. لقد كان ضباط كتيبة... عموماً مجموعة من الرجال ذوي السمعة الحسنة، كما كان أفضلهم حاضرين ضمن هذه الجماعة. ولكن مستر ويكهام تفوق عليهم إلى حد بعيد سواء من ناحية شخصه أو جمال طلعه أو مظهره أو مشيته، بقدر ما تفوقوا هم على الخال فيليبس ذي الوجه العريض والجسم الممتلئ، الذي تفوح منه رائحة النبيذ والذي دخل الحجرة في أعقابهم.

كان مستر ويكهام هو الرجل المحظوظ الذي استدارت إليه أعين معظم الإناث، بينما كانت إليزابيث هي المرأة المحظوظة التي اتخذ مجلسه آخر الأمر بجوارها. وأشعرتها الطريقة اللطيفة التي انغمس بها مباشرة في الحديث، رغم أن الكلام لم يتعد الإشارة إلى كون

الليلة ممطرة واحتمال هطول المطر مرارًا في فصل الشتاء، بأن أتفه الموضوعات وأسخفها وأشدّها رثاءة قد يصبح شيئًا نتيجة لمهارة المتحدث.

وإزاء وجود هؤلاء المنافسين -مثل مستر ويكهام والضباط- في شد انتباه الجميلات، بدا مستر كولنز وكأنه فقد أهميته. فبالنسبة للأنسات لم يكن بالتأكيد شيئًا يذكر، ولكنه كان لا يزال يجد أحيانًا عند مسز فيليبس أذنا صاغية، كما أنه حظي بأنصبّة وافرة من القهوة والفطائر نتيجة لكريم التفاتها إليه.

وعندما أعدت موائد اللعب، حانت له بدوره فرصة إكرامها بمشاركتها في لعب الورق، وقال لها:

- إنني لا أعرف الكثير من أصول اللعبة في الوقت الحاضر، ولكنني سأكون سعيدًا إذ أستزيد منها؛ ففي ظروف مركزي في الحياة...

وشكرته مسز فيليبس على استجابته، وإن لم تستطع الانتظار لسماع مبرراته.

ولم يشارك مستر ويكهام في هذه اللعبة، وإنما جلس على المائدة الأخرى بين إليزابيث وليديا اللتين استقبلتاها بمنتهى السرور. وبدأ لأول وهلة أن هناك خطرًا من استحواذ ليديا عليه كلية، فقد كانت متحدثة ذات عزيمة لا تلين. ولكنها إذ كانت في نفس الوقت شغوفة إلى أقصى حد بتذاكر اليانصيب، فقد انغمست في اللعبة بسرعة، وتحمست في إجراء المراهقات والصياح على الجوائز لدرجة تعذر معها أن تبدي اهتمامها بشخص معين. ورغم الالتزامات الجماعية للعبة، فقد سنحت

لمستر ويكهام فرصة الحديث مع إليزابيث. وكانت هي شديدة الرغبة في الاستماع إليه، رغم أن ما أرادت في الأساس أن تسمعه لم يكن بمستطاعها أن تأمل في سماعه -ألا وهو تاريخ علاقته بمستر دارسي. إنها لم تجرؤ حتى على الإشارة لذلك الرجل. غير أن حدة فضولها قد خفت على نحو غير متوقع، إذ فتح مستر ويكهام الموضوع بنفسه. فقد استفسر عن طول المسافة بين «نيدر فيلد» و«ميريتون»؛ وما إن تلقى جوابها، حتى سأل متردداً عن الفترة انقضت على نزول مستر دارسي في ذلك البيت.

وقالت إليزابيث:

- حوالي شهر.

ثم أضافت قائلة خشية أن ينتهي الموضوع عند ذلك الحد:

- مبلغ علمي أنه صاحب أملاك واسعة للغاية في «داربيشير».

وأجاب ويكهام:

- نعم، فضيعته هناك ذات شأن عظيم. إنها تدر عليه دخلاً صافياً قدره عشرة آلاف جنيه في العام. ليس هناك من هو أقدر مني على تزويدك بمعلومات أكيدة في هذا الصدد؛ إذ إنني كنت على صلة بأسرته، على نحو ما، منذ طفولتي المبكرة.

وظهرت الدهشة على وجه إليزابيث:

- لك الحق في أن تدهشي يا مس بينت إزاء ما أقرره، بعد أن رأيت -والراجح أنك رأيت- ذلك البرود الشديد الذي اتسم به لقاءنا

بالأمس. هل لك صلة وطيدة بمستر دارسي؟

وقالت إيزابيث في حماس:

- إنها وطيدة بالقدر الذي لا أرغب في استزادته. لقد قضيت معه أربعة أيام في نفس المنزل، وإني أظنه شخصًا بغيضًا للغاية.

وقال ويكهام:

- ليس من حقي أن أعبر عن رأيي فيما إذا كان لطيفًا من عدمه. إن وضعي لا يؤهلني لتكوين هذا الرأي. فقد عرفته لمدة طويلة وعلى نحو وثيق بحيث لا يتسنى لي أن أكون حكمًا عادلاً. فمن المحال بالنسبة لي أن أكون غير متحيز. ولكنني أعتقد أن رأيك فيه قد يثير دهشة الناس عامة، ولربما تخرجت عن إبدائه بنفس هذا الحماس في أي مكان آخر؛ فأنت هنا ضمن نطاق أسرتك.

- أقسم بشرفي أنني لا أقول هنا شيئًا يفوق ما يمكنني قوله في أي منزل في الناحية باستثناء «نيدر فيلد». فهو ليس محبوبًا على الإطلاق في «هارتفوردشير»، والجميع يشمئزون من كبريائه. إنك لن تجد أي امرئ يتحدث عنه حديثًا طيبًا.

وقال ويكهام بعد فترة صمت قصيرة:

- لا أستطيع أن أدعي الأسف إذا لم يقدره الناس بأكثر مما يستحق، ولكنني أعتقد أن هذه الحالة لا تنطبق عليه كثيرًا. فقد غُشيت أبصار الناس إزاء ثروته ومكانته، أو تولتهم الرهبة بتأثير طباعه المتعالية المستبدة، فلم يعودوا يرونه إلا على النحو الذي يشاء هو أن يفرضه.

- رغم علاقتي السطحية به، فإنني أعتبره رجلاً حاد المزاج.
واكتفى ويكهام بأن هز رأسه.

وقال بعد أن سنحت فرصة للحديث:

- أمن المحتمل يا ترى أن يقضي في هذه الناحية فترة أطول؟

- لا أعرف شيئاً من هذا، ولكنني لم أسمع أي إشارة عن رحيله
عندما كنت في «نيدر فيلد». أرجو ألا تتأثر مشروعاتك الخاصة
بالالتحاق بكتيبة... بوجوده في هذه المنطقة.

- كلا، لست أنا الذي أهرب من وجه مستر دارسي. إذا أراد هو
أن يتحاشى رؤيتي فعليه أن يرحل. إننا لسنا على علاقة طيبة، ولقائي
معه دائماً ما يؤلمني. غير أنه ليس لديّ من أسباب تدعوني لتجنبه إلا
ما أستطيع أن أذيعه على الناس أجمعين، ألا وهو إحساسي بما لحقني
من إساءة بالغة، وشعوري بالأسى الممض لما هو فيه. من خير حال.
لقد كان والده يا مس بينت، مستر دارسي رحمه الله، واحداً من أفضل
الناس الذين عاشوا على هذه الأرض، كما كان أكثر أصدقائي إخلاصاً.
ولا يمكن لي أبداً أن أجمع بولده مستر دارسي هذا دون أن تحزن روحي
لآلاف من أرق الذكريات. لقد كان سلوكه معي شائئاً، ولكنني أوّمن
بمنتهى الصدق أنني أستطيع أن أغفر له أي شيء وكل شيء باستثناء ما
فعله من إحباط لآمال أبيه وما ألحقه من عار بذكراه.

ووجدت إليزابيث أن الموضوع يزداد تشويقاً وأنصت بجماع
قلبها، ولكن حساسية الموضوع حالت بينها وبين مزيد من الاستفسار.

وبداً مستر ويكهام يتحدث في موضوعات أكثر عمومية عن «ميريتون» والناحية ومجتمع الناس، وبدأ عليه السرور الغامر لكل ما وقعت عليه عيناه حتى تلك اللحظة، واختص مجتمع الناس بحديث يصطبغ بكياسة رقيقة الجانب صريحة المعاني.

إن ما حدا بي أساساً للالتحاق بكتيبة... هو الأمل في الاستمتاع بصحبة دائمة وطيبة. فمبلغ علمي أن هذه الكتيبة تُعتبر سلاحاً محترماً ومناسباً للغاية، كما أن صديقي ديني قد ضاعف من إغرائي بما حكاه لي عن منطقة إقامتهم الحالية، وعن علامات الاهتمام العظيم والصحبة الممتازة التي زودتهم بها «ميريتون». فأنا أعترف أن صحبة الناس أمر ضروري بالنسبة لي، لقد نشأت وقد خابت آمالي، فلا تستطيع نفسي احتمال الوحدة. لا بد لي من أن أشغل نفسي وأرى الناس. على أنني لم أعُد للحياة العسكرية، وإن كانت الظروف قد جعلت هذه الحياة مناسبة لي في الوقت الراهن. لقد كان من الواجب أن يكون السلك الكنسي مهنتي، فقد نشأت لكي أكون واحداً من رجال الدين؛ وكان يمكنني في الوقت الحاضر أن أكون مالِكاً لسكن قَيِّم لو كان ذلك قد اتفق ومشيتة الرجل الذي كنا نتحدث الآن عنه.

- أمر غريب!

- فعلاً، فلقد أوصى لي مستر دارسي رحمه الله في ثاني بنود وصيته بأفضل منصب كنسي. فقد كان أبي في العماد، كما كان شديد التعلق بي إلى حد كبير، ولست بقادر على إيفاء طيبته حقها من المديح. لقد كان

في نيته أن يساندني مادياً، وخيّل إليه أنه نجح في قصده، ولكن عندما خلا المنصب الموعد، إذا بآخر يشغله.

وصاحت إليزابيث:

- يا إلهي! ولكن كيف يحدث هذا؟ كيف يمكن التغاضي عن وصيته؟ ولم لم تلجأ إلى القضاء لينصفك؟

- لقد كان هناك نوع من عدم الرسمية في نصوص الوصية، الأمر الذي قضى على آمالي في مساندة القانون. وما كان لأي امرئ يحترم شرفه أن يشك في القصد من الوصية، ولكن مستر دارسي اختار جانب الشك، أو اعتبار الوصية تزكية مشروطة بشرط، ثم ادعى أنني أسقطت حقي فيها نتيجة إسرافي وحمقي وما شاكل ذلك باختصار. والأمر المؤكد أن المنصب قد خلا منذ عامين في نفس الوقت الذي بلغت فيه السن القانونية التي تؤهلني لشغله، وأن هذا المنصب قد منح لشخص آخر. ولسن أقل من ذلك تأكيداً أنني لا أستطيع اتهام نفسي بارتكاب أي فعل يجعلني مستحقاً أن أفقده. إنني صاحب طبع حامٍ غير متحفظ، ولربما صرحت في بعض الأحيان عن رأيي فيه، وكان ذلك في حضرته، بحرية تامة. ولا أستطيع أن أذكر شيئاً أسوأ من هذا، ولكن الحق أننا صنفان من الناس جد مختلفين، وأنه يمقتني.

- هذا مريع تماماً! إنه يستحق أن يفضح علانية:

- ربما يحدث ذلك في يوم ما، ولكن لن يكون ذلك عن طريقي فحتى يحل الوقت الذي أنسى فيه والده، لن أستطيع أبداً أن أتحداه أو أفضحه.

وأعلت إليزابيث من شأنه بسبب مشاعره هذه، وزاد تقديرها لظرفه
عندما عبر عنها.

وقالت بعد برهة:

- ولكن أي باعث دفعه إلى ذلك؟ ما الذي حدا به ليتصرف بمثل
هذه القسوة؟

- إنه شعور بالكراهية المطلقة الحاسمة لشخصي، كراهية لا
يمكنني إلا أن أرجعها لحد ما إلى إحساس بالغيرة. فلو كان مستر
دارسي رحمه الله قد اختصني بحب أقل، لكان ولده قد تصرف معي
بطريقة أفضل. ولكن صلة والده غير العادية قد أثارته فيما أظن منذ فترة
مبكرة في حياته. فلم يكن في طبعه ما يسمح له باحتمال ذلك النوع من
المنافسة الذي وقفنا فيه وجهًا لوجه، ذلك النوع من التفضيل الذي كان
في كثير من الأحيان من نصيبي.

- لم أكن أظن أن مستر دارسي رجل سيئ إلى هذا الحد. ورغم
أنني لم أعجب به أبدًا، فلم أكن أظنه شريرًا هكذا. لقد خلته مزدريًا
لأمثاله من الآدميين عامة، ولكنني لم أتصور انحداره لمثل هذا الانتقام
الحقود، هذا الظلم، هذا الشعور غير الإنساني!

واستمرت في حديثها بعد تأمل دام بضع دقائق:

- إنني أتذكر فعلاً مباهاته يومًا ما في «نيدر فيلد» بالتشدد في مشاعر
استيائه من الناس، وبتميزه بطبع غير متسامح. لا بد أن يكون ذا مزاج
فظيع.

وأجاب ويكهام:

- لست أثق في قدرتي على الحكم في هذا الأمر، فلا يمكنني أن أكون عادلاً معه.

وانغمست إليزابيث ثانية في أفكارها، ثم صاحت بعد فترة:

- أن يعامل على هذا النحو مَنْ كان لوالده ابنًا في العماد وصديقًا له وأثيرًا!

وكان يمكن أن تضيف «وَمَنْ كان كذلك شابًا يافعًا مثلك توحى قسمات وجهه بالظرف»، ولكنها قنعت بأن قالت:

- وَمَنْ كان أيضًا فيما يحتمل رفيقًا لصباه، وَمَنْ كان مرتبطًا وإياه بأوثق الصلات كما ذكرت.

- لقد وُلدنا في نفس الأبرشية، وفي إطار حديقة واحدة. وقضينا الشطر الأعظم من شبابنا معًا، نزيلين في نفس البيت، مشاركين في ذات المتع، كما كنا محط رعاية أبوية واحدة. ولقد بدأ والدي حياته في نفس المهنة التي تفتخر بالأعمال التي يؤديها في نطاقها زوج خالتك مستر فيليبس. ولكنه تخلى عن كل شيء ليقوم على خدمة مستر دارسي رحمه الله، وكرس كل وقته للعناية بأملاك ضيعه «بيمبرلي». ولقد كان موضع تقدير فائق من جانب مستر دارسي. كما كان صديقه الحميم وموضع ثقته. وكثيرًا ما كان مستر دارسي يقر بعرفانه العظيم لما يتولاه أبي من إشراف نشط. وعندما وعد مستر دارسي والدي طواعية -قبيل

وفاته مباشرة- بأن يكفل لي حياة كريمة، فقد أيقنت أن ذلك كان وفاء
لدين الامتنان له، بقدر ما كان شعورًا بالمحبة لي.

وصاحت إليزابيث:

- يا له من أمر غريب وفظيع! لا عجب أن روح الكبرياء التي تميز
مستر دارسي هذا قد جعلته غير منصف لك. هذا إذا لم يكن قد تصرف
بدافع أفضل؛ وإلا لكان من الزهو بحيث أصبح غادرًا، لأنني لا أسمي
سلوكه هذا إلا غدرًا وخيانة.

وأجاب ويكهام قائلاً:

- إن ذلك عجيب فعلاً. فمعظم تصرفاته يمكن أن ترد إلى نزعة
الكبرياء عنده؛ وكثيرًا ما كانت الكبرياء بمثابة صديقه الأعز. ولقد قربته
الكبرياء من الفضيلة أكثر من أي نزعة أخرى. ولكن طباعنا لا تسير على
نسق واحد، فقد كان في سلوكه معي بواعث أقوى من الكبرياء.

- هل استطاعت كبرياؤه الفظيعة هذه أن تعود عليه بأي نفع؟

- نعم، فقد أدى به في كثير من الأحيان إلى أن يكون كريمًا سخي
اليد، وأن يمنح ماله دون مقابل، وأن يظهر حسن الضيافة، ويمد يد
العون لمستأجريه ويخفف عن الفقراء. وقد نشأ هذا عن كبرياء أُسرية
وكبرياء بنوية، فقد كان يشعر بالكبرياء الشديدة لما كان عليه أبوه من
فضل. وكان من دوافعه القوية ألا يظهر بمظهر من يشين أسرته، أو يحط
من خصالها الشائعة، أو يضعف من نفوذ «بيمبرلي هاوس». كذلك ففي
نفسه كبرياء أخوية، الأمر الذي يجعلها -بالإضافة إلى بعض المحبة

الأخوية- رقيقًا وحريصًا للغاية في وصايته على شقيقته. ولسوف تسمعين الناس يصفونه عمومًا بأنه أفضل الأشقاء وأشدّهم حدبًا.

- ما هي صفات مس دارسي في رأيك؟

وهز رأسه وقال:

- كان بودي أن أدعوها فتاة لطيفة، فما يؤلمني أن أتحدث بالسوء عن أي شخص من أسرة دارسي. ولكنها وثيقة الشبه بأخيها، فهي شديدة الكبرياء. لقد كانت في طفولتها ودودة وظريفة، وشديدة الشغف بي؛ وقد خصصت ساعات وساعات من وقتي لإمتاعها. ولكنها الآن لا تمثل شيئًا بالنسبة لي. إنها فتاة مليحة في حوالي الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، وذات ثقافة تامة فيما أسمع. ولقد استقرت في لندن منذ وفاة والدها، وهناك تعيش بصحبة سيدة تشرف على تعليمها.

وبعد صمت طويل ومعالجات عدة لموضوعات أخرى، لم تستطع إليزابيث إلا أن تحوّل مجرى الحديث إلى الموضوع الأول، وتقول:

- إنني دهشة لعلاقته الحميمة بمستر بينجلي. كيف يمكن لمستر بينجلي الذي يعتبر تجسيدًا لسلاسة الطبع، والذي يعد لطيفًا حقًا، أن يصادق مثل هذا الرجل؟ كيف يتناسب كل منهما مع الآخر؟ هل تعرف مستر بينجلي؟

- كلا.

- إنه رجل هادئ الطبع لطيف المعشر ذو شخصية ساحرة، ولا يمكن أن يعرف طبيعة مستر دارسي.

- ربما، ولكن مستر دارسي يستطيع أن يكون ظريفاً حيثما يشاء. فهو لا تنقصه الكفاءة. إنه يستطيع أن يكون طرفاً في حديث إذا رأى في ذلك ما يستوجب الاهتمام. وهو يتصرف بين من يساوونه منزلة بشكل يختلف اختلافاً كبيراً عن تصرفه بين الأقل شأنًا. أما كبرياؤه فلا يتركها أبداً، ولكنه في أوساط الأغنياء متحرر الفكر عادل مخلص منطقي شريف، وربما كان لطيف الجانب أيضاً، وذلك تمشيًا مع مستلزمات الثروة والأناقة.

ولم يمضِ وقت طويل حتى انفضت جماعة اللعب، وتجمع اللاعبون حول المائدة الأخرى، واتخذ مستر كولنز مكانه بين ابنة عمه إليزابيث ومسر فيليس. ووجهت مسر فيليس إليه الأسئلة المعتادة عن نجاحه في اللعب. ولم يكن قد أحرز نجاحاً كبيراً. فقد خسر النقاط كلها. ولكن عندما بدأت مسر فيليس تعبر عن قلقها لهذا الأمر، أكد لها بجدية بالغة أن الموضوع بالنسبة له لا أهمية له، وأنه يعتبر المال من التوافه، ثم رجاها ألا تزعج نفسها، وقال:

- إنني أعلم تمام العلم يا سيدتي أنه عندما يجلس الناس إلى مائدة اللعب، فيجب أن يأخذ كل منهم فرصته. ومن حسن الحظ أنني لست في وضع يجعلني أهتم كثيراً لخمسة شلنات. ولا شك أن هناك كثيرين لا يستطيعون قول نفس الشيء، ولكنني بفضل ليدي كاثرين دي بورو قد اجتزت نطاق الاهتمام بهذه الأمور البسيطة.

واستلقت ذلك انتباه مستر ويكهام، فسأل إليزابيث بصوت خفيض -بعد أن لاحظ بعينه مستر كولنز لبضع دقائق- ما إذا كان أقرباؤها على صلة وثيقة بأسرة دي بورو؟

وأجابت قائلة:

- إن ليدي كاثرين دي بورو قد اختصته في الفترة الأخيرة بمنصب كنسي. إنني لا أعرف كيف تعرفت على مستر كولنز، ولكن المؤكد أنه لم يعرفها من مدة طويلة.

- تعلمين بالطبع أن ليدي كاثرين دي بورو وليدي آن دارسي كانتا شقيقتين، وبالتالي فهي خالة مستر دارسي.

- لا أعلم في الحقيقة شيئاً من هذا، فليس لي معرفة بصلات ليدي كاثرين. كما أنني لم أسمع بوجودها إلا أول أمس.

- إن ابنتها مس دي بورو سوف ترث ثروة طائلة، ومن المعتقد أنها هي وابن خالتها سوف يضممان الضيعتين معاً.

وابتسمت إليزابيث لهذه المعلومات حين فكرت في مس بينجلي المسكينة. عبث إذن كل اهتمامها، وعبث وهباء كل مودتها لشقيقته وإطرائها لشخصه، ما دام قد ربط بالفعل مصيره بمصير فتاة أخرى.

وقالت:

- إن مستر كولنز يشيد بليدي كاثرين وابنتها. ولكنني أميل إلى الظن بأن امتنانه يضلله، وأنه برغم كونها ولية نعمته، إلا أنها امرأة متغترسة ومغرورة كما يتضح من بعض التفاصيل التي سردها عن سيادتها.

وأجاب ويكهام بقوله:

- أعتقد أنها متغترسة ومغرورة معاً إلى حد بعيد. إنني لم أرها منذ سنوات كثيرة، ولكنني أذكر جيداً أنني لم أحبها أبداً، وأنا طباعها

كانت متعالية ووقحة. والمعروف عنها أنها امرأة عاقلة وماهرة بشكل ملحوظ، ولكنني أظن أنها تشتت جزءاً من كفاءتها من واقع منزلتها وثروتها، وجزءاً آخر من سلوكها المتسلط، وأما الباقي فمن كبرياء ابن أختها الذي لا يرتبط بأي إنسان إلا إذا كان ذا قدرة على الفهم من الطراز الأول.

وسلمت إليزابيث بأنه استعرض الأمر بشكل معقول تماماً، واستمرا يتحدثان معاً وهما راضيان حتى وضع العشاء حدّاً للعب الورق، ومنح باقي السيدات نصيبهن من التفاتات مستر ويكهام. ولم يكن من الممكن أن تدور أي محادثة في ظل الصخب الذي ساد حفل العشاء الذي أقامته مسز فيليس. ولكن سلوكه حجب الجميع فيه. فكل ما تفوه به أحسن قوله، وكل ما فعله أذاه بكياسة. وانصرفت إليزابيث وفكرها مشغول به. ولم تكن لتستطيع أن تفكر في أمر ما وهي في طريقها للمنزل باستثناء مستر ويكهام وما قاله لها. ولكنها لم تجد الفرصة حتى لذكر اسمه أثناء العودة، فلم يخلد كل من ليديا أو مستر كولنز إلى الصمت لحظة واحدة. وتحدثت ليديا دون انقطاع عن تذاكر اليانصيب وعن الأقشطة التي فقدتها والأقشطة التي كسبتها. أما مستر كولنز فقد أعلن، وهو يصف كياسة مستر فيليس وزوجته، أنه لا يعلق وزناً كبيراً على خسائره في لعب الورق. وعدّد كل الأطباق على مائدة العشاء، وكرر مخاوفه من مزاحمته لبنات عمه في العربة؛ وأوحى ذلك كله بأن ما يريد قوله يفوق قدرته على تنسيقه بشكل سليم، إلى أن وصلت العربة إلى «لونجبورون هاوس».

الفصل السابع عشر

في اليوم التالي، قصت إليزابيث على جين كل ما دار بينها وبين مستر ويكهام من حديث. وأنصتت جين بدهشة واهتمام معًا، ولم تدّر كيف تصدق أن يكون مستر دارسي غير حقيق بتقدير مستر بينجلي على هذا النحو. ومع ذلك فلم يكن مما يتمشى مع طبيعتها أن تشك في صدق شاب كويكهام يتمتع بمثل هذا المظهر المحبب إلى النفس. وكانت إمكانية احتمالها حقًا لقسوة مثل هذه، كافية لبعث الاهتمام في كل مشاعرها الرقيقة تجاهه، ومن ثم لم يبقَ في استطاعتها إلا أن تظن بهما معًا خيرًا وأن تدافع عن سلوك كل منهما، وأن ترجع كل ما يستعصي عليها شرحه إلى احتمال الصدفة أو الخطأ. وقالت لشقيقتها: - في اعتقادي أن كليهما قد خُدعا بطريقة لا ندري عنها شيئًا. وربما أساء المغرضون تفسير موقف كل منهما للآخر. وقصارى القول فمن المستحيل أن نتكهن بالأسباب أو الظروف التي تسببت في إحداث الجفوة بينهما، دون أن نلقي اللوم على أحد الطرفين.

- هذا صحيح فعلاً؛ والآن ما هو دفاعك يا عزيزتي جين عن المغرضين الذين شغلوا أنفسهم بهذا الموضوع؟ حاولي تبرئتهم أيضاً، وإلا فسنضطر إلى أن نظن الظنون بشخص ما.

- لك أن تسخري ما شئت لك السخرية، ولكنك لن تحوليني عن رأيي. حاولي يا عزيزتي ليزي أن تتدبري كيف يكون من المشين لمستر دارسي أن يعامل على هذا النحو من كان أثيراً لدى أبيه، من تلقى من أبيه وعداً أن يكفل له الحياة الكريمة. هذا محال! فلا يستطيع أن يفعل ذلك إنسان يتميز بإنسانيته ويقدر شخصيته. وهل يمكن لأصدقائه المقربين أن يخدعوا فيه إلى هذا الحد؟ كلا وألف كلا.

- أيسر عليّ أن أعتقد بأن مستر بينجلي قد خُذع فيه من أن أظن أن مستر ويكهام قد يخترع قصة لحياته على هذا النحو الذي أنبأني به في الليلة الماضية، بما في ذلك من أسماء وحقائق ذكرها بطريقة عادية تماماً. وإذا لم يكن الأمر على هذا النحو، فليكذبه مستر دارسي. وبالإضافة إلى هذا فقد أوجت نظراته بالصدق كله.

- إن الأمر صعب فعلاً، إنه مؤلم. إن المرء لعاجز عن التفكير.

- أستمحك عذراً، فالمرء يعرف بالدقة سبيله إلى التفكير.

ولكن جين لم تكن لتستطيع أن تفكر عن يقين إلا في نقطة واحدة، ألا وهي أن مستر بينجلي لا بد أن يعاني الكثير من الألم - لو كان بالفعل ضحية خداع - إذا أصبح الموضوع حديث الناس.

واستدعيت الآنستان من الممر المحفوف بالشجيرات، حيث دار بينهما هذا الحديث؛ بسبب مقدم بعض ممن كانوا مدار نقاشهما. فقد وصل بينجلي وشقيقته ليقدموا دعوتهم الشخصية للحفل الراقص الذي طال توقعه في «نيدر فيلد»، والذي حدد لإقامته يوم الثلاثاء التالي. وسرت السيدتان لدى رؤيتهما صديقتيهما العزيزة مرة أخرى، واعتبرتا أن دهرًا قد انقضى منذ آخر لقاء لهما بها. وكررتا السؤال عما كانت تفعله منذ أن افترقت عنهما. ولم توليا كبير اهتمام لباقي أفراد الأسرة، وعملتا على تحاشي مسز بينت بقدر الإمكان، ولم توجهها إلا أقل الكلام لإليزابيث، أما الأخريات فلم تتحدثا إليهن على الإطلاق. وما أسرع ما انصرفتا، بعد أن نهضتا من مقعديهما بنشاط أدهش شقيقهما، وانطلقتا إلى الخارج كما لو كانتا تريدان الهرب من مجاملات مسز بينت.

وكانت الآمال المعلقة على حفل «نيدر فيلد» الراقص سببًا في إثارة البهجة البالغة لدى كل سيدات الأسرة. ورأت مسز بينت أن الحفل تحية لكبرى بناتها، وسرت على الأخص حين تلقت الدعوة إليه على يدي مستر بينجلي نفسه وليس عن طريق بطاقة رسمية. وتصورت جين في خيالها أمسية سعيدة في صحبة صديقتيهما واهتمام شقيقتهما. أما إليزابيث فقد أمتعها التفكير في مراقبة مستر ويكهام مرارًا، وفي ملاحظتها لما يؤكد كل شيء في نظرات مستر دارسي وسلوكه. ولم تعتمد السعادة التي راودت خيال كاثرين وليديا على أي حادثة بعينها أو أي شخص بذاته. فرغم أن كليهما قد قصدا - شأنهما شأن إليزابيث - قضاء نصف المساء في مراقبة مستر ويكهام، فلم يكن هذا الأخير

بأي حال من الأحوال بمثابة الشريك الوحيد الذي يمكن أن يرضيهما. فالحفل حفل على كل حال. وحتى ميري استطاعت أن تؤكد لأسرتها أنها لم تكن عازفة عن هذا الحفل، وقالت:

- طالما أستطيع أن أختلي بنفسى كل صباح، فإني أعتبر هذا كافيًا. ولا أظن أن الأمر يُعتبر تضحية كبيرة لو شاركت في شواغل المساء بين الحين والآخر. إن لصحبة الناس حقوقًا علينا جميعًا، وإني أعتبر نفسي واحدة من أولئك الذين يعتقدون أن فترات الترويح والمتعة ضرورية لكل إنسان.

وكانت هذه المناسبة سببًا في بعث البهجة في نفس إليزابيث لدرجة لم تستطع معها إلا أن تسأل مستر كولنز -رغم أنها لم تكن في كثير من الأحيان تتحدث معه دون لزوم- ما إذا كان ينوي قبول دعوة مستر بينجلي، وما إذا كان يظن -في حالة قبولها- أنه من اللائق أن يشارك في مسليات المساء. ولقد دُهِشت حين علمت أنه لا يتحرج من شيء في هذا الخصوص، وأنه يستبعد تمامًا أي تعنيف سواء من جانب رئيس الأساقفة أو ليدي كاثرين دي بورو، لو خاطر بالنزول إلى حلبة الرقص. وقال:

- أؤكد لك أنني لست أرى بأي حال من الأحوال أن حفلًا راقصًا من هذا النوع يدعو إليه شاب ذو حيثة، ويستضيف فيه أناسًا محترمين يمكن أن ينطوي على أي اتجاه سيئ. وإني لأبعد من أن أعترض على مساهمتي شخصيًا في الرقص، ويحدوني الأمل في أن أتشرف بمراقبة كل بنات عمي الفاتنات خلال المساء. وأنتهز هذه الفرصة لكي أطلب

منك يا مس إليزابيث أن تكوني شريكتي في الرقصتين الأوليين على الأخص؛ وهو إثارة من جانبي أثق في أن ابنة عمي جين سوف ترجعه إلى السبب الصحيح لا إلى أي مظهر لعدم الاحترام لها!

وأحست إليزابيث أنها قد وقعت في شرك. فقد استقر قرارها على أن تختص ويكهام بهاتين الرقصتين بالذات؛ أما وأن تستبدل به مستر كولنز! فإنه لم يسبق لها أن امتحنت في سعادتها على هذا النحو. وعلى أي حال فلم تعد تملك من الأمر شيئاً، ولم يعد هناك بد من تأجيل سعادة مستر ويكهام وسعادتها فترة من الوقت. ووافقت على عرض مستر كولنز بقدر ما استطاعت من سماحة نفس. ولم يخامرها السرور لما أبداه من كياسة، بسبب ما تضمنته من إحياء بما هو أبعد من ذلك. فلأول مرة خطر لها أنها قد اختيرت من بين شقيقاتها لتكون أهلاً للقب سيدة أبرشية «هنسفورد»، وللقيام بسد الثغرة في لعبة الورق الرباعية في «روزينجز» في حالة غياب الزوار الذين يفوقونها لياقة. وسريعاً ما تطورت الفكرة إلى اعتقاد راسخ حين لاحظت تزايد مجاملاته نحوها، وسمعت محاولاته المتكررة لإغداق الثناء على ذكائها وحيويتها. ورغم أن دهشتها فاقت رضاها لهذا التأثير الذي أحدثته مفاتها، فلم يمضِ طويل وقت حتى أفهمتها أمها أن احتمال زواجهما كان بالنسبة لها باعثاً على الازدحام الشديد. وفضلت إليزابيث أن تتغافل عن هذا التلميح، حيث كانت على وعي تام بأن أي إجابة من جانبها ستؤدي إلى مناقشة خطيرة. فربما لا يتقدم مستر كولنز بأي عرض للزواج، ومن العيب أن يُثار بشأنه عراك قبل أن يتقدم رسمياً بهذا العرض.

ولو لم يكن هناك ما يستوجب الاستعداد لحفل «نيزرفيلد» وما يوحى بالحديث عنه، لأصبحت الشقيقتان الصغريان في حالة يُرثى لها. فخلال الفترة الممتدة من اليوم الذي وصلت فيه الدعوة إلى يوم الحفل نفسه، هطل المطر دون انقطاع، الأمر الذي حال بينهما وبين الذهاب إلى «ميريتون» ولو مرة واحدة. فلم يكن في استطاعتهما زيارة الخالة أو رؤية الضباط أو متابعة الأنباء؛ وحتى الورد الذي كانتا تحتاجانه لحذاءيهما خصيصًا لحفل «نيزرفيلد»، حصلتا عليه بطريق الوكالة. بل إن إليزابيث قد وجدت في سوء الأحوال الجوية ما يستفز صبرها، إذ أوقف تمامًا أي محاولة لتعميق صلتها بمستر ويكهام. وما كان يمكن لكيتي وليديا أن تحتلأ أيام الجمعة والسبت والأحد والاثنين أولًا، إلا لأن يوم الثلاثاء يحمل لهما أملًا في الاستمتاع بالرقص.



الفصل الثامن عشر

لم يخامر إليزابيث أي شك في وجود مستر ويكهام في «نيدر فيلد» حتى اللحظة التي دلفت فيها إلى حجرة الاستقبال وبحث عنه عبثاً بين مجموعة أصحاب المعاطف الحمر المجتمعين هناك. إن يقينها بلقائه لم يتأثر بما اخترنته ذاكرتها من أمور كان يصح أن تورثها القلق. فقد ارتدت ملابسها بعناية غير عادية، واستعدت بروح عالية للتغلب على كل ما تبقى في قلبه مستعصياً عليها، واثقة من أن ذلك كله لن يتحدى قدرتها على انتزاعه في فترة هذا المساء. وفي لحظة واحدة ثار في فكرها الشك الرهيب في احتمال استبعاده عمداً -تمشيئاً مع رغبة مستر دارسي- من الدعوة التي وجهها آل بينجلي للضباط. ورغم أن ذلك لم يكن بالضبط هو ما حدث، إلا أن حقيقة غيابه الأكيدة قد أفصح عنها صديقه مستر ديني الذي استفسرت منه ليديا عن هذا الموضوع وكلها شغف، والذي قال لها إن ويكهام قد اضطر إلى الذهاب إلى لندن في اليوم السابق لأداء مهمة معينة وإنه لم يعد بعد. وأضاف وهو يتسم ابتسامة ذات مغزى:

- لا أتصور أن تستدعيه متطلبات عمله في هذا الوقت بالذات، لو لم يرغب في تحاشي رؤية إنسان معين هنا.

والتقطت إليزابيث هذا الشطر من حديثه، رغم أن ليديا لم تسمعه. وإذ أيقنت من هذا الحديث أن مسؤولية دارسي عن غياب ويكهام لم تكن أقل أهمية مما لو كان الشك الذي راودها في أول الأمر صحيحًا، فقد تزايدت مشاعر الاستياء في نفسها ضد دارسي بفعل ما أصابها من خيبة أمل مباشرة، الأمر الذي استطاعت معه بالكاد أن ترد بكياسة مقبولة على الاستفسارات المهذبة التي وجهها إليها عقب ذلك مباشرة. فالاهتمام بدارسي والتساهل معه والصبر عليه كان بمثابة إساءة موجهة إلى ويكهام. واستقر رأيها على الامتناع عن الخوض في أي حديث معه، وابتعدت عنه وقد شاب مزاجها نوع من الكدر لم تستطع التغلب عليه تمامًا حتى في حديثها مع مستر بينجلي الذي كان تحيزه الأعمى لصديقه سببًا في إثارتها.

ولكن إليزابيث لم تُخلق لتكون نهبًا للكدر. فرغم أن كل آمالها في هذا المساء قد تحطمت، إلا أن ذلك لم يكن ليثقل طويلاً على نفسها. وبعد أن قصّت كل أحزانها على شارلوت لوكاس التي لم تكن قد رأتها طوال أسبوع كامل، سرعان ما استطاعت أن تنتقل طوعًا إلى مظاهر شذوذ ابن عمها وأن توجه أنظارها إليه. إلا أن الرقصتين الأوليين عادتًا بالغم من جديد فقد كانتا رقصتين مفعمتين بالكمد. ولما كان مستر كولنز ثقیل الخطی، رصينًا مبالغًا إلى الاعتذار بدلًا من إبداء الاهتمام، يتحرك في كثير من الأحيان حركات خاطئة دون أن يشعر بذلك، فقد سبب لها من الخجل والتعاسة ما يمكن لشريك بغیض إلى النفس أن يسببه طوال رقصتين متتاليتين. وكانت اللحظة التي أطلق فيها سراحها بمثابة فرحة غامرة.

وكانت رقصتها التالية مع أحد الضباط، وانتعشت حواسها بالحديث عن ويكهام، وبمعرفة أنه شخص محبوب من الجميع. وعندما انتهت هاتان الرقصتان، عادت أدراجها إلى شارلوت لوكاس وانغمست في حديث معها، ولم تدرِ إلا ومسترد دارجي يفاجئها بتوجيه الكلام إليها. وأخذت على غرة برجائه لها أن تراقصه، فوافقت على طلبه دون أن تدرك ما هي فاعلة. وابتعد ثانية بسرعة، بينما أخذت هي تتبرم من افتقارها إلى حضور البديهة، وحاولت شارلوت أن تعزيها:

- أغلب ظني أنك ستجدينه لطيفاً للغاية.

- حاش لله! سيكون هذا أسوأ حظ على الإطلاق! أن أجد من عقدت العزم على كراهيته إنساناً لطيفاً! لا تتمني لي شراً هكذا.

وعندما استؤنف الرقص ودنا دارسي ليطلب يدها شريكة له في الرقصة، لم تستطع شارلوت إلا أن تحذرهما همساً من أن تكون بلهاء فتسمح لافتتانها بويكهام أن يظهرها بمظهر منفر في عيني رجل يتفوق عليه عشر مرات من حيث منزلته الاجتماعية. ولم تحر إليزابيث جواباً، واتخذت مكانها بين جماعة الراقصات والراقصين، مدهوشة لما بلغته من رفعة شأن، إذ كان من نصيبها أن تقف قبالة مسترد دارجي، ومستطلعة في نظرات جيرانها نفس الدهشة لرؤيتهم هذا الذي حدث. ووفقاً لبرهة من الوقت دون أن ينبسا بحرف، وخُيِّلَ إليها أن صمتها سوف يستمر طوال الرقصتين، واستقر رأياها في أول الأمر على ألا تقطع هذا الصمت. وإذا خطر ببالها فجأة أن إجبار شريكها على الحديث يعتبر بمثابة عقوبة أشد، فقد أبدت ملاحظة طفيفة على الرقصة نفسها. وأجابها ثم أخذ إلى الصمت من جديد. وبعد مضي بضع دقائق خاطبته مرة ثانية بقولها:

- حان دورك لتقول الآن شيئاً يا مستر دارسي. لقد تحدثت عن الرقصة، ومن واجبك أن تبدي أي ملاحظة عن سعة الحجرة أو عدد الراقصين.

وابتسم، ثم طمأنها إلى أنه سيقول كل ما تريد أن يقوله.

- هذا حسن، تكفي هذه الإجابة في الوقت الحاضر، أما أنا فربما ألمح بعد قليل إلى أن الحفلات الراقصة الخاصة ألطف بكثير من الحفلات العامة. ولكننا الآن سنلزم الصمت.

- أتحدثين إذن بمقتضى نظام معين وأنتِ ترقصين؟

- أحياناً؛ فأنت تعلم أن الإنسان لا بد أن يتحدث ولو قليلاً. فمن الشذوذ أن يلزم الإنسان الصمت تماماً لمدة نصف ساعة متواصلة. ومع هذا، فلا بد للحديث أن ينظم -لمصلحة بعض الناس- على نحو لا يتجشمون فيه إلا أقل العناء بقدر الإمكان.

- أtestشيرين مشاعركِ الخاصة في هذه المسألة أم تتصورين أنكِ ترضين مشاعري؟

وأجابت إليزابيث بدهاء:

- الاثنان معاً، فدائماً ما رأيت أن هناك تشابهاً كبيراً في أفكارنا. فكل منا يتميز بطبع منطوي غير ميال للحديث، إلا لو توقع أن يقول شيئاً يشير من في الحجرة كلها، ويورث للأجيال القادمة متصفاً بكل ما في المثل الحكيم من رونق وبهاء.

فقال:

- ليس في هذا ما يشبه شخصيتك شيئاً كبيراً، كما أنني لا أستطيع الحكم على سلامة انطباق هذا القول على شخصيتي. أما أنتِ فلا شك أنكِ ترين فيه صورة أمينة.

- ليس لي أن أحكم على ما أقول.

ولم يحر جواباً، وانغمسا في الصمت ثانية حتى قطعاً في الرقص شوطاً طويلاً، وعند ذاك سألهما ما إذا كانت تذهب هي وشقيقاتها كثيراً إلى «ميريتون». وأجابت بالإيجاب، ثم أضافت وقد عجزت عن مقاومة الإغراء:

- عندما التقيت بنا هناك منذ أيام، كنا بسبيل إنشاء صداقة جديدة. وكان الأثر مباشراً. وطافت بملامح وجهه ظلال عميقة من الكبرياء، ولكنه لم ينس بكلمة. أما إليزابيث فقد عجزت عن الاستطرد في الحديث رغم أنها لامت نفسها على ضعفها. وتحدث دارسي أخيراً على كره منه، فقال:

- يمتاز مستر ويكهام بطبع سلس يكفل له الحصول على أصدقاء، أما فيما إذا كانت له نفس القدرة على الاحتفاظ بهم، فهو أمر ليس يقينياً تماماً.

وأجابت إليزابيث بنبرة تأكيد:

- لقد كان من سوء الطالع أن يفقد صداقتك، على نحو قد يعاني منه طيلة حياته.

ولم يحر دارسي جواباً. وبدأت عليه الرغبة في تغيير موضوع الحديث. وفي تلك اللحظة دنا منهما سير وليم لوكاس وفي نيته أن

يخترق صفوف الراقصين ليصل إلى الناحية الأخرى من الحجرة. ولكنه توقف حال رؤيته لمسترد دارسي وانحنى في أدب وفخامة معاً إعجاباً منه برشاقته في الرقص وباختياره شريكته.

- الحق يا سيدي العزيز أنني استمتعت إلى حد بعيد، فمثل هذا الرقص الفائق لا يشهده المرء كثيراً. من الواضح أنك تنتمي إلى أرقى مراتب المجتمع. ومع ذلك فاسمح لي أن أقول إن شريكك الحسناء لا تعيبك أبداً، وإنني آمل أن أحظى بهذه المتعة مراراً، وخصوصاً عندما يقع حدث نرغب فيه جميعاً يا مس إليزا (وهنا نظر إلى شقيقتها مع بينجلي). أي تهانٍ سوف تنهال عند ذاك! إني أناشدك في هذا يا مسترد دارسي... ولكنني لن أعطلك يا سيدي، فلن تحمد لي إعاقتك عن هذا اللقاء الساحر بهذه الأنسة تلومني كذلك عيناها المتألفتان.

وبالكاد سمع دارسي الشطر الأخير من هذا الحديث، فقد كان لإشارة سير وليم إلى صديقه وقع عظيم عليه، واتجه بعينه ناحية بينجلي وجين اللذين كانا يرقصان معاً، وقد اكتسب وجهه بتعبير جاد، إلا أنه سريعاً ما ثاب إلى نفسه، واستدار إلى شريكته قائلاً:

- إن مقاطعة سير وليم لنا قد أنستني ما كنا نتحدث فيه.

- لا أظن أننا كنت نتحدث على الإطلاق. فما كان يمكن لسير وليم أن يقاطعنا ونحن أقل من في الحجرة قدرة على إيجاد مادة للحديث. لقد جربنا موضوعين أو ثلاثة دون فائدة، وليست لدي أي فكرة عن موضوع حديثنا التالي.

وقال مبتسماً:

- ما رأيك في حديث عن الكتب؟

- الكتب؟ لا، لا. إني واثقة أننا لا نقرأ نفس الشيء، أو لا نستشعر نفس الأحاسيس.

- إني آسف لظنك هذا. ولكن إذا كان هذا هو الحال، فلن نكون على الأقل مفتقرين إلى موضوع للحديث. فلنا أن نقارن آراءنا المختلفة.
- كلا، لا أستطيع أن أتحدث عن الكتب في قاعة للرقص؛ ففكري
يكون دائماً مفعماً بأمور أخرى.

فقال وفي عينيه نظرة شك:

- إن الحاضر يشغل فكرك دائماً في مثل هذه الظروف، أليس كذلك؟

- نعم، دائماً.

هكذا أجابت دون أن تدري ما تقول، فقد سرح فكرها بعيداً عن الموضوع، وكان هذا واضحاً فيما قالته بعد ذلك فجأة:

- أذكر أنني سمعتك مرة يا مستر دارسي تقول إنك في النادر ما تعفو، وإن حنقك على أمر ما يستحيل تهدئته، طالما انتهت فيه إلى قرار. وإنك لحريص فيما أظن عند اتخاذك مثل هذا القرار؟

وأجاب بنبرة حاسمة:

- فعلاً.

-ولا تسمح للهوى أبداً أن يغشى عينيك؟

- أرجو أن أكون كذلك.

- من اللازم بالأخص على أولئك الذين لا يغيرون آراءهم أبداً أن يكفلوا سلامة الحكم أول مرة.

- هل لي أن أسأل إلامَ تفضي هذه الأسئلة؟

وقالت وهي تحاول أن تتخلى عن جديتها:

- إلى تصوير شخصيتك ليس غير. إنني أحاول أن أستكشف خباياها.

- وما مقدار نجاحك؟

وهزت رأسها.

- لا أحرز أي تقدم على الإطلاق. إنني أسمع عنك آراء متباينة تحيرني إلى حد كبير.

وأجاب بلهجة رصينة:

- ليس لديّ شك في أن تقديرات الناس قد تختلف كثيراً فيما يتعلق بشخصي. وإنني لأود يا مس بينت أن تمتنعي في الوقت الحاضر عن رسم ملامح شخصيتي، فهناك من الأسباب ما يُخشى معه ألا يكون في الرسم ما يشهد لأيّ منا.

- ولكن إذا لم يتسنّ لي الآن أن أرسم صورتك، فربما لا تتاح لي فرصة أخرى.

وأجاب ببرود:

- لا أود بأي حال أن أرجى متعتك.

ولم تعقب بشيء، وانتهيا من الرقصة الثانية، ثم افترقا في صمت

وكلاهما غير راضٍ رغم اختلاف درجة عدم الرضى عند كل منهما، فقد جاش بصدر دارسي إحساس قوي نحوها سرعان ما أدى به إلى العفو عنها واستئزال غضبه كله على شخص آخر.

ولم يمضِ على افتراقهما وقت طويل حتى اتجهت نحوها مس بينجلي وخاطبتها قائلة، وعلى وجهها أمارات الترفع والأنفة:

- إِذَنْ فَأَنْتِ جد مغتبطة يا مس إليزا بجورج ويكهام كما سمعت؟
لقد كانت شقيقتكِ تحادثني عنه، وتسألني مئات الأسئلة. وقد اكتشفت أن الرجل قد نسي أن يخبركِ -ضمن ما أطلعكِ عليه- أنه ابن ويكهام العجوز الذي كان رئيسًا للخدم في بيت مستر دارسي رحمه الله. ومع ذلك دعيني أوصيكِ كصديقة لكِ ألا تسلمي بكل ما يقول؛ فالادعاء بأن مستر دارسي قد أساء إليه يعتبر زيفًا خالصًا، إذ على العكس من ذلك، فقد كان رقيقًا معه دائمًا بشكل ملحوظ، رغم أن جورج ويكهام قد عامل مستر دارسي بطريقة شائنة للغاية. ولست على علم بتفصيلات هذا الموضوع، ولكنني أعلم جيدًا أن مستر دارسي ليس ملومًا على الإطلاق، وأنه لا يحتمل سماع اسم جورج ويكهام، وأنه رغم ما دار بخلد أخي من عدم استطاعته استبعاده من الدعوة التي وجهها للضباط، فقد طار فرحًا عندما عرف أنه انسحب بنفسه بعيدًا. إن مجرد مجيئه إلى هذه الناحية هو عمل شديد الوقاحة حقًا، وإني لأعجب كيف يتصدى لهذا الموقف. إني أرثي لكِ يا مس إليزا إذ كشفت لكِ الستار عن آثام صديقك العزيز؛ ولكن لو تدبر المرء نسبه، فلا يصح أن يتوقع منه سلوكًا أفضل من هذا.

وقالت إيزابيث بغضب:

- إن جرمه ونسبه يبدو أن طبقاً لكلامك شيئاً واحداً، فلم أسمعك تتهمينه بشيء أسوأ من كونه ابناً لرئيس الخدم في منزل مستر دارسي. وأما عن هذا فأؤكد لك أنه أطلعني عليه بنفسه.

وأجابت مس بينجلي وهي تشيح بوجهها الذي بدا عليه تعبير هازئ:

- أستمحيك عذراً، اغفري لي تدخلتي، لقد قصدت خيراً.

وقالت إيزابيث لنفسها «فتاة وقحة! إنك لعلی خطأ شديد إذا كنت تتوقعين التأثير عليّ بمثل هذا الهجوم التافه. إنني لا أرى فيه شيئاً إلا جهلك المتعمد وحقد مستر دارسي». ثم بحثت عن شقيقتها الكبرى التي كانت قد تولت إجراء بعض الاستفسارات من بينجلي عن نفس الموضوع. ولقيتها جين بابتسامة تنم عن بشاشة عذبة، وانشرح يوحى بأمارات السعادة، الأمر الذي أوضح بما فيه الكفاية مدى رضاها عما جرى في المساء من أمور. وحدثت إيزابيث في التو مشاعرها. وفي تلك اللحظة تلاشى حذبها على ويكهام وحنقها على أعدائه وغير ذلك من أمور، أمام رجائها في أن تجتاز جين أبهى السبل إلى السعادة.

وقالت وعلى وجهها ابتسامة لا تقل عن ابتسامة شقيقتها:

- أريد أن أعلم ما توصلت إليه بشأن ويكهام. ولكنك ربما كنت مشغولة البال بما يهيج، الأمر الذي حال بينك وبين التفكير في أي شخص ثالث؛ وفي هذه الحالة لك أن تثقي في عفوي.

وأجابت جين قائلة:

- لا، لم أنسه؛ ولكن ليس لديّ ما يشفي غليلك. فمستر بينجلي لا يعرف تاريخ حياته كله، وهو على جهل تام بالظروف التي تسببت أساساً في الإساءة إلى مستر دارسي. غير أنه يضمن حسن تصرف صديقه ونزاهته وشرفه، وهو مقتنع تمام الاقتناع بأن مستر ويكهام يستحق من مستر دارسي اهتماماً أقل مما لقيه فعلاً. وإنّي لأسفة إذ أقول لك إن ما سمعته منه ومن شقيقته يقطع بأن مستر ويكهام ليس بأي حال من الأحوال شاباً محترماً. وأغلب ظني أنه كان شديد التهور، وأنه يستحق فقدان تقدير مستر دارسي.

- مستر بينجلي نفسه لا يعرف مستر ويكهام؟

- كلا، فهو لم يره أبداً حتى صباح ذلك اليوم في «ميريتون».

- إذن فهذه المعلومات هي حصيلة ما تلقاه من مستر دارسي. إنني مكتفية بهذا تماماً، ولكن ما قوله عن المنصب الكنسي؟

- إنه لا يتذكر الظروف بالضبط، رغم أنه سمع بها من مستر دارسي أكثر من مرة. ولكنه يعتقد أن احتلاله المنصب كان مشروطاً بشرط.

وقالت إليزابيث بحماس:

- إنني لا أشك أبداً في صدق مستر بينجلي، ولكن عليك أن تغفري لي عدم اقتناعي بمجرد التأكيدات، وأعتقد أن دفاع مستر بينجلي عن صديقه كان دفاعاً قديراً؛ ولكن حيث إنه ليس على دراية بأجزاء كثيرة من القصة، وإنه قد علم بقيتها من ذلك الصديق نفسه، فسأظل مقتنعة برأيي الذي كونه فيما سبق عن الرجلين.

ثم غيرت مجرى الحديث إلى موضوع آخر يرضي مشاعر كلٍّ منهما، ولا يمكن أن يكون هناك بشأنه خلاف في الرأي. واستمعت إليزابيث بسرور إلى الآمال السعيدة - المتواضعة مع ذلك - كانت جين تعلقها على اهتمام بينجلي بها، وقالت كل ما في جعبتها لتعميق ثقتها بهذا الاهتمام. وعندما انضم إليهما مستر بينجلي نفسه، انسحبت إليزابيث إلى مس لوكاس، ولم تكذب على تسأولها عن ظرف شريكها الأخير في الرقص حتى دنا منهما مستر كولنز، وقال لها بمزيد من التهليل إنه كان لتوه سعيد الحظ بحيث استطاع أن يتوصل إلى اكتشاف بالغ الأهمية، وقال:

- لقد اكتشفت بمحض الصدفة أن هناك الآن في هذه الحجرة واحدًا من أقارب راعيتي. لقد قدر لي أن أستمع عفواً إلى السيد نفسه وهو يذكر للآنسة تقوم بواجب الضيافة في هذا البيت اسم ابنة خالته مس دي بورو ووالدتها ليدي كاثرين. يا لروعة الطريقة التي تحدث بها هذه الأمور! مَنْ كان يظن أنني قد ألتقي بـابن إحدى شقيقات ليدي كاثرين دي بورو في هذا الحفل! إنني لأحمد الظروف على أن الاكتشاف قد تم في وقته حتى أقدم إليه احتراماتي، وهو ما سأفعله الآن، وإنني لوائق أنه سيغفر لي عدم قيامي بالواجب قبل هذا. إن جهلي التام بصلة القرابة لا بد أن يشفع لاعتذاري إليه.

- إنك لا تنوي أن تقدم إلى مستر دارسي؟

- فعلاً سأقدم نفسي، ولسوف أستمحه عذراً؛ لأنني لم أبادر إلى ذلك من قبل. إنني أعتقد أنه ابن أخت ليدي كاثرين، ولسوف يكون في مقدوري أنؤكد له أن سيادتها كانت على خير ما يرام منذ ما يقرب من أسبوع.

وحاولت إليزابيث أن تثنيه عن مثل هذه الخطة، مؤكدة له أن مستر دارسي سوف يعتبر مخاطبته إياه دون سابق معرفة بمثابة تجاوز وقح لا إكرام لمنزلة خالته، وأنه ليس من الضروري أن تنشأ أي صلة بين الاثنين، وأنه حتى لو كانت هناك ضرورة، فعلى مستر دارسي وهو الأرفع منزلة أن يكون البادئ بالتعارف. وأنصت إليها مستر كولنز، وقد بان عليه العزم على اتباع ما انتواه أصلاً. وعندما انتهت من الحديث أجابها على هذا النحو:

- إنني أقدر أعظم التقدير يا عزيزتي مس إليزابيث رأيك الممتاز في كافة الأمور تقع في نطاق فهمك، ولكن أرجو أن تسمح لي أن أقول إن هناك فارقاً عظيماً بين قواعد المجاملة المرعية بين العلمانيين، وتلك التي تحكم تصرفات رجال الكنيسة. فلتأذني لي أن أقول إنني أعتبر السلك الكهنوتي مساوياً من حيث كرامة المهنة لأرقى مراتب المملكة، إذا افترضنا ضرورة الالتزام في نفس الوقت بسلوك يتصف بنوع من الخضوع المناسب للمقام. فلتسمح لي إذن أن أتبع ما يمليه عليّ ضميري في هذه المناسبة، الأمر الذي يؤدي بي إلى أداء ما أعتبره واجباً. واغفري لي تغافلي عن الانتفاع بنصحك الذي سيكون بمثابة مرشدي الدائم في أي حالة أخرى، أما في الحالة موضع البحث فإني أعتبر نفسي أشد لياقة من آتسة مثلك للحكم على ما هو صواب، مسنوداً في ذلك إلى ما حصلت عليه من تعليم ودراسة لمقتضيات العرف.

ثم تركها بعد أن انحنى بشدة، وانطلق للانقضاض على مستر دارسي الذي كان استقباله لمحاولات مستر كولنز تقديم نفسه موضع ملاحظة

دقيقة من جانبها، والذي كانت دهشته للطريقة التي خُوطب بها واضحة للعيان. وبدأ ابن عمها حديثه بانحناء وقورة، ورغم أنها لم تستطع سماع شيء من هذا الحديث، إلا أنها أحست وكأنها تسمعه كله، ورأت في حركات شفثيه كلمات «اعتذار» و«هنسفورد» و«ليدي كاثرين دي بورو». وآلمها أن تراه يفضح نفسه أمام مثل هذا الرجل. فقد كان مستر دارسي ينظر إليه بعجب ظاهر. وعندما أتاح له مستر كولنز أخيراً فرصة الحديث، رد عليه بأدب مترفع. إلا أن ذلك لم ينل من تصميم مستر كولنز على الحديث ثانية، وبدأ ازدراء مستر دارسي يتزايد بشدة مع استطراد الآخر في الحديث. وما إن انتهى من حديثه، حتى انحنى له مستر دارسي انحناء خفيفة واستدار بعيداً. وعندئذ عاد مستر كولنز إلى إليزابيث وخاطبها قائلاً:

- أؤكد لك أنه ليس هناك ما يحملني على الاستياء من استقباله لي. فقد بدا على مستر دارسي الاغتياب الشديد بما أظهرته من احترام. لقد أجباني بأدب بالغ، بل وأثنى عليّ بقوله إنه مقتنع تمام الاقتناع بحصافة ليدي كاثرين مما يؤكد له أنها لا يمكن أن تغدق إحساناً في غير محله. الحق أن فكرته تلك كانت رائعة للغاية. وعلى العموم فأنا مسرور به غاية السرور.

وإذ لم يعد لإليزابيث أي هدف شخصي تسعى إليه، فقد ركزت معظم اهتمامها على شقيقتها ومستر بينجلي. وقد أدى بها تتابع الخواطر اللطيفة التي ابتعتها ملاحظاتها إلى أن تحظى بنفس القدر من السعادة الذي كانت جين تستشعره. فقد تصورتها وقد استقر بها المقام في نفس هذا البيت، محاطة بكل السعادة التي يمكن أن يوفرها زواج قائم على

المحبة الحقيقية، وشعرت بقدرتها في مثل هذه الظروف على أن تسعى للإعجاب حتى بشقيقتي بينجلي. وأدركت بوضوح أن أفكار والدتها قد اتخذت نفس المسار، وعزمت على ألا تدنو منها خشية أن ينهال على أذنيها فيض حديثها. وعندما جلس الضيوف إلى مائدة العشاء، رأت أنه من معاكسة القدر أن كان مجلسها على مقربة منها. وكان من دواعي قلقها العميق أن ترى والدتها منغمسة في حديث صريح مع ليدي لوكاس، يتعلق على وجه الخصوص بأملها في سرعة زواج جين من مستر بينجلي. لقد كان ذلك موضوعاً يبعث فيها الانتعاش، وبدت مسر بينت وكأنها لا تكل من تعداد مزايا هذه الزيجة. وكانت أولى النقاط التي أخذت تهنيئ نفسها عليها هي أنه كان شاباً ساحراً، شديد الثراء، يسكن على مبعدة ثلاثة أميال ليس غير من مسكنهم. ثم إنه كان مما يبعث على الارتياح أن تكون الأختان شديديتي الشغف بجين، وأن يصبح من المؤكد أنهما تضرمان رغبة أكيدة تتساوى ورغبتها في قيام الصلة بين الاثنين. وفضلاً عن ذلك فقد كان هذا الزواج يحمل في طياته الأمل لبناتها الصغيرات، فزواج جين على هذا النحو العظيم لا بد أن يدخلهن إلى دائرة الأثرياء من الرجال؛ وأخيراً، فإنه لمما يبعث على السرور وقد تقدمت في العمر، أن تعهد بناتها العازبات لرعاية شقيقتهن حتى لا تضطر إلى مخالطة المجتمعات أكثر مما تريد. ولقد كان من الضروري أن يصبح هذا الظرف مدعاة للسرور، فهذا هو ما تقضي به الرسميات في مثل هذه الحالات؛ غير أن مسز بينت كانت أبعد ما تكون عن الارتياح للبقاء في المنزل في أي فترة من فترات حياتها. وأنهت حديثها بأطيب

الأمنيات لليدي لو كاس في أن تكون مثلها سعيدة الحظ في القريب، رغم أنها كانت تؤمن بوضوح وبإحساس بالظفر أن فرصتها في ذلك كانت معدومة.

وحاولت إليزابيث عبثاً أن تعوق تدفق الكلمات من فم والدتها، أو تحثها على وصف سعادتها في همس خفيض، فقد كان من دواعي كدرها -الذي لا يوصف- أن تلاحظ أن مستر دارسي قد استمع إلى الشطر الأعظم من هذا الحديث، إذ كان يجلس قبالتها. ولم تزد أمها عن أن عنفتها لما تقوله من هراء:

- بالله عليك ماذا يعني من أمر مستر دارسي حتى أخشى جانبه؟
إني واثقة بأننا لسنا مطالبين بأن نجامله على نحو ما، مما يضطرنا إلى أن نستبعد من حديثنا ما ليس على هواه.

- بحق السماء يا سيدتي، تحدّثي بصوت أشد خفوتاً. ماذا يعود عليك من الإساءة إلى مستر دارسي؟ إنك بذلك لن تستطيعي أبداً أن ترفعي من قدركِ في نظر صديقه.

ومع هذا فلم تستطع أن تقول شيئاً ذا أثر. فقد مضت أمها في الإفصاح عن آرائها بنفس الصوت المسموع. واحتقنت وجنتا إليزابيث مراراً بتأثير الخجل والضيق. ولم تكن تملك إلا أن تنظر بين الحين والآخر إلى مستر دارسي، رغم أن كل نظرة كانت تقنعها بما كانت تخشاه. فمع أنه لم يكن يوجه بصره دائماً إلى أمها، إلا أنها كانت واثقة أن انتباهه كان مشدوداً إليها تماماً. أما التعبير الذي ارتسم على وجهه فقد تغير بالتدريج من ازدراء غاضب إلى جدية رصينة متزنة.

وأخيرًا أفرغت مسز بينت كل ما في جعبتها من حديث، وانفردت ليدي لو كاس بلحم الخنزير والدجاج، بعد أن طال بها التثاؤب لما تكرر على سمعها من مباحج لم ترَ احتمالًا في أن يكون لها فيها نصيب. وبدأت إليزابيث تنتعش. ولكن فسحة الهدوء لم تدم طويلًا، إذ ما إن انتهى العشاء حتى دار الحديث عن الغناء، وتكدرت نفسها لدى رؤيتها ميري تستعد -بعد رجاء طفيف- لإمتاع الحاضرين. وحاولت بكثير من النظرات ذات المغزى ودلائل الإلحاح الصامت أن تحول دون حدوث هذه المجاملة، ولكن عبثًا. فقد امتنعت ميري عن فهم هذه الإشارات، وكانت مثل هذه الفرصة التي يُتاح لها فيها استعراض نفسها ممتعة لها؛ ورفعت عقيرتها بالغناء. وتركزت عينا إليزابيث عليها، بينما راودتها أحاسيس مؤلمة للغاية، وتابعت انتقالها من فقرة إلى أخرى بنفاد صبر لم يلقَ حسن الجزاء في نهاية الأمر. فما إن لمحت ميري وسط امتنان الجالسين بارقة أمل في احتمال حثها على التفضل عليهم بالغناء من جديد، حتى شرعت في أغنية أخرى بعد نصف دقيقة. ولم تكن قدرة ميري مناسبة بأي حال لمثل هذا الأداء، فقد كان صوتها ضعيفًا وأسلوبها متكلفًا. وتولى إليزابيث كرب شديد. ونظرت إلى جين لترى مدى احتمالها لهذا الأمر، ولكن جين كانت تحادث بينجلي بمتهى الهدوء. ونظرت إلى شقيقته، فرأتهما يشيران إلى بعضهما إشارات توحى بالاستهزاء، وإلى دارسي الذي اكتسى وجهه مع ذلك بمسحة وقار. ونظرت إلى والدها ترجو تدخله حتى لا تستمر ميري في الغناء طوال الليل. وأدرك ما تلمح إليه، وما إن انتهت ميري من أغنيته الثانية

حتى صاح بصوت عالٍ قائلاً:

- هذا عظيم جدًا يا فتاتي. لقد أسعدتنا بما فيه الكفاية. دعي
للأنسات الأخريات فرصة عرض فنهن.

ورغم أن ميري قد تظاهرت بأنها لم تسمع شيئاً، فقد بدا عليها
الارتباك لحد ما. وإذ أسفت إليزابيث من أجلها كما أسفت لكلام أبيها،
إلا أنها خشيت ألا يكون قلقها قد أتى بنتيجة. غير أن الحاضرين بدأوا
يطلبون من الأخريات أن يغنين.

وقال مستر كولنز:

- لو كنت سعيد الحظ بحيث أستطيع أن أغني، لكان من دواعي
سروري العظيم أن أسعد الحاضرين بنغم جميل. فأنا أعتبر الموسيقى
نوعاً من الترويح البريء، كما أعتقد أنها تتمشى تماماً مع مهنة الكاهن.
ومع ذلك فلست أعني أن هناك ما يبرر تصرفنا بتخصيص حصة كبيرة
من وقتنا لسماع الموسيقى، فهناك بالتأكيد أمور أخرى تستوجب
الانتباه. فعلى راعي الأبرشية أن يفعل الشيء الكثير، إذ لا بد له أولاً من
أن يتفق على مسائل العشور بما يعود بالنفع على نفسه وبما لا يسيء إلي
ولي نعمته. كذلك فعليه أن يكتب عظاته؛ أما ما تبقى له من وقت فلن
يكفيه لأداء واجبات أبرشيته، والإشراف على سكنه وتحسين منظره،
وهو السكن الذي لا يمكن أن يعني صاحبه من واجب إدخال أفضل
وسائل الراحة إليه. ولست أظن أنه من قبيل الأهمية الطفيفة أن يسلك
سلوكاً مهذباً وودياً تجاه كل الناس، وعلى الأخص تجاه أولئك الذين
يُعتبر مدينًا لهم بتفضيلهم إياه. ولا أستطيع أن أعفيه من هذا الواجب،

كما أنه لا يمكنني أن أحسن الظن بالشخص الذي تضيع منه فرصة إبداء احترامه تجاه أي امرئ له بأسرته علاقة.

وانحنى لمستر دارسي في ختام حديثه الذي رفع فيه صوته بحيث سمعه نصف الحاضرين في الحجرة. وصدق كثيرون بأنظارهم، وابتسم غيرهم، ولكن لم تَبْدُ البهجة على أحد مثلما بدت على مستر بينت نفسه، بينما كانت زوجته جادة في امتداح مستر كولنز لحديثه العاقل، وهمست في أذن ليدي لوكاس قائلة إنه شاب ماهر ولطيف للغاية.

وبدا لإليزابيث أنه لو كان أفراد أسرتها قد اتفقوا فيما بينهم على فضح أنفسهم بقدر ما يستطيعون خلال السهرة، لكان من المستحيل عليهم أن يؤديوا أدوارهم بحماس أشد أو نجاح أروع. واعتبرت أنه من قبيل حسن حظ بينجلي وشقيقتها أن بينجلي لم يسمع ما دار، وأن مشاعره لم تكن من النوع الذي يتكدر بسبب الحماقة التي لا بد أن يكون قد لاحظها. وقد كان من الأمور السيئة مع ذلك أن تنتهز شقيقته ومستر دارسي مثل هذه الفرصة للسخرية من أقاربها. ولم تستطع أن تقطع بما إذا كان ازدراء الرجل الصامت أو ابتسامات المراتين الوقحة أصعب احتمالاً.

وحملت لها بقية السهرة قليلاً من البهجة. فقد ضايقها مستر كولنز الذي لم يفارقها لحظة واحدة، ورغم أنه لم يستطع حملها على مراقبته ثانية، فقد تسبب في منعها من مراقبة الآخرين. وحاولت عبثاً أن ترجوه ملازمة شخص غيرها؛ كما عرضت عليه أن تقدمه إلى أي أنسة في الحجرة. وأكد لها أنه كان غير مكترث تماماً بالرقص، وأن

هدفه الأساسي كان التودد إليها بلفتاته الرقيقة، وأنه لهذا السبب مصمم على البقاء بجانبها طوال السهرة. ولم يكن هناك مجال لمناقشة مثل هذا المشروع، وصارت مدينة لصديقتها مس لوكاس التي كانت تنضم إليهما فتخفف عنها كثيرًا، وتستغل خفة روحها في حث مستر كولنز على توجيه الحديث إليها.

وكانت على الأقل بمنأى عن أي إساءة يمكن أن تلحق بها من جراء التفات مستر دارسي إليها. فرغم أنه كثيرًا ما كان يقف على مقربة منها، دون أن يشغله شاغل، إلا أنه لم يقترب منها أبدًا ليحادثها. وأحست بأن سلوكه هذا كان نتيجة محتملة لما ألمحت به عن مستر ويكهام؛ وابتهجت لهذا الخاطر.

وكان أفراد أسرة «لونجبورن» هم آخر من رحل من الحاضرين. وقامت مسز بينت بمناورة، كان من نيتها أن ظلوا في انتظار عربتهم لمدة ربع ساعة بعد رحيل الجميع، مما أتاح لهم أن يروا كيف تمنى لهم بعض أفراد الأسرة من صميم قلوبهم سرعة الرحيل، فلم تُفهم مسز هيرست وشقيقتها بكلمة، إلا لغرض الشكوى من الإرهاق، كما بان عليهما بوضوح نفاد الصبر ورغبتهما في الانفراد بالمنزل. وصدّتا كل محاولة من جانب مسز بينت لفتح باب الحديث. فألقتا بهذا ظلًا من الفتور على الصحبة كلها، لم تخفف عنها كثيرًا أحاديث مسز كولنز المطولة حيث أخذ يطري مستر بينجلي وشقيقته على رشاقة حفلهم وعلى كرم الضيافة والأدب اللذين ميزا سلوكهم تجاه ضيوفهم. ولم ينبس دارسي بحرف. كذلك أخذ مستر بينت يستمتع بالمنظر في

سكون. أما مستر بينجلي وجين فقد وقفا معاً على مبعدة من الباقين وأخذا يتبادلان الحديث. واحتفظت إليزابيث بشفتيها مطبقتين على نحو ما فعلت مسز هيرست ومس بينجلي. بل إن ليديا كانت منهكة إلى حد لم تستطع معه إلا أن تنهد بين الحين والآخر قائلة: «يا إلهي، كم أنا متعبة!»، وتصحب قولها هذا بتأؤب طويل.

وعندما نهضوا أخيراً ليستأذنوا، كانت مسز بينت شديدة الإلحاح في التعبير عن أملها في رؤية الأسرة كلها بأسرع وقت في «لونجبورن»، ووجهت حديثها على الأخص لمستر بينجلي؛ لتؤكد له مدى إيساعده لهم بتناوله طعام العشاء معهم في أي وقت يشاء دون الحاجة إلى دعوة رسمية. وعبر بينجلي عن سروره وامتنانه، وأعلن عن استعداداته لانتهاز أول فرصة للقيام بزيارتها بعد عودته من لندن التي سيضطر إلى الذهاب إليها في اليوم التالي لقضاء وقت قصير.

ورأود مسز بينت إحساس بالرضى الكامل، وغادرت المنزل وهي مقتنعة في اغتباط بأنها سترى ابنتها ولا شك مستقرة في «نيدر فيلد» في غضون ثلاثة أو أربعة أشهر، وهي المهلة اللازمة لإجراء الاستعدادات الضرورية للإقامة وتحضير العربات الجديدة وأردية الزفاف. كذلك فكرت بيقين مشابه في زواج إحدى بناتها من مستر كولنز، وكان تفكيرها مصحوباً بابتهاج شديد وإن لم يكن في نفس درجة اغتباطها الأول. فقد كانت إليزابيث أقل بناتها قرباً إلى قلبها. ورغم أن الرجل والزيجة كانا مناسبين لها تماماً، فإن قيمة أي منهما قد ضعفت بتأثير فاعلية مستر بينجلي و«نيدر فيلد».

الفصل التاسع عشر

وأزاح اليوم التالي الستار عن منظر جديد في «لونجبورن»، فقد تقدم مستر كولنز بطلبه رسميًا. فإذا قرر أن يتقدم به دون إضاعة للوقت حيث إن التصريح له بالغياب لم يكن ليمتد إلى أبعد من السبت التالي، وإذا لم يكن يستشعر أي أحاسيس بالتهيب يغتم لها في تلك اللحظة، فقد شرع في عرضه على نحو مرتب للغاية، مراعيًا كل الخطوات كان يعتبرها جزءًا لا يتجزأ من المهمة. ولما وجد مسز بينت وإليزابيث وإحدى الفتيات الصغيرات مجتمعات معًا بعد تناول الإفطار مباشرة، فقد خاطب الأم بهذه الكلمات:

- هل لي أن آمل يا سيدتي في إقناعك لابتك الجميلة إليزابيث عندما ألتبس شرف لقائها على انفراد في خلال هذا الصباح؟

وقبل أن تتاح لإليزابيث فرصة التصرف على أي نحو سوى أن تحمر خجلًا بتأثير الدهشة، أجابت مسز بينت في التو واللحظة:

- بالتأكيد. إنني واثقة أن ليزي ستكون شديدة السعادة، فضلًا عن أنها لن تعترض أدنى اعتراض. تعالي يا كيتي، إنني أريدك في الطابق العلوي.

وبدأت تنسحب في سرعة بعد أن جمعت ما كان بيديها من شغل،
عندما صاحت بها إليزابيث قائلة:

- لا تذهبي يا والدتي العزيزة. أرجوكِ ألا تذهبي. لا بد أن يقبل
مستر كولنز اعتذارى، إذ ليس لديه ما يقوله لي إلا ويصح لأي امرئ أن
يسمعه. أنا ذاهبة أيضًا.

- لا، لا، هذا هراء يا ليزي، إنني أرى أن تبقي حيث أنت.
ولما رأت إليزابيث توشك على الهرب وقد بان في نظراتها الكدر
والحرج، أضافت قائلة:

- ليزي، إنني أصبر على بقائك واستماعك إلى مستر كولنز.
وما كان لإليزابيث أن تعارض هذا الإنذار. وإذ تدبرت الأمر لحظة
فأدركت أن من الأحكم أن تتخلص من هذا الوضع بأسرع وأهدأ ما
يكون، فقد جلست ثانية وحاولت أن تخفي مشاعرها التي انقسمت ما
بين دواعي الكمد والتسلية، بأن تشغل نفسها دون انقطاع بهذا وذاك.
وابتعدت مسر بينت وكيّتي، وما إن اختفيتا عن الأنظار، حتى بدأ مستر
كولنز حديثه قائلاً:

- صدقيني يا عزيزتي مس إليزابيث، إن حيائك لا ينتقص من
شخصيتك بقدر ما يضاعف من كمال خصالك. كان يمكن أن تكوني
أقل ظرفاً في تقديري إن لم تظهر في هذا التمتع الطفيف. ولكن اسمحي
لي أن أؤكد لك أن والدتك المحترمة قد أذنت لي في توجيه الحديث
إليك. إنك لا تشكين في مضمون حديثي، مهما أفضى بك احتشامك

الطبيعي إلى التظاهر بالجهل به، فقد كان اهتمامي بك أوضح من أن تخطئه العين. فبمجرد أن وطئتُ عتبة هذا البيت وقع عليك اختياري كشريكة حياتي في المستقبل. ولكن قبل أن أنساق في التعبير عن مشاعري في هذا الموضوع، أظن أنه من المناسب أن أوضح الأسباب التي تدفعني للزواج، بل ولمجيئي إلى «هارتفوردشير» مستهدفاً اختيار زوجة، وهو ما حدث بالفعل.

وكانت فكرة انسياق مستر كولنز -بهدوئه الرصين- في التعبير عن مشاعره سبباً في دفع إليزابيث إلى شفا الضحك، لدرجة جعلتها تعجز عن الاستفادة من فترة الصمت القصيرة التي أذن بها، كي تحاول إيقافه عن المضي في حديثه. واستطرد قائلاً:

- إن الأسباب التي حدثت بي إلى الزواج هي أنني أظن أولاً: أنه من أصوب الأمور بالنسبة لكل كاهن يحيا (مثلي) في بسطة من العيش أن يضرب المثل في الحياة الزوجية في أبروشيته. وثانياً: فأنا مقتنع بأن الزواج سوف يضاعف من سعادتي إلى حد كبير. وثالثاً: وهو ما كان يلزم عليّ ذكره من قبل، أن الزواج هو بالدقة ما نصحتني به وأوصتني نفس السيدة النبيلة التي أشرف بأن أدعوها راعيتي. لقد تنازلت مرتين بإبداء رأيها في هذا الموضوع (دون أن أوجه إليها السؤال!). وفي نفس ليلة السبت قبيل مغادرتي «لهنسفورد» -وكنا إذ ذاك نلعب الورق، بينما كانت مسز جينكينسون ترتب مسند القدمين الخاص بمس دي بورو- قالت لي: «يا مستر كولنز، يلزمك أن تتزوج. إن كاهناً مثلك لا بد أن يتزوج. عليك أن تختار بحكمة، أن تنتقي امرأة مهذبة لصالح

ولصالحك معاً. فلتكن إنسانة نشطة نافعة، ليست من عائلة ثرية، بل قادرة على أن تتصرف بحكمة في دخل صغير. هذه هي نصيحتي إليك. عليك بالعثور على مثل هذه المرأة بأسرع ما تستطيع، وأحضرها إلى «هنسفورد»، وسأقوم بزيارتها». واسمحي لي بالمناسبة أن أوضح لك يا ابنة عمي الجميلة أنني لا أعتبر ما تبديه ليدي كاثرين من اهتمام وكرم بمثابة أدنى المزايا التي يمكنني تصويرها. فستجدين أن طباعها تفوق ما يمكنني وصفه لك، ويخيل إليّ أن ذكاءك وحيويتك لا بد أن يحوزا قبولها، خصوصاً عندما يقتربنا بالصمت والاحترام اللذين لا بد أن تبعثهما في نفسك مكانتها الرفيعة. يكفي هذا تدليلاً على رغبتني عمومًا في الزواج، ولا يبقى إلا تبيان السبب في اتجاهي إلى «لونجبورن» بدلاً من المنطقة أعيش فيها، حيث يوجد عدد كبير، والحق يقال، من الآنسات اللطيفات. ولكن حيث إنني الوارث لهذه الضيعة بعد وفاة والدك المبجل (الذي قد يمتد به الأجل مع ذلك سنوات طويلة)، فلم يكن ليرضيني إلا أن أقرر اختيار زوجة من بين بناته حتى تكون خسارتهم في أضيق الحدود الممكنة عندما يحل بهن الحادث المحزن الذي قد لا يقع - كما ذكرت سابقاً - إلا بعد سنين كثيرة. كان هذا دافعي يا ابنة عمي الجميلة، وإنني لأمل ألا يكون ذلك سبباً في إسقاطي من ناظريك. أما الآن فلم يبق لي إلا أن أؤكد لك في كلمات متأججة العاطفة غرامي بك. فأنا لا أكثرث ألبة بالمسائل المالية، ولن أطلب من أبيك شيئاً في هذا الخصوص، حيث إنني مدرك تماماً أن استجابته لأي طلب من هذا النوع مستحيلة، وأن الألف جنيه بفوائدها الزهيدة القيمة، وهو

المبلغ الذي لن يؤول إليك إلا بعد وفاة والدتك، هو كل ما يمكن أن يحق لك حيازته. ولهذا فإنني لن أشير بكلمة إلى هذا الموضوع، ويمكنك أن تطمئني إلى أنه لن ييدر مني أي لوم بعد زواجنا.

وكان من اللازم الضروري أن تقاطعه في هذه اللحظة، فصاحت قائلة:

- إنك شديد التسرع يا سيدي، فقد فاتك أنني لم أجب على عرضك بشيء. اسمح لي أن أجيبك إذن دون أي إضاعة للوقت. تقبل شكري لما تغدقه عليّ من ثناء؛ وإنني لمدركة تمامًا لكريم عرضك، غير أنه ليس أمامي إلا أن أرفضه.

وأجاب مستر كولنز قائلاً بحركة متكلفة من يده:

- إنني أعرف منذ زمان أن من الطبيعي بالنسبة للآنسات أن يرفضن عروض الرجل الذي ينوين سرّاً قبوله، عندما يتقدم إليهن لأول مرة طالباً القرب منهن، وأن الرفض قد يتكرر في بعض الأحيان مرتين أو حتى ثلاث مرات. ولذلك فإن ما قلته الآن لن يثبط من عزمي بحال من الأحوال، وإنني آمل في أن أقود خطاك إلى المذبح المقدس قبل مضي وقت طويل.

وصاحت إليزابيث قائلة:

- أقسم بشرفي يا سيدي أن أملك يُعتبر غريباً إلى حد ما بعد أن عرفت موقفي. أؤكد لك أنني لست واحدة من أولئك الآنسات (لو كان هناك مثل أولئك الآنسات) اللاتي يخاطرن بسعادتهن اعتماداً على سنوح

فرصة ثانية يُطلبن فيها للزواج. فأنا جادة تمامًا في رفضي؛ إذ لن يكون بوسعك أن تسعدني، كما أنني مقتنعة بأنني آخر من يستطيع إسعادك. ولو قدر لصديقتك ليدي كاثرين أن تعرفني، فإني على ثقة من أنها ستجدني غير صالحة من جميع النواحي لاحتلال هذا المركز.

وقال مستر كولنز بوقار شديد:

- ليس من المؤكد أن تفكر ليدي كاثرين على هذا النحو، غير أنني لا أستطيع أن أتصور أن سيادتها قد تعترض كلية عليك. ولك أن تثقي أنه عندما أتشرف بلقيها مرة أخرى فسوف أمتدح أمامها حيائك وتديبك وخصالك الحميدة الأخرى.

- الحق يا مستر كولنز أن كل مدح لي سيكون غير ذي موضوع. فلا بد أن تسمح لي بأن أحكم على الأمور بنفسي، وليكن امتداحك لي هو إيمانك بما أقول. إنني أتمنى لك السعادة البالغة والثراء الطائل، وليس رفضي لعرضك إلا سعيًا جاهدًا مني لأن أجنبك مصيرًا مخالفًا. إن عرضك الزواج مني قد خفف حتمًا من حرج مشاعرك إزاء أسرتي، ولك أن تستحوذ على ضيعة «لونجبورن» وبقية ما تؤول إليك دون أي إحساس بتأنيب الضمير. وإذن فيمكنك أن تعتبر هذا الموضوع منتهيًا تمامًا.

وكان يمكن أن تغادر الحجرة؛ إذ إنها كانت قد نهضت واقفة أثناء حديثها، لولا أن خاطبها مستر كولنز على هذا النحو قائلاً:

- عندما أتشرف بالحديث إليك في هذا الموضوع في المرة التالية، فإني آمل أن أتلقي منك ردًا أنسب مما تفضلت به الآن عليّ، رغم أنني

أبعد من أن أتهمك بالقسوة في الوقت الحاضر، لعلمي أن رفض من يتقدم لأول مرة هو عادة راسخة تسترشد بها بنات جنسك كلهن. بل إنك ربما قد ألمحتِ إلى الكثير مما يشجع مطلبي للزواج منك، وكله يتفق مع الحياء الحق الذي تتصف به شخصية الأنثى.

وصاحت إليزابيث في لهجة يشيع فيها بعض الانفعال:

- إنك فعلاً تحيرني يا مستر كولنز إلى حد بعيد. إذا كان ما قلته حتى الآن يظهر لك على صورة تشجيع، فلست أعرف كيف أعبر عن رفضي على نحو يقنعك بحقيقته.

- اسمحي لي يا ابنة عمي العزيزة أن أمني النفس بأن رفضك لعروضي ليس إلا مجرد كلمات. إن ما يدفعني إلى الإيمان بهذا هو باختصار ما يلي: لا يبدو لي أن شخصي غير جدير بقبولك، أو أن حياة الاستقرار التي أستطيع توفيرها لك ليست تشتهيه النفس. فمركزي في الحياة، وصلاتي بأسرة دي بورو، وقرابتي لأسرتك هي ظروف في صفي تمامًا. ولا بد لك أن تضعي في اعتبارك أيضًا أنه من غير المؤكد بأي حال أن تتاح لك فرصة عرض آخر للزواج رغم مظاهر جاذبيتك المتعددة - فنصيبك من الثروة ضئيل جدًا لسوء الحظ، لدرجة يُحتمل معها أن يضع كل أثر لجمالك وخصالك الحميدة. وحيث إنني لهذا السبب أعتقد أنك لست جادة في رفضك لي، فإنني أميل إلى إرجاع هذا الرفض إلى رغبتك في إشعال نار حبي بفعل الترقب والانتظار بما يتمشى مع ما جرت به العادة من سلوك الجنس اللطيف.

- أوكد لك يا سيدي أنني لست أدعي شيئاً من هذه الكياسة التي تستند إلى تعذيب إنسان مهذب. وإنني لأود أن يكون امتداحك لي في إيمانك بصدقني ونزاهتي. وشكراً لك وألف شكر على تكرمك لي فيما عرضته عليّ، أما فيما يختص بقبولي هذا العرض، فأمر مستحيل تماماً. إن مشاعري تعزف عنه من جميع النواحي. فهل أستطيع أن أتحدث بأصرح من ذلك؟ أرجوك ألا تعتبرني الآن امرأة متدلة تستهدف تعذيبك، بل إنسانة عاقلة تتحدث الصدق من أعماق قلبها.

وقال بكياسة يبين فيها الحرج:

- إنكِ فتانة في كل شيء! وإنني لواثق من أن عروضي ستحوز القبول حتماً إذا باركتها سلطة والديك الكريمين.

ولم تستطع إليزابيث أن ترد بشيء على مثل هذا الإصرار على خداع النفس المتعمد، وانسحبت من الحجرة في الحال وفي سكون، وقد عقدت العزم في حالة استمراره في اعتبار رفضها المتكرر بمثابة تشجيع متملق، على اللجوء إلى والدها الذي لا بد أن يعلن رفضه بطريقة حاسمة، والذي لا يمكن تأويل سلوكه على أنه تكلف وغندرة من جانب امرأة متدلة.



الفصل العشرون

لم يطل الوقت بمستر كولنز ليتأمل في صمت غرامه الموفق، فلم تكد مسز بينت ترى إليزابيث وهي تفتح الباب وتهرع إلى الدرج متخطية إياها، وهي التي كانت تتلكأ في البهو لترقب نهاية اللقاء، حتى دخلت إلى حجرة الإفطار وعبرت له ولنفسها في كلمات حارة عن تهانيها على المأمل السعيد الذي سيقرب بينهما. وتلقى مستر كولنز هذه التهاني بسرور وردّها بنفس السرور، ثم بدأ يقص عليها تفصيلات لقاءهما، وما انتهى إليه من ثقته بتوفر أسباب رضاه، حيث إن الرفض الذي أبدته ابنة عمه بإصرار، لا بد قد نشأ بشكل طبيعي من خفرتها المحتشم ومما جبلت عليه شخصيتها من حياء أصيل.

غير أن هذه الأنباء قد أدهشت مسز بينت. فقد كان يسعدها أن تستشعر مثله الرضى على أساس أن ابنتها قد استهدفت تشجيعه برفضها عروضه، ولكنها لم تجسر على الإيمان بهذا الرأي ولم تستطع إلا أن تصرح برأيها؛ وأضافت قائلة:

- ولكن ثق يا مستر كولنز أن ليزي سوف تثوب إلى رشدّها. وسوف أكلّمها بنفسى فى هذا الموضوع مباشرة. إنها فتاة عنيدة حمقاء ولا تعرف مصلحتها؛ ولكنى سأبصرها بها.

وصاح مستر كولنز قائلاً:

- أستمحك عذراً إذ أقاطعتك يا سيدتي؛ ولكن إذا كانت حقاً عنيده وحمقاء، فلست أدري إذا كانت تصلح على الإطلاق زوجة مناسبة لرجل في مركزي يتطلع بشكل طبيعي لتحقيق السعادة من الزواج. فإذا كانت تصر فعلاً على رفض طلبي للزواج منها، فربما كان من الأفضل عدم إجبارها على قبولي؛ لأنها لن تستطيع أن تساهم بنصيب كبير في إسعادي وهي معرضة لمثل هذه الهفوات في طباعها.

وقالت مسز بينت منزعة:

- إنك تسيء فهمي تماماً يا سيدي، فليزي ليست عنيده إلا في مثل هذه المسائل، أما في غيرها فهي أطيّب البنات جميعاً، سوف أذهب مباشرة إلى مستر بينت، وأنا واثقة أننا سنسوي الأمر معها بأسرع ما يمكن.

ولم تمهله ليرد عليها، بل أسرع في الحال إلى زوجها، وما إن دخلت إلى المكتبة، حتى صاحت قائلة:

- يا مستر بينت، أنت مطلوب حالاً. إننا جميعاً في اضطراب عظيم. لا بد أن تأتي وتبحث ليزي على الزواج من مستر كولنز؛ لأنها قد أقسمت على ألا تقبله زوجاً. وإن لم تسرع في هذا، فسوف يغير رأيه ويعرض عن الزواج منها.

ورفع مستر بينت عينيه من كتابه على أثر دخولها، وركزهما على وجهها بعدم اكتراث هادئ لم يعتوره أدنى تغير لما قالته.

وقال بعد أن انتهت من حديثها:

- إني لم أسعد بفهم كلامك. عمّ تتحدثين؟

- عن مستر كولنز وليزي. إن ليزي تعلن أنها لن تقبل مستر كولنز زوجاً لها، وقد بدأ مستر كولنز يصرح بأنه لن يرضى بليزي.

- وما هو دوري في مثل هذه الحالة؟ إن الأمر يبدو ميؤوساً منه.

- خاطب ليزي في هذا الأمر بنفسك. قل لها إنك تصرّ على زواجها منه.

- نادها، ولسوف تسمع رأيي.

وقرعت مسز بينت الجرس، واستدعيت إليزابيث إلى المكتبة.

وقال والدها حال ظهورها:

- تعالي يا فتاتي. لقد أرسلت في طلبك بخصوص موضوع هام. لقد علمت أن مستر كولنز قد قدم إليك عرضاً بالزواج. هل هذا صحيح؟ وأجابت إليزابيث بالإيجاب:

- حسن جداً. وهل رفضت هذا العرض بالزواج؟

- أجل يا سيدي.

- حسن جداً. الآن نصل إلى الموضوع. إن أمك تصر على قبولك إياه. أليس كذلك يا مسز بينت؟

- نعم، وإلا فلن أراها مرة ثانية.

- لك أن تختاري بين أمرين كلاهما لا يبعث على الهناء يا إليزابيث. فابتداء من هذا اليوم لا بد أن تصبحي غريبة على أحد والديك. فأنتك لن

تقبل رؤيتك ثانية إذا لم تتزوجي من مستر كولنز، وأنا لن أقبل أن أراك ثانية إذا تزوجت منه.

ولم تملك إليزابيث إلا أن تبتسم لمثل ما انتهت إليه تلك البداية من نهاية. أما مسز بينت التي كانت قد اطمأنت إلى أن زوجها ينظر إلى الموضوع حسب رغبتها، فقد خاب أملها إلى حد بعيد.

- ماذا تعني يا مستر بينت بمثل هذا الكلام؟ لقد وعدتني أن تصر على زواجها منه.

وأجاب زوجها قائلاً:

- إنني أطلب إليك يا عزيزتي أن تسدي إليّ معروفين، أولهما أن تسمح لي بحرية استخدام عقلي في الموضوع الراهن، وثانيهما بحرية استعمال حجرتي. وسأسعد إذا انفردت بمكتبتي بأسرع ما يُستطاع.

إلا أن مسز بينت، رغم خيبة أملها في زوجها، لم تكن لتقبل إذ ذاك ترك الموضوع. فقد تحدثت إلى إليزابيث مراراً، ملاطفة لها تارة ومهددة تارة أخرى. وحاولت أن تضم جين إلى صفها، ولكن جين رفضت التدخل، وأعلنت رفضها بكل ما أمكنها من رقة. أما إليزابيث فكانت في بعض الأحيان ترد على هجمات بجدية حقة، وبمرح لعب في أحيان أخرى. ورغم تنوع أسلوبها إلا أن عزمها مع ذلك لم يتغير.

وفي أثناء هذا، كان مستر كولنز يتدبر في وحدته ما حدث. لقد كان حسن الظن بنفسه إلى حد لم يفهم معه الدافع الذي حدا بابنة عمه إلى رفضه. ورغم أن كبرياءه قد أصيبت، إلا أنه لم يعانٍ من ذلك في أقل القليل. فقد كان تقديره لها مزعومًا، كما أن إمكانية استحقاقها لوم أمها

قد حالت بينه وبين الشعور بأي ندم.

وبينما كان أعضاء الأسرة يعانون هذا الاضطراب، جاءت شارلوت
لو كاس لتقضي معهم سحابة النهار. وقابلتها ليديا في البهو، وطارت
إليها لتهمس في أذنها قائلة:

- إنني سعيدة لمجيئك، فها هنا تجري أمور ممتعة! ماذا تظنينه قد
حدث هذا الصباح؟ لقد عرض مستر كولنز الزواج على ليزي، أما هي
فلا تريده زوجًا.

ولم تكذ شارلوت تجد الفرصة للرد حتى انضمت إليهما كيتي
جاءت لتحكي نفس الأخبار. وما إن دخلن حجرة الإفطار حيث كانت
مسز بينت تجلس بمفردها حتى فتحت هي الموضوع من جديد، مناشدة
مس لو كاس إبداء عطفها، وراجية إياها أن تقنع صديقها ليزي بالنزول
على رغبة أسرتها جميعًا. وأضفت قائلة بنبرة حزينة:

- أرجوك أن تفعلي ذلك يا عزيزتي مس لو كاس. فليس هناك أحد
في صفي، لا يوجد من يساندني. إن الجميع يعاملونني بقسوة، ولا يرأف
أحد بأعصابي المسكينة.

وكان في دخول جين وإليزابيث ما يكفي شارلوت مشقة الرد.

واستطردت مسز بينت قائلة:

- ها قد جاءت وعلى سيماها من عدم الاكتراث قدر كبير، غير
عابئة إلا بمقدار ما لو كنا بعيدين عنها بأميال، مفترضة أنها تستطيع
التصرف كما تشاء وتهوى. ولكن اسمعي يا مس ليزي: لو حُزمت
أمرك على الاستمرار في رفض كل عرض للزواج على هذا النحو،

فلن تجدي الزوج على الإطلاق. وإني لا أعرف حقاً من سوف يكفلك عندما يموت والدك. فمن ناحيتي لن أستطيع إعالتك، وهذا إنذار لك. لقد أبرأت ذمتي منك ابتداء من اليوم. لقد قلت لك في المكتبة إنني لن أحادثك ثانية، وستجدني عند كلمتي. فليس مما يمتعني أن أخاطب أبناء عاصين. وليس معنى هذا أنني أستمتع كثيراً بالحديث إلى أي امرئ مهما كان، فمن كانوا يعانون مثلي من اضطرابات عصبية لا يملكون كثيراً إلى الحديث. لا يستطيع أحد أن يتصور ما أعاني! ولكن هذا هو الحال دائماً. إن الذين لا يشكون لا يجدون الحنان من أحد.

وأنصت بناتها في صمت إلى هذا الفيض المتدفق، مدركات أن أي محاولة لمناقشتها أو تهدئتها لن تؤدي إلا إلى زيادة اضطرابها. وهكذا استمرت في حديثها دون أن تقاطعها إحداهن، إلى أن انضم إليهن مستر كولنز الذي دخل إلى الحجرة مصطنعاً العظمة أكثر من المعتاد، وما إن لاحظت قدومه، حتى خاطبت الفتيات قائلة:

- إني أصر الآن على أن تصمتن جميعاً، وأن تدعني أتحدث مع مستر كولنز قليلاً.

وانسحبت إليزابيث من الحجرة بهدوء، وتبعها جين وكيثي، أما ليديا فلزمت مكانها عازمة أن تسمع كل ما تستطيع سماعه. وقنعت شارلوت بالاتجاه ناحية النافذة متظاهرة بعدم الإنصات ومدفوعة بشيء من الفضول، بعد أن عوقتها في مبدأ الأمر مجاملات مستر كولنز الذي دقق في استفساراته عن شخصها وكل أفراد أسرتها. وبنبرة حزينة بدأت مسز بينت ما انتوته من حديث قائلة:

- أو اه يا مستر كولنز.

فأجاب بقوله:

- يا سيدتي العزيزة، فلنضع حدًا نهائيًا للحديث في هذا الموضوع.

وأضاف مباشرة بصوت كشف عن استيائه.

- إنني أبعد من أن أمتعض لسلوكك ابتك. فالامثال للبلايا المحتمومة هو واجب كل منا، بل هو على الأخص واجب شاب مثلي أسعده الحظ بأن يكون موضع رقي منذ وقت مبكر؛ وإني أثق بأنني قادر على الإذعان. ولربما كنت في مثل هذه الحالة أشد ميلًا للتسليم بسبب ما يساورني من إحساس بالشك في إمكانية تحقيق سعادتي الأكيدة فيما لو كانت ابنة عمي الجميلة قد شرفنتني بالزواج منها. فقد لاحظت مرارًا أن الاستسلام للأمر الواقع لا يكون مكتملاً أبدًا إلا عندما تكون السعادة التي حرمتنا منها قد بدأت تفقد شيئًا من قيمتها في تقديرنا. أملني ألا تظنينني مبدئيًا أي عدم احترام لأسرتك يا سيدتي العزيزة، عندما أسحب مطلبتي بالزواج من ابتك، دون أن أتقدم إليك وإلى مستر بينت بالرجاء طالبًا منكما أن تتوسطا في صفني بما لكما من سلطة. وأخشى أن يكون في سلوكي ما يستوجب الاعتراض؛ لأنني تلقيت قرار رفضي من شفتي ابتكما لا من شفاهكما، غير أننا جميعًا عرضة للخطأ. لقد كان مقصدي بالتأكيد شريفًا خلال العملية كلها، وكان هدفي أن أحظى برفيقة أنيسة لشخصي، إلى جانب ما دفعني من مراعاة واجبة لما يعود بالنفع على أفراد أسرتك جميعًا. ولو كان في سلوكي ما يستوجب اللوم، فإني أستاذنك الآن في تقدير وافر اعتذاري.

الفصل الحادي والعشرون

بلغت الآن مناقشة عرض مستر كولنز نهايتها تقريباً، ولم يتبقَّ لإليزابيث إلا أن تعاني من المشاعر غير المريحة التي تتعلق به، ومن بعض المشاكسات التي كانت تبدو من أمها بين الحين والآخر. وفيما يختص بالرجل نفسه فقد عبر عن مشاعره أساساً، لا عن طريق الحرج أو الابتئاس ولا عن طريق محاولته تفاديها، ولكن بإظهار التزمت في السلوك، وبالركون إلى الصمت الذي يشي بالامتعاض. فلم يكن يتحدث إليها إلا فيما ندر؛ أما الاهتمام الدؤوب الذي كان لا ينفك بيديه إزاء الناس، فقد انصب فيما بقي من النهار على مس لوكاس التي كانت كياستها في الإصغاء إليه بمثابة تفريج مؤقت لهم جميعاً وعلى الأخص بالنسبة لصديقتها.

ولم يأت اليوم التالي بأي تخفيف لمزاج مسز بينت المتكدر أو صحتها المعتلة. كذلك ظل مستر كولنز على نفس الحالة من الكبرياء المترفعة. وأمّلت إليزابيث في أن يؤدي امتعاضه إلى تقصير أمد زيارته، ولكن لم يبدُ على خطته أنها قد تأثرت أقل تأثير. فقد كان أصلاً ينتوي الرحيل يوم السبت، ولم تزل نيته معقودة على البقاء حتى ذلك اليوم.

وبعد تناول طعام الإفطار انطلقت الفتيات إلى «ميريتون» ليستفسرن عما إذا كان مستر ويكهام قد عاد، وليبين أسفهن على عدم شهوده حفل «نيدر فيلد». وانضم مستر ويكهام إليهن بينما كنَّ على مشارف المدينة، وصحبهن إلى منزل خالتهن، حيث دار الحديث طويلاً عن أسفه وكدره، وعن اهتمام الجميع بالموضوع. على أنه أقر لإليزابيث طواعية أن غيابه كان ضرورة أملاها هو على نفسه. وقال:

- لقد رأيت مع اقتراب الوقت أن من الأفضل ألا ألتقي بمستر دارسي وجهاً لوجه. فوجودي معه في نفس الحجرة وضمن نفس الجماعة طوال ساعات وساعات كان أمراً يفوق احتمالي. فضلاً عن أنه قد ينشأ بيني وبينه من المواقف ما قد يسيء إلى غيري من الأشخاص.

ووافقت بشدة على سبب امتناعه عن الحضور؛ وأُتيحت لهما الفرصة للنقاش في هذا الموضوع طويلاً ولتبادل أسباب المديح في كياسة وأدب، وذلك حين صحبهن ويكهام وضابط آخر في طريقهن عائداً إلى «لونجبورن»، حيث اختصها باهتمامه طوال الطريق. وكان في مصاحبتهم لهن ميزة مزدوجة. فقد أحست بما أبداه تجاهها من مجاملة، فضلاً عن أن صحبته قد حازت أعظم القبول بصفتها مناسبة طيبة لتقديمه إلى والديها.

وبمجرد عودتهن وصل خطاب باسم مس بنت، وارد من «نيدر فيلد»، وفُضَّ في الحال. وكان المطروف يحتوي على ورقة أنيقة صغيرة مضغوطة بالتسخين مكتوبة بخط سيدة فيه جمال وانسياب. ورأت إليزابيث أن سحنة شقيقتها تتغير باطراد وهي تمضي في القراءة،

كما رأتها تُنعم النظر في فقرات معينة. وثابت جين إلى نفسها بسرعة، ووضعت الخطاب جانبًا، وحاولت أن تشارك الجميع حديثهم بما فُطرت عليه من مرح. ولكن إليزابيث استشعرت في هذه المسألة قلقًا أبعد اهتمامها حتى عن ويكهام. وما إن استأذن هو وصديقه، حتى دعتها نظرة من جين إلى اللحاق بها في الطابق الثاني. وعندما بلغتا حجرتهما، قالت جين وهي تستخرج خطابها:

- هذا خطاب من كارولان بينجلي، أدهشتني محتوياته لحد كبير. لقد غادرت الجماعة كلها «نيدرفيلد» بالفعل، وهم الآن في طريقهم إلى لندن، دون أن تراودهم أي نية في العودة ثانية. وسوف أتلو عليك ما تقول.

وعندئذ قرأت الجملة الأولى بصوت عالٍ، وكان فيها نبأ عزمهما في تلك اللحظة على اللحاق مباشرة بأخيها في لندن، ونيتها في تناول طعام الغداء في نفس اليوم في «جرسفنور ستريت» حيث كان مستر هرست يمتلك بيتًا هناك. أما ما تلا ذلك فقد جرى على هذا النحو:

«لست أدعي أسفي على شيء أتركه ورائي في «هارتفوردشير» باستثناء صحبتك يا أعز صديقتي. ولكننا نأمل أن نستمتع في مستقبل الأيام باستعادة أواصر العلاقة الممتعة التي نشأت بيننا. وعلينا في هذه الأثناء أن نخفف من ألم الفراق بتبادل الخطابات الكثيرة غير المتحفظة. وإني أعتمد عليك في هذا.

وأنصت إليزابيث لهذه التعبيرات الجياشة بكل ما في الريبة من

عدم انفعال. ورغم أن ما صحب رحيلهما من مباغته أدهشتها، إلا أنها لم ترَ في ذلك ما يبعث حقاً على الأسى. فليس من المفترض أن يحول غيابهما عن «نيزفيلد» دون مجيء مستر بينجلي إليه. وأما فيما يختص بفقدان صحبتهما، فقد كانت واثقة أن جين لن تقيم لذلك وزناً كبيراً حالما تستمتع بصحبته.

وقالت بعد فترة صمت قصيرة:

- إنه لمن سوء الحظ ألا يمكنك رؤية صديقتيك قبل مغادرتهما للريف. ولكن ألا يحق لنا أن نأمل أن فترة السعادة المقبلة التي تتطلع إليها مس بينجلي سوف تهل بأسرع مما تعتقد، وأن العلاقة الممتعة التي نشأت بينكما كصديقتين سوف تتجدد بما يبعث على اغتباط أشد بوصفك زوجة لأخيها؟ إن مستر بينجلي لن يتغيب في لندن بسببهما.

- إن كارول لاين تقول بلهجة حاسمة: إن أحداً من الجماعة كلها لن يعود إلى «هارتفوردشير» هذا الشتاء. سوف أقرأ لك كلامها.

عندما غادرنا أخي بالأمس كان يتصور أن العمل الذي استدعى وجوده في لندن سوف ينقضي في بحر ثلاثة أو أربعة أيام. ولكن لما كنا واثقتين من خطأ هذا التصور، ومقتنعتين في ذات الوقت أن تشارلز لن يكون في عجلة من أمر مغادرة لندن بعد وصوله إليها، فقد عزمنا على اللحاق به حتى لا يضطر إلى قضاء وقت فراغه في فندق لا يوفر له أسباب الراحة. وقد وصلت إلى هناك بالفعل كثيرات من معارفي لقضاء فصل الشتاء، وإني أمل أن أسمع بنيتك، يا أعز صديقتي، في الانضمام إلى هذه

الصحة. ولكني يائسة من هذا. تمنياتي المخلصة لك بأن يزخر احتفالك بعيد الميلاد في «هارتفوردشير» بالأفراح التي تصحب هذا العيد عموماً، وأن صفوة معارفك سيكونون كثيرين إلى حد يمنعك من الشعور بفقدان الرجال الثلاثة الذين سنحرمك من صحبتهم.

وأضافت جين قائلة:

- يتضح من هذا أنه لن يعود ثانية هذا الشتاء.

- لا يتضح إلا أن مس بينجلي لا تود له أن يعود.

- لمَ تظنين هذا؟ إن الأمر كله من تدبيره، فهو سيد نفسه. ولكنك لا تعرفين كل شيء. سوف أقرأ الفقرة التي تؤلمني على وجه الخصوص. ولن أسمع منك أي تحفظات على هذا الكلام:

إن مستر دارسي شديد الشغف برؤية شقيقته، وأقول لك إننا لا نقل عنه ولعاً بلقائها ثانية. فالواقع أنني لا أظن أن هناك من تساوي جورجيانا دارسي في الجمال والرشاقة والكمال. وإن مشاعر الود تستثيرها في لويزا وفي شخصي لتزايد إلى شعور أشد تشويقاً بسبب ما يراودنا من أمل في أن تصبح فيما بعد زوجة لأخيها. ولست أعرف ما إذا كنت قد أخبرتك من قبل بأحاسيسي إزاء هذا الموضوع، ولكني لن أترك الريف دون أن أسر إليك بها؛ وإني على ثقة أنك ستعتبرينها في محلها. فشقيقي يعجب بها بالفعل أشد الإعجاب، ولسوف تتاح له الآن فرص متعددة لرؤيتها عن قرب. كذلك فإن أقاربها جميعاً يتمنون قيام الصلة

بينهما بنفس القوة التي يتمنى بها أقاربه نفس الشيء. ولا أظن أن انحيازي إلى تشارلز بوصفي شقيقته قد يعينني عن الحق عندما أعتبره أشد الرجال قدرة على شغل قلب أي امرأة. وبالنظر إلى كل هذه الظروف التي تساعد على قيام العلاقة، ومع انتفاء وجود كل ما يمنع قيامها، فهل أعتبر مخطئة يا جين يا أعز صديقاتي إذا ما رادوني الأمل في حدوث أمر يكفل السعادة لكثيرين؟

وقالت جين إثر انتهائها من هذه الجملة:

- ما رأيك في هذه الجملة يا عزيزتي ليزي؟ أليست واضحة بما فيه الكفاية؟ ألا تفصح صراحة عن أن كارول لا تتوقع أن أكون زوجة لأخيها، ولا ترغب في ذلك، وأنها جد مقتنعة بعدم اكتراث شقيقها، وأنها ترمي فيما لو كانت ترتاب في طبيعة مشاعري نحوه إلى إلزامي جانب الحذر (بمنتهى الرقة!)؟ أيمكن أن يكون هناك رأي آخر في هذا الموضوع؟

- نعم يمكن، فرأيي مختلف تمامًا. أتحبين سماعه؟

- بمنتهى السرور.

- سأكشف لك عنه في بضع كلمات. إن مس بينجلي ترى أن أخاها يحبك، وهي تريده أن يتزوج من مس دارسي. إنها تلحق به إلى لندن آملة من وراء ذلك إبقاءه هناك، وتسعى إلى إقناعك بأنه لا يقيم لك اعتبارًا. وهزت جين رأسها.

- يجب أن تصدقيني يا جين فلا يستطيع أي امرئ رآكما معًا أن

يشك في محبته لك. وإني واثقة أن مس بينجلي لا تستطيع أن تشك أيضاً، فهي ليست ساذجة. ولو كانت قد أحست من جانب مستر دارسي بشطر بسيط من عاطفة الحب لمحتها في عيني مستر بينجلي إزاءك، لكانت قد أمرت بإعداد ثياب زفافها. ولكن الوضع يتلخص في أننا لسنا أثرياء أو عظماء بالقدر الذي يليق بهم؛ وهي شديدة الشغف بالاستحواذ على مس دارسي لأخيها، متصورة أن قيام زواج واحد في نطاق الأسرتين سيسهل عليها التوصل إلى زواج ثانٍ. وهذا أمر يتصف بالتأكيد ببراعة كبيرة، إذ كان من الممكن أن تنجح هذه الخطة لو لم يكن لمس دي بورو وجود. ولكن لا يمكنك أن تعتقدي حقاً يا عزيزتي جين أن ما تقوله مس بينجلي من أن شقيقها شديد الإعجاب بمس دارسي قد يوحي بأنه لم يعد يشعر بجدارتك مثلاً كان يشعر بها لحظة أن استأذن منك يوم الثلاثاء الماضي، أو أنه في استطاعتها أن تقنعه بحبه الشديد لصديقتها وبأنه لا يشعر تجاهك بشيء من هذا.

وأجابت جين قائلة:

- لو كنا ننظر نفس النظر لمس بينجلي، لكان تصويرك لهذا كله قد طمأنني تماماً. ولكنني أدرك أن أساس كلامك غير عادل. فليس من شيمة كارولان أن تخدع أي شخص عامدة متعمدة. وكل أملي في هذه الحالة هو أن تكون هي نفسها قد وقعت ضحية خداع.

- هذا صحيح. ما كان يمكنك أن تتوصلني إلى فكرة أبدع من هذه طالما أنك لا تطمئني إلى فكري. لك أن تعتقدي بأنها مخدوعة. لقد قمت بالواجب إزاءها، فليس لك أن تتبرمي بعد الآن.

- ولكن هل أستطيع يا أختي العزيزة أن أسعد -حتى لو افترضنا
أفضل الأمور - بقبول رجل تتمنى له شقيقته وأصدقائه أن يتزوج من
غيري؟

فقلت إليزابيث:

- عليك أن تقرري بنفسك؛ وإذا وجدت بعد تدبر ناضج أن التعاسة
المرتبة على تكدير شقيقتيه سترجح كفة السعادة الناشئة عن زواجك
منه، فإني أنصحك بالفعل أن ترفضيه.

وقالت جين وهي تبسم ابتسامة وانية:

- كيف تتحدثين على هذا النحو؟ لك أن تعلمي أنه رغم ما
سيؤولاني من هم شديد لمشاعر استنكارهما، فلن أتردد في موقفي.
- لم أتخيل أنك ستترددين، ولهذا السبب فإني لا أجد ما يبرر النظر
إلى موقفك بإشفاق كبير.

- ولكن إذا لم يعد هذا الشتاء، فلن يكون هناك محل لاختياري.
فمئات الأحداث قد تقع في بحر ستة شهور.

ونظرت إليزابيث إلى فكرة عدم عودته بازدياد شديد. فقد بدا لها
أن الأمر لا يعدو أن يكون إيحاءً نابغاً من رغبات كارولان المغرضة.
ولم تكن تستطيع للحظة من الزمن أن تفترض أن تلك الرغبات -بغض
النظر عن صراحة التعبير عنها أو التوائه - قد تؤثر في شاب مستقل تمام
الاستقلال عن غيره.

وصورت لشقيقتها، بقدر ما استطاعت من وضوح، مشاعرها بشأن هذا الموضوع. وسرعان ما ابتهجت عندما رأت تأثير كلامها على وجهها. فلم يكن اليأس من طبع جين. وأخذت تستعيد الأمل بالتدريج في أن بينجلي سوف يعود إلى «نيذرفيلد» ويستجيب لكل آمانيات قلبها، رغم أن الحياء الناشئ عن مشاعرها كان يتغلب في بعض الأحيان على هذا الأمل.

واتفقتا على إطلاع مسز بينت على نبأ رحيل الأسرة دون إزعاجها بمعرفة الباعث على سلوك الرجل. ولكن حتى هذه المعلومات الجزئية سببت لها قلقاً بالغاً، وأخذت تنتحب على سوء الحظ الشديد الذي ارتبط برحيل السيدتين في الوقت الذي كان في الجميع بسبيل توثيق صلاتهم معاً. وبعد أن استمرت في الندب على هذا الموضوع وقتاً طويلاً، رأت أن تلتمس العزاء في الظن بأن مستر بينجلي سيصل ثانية في القريب العاجل وسيتناول الغداء في «لونجبورن». وانتهت من كل ذلك إلى أن صرحت -وهي راضية النفس- بأنه حتى وإن كان قد دُعي إلى تناول الطعام ضمن أفراد الأسرة، إلا أنها لن تغفل عن إعداد دورين كاملين من أدوار الطعام.



الفصل الثاني والعشرون

دُعيت أسرة بينت لتناول طعام الغداء على مائدة أسرة لوكاس. وكانت هذه هي المرة الثانية التي تعطفت فيها مس لوكاس بالإصغاء إلى حديث مستر كولنز خلال الشطر الأعظم من النهار. وانتهزت إليزابيث الفرصة لشكرها على ذلك، وقالت:

- إن ذلك يجعله منشرح المزاج، وإنني لعاجزة عن التعبير عن شكري لك.

وأكدت شارلوت لصديقتها رضاها لكونها ذات نفع، واعتقادها أن هذا الرضى يعود عليها بأجل العطاء لما تبذله من تضحية طفيفة بوقتها. وكان هذا لطيفاً جداً. ولكن كرم شارلوت قد تخطى ما راود أفكار إليزابيث عنه، فلم يستهدف هذا الكرم إلا حمايتها من أي تكرار لأحاديث مستر كولنز عن طريق توجيهها ناحية نفسها. فقد كانت هذه هي خطة مس لوكاس؛ وبدت الظواهر مشجعة تماماً لدرجة كانت يمكن أن تشعرها -عندما افترقا في تلك الليلة- بالثقة الوطيدة في نجاحها، لو لم يكن من واجبه مغادرة «هارتفوردشير» في القريب العاجل. غير أنها لم تكن عادلة في تقدير عواطفه الجياشة واستقلال

شخصيته، مما أفضى به إلى التسلل في اليوم التالي من «لونجبورن هاوس» بحذق بارع، والإسراع إلى «لوكاس لودج» ليلقي بنفسه تحت قدميها. وقد اهتم بتحاشي لفت أنظار بنات عمه اقتناعاً منه بأن رؤيتهن له وهو يغادر المنزل سوف تدفعهن إلى التكهّن بخطته، ولم يكن راغباً في معرفة الناس لمحاولته إلا عندما يتسنى لهم معرفة نجاحها أيضاً. فرغم شعوره بالاطمئنان، ورغم كونه على حق في هذا الشعور، حيث إن شارلوت قد أظهرت له تشجيعاً محسوساً، فقد كان متخوفاً إلى حد ما منذ مغامرة يوم الأربعاء الماضي. ومع هذا كان استقباله باعثاً على الأمل الشديد. فقد لمحته مس لوكاس من نافذة في الطابق العلوي وانطلقت لتلتقي به عرضاً في الممر، غير أنها لم تكن لتجسر على الأمل بأن تجد في انتظارها كل هذا الحب وكل هذه الطلاقة في الحديث.

وفي أقصر وقت سمحت به أحاديث مستر كولنز المطولة. استقر الرأي بينهما على كل شيء بما يبعث الرضى في نفسيهما معاً. وبينما كانا يذلفان إلى البيت، رجاها بإلحاح أن تحدد اليوم الذي سيجعله أسعد الرجال أجمعين. ورغم أنه كان من اللازم عدم الاستجابة لمثل هذا الرجاء في الوقت الحاضر، إلا أن الفتاة لم تجد في نفسها ميلاً للعبث بسعادته. فالغباء الذي أسبغته عليه الطبيعة كان لا بد أن يقف حائلاً دون أي تدلل تتمنى أي امرأة أن تستزيد منه. ولما كانت مس لوكاس قد قبلته لا لشيء إلا لتحقيق رغبتها الخالصة في ضمان حسن الاستقرار في الحياة، فلم تكن لتعبأ بمدى السرعة في تحقيق هذا الاستقرار.

وتقدم مستر كولنز إلى سير وليم زليدي لو كاس على عجل طالباً موافقتهم، فمُنحت هذه الموافقة بسرور بالغ. فقد كانت ظروف مستر كولنز الحالية داعياً لأن تجعل من زواجه بابتئهما أمراً لائقاً للغاية، وهي التي لم يكن باستطاعتهم أن يمنحها إلا مალأ قليلاً. كذلك فقد كان ما ينتظر أن يحمله له المستقبل من ثروة أمراً طيباً جداً. وبدأت ليدي لو كاس مباشرة في حساب عدد السنين التي كان يحتمل أن يعيشها مستر بينت، مدفوعة في ذلك بشغف لم يبتعثه الموضوع من قبل. وأعلن سير وليم رأيه القاطع في أنه حالما يضع مستر كولنز يده على ضيعة «لونجبورن»، عند ذاك يكون من الموافق تماماً أن يمثل هو وزوجته في حضرة الملك. وباختصار فقد طغى الفرح على أفراد الأسرة جميعاً وبدأ الأمل يراود البنات الصغيرات في خروجهن للمجتمع قبيل موعدهن بعام أو عامين، وزال عن الأولاد خوفهم من أن تموت شارلوت وهي عانس عجوز. أما شارلوت نفسها فكانت ساكنة النفس بشكل ملحوظ. فقد حققت مرامها، وكان لديها الوقت الكافي لتتعم فيه النظر. وكانت أفكارها مرضية على وجه العموم. فلم يكن مستر كولنز بالتأكيد راجح العقل أو لطيف المعشر. كذلك فقد كانت صحبته مملة، أما تعلقه بها فكان صورياً. ومع ذلك فمن الممكن أن يكون زوجاً لها. فقد كان الزواج دائماً بالنسبة لها هدفاً، دون أن تحسن الظن كثيراً بالرجال أو بالزواج نفسه. فهو العلاقة الوحيدة الشريفة التي توفر أسباب الحياة للنساء المتعلمات ذوات الثروات البسيطة. ورغم أن الزواج لم يكن بالتأكيد مصدراً للسعادة، إلا أنه يُعتبر بمثابة أفضل

صيانة لهن من الحاجة. وقد حصلت الآن على هذه الصيانة. وفي سنّ السابعة والعشرين شعرت بما حلّ بها من حسن الطالع وهي التي لم تكن أبدًا في يوم ما مليحة الوجه. أما أبغض شيء في هذا الموضوع كله فكان الدهشة التي ستحل بإليزابيث بنت، وهي من كانت تعتز بصداقتها أكثر من أي إنسان آخر. فستعجب إليزابيث ولربما لامتها على سلوكها. ورغم استمساكها بقرارها إلا أن مشاعرها كانت لا بد أن تتأذى لاستهجان صديقتها. وقررت أن تفتحها بالخبر بنفسها، ومن ثم فقد نبهت على مستر كولنز ألا يلمّح بشيء عما جرى عند عودته إلى «لونجبورن» لتناول الغداء. وقطع مستر كولنز على نفسه بالطبع عهدًا بالتزام السرية، ولكن كان من العسير صيانة هذا العهد دون صعوبة. فقد انبثق الفضول الذي أثاره غيابه الطويل في شكل أسئلة مباشرة عند عودته بحيث تطلب الأمر بعض البراعة في تفاديها. كذلك كان في نفس الوقت ينوء تحت عبء نكران الذات، إذ كان يتحرق شوقًا إلى الإفضاء بغرامه الموفق.

ولما كان عازمًا على الرحيل في وقت مبكر جدًّا من صباح اليوم التالي، الأمر الذي لا بد أن يمنعه من رؤية أحد من أفراد الأسرة، لذلك فقد تمت مراسيم الوداع قبل أن تنتقل السيدات إلى مخادعهن. وعبرت مسز بنت بأدب وإخلاص عظيمين عن مدى سعادتهم جميعًا لرؤيته في «لونجبورن» ثانية، حيثما تسمح له ارتباطاته الأخرى بزيارتهم من جديد.

وأجاب قائلاً:

- إن هذه الدعوة يا سيدي العزيزة إنما تثلج صدري؛ خصوصاً
لأنني كنت أمل أن ألقاها. ولك أن تثقي تماماً أنني سأليها بأسرع ما
أستطيع.

ودهش الجميع لهذا القول. أما مستر بينت الذي لم يكن بأي حال
راغباً في مثل هذه العودة السريعة، فقد قال على الفور:

- ولكن أليس هناك خطر يا سيدي العزيز من استهجان ليدي
كاثرين لهذا الأمر؟ من الأفضل لك أن تتجاهل أقرباءك بدلاً من أن
تخاطر بالإساءة إلى راعيتك.

وأجاب مستر كولنز قائلاً:

- إنني يا سيدي العزيز أختصك بالشكر الجزيل على هذا التحذير
المخلص، وثق أنني لن أتخذ مثل هذه الخطوة الخطيرة دون موافقة
سيادتها.

- قد يفوتك أحياناً أن تحتاط لهذا الأمر، ولذلك فلك أن تجازف
بأي شيء إلا استيائها. وإذا رأيت أن هناك احتمالاً في إثارة هذا الاستياء
من جراء حضورك إلينا ثانية، وهو أمر أظنه مرجح تماماً، فالزم بيتك في
هدوء، وقرّ عيناً من أننا لن نستاء لهذا أبداً.

- صدقني يا سيدي العزيز أنني ممتن بحرارة لمثل هذه اللفتة
الودودة. وثق من أنك ستتلقى مني رسالة شكر سريعة لموقفك هذا
ولكل مظاهر اهتمامك بي طوال إقامتي في «هارتفوردشير». أما بالنسبة
لبنات عمي الجميلات، فرغم أن غيابي لن يطول، فإني أنتهز الآن

الفرصة متمنيًا لهن الصحة والسعادة، دون أن أستثني في ذلك ابنة عمي إليزابيث.

وانسحبت السيدات بعد أن أبدين مظاهر المجاملة اللائقة، وقد استولت الدهشة عليهن جميعًا إذ رأين أنه يفكر في عودة سريعة. ومالت مسز بينت إلى تفسير ذلك بأنه كان يفكر في تقديم عرض بالزواج من إحدى بناتها الصغيرات، ويمكن في هذه الحالة إقناع ميري بقبوله زوجًا. فقد كان تقدير ميري لكفاءاته يفوق تقدير الأخريات؛ لأنها كانت ترى في أفكاره عمقًا كثيرًا ما لفت نظرها. ورغم أنه لم يكن بأي حال في مثل مهارتها، فقد حُيِّل إليها أنه قد يصبح رفيقًا لطيفًا للغاية لو وجد من يشجعه على القراءة وترقية نفسه احتذاء بها، ولكن كل هذه الآمال ما لبثت في صباح اليوم التالي أن ذهبت أدراج الرياح. فعلى أثر تناول طعام الإفطار وصلت مس لوكاس، وانفردت بإليزابيث وقصت عليها أحداث اليوم السابق.

وكانت إمكانية وقوع مستر كولنز في غرام صديقتها قد خطرت لإليزابيث ذات مرة خلال اليومين الأخيرين. أما أن تشجعه شارلوت على هذا، فقد بدا بعيدًا عن حدود الإمكان بنفس الدرجة التي يُستبعد بها هذا الأمر على إليزابيث نفسها. ونتيجة لهذا فقد كانت دهشتها عظيمة بحيث تغلبت لأول وهلة على مقتضيات اللياقة، ولم تستطع إلا أن تصيح قائلة:

– مخطوبة لمستر كولنز! هذا محال يا عزيزتي شارلوت!

وكشفت الملامح الرصينة التي اصطنعتها مس لوكاس وهي تقص

حكايتها عن اضطراب وقتي عندما وُوجهت بهذا اللوم الصريح. وإذ لم يزد هذا عما توقعته أصلاً، فقد استعادت رباطة جأشها بسرعة وأجابت قائلة:

- لِمَ تُدهشين يا عزيزتي إليزابيث؟ أظنين أنه من العسير عليّ التصور أن يستطيع مستر كولنز الحصول على حسن ظن أي امرأة؛ لأنه كان سيئ الحظ فلم يوفق معكِ؟

غير أن إليزابيث كانت قد استعادت اتزانها، وبذلت من الجهد ما مكنها من أن تؤكد لها بشيء من التصميم أن الأمل في نشوء العلاقة بينهما هو أمر يسبب لها أبلغ السرور، وأنها تتمنى لها كل السعادة الممكنة.

وأجابت شارلوت قائلة:

- إنني أدرك مشاعرك، فلا بد أنك مندهشة، بل ومندهشة للغاية حيث إن مستر كولنز كان يتمنى أن يتزوجكِ منذ وقت قريب. ولكن عندما تسنح لك الفرصة لتدبر الأمر بإمعان، فإني أرجو أن ترضى نفسك بما أقدمتُ عليه. فأنت تعلمين أنني لست خيالية، ولم أكن كذلك في يوم ما. إنني لا أطلب إلا بيتاً مريحاً. وبالنظر إلى شخصية مستر كولنز وصلاته الاجتماعية ومركزه في الحياة، فإني مقتنعة بأن حظي في السعادة معه يكفي حظ الكثيرات اللاتي يفاخرن بوضعهن عندما يتزوجن.

وأجابت إليزابيث بهدوء قائلة:

- لا شك!

وعقب فترة صمت محرج انضمتا إلى بقية أعضاء الأسرة ولم تطل إقامة شارلوت كثيرًا، وانفردت إليزابيث بنفسها لتتدبر ما سمعته، ومضى وقت طويل قبل أن تسلم تمامًا بفكرة هذا الزواج غير المناسب. إن غرابة ما فعله مستر كولنز من تقديمه عرضين بالزواج خلال ثلاثة أيام لم تكن شيئًا يُذكر بالمقارنة بواقعة قبوله زوجًا. ولقد كانت تشعر دائمًا أن رأي شارلوت في الزواج لم يكن بالدقة شبيهًا برأيها، ولكنها لم تكن لتظن أبدًا أنها تقبل - عندما تحين ساعة الجد - أن تضحي بأطيب أحاسيسها في سبيل اجتناء المزاياء الدنيوية. فشارلوت كزوجة لمستر كولنز، هي صورة مهينة للغاية! وإن ما راودها من ألم لما ألحقته صديقتها بنفسها من حطة، ولسقوطها من نظرها، قد أُضيف إليه اعتقادها المؤسي بأن سعادة تلك الصديقة فيما اختارته من نصيب هو ضرب من المحال.



الفصل الثالث والعشرون

كانت إليزابيث تجلس بصحبة أمها وشقيقاتها، تمنع الفكر فيما سمعته، وتتساءل فيما إذا كان لها حق الإفضاء به، عندما ظهر سير وليم لو كاس بنفسه، إذ بعثت به ابنته ليعلن إلى أفراد الأسرة خطبتها. ووسط كثير من التحيات الموجهة لهن وفيض من التهاني التي وجهها إلى شخصه لما يُنتظر من إقامة الصلات بين المنزلين، أفضى بالخبر أمام مستمعات لا يتعجبن فحسب، بل لا يصدقن أيضًا. فقد احتجت مسز بينت، مدفوعة بدواعي الإصرار لا اللياقة، أنه ولا بد مخطئ تمامًا. أما ليديا كانت تشتط دائمًا في الحديث وتفتقر في كثير من الأحيان إلى التهذيب، فقد صاحت قائلة بصوت صاخب:

- يا إلهي! كيف تحكي مثل هذه القصة يا سير وليم؟ ألا تعلم أن مستر كولنز يريد الزواج من ليزي؟

وما كان يمكن لأي شخص أن يحتمل مثل هذه المعاملة دون غضب إلا لو كانت له رقة رجال البلاط. ولكن نشأة سير وليم الكريمة ساعدته على اجتياز كل هذا. ورغم أنه استأذنه في التعبير عن وثوقه بحقيقة معلوماته، فقد أنصت لكل سفاهتهن ببساطة تم عن احتمال شديد.

وإذ شعرت إليزابيث بواجبها في إنقاذه من مثل هذا الموقف المكدر، فقد تصدت للتصديق على كلامه، وذكرت معرفتها السابقة بالموضوع من شارلوت نفسها. وحاولت أن توقف صيحات الدهشة التي كانت أمها وشقيقاتها يطلقنها بما عبرت عنه لسير وليم من تهانيها المخلصة التي شاركتها جين في إبدائها عن طيب خاطر، وبما أفضت به من ملاحظات متعددة عن السعادة المنتظرة من الزواج، وعن شخصية مستر كولنز، والمسافة المناسبة بين هنسفورد ولندن.

والحق أن مسز بينت كانت تنوء تحت عبء كبير بحيث لم تستطع أن تنفوه بكلام كبير أثناء وجود سير وليم. ولكن مشاعرهما ما لبثت أن وجدت متنفسًا بمجرد خروجه. فقد أصرت في المقام الأول على عدم تصديق الموضوع كله. وكانت واثقة ثانيًا أن مستر كولنز قد وقع ضحية خداع. وثالثًا فقد كانت على يقين من أن الزوجين لن يسعدا معًا، ورابعًا أن الزواج قد ينفسخ. ومع ذلك فقد كانت هناك نتيجتان يمكن التوصل إليهما بوضوح من الموضوع برمته: الأول أن إليزابيث كانت هي السبب الحقيقي وراء كل هذا الأذى، والثانية أنها هي نفسها قد وقعت ضحية إساءة همجية من جانب الجميع. وركزت حديثها بشكل أساسي خلال بقية النهار على هاتين النقطتين. ولم يكن هناك ما يمكن أن يعزي قلبها أو يهدئ ثأرتها. ولم يخفف انقضاء النهار من امتعاضها. ومر أسبوع قبل أن تتمكن من رؤية إليزابيث دون تقريرها، وانقضى شهر قبل أن تستطيع التحدث مع سير وليم أو ليدي لوكاس دون وقاحة، وانصرفت شهور عدة قبل أن تصفح عن ابنتهما.

وكانت انفعالات مستر بينت أشد هدوءًا في هذه المناسبة، وصرح بأن ما شعر به كان أحاسيس طيبة للغاية. فقد قال إن مما يثلج صدره أن يكتشف أن شارلوت لو كاس التي درج على الظن بأنها فتاة عاقلة إلى حد ما، كانت حمقاء شأنها شأن زوجته، وأشد حمقًا من ابنته!

واعترفت جين أنها شعرت بدهشة طفيفة لهذا الزواج، ولكنها لم تُعبّر عن دهشتها بقدر ما عبرت عن رغبتها المخلصة في أن تتحقق لهما السعادة؛ ولم تستطع إليزابيث أن تقنعها بأن هذه السعادة أمر غير محتمل الحدوث. وكانت كيبي وليديا أبعد من أن تحسدا مس لو كاس، فلم يكن مستر كولنز إلا كاهنًا. ولم يؤثر الموضوع فيهما إلا من حيث كونه خبرًا ينشرانه في «ميريتون».

ولم تكن ليدي لو كاس غافلة عن الإحساس بالظفر من حيث قدرتها على أن تفاخر مسز بينت لارتياحها بسبب ما حققته لابنتها من زواج طيب. وأخذت تتردد على «لونجبورن» مرات تفوق ما جرت به عادتها؛ لتعبر عن مدى سعادتها، رغم أن نظرات مسز بينت الحانقة وملاحظاتها الحاقدة كانت كفيلة بإبعاد طيف السعادة.

ونشأ بين إليزابيث وشارلوت لون من التحفظ جعلهما لا تخوضان في هذا الموضوع، واقتنعت إليزابيث بأن من المحال قيام أي ثقة حقيقية بينهما من جديد. وأدت بها خيبة أملها في شارلوت إلى تحويل ناظرها بإعزاز أشد ولعًا إلى شقيقتها التي كانت واثقة من أن رأيها في استقامتها ورقتها لن يهتز أبدًا، وبدأت تستشعر القلق بشأن سعادتها بمضي الأيام، حيث إن بينجلي كان قد مضى على غيابه أسبوع، ولم يصل عن عودته أي خبر.

وكانت جين قد أرسلت إلى كارولان ردًا سريعًا على خطابها، وأخذت تعد الأيام حتى يحق لها أن تأمل في معرفة أخبار جديدة. وفي يوم الثلاثاء وصل خطاب الشكر الذي كان مستر كولنز قد وعد به، وكان موجهاً إلى والدهن، ومسطراً بكل ما يوحى به الامتنان من وقار كان يمكن أن تبتعثه إقامة عام بأكمله بين أفراد الأسرة. وبعد أن أراح ضميره في هذه الناحية، شرع في إطلاعهم، بتعابير تفيض بالفرحة الغامرة، على سعادته باكتساب مودة صديقتهم اللطيفة مس لوكاس، ثم أوضح أنه لم يكن لييدي استعداداه لتلبية رغبتهم الكريمة في رؤيته ثانية في «لونجبورن» إلا من حيث إمكان استمتاعه بصحبتهما، الأمر الذي يأمل معه في أن يعود يوم الاثنين الذي يحل بعد أسبوعين. وأضاف قائلاً إن ليدي كاثرين قد أعلنت موافقتها القلبية على زواجه وأبدت رغبتها في أن يتم بأسرع ما يمكن، وهي رغبة لا تملك معها عزيزته اللطيفة شارلوت إلا أن تحدد موعداً قريباً لتجعله أسعد الرجال طراً.

ولم تعد عودة مستر كولنز إلى «لونجبورن» أمراً يبعث البهجة في نفس مسز بينت. على العكس من ذلك، فقد كانت ميالة -شأنها شأن زوجها- إلى التبرُّم بهذه الزيارة. لقد كان من الغريب تماماً أن ينزل في «لونجبورن» بدلاً من «لوкас لودج». كذلك فقد كان نزوله هذا ثقيلاً على النفس ومربكاً إلى حد بعيد. لقد كانت تكره وجود زوار في البيت في الوقت الذي كانت فيه صحتها متزعزعة. وكان العشاق أبغض الناس إلى نفسها. تلك كانت الهمسات الرقيقة التي صدرت عن مستر بينت، والتي لم تُؤدَّ إلا إلى غَمٍّ أكبر ناشئ عن غياب مستر بينجلي المتصل.

ولم تسترح أيُّ من جين أو إليزابيث لهذا الغياب. ومرت الأيام تلو الأيام دون وصول أي أخبار أخرى عنه باستثناء ما شاع في «ميريتون» منذ وقت قريب من خبر عدم عودته ثانية إلى «نيدر فيلد» خلال فصل الشتاء كله. وقد أثار هذا الخبر مسز بينت أعظم إثارة، فلم تتوانَ عن نفيه بصفته زيفاً مشيناً.

وحتى إليزابيث بدأت تساورها المخاوف. ولم تكن خشيتها نابعة من عدم اكتراث بينجلي، بل من حيث احتمال نجاح شقيقته في إبقائه بعيداً. ومع أنها لم تكن ميالة إلى الإقرار بهذه الفكرة الكفيلة بتحطيم سعادة جين وبإلحاق الهوان بثبات حبسها على حبه، فلم تستطع أن تحول دون إقلاقها لها بين الحين والآخر. لقد كانت تخشى من أن تكون الجهود المتضافرة لشقيقته عديمتي الشعور، ولصديقه المتسلط، فضلاً عن معاونة المؤثرات الجذابة لمس دارسي، وملاهي لندن، أن تكون من بُعد الأثر بحيث تضعف أمامها قوة رابطته بجين.

أما جين فكان قلقها في ظل هذا الترقب أشد إيلاماً بالطبع من قلق إليزابيث. ولكنها كانت أميل إلى التكتّم مهما كانت أحاسيسها، ومن ثم فلم تظهر أي إشارة للموضوع فيما بينها وبين إليزابيث. ولكن حيث إن مثل هذا الحرج لم يكن ليعوق أمها، لذلك لم تكد ساعة واحد تمر دون أن تتحدث فيها عن بينجلي، وتعبّر عن شغفها بوصوله، ودون حتى أن تطالب جين بالاعتراف بأن تعتبر نفسها وقد أُسيء إليها أبلغ إساءة إذا فُرض ولم يعد ثانية. واحتاج الأمر كل ما تتحلى به جين من رقة مستميتة حتى تستطيع أن تحتمل هذه الهجمات بشيء من سكينه النفس.

وعاد مستر كولنز في موعده المحدد يوم الاثنين بعد أسبوعين، غير أن استقباله في «لونجبورن» لم يتسم بنفس الدرجة من الكرم التي اتسم بها عند قدومه لأول مرة. إلا أنه كان شديد السعادة بحيث لم يكن في احتياج لاهتمام كبير. وكان من حسن حظ الآخرين أن انشغاله في مطارحة الغرام قد خفف عنهم قدرًا وافرًا من عبء صحبته. فقد كان يقضي الشطر الأعظم من كل يوم في «لوكاس لودج»، وكان في بعض الأحيان لا يعود إلى «لونجبورن» إلا في وقت يسمح له بالكاد أن يقدم اعتذارًا عن غيابه قبل ذهاب أفراد الأسرة إلى مخادعهم.

وكانت مسز بينت في الواقع في حالة يُرثى لها؛ فقد كانت أي إشارة تتعلق بالزواج كفيفة بأن تلقي بها فريسة لحدة المزاج، وكان لا بد أن تسمع إشارة لهذا الموضوع أينما ذهبت. وكانت مس لوكاس كريهة في عينيها؛ فقد دأبت على النظر إليها -بصفتها خليفتها في ذلك البيت- بمقت تلونه الغيرة. فحيثما جاءت شارلوت لزيارتهم، كانت تجزم بأنها تتعجل ساعة الامتلاك. وكلما تحدثت مع مستر كولنز في صوت خفيض، زاد اقتناعها بأنهما يتحدثان عن ضيعة «لونجبورن» ويقرران طردها هي وبناتها من المنزل بمجرد وفاة مستر بينت. وشكت لزوجها بمرارة من كل هذا، وقالت:

- الحق يا مستر بينت أنه من الصعب أن يتصور الإنسان أن شارلوت لوكاس قد تصبح في يوم ما سيدة هذا البيت، وأن تجربني الظروف على إفساح الطريق أمامها، وأن أعيش لأراها تحتل مكاني فيه.

- لا تستسلمي يا عزيزتي لمثل هذه الأفكار السوداء. لنأمل في ما هو أفضل. لنحاول أن نتعلل بالرجاء في أن أكون أنا صاحب العمر الأطول.

ولم يبعث هذا القول عزاءً كبيراً في نفس مسز بينت، ولهذا فقد استمرت فيما كانت فيه بدلاً من أن ترد عليه بشيء.

- لا أستطيع احتمال التفكير في أنهما سيحظيان بكل هذه الضيعة. ولولا موضوع الوقف لما كنت أعبأ بالأمر.

- ما الذي كنت لا تعبئين به؟

- لم أكن لأعبأ بشيء على الإطلاق!

- لنشكر الظروف على أنك مصونة من حالة التبلد هذه.

- لا يمكن أن أكون شاكراً يا مستر بينت لأي شيء متعلق بالوقف.

إنني لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لأي امرئ أن يرضى بإيقاف ملكية أي ضيعة عن بناته. وكل هذا لأجل خاطر مستر كولنز أيضاً! لم يحق له أكثر من أي شخص آخر أن يستحوذ عليها؟

وقال مستر بينت:

- أترك لك حسم هذا الأمر.



الفصل الرابع والعشرون

وصل خطاب مس بينجلي ووضع حدًا للشكوك، وحملت أول جملة في الخطاب تأكيدًا لاستقرار الأسرة في لندن طوال فصل الشتاء، وانتهى الخطاب بإبداء أسف شقيقها لضيق وقته الذي منعه من تقديم احتراماته لأصدقائه في «هارتفوردشير» قبل مغادرته الريف.

وانتهى الأمل، انتهى تمامًا. ولما استطاعت جين أن تلتفت إلى بقية الخطاب لم تجد من بواعث الراحة إلا القليل، باستثناء ما أبدته كاتبة الخطاب من مودة. وشغل مديح مس دارسي معظم الرسالة. فقد استزادت كارولان من وصف بواعث جاذبيتها المتعددة، كما فاخرت في سرور بتوطيد صداقتهما، وجازفت بالتنبؤ بتحقيق الرغبات التي كشفت عنها في خطابها السابق. كذلك فقد كتبت باغتياب فائق عن إقامة شقيقها في بيت مستر دارسي، وذكرت -والسعادة تغمرها- بعض خطط مستر دارسي المتعلقة بشراء أثاث جديد.

واستمعت إليزابيث لما أطلعته عليه جين بغضب مكتوم. وانقسمت مشاعر قلبها بين القلق على شقيقتها من ناحية والاستياء من جميع الآخرين من ناحية أخرى. ولم تصدق شيئًا من ادعاء كارولان بافتنان شقيقها بمس دارسي؛ فلم تكن تشك في هيامه فعلاً بجين، مثلما لم تشك من قبل أبدًا. وبنفس الدرجة التي كانت تدفعها إلى الإعجاب به

دائمًا، لم تستطع أن تفكر دون غضب، بل ودون ازدراء، في سلاسة قياده هذه، وفي افتقاره إلى القدرة على الحسم في الوقت المناسب، الأمر الذي جعله عبدًا لأصدقائه الماكرين، وأدى به إلى تضحية سعادته في سبيل نزواتهم. على أنه لو كانت سعادته وحدها هي موضع التضحية، لأمكنه أن يلهو بها على النحو الذي يشاء. ولكن سعادة شقيقتها كانت جزءًا من سعادته، وتلك حقيقة حُيِّلَ إليها أنه واعي بها تمامًا. وباختصار فقد كان الموضوع يسمح بطول إمعان دون نتيجة مرضية. فلم يكن باستطاعتها أن تفكر في شيء آخر. ومع هذا، فسواء خبا إعزاز بينجلي حقًا، أو انطمس بتأثير تدخُّل أصدقائه؛ سواء كان على وعي بتعلق جين بشخصه، أو لم يلحظ من هذا الأمر شيئًا؛ مهما كان الوضع، فإن موقف شقيقتها قد ظل دون تغيير كما ظلت نفسها مضطربة، رغم أن رأيها هي فيه كان لا بد أن يتغير بشكل جوهري طبقًا للفرق بين هذا الاحتمال وذاك.

ومضى يوم أو يومان قبل أن تواتي جين الشجاعة للتعبير عن مشاعرها لإليزابيث. ولكن أخيرًا، وبعد أن تركتهما مسز بينت معًا إثر تبرم دام وقتًا أطول من المعتاد بشأن «نيزفيلد» وصاحبه، لم تملك جين إلا أن تقول:

- بودي لو استطاعت والدتي العزيزة أن تزيد من إحكام سيطرتها على نفسها. إنها خالية الذهن تمامًا عما تسببه لي من ألم بسبب إشارات المستمرة له. ولكنني لن أتذمر، فلن يستمر الأمر طويلاً. ولسوف يحتويه النسيان، ونصبح جميعًا كما كنا من قبل.

ونظرت إليزابيث إلى شقيقتها نظرة قلق وارتياح فيما تقول، ولكنها لم تنطق بحرف.

وصاحت جين قائلة وقد احمر وجهها قليلاً:

- إنكِ تشكين في قلبي! ليس لكِ حق في ذلك. فقد يعيش في ذاكراتي بصفته ألطف مَنْ عرفت من الرجال، ولكن هذا هو كل ما في الأمر. فلا أمل لي في شيء، كما أنني لست أخشى شيئاً، بالإضافة إلى أنه ليس لديّ ما يبرر لومي له. وشكراً لله إذ لم يسبب لي هذا الألم. فترة قصيرة إذن... سأحاول قطعاً أن أتغلب على...

وأضافت بسرعة بصوت أشد قوة:

- إنني أحس براحة، قوامها أن الأمر لم يكن من جانبي أكثر من نزوة من نزوات الخيال، وأنه لم يسبب الأذى إلا لشخصي دون غيري.

وصاحت إليزابيث قائلة:

- أنت طيبة يا عزيزتي جين. إن عذوبتك ونزاهتك ملائكتان حقاً. لا أدري ماذا أقول لك. أشعر بأنني لم أقدركِ حق قدركِ أو لم أحبك بقدر استحقاقكِ للحب.

وأنكرت مس بينت بشدة كل فضل مبالغ فيه وأثنت على مودة شقيقتها المخلصة.

فقالت إليزابيث:

- لا، ليس هذا عدلاً. إنكِ تظنين أن الناس جميعاً محترمون، وتشعرين بالأذى حين أطعن في أي إنسان. كل ما أريد هو أن أعتبركِ

امرأة كاملة، وأنتِ ترفضين هذا. لا تخافي من أي احتمال لتطرفي في الحكم، أو انتهاكي لحقك في حسن النية إزاء الناس أجمعين. ليس لك أن تخافي. فهناك قليل من الناس أحبهم حقًا، أما مَنْ أحسن الظن بهم فأقل من أولئك عددًا. وكلما أنعمت النظر في الدنيا زاد استيائي منها. وكل يوم يمر يؤكد إيماني بتقلُّب البشر جميعًا، وباعتماد الضئيل الذي يمكن أن يرتكن به المرء على مظاهر الفضل من ناحية، أو حسن الإدراك من ناحية أخرى. لقد التقيت في الأيام الأخيرة بمثلين، أولهما لن أذكره، أما الثاني فهو زواج شارلوت. إنه أمر لا يمكن تفسيره! يستحيل على أي نحو من الأنحاء تفسيره!

- لا تستسلمي يا عزيزتي ليزي لأحاسيس مثل هذه، وإلا حطمت سعادتك. إنك لا تضعين اعتبارًا كافيًا لاختلاف الظروف والطباع. تدبري وقار مستر كولنز وشخصية شارلوت المتعلقة الرزينة. تذكري أنها من أسرة كبيرة العدد، وأن الزواج يعتبر لائقًا تمامًا من وجهة النظر المادية. ثم إن عليك أن تؤمني عن طوعية باحتمال شعورها بنوع من الاعتزاز والتقدير لابن عمنا.

- قد أحاول -ترضية لك- أن أؤمن بأي شيء. ولكن شخصًا واحدًا سوانا لن يفيد بمثل هذا الاعتقاد. فلو كنت واثقة أن شارلوت تحمل له أي اعتزاز، لفاق سوء ظني بفكرها سوء ظني بقلبها. يا عزيزتي جين، إن مستر كولنز رجل مغرور متباه ضيق الأفق يتصف بالحمق والغباوة. وإنك لتعرفين هذا مثلما أعرفه أنا. ولا بد أنك تشعرين -مثلما أشعر- أن المرأة التي تقبل الزواج منه لا بد أن تفتقر إلى التفكير السليم. إنك لن

تدافعي عنها رغم كونها شارلوت لوكاس. إنكِ لن تغيّري معني المبدأ
وتكامل الشخصية -خدمة لإنسان فرد- ولن تحاولي إقناع نفسك أو
إقناعي بأن الأنانية حصافة وفقدان الشعور بالخطر ضمان للسعادة.

وأجابت جين قائلة:

- لا أظن سوى أنك تستخدمين لهجة قوية في حديثك عنهما،
وآمل أن تقتنعي بذلك عندما تجدينهما سعيدين معاً. ولكن كفانا من
هذا الموضوع. لقد أشرتِ إلى شيء آخر، فقد ذكرتِ مثلين. وليس
بوسعي أن أسيء فهمك، ولكنني أتوسل إليك يا عزيزتي ليزي ألا
تؤلميني بظنك أن هذا الشخص موضع لوم، وبقولك إن رأيك فيه قد
خاب. لا يصح أن نكون متأهبين للظن بأننا قد أوذينا عمداً. لا يجب
أن نتوقع من شاب وافر الحيوية أن يلزم جانب الحذر والحرص دائماً.
ففي كثير من الأحيان لا نخدع إلا بتأثير غرورنا. والنساء يُخَيَّل إليهن أن
الإعجاب يعني أكثر مما يعني.

- أما الرجال فيقصدون ذلك عمداً.

- لو تم ذلك عن قصد فلا يمكن تبرير سلوكهم. ولكني لا أرى في
الدنيا مثل هذا القدر الوافر من التعمد كما يتصور بعض الناس.

وقالت إليزابيث:

- إنني أبعد من أن أرجع أي شطر من سلوك مستر بينجلي إلى
القصد والتعمد. ولكن قد ينشأ الخطأ وقد تنجم التعاسة دون سعي من
جانب المرء لإحداث الضرر بالآخرين أو لجعلهم غير سعداء. فالطيش

وعدم مراعاة مشاعر الآخرين والافتقار إلى الحسم.. كل ذلك يؤدي
نفس العمل.

- أو تنسب سلوكه إلى أي من هذه الصفات؟

- نعم، إلى آخرها. ولكن إذا مضيت في حديثي فسوف أسيء إلى
مشاعرك عندما أصرح برأيي في أناس يعتبرون محل تقدير. أوقفيني
ما دمت تستطيعين ذلك.

- إذن فأنت تصرين على الافتراض بأن شقيقتيه تؤثران عليه.

- نعم، بالتضامن مع صديقه.

- لا أصدق ذلك. لماذا تحاولان التأثير عليه؟ إنهما لا تطلبان إلا
سعادته. ولا يمكن لأي امرأة أخرى أن تكفل له السعادة، طالما هو
متعلق بي.

- إنك تبدئين بمقدمة زائفة. فهما قد تطلبان أشياء كثيرة بجانب
سعادته. فقد ترغبان في مضاعفة ثروته وتدعيم مكانته الاجتماعية، وقد
ترغبان في زواجه من فتاة تحظى بكل ما للمال الوفير والصلات الراقية
والكبرياء من أهمية.

وأجابت جين قائلة:

- لا شك أنهما تريدان منه أن يختار مس دارسي، ولكن ربما كان
هذا ناشئاً على مشاعر أفضل مما تظنين. فقد عرفتاها لمدة تفوق مدة
معرفتهما بي، ولا عجب إذا كانت تحبانها أكثر مني. ولكن مهما كانت
رغباتهما الخاصة، فليس من المحتمل أبداً أن تقاوما رغبات شقيقتي.

فأين هي الأخت التي تظن أن في وسعها أن تفعل ذلك، ما لم يكن هناك شيء يستوجب الاعتراض الشديد؟ ولو كانتا تريان أنه متعلق بي، لما حاولتا التفريق بيننا، ولو كان هو كذلك فعلاً، لما نجحتا في مسعاهما. إن افتراضك وجود هذه المودة بيننا يدفعك إلى اعتبار تصرفات الناس جميعاً غير طبيعية وخاطئة، كما يجعلني تعيسة للغاية. لا تكدريني بهذه الفكرة؛ فلست أستشعر الخجل لأنني أخطأت التقدير. أو على الأقل فإن خجلي طفيف لا يُقارن بما يمكن أن أحس به إذا أسأت الظن به وبشقيقته. دعيني أفهم الأمر على أفضل وجوهه، على الوجه الذي يمكن أن أفهمه. ولم تستطع إليزابيث أن تعارض مثل هذه الرغبة. ومنذ ذلك الوقت لم يرد ذكر اسم مستر بينجلي في حديثهما إلا فيما ندر.

وواصلت مسز بينت عجبها وتذمرها بسبب عدم عودته ثانية. ورغم أنه لم يكد يمر يوم واحد إلا وفسرت فيه إليزابيث هذا الغياب بوضوح، فقد بدا هناك احتمال ضئيل في أن تنظر إلى هذا الأمر باضطراب أقل. وحاولت ابنتها إقناعها بما لم تكن هي نفسها تؤمن به، من أن اهتمامه بجين لم يكن إلا نتيجة إعجاب عادي عابر، لم يلبث أن انقضى عندما انقطع عن رؤيتها. ولكن رغم أن مسز بينت كانت تسلم كل مرة بهذا الاحتمال، فإن إليزابيث كانت تكرر نفس القصة كل يوم. وكان أفضل دواعي الراحة عند مسز بينت هو اعتقادها بأن مستر بينجلي سوف يعود حتماً مع بشائر الصيف.

ونظر مستر بينت إلى المسألة على نحو مختلف. وقال في أحد الأيام:

- إِذَنْ فَشَقِيقَتُكَ يَا لِيْزِي قَدْ خَابَ حُبُّهَا كَمَا أَرَى. إِنِّي أَهْنَيْتُهَا؛ فَأَيُّ
فَتَاةٍ تَوَدُّ أَنْ تُبْتَلَى بِعُضِّ الشَّيْءِ فِي حُبِّهَا بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ. فَهَذَا الْأَمْرُ
يَسْتَوِي عِنْدَهَا بِالزَّوْجِ نَفْسَهُ. إِنَّهُ وَضَعَ يَسْمَحُ بِإِمْعَانِ الْفِكْرِ وَبِتَمْيِيزِهَا
عَنْ أَقْرَانِهَا. مَتَى يَجِيءُ دَوْرُكَ؟ إِنَّكَ لَنْ تَحْتَمِلِي أَنْ تَبْرَزَ عَلَيْكَ جَيْنُ
فِي هَذَا الْمَضْمَارِ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ. لَقَدْ أَزْفَ وَقْتُكَ. فَهَاهُنَا فِي «مِيرَيْتُون»
مِنَ الضَّبَاطِ مَا يَكْفِي لِبَعْثِ خِيَةِ الْأَمَلِ فِي قُلُوبِ فِتْيَاتِ الرِّيفِ جَمِيعًا.
فَلِيَكُنْ وَيَكْهَامُ مِنْ نَصِييِكَ؛ فَهُوَ شَابٌ لَطِيفٌ وَيَسْتَطِيعُ بِإِقْتِدَارٍ تَامٍ أَنْ
يَعْرُضَ عَنْكَ بَعْدَ أَنْ يَطَارِحَكَ الْغَرَامُ.

- أَشْكُرُكَ يَا سَيِّدِي، فَأَنَا يَرْضِينِي رَجُلٌ أَقْلٌ مِنْهُ لَطْفًا. وَلَا يَحِقُّ لَنَا
أَنْ نَتَوَقَّعَ مَا صَادَفَ جَيْنَ مِنْ حَسَنِ حَظٍّ.

فَقَالَ مَسْتَرُ بِيْنْتُ:

- صَحِيحٌ، وَلَكِنْ مِمَّا يَبْعَثُ عَلَى الرَّاحَةِ أَنَّهُ مَهْمَا أَصَابَكَ مِنْ أَدَى
فِي هَذَا الْمَجَالِ، فَإِنَّ لَدَيْكَ أَمَّا وَدُودَةٌ سَتَعْمَلُ دَائِمًا عَلَى التَّخْفِيفِ عَنْكَ.
وَكَانَتْ صَحْبَةٌ مَسْتَرٌ وَيَكْهَامُ ذَاتَ نَفْعٍ عَظِيمٍ فِي طَرْدِ الْكَآبَةِ الَّتِي
خِيَمَتْ عَلَى عِدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ أَفْرَادِ أُسْرَةِ «لُونِجْبُورِن» بِفَعْلِ الْأَحْدَاثِ
الْمُكَدَّرَةِ الَّتِي جَرَتْ أَخِيرًا، فَقَدْ التَّقَوْا بِهِ كَثِيرًا، وَأَضَافُوا إِلَى مَزَايَاهِ
السَّابِقَةِ صِرَاحَتَهُ الْمَطْلُوقَةَ. وَأَصْبَحَ الْآنَ مَا سَمِعْتَهُ إِلِيْزَابِيثُ مِنْ أَدْعَائِهِ
عَلَى مَسْتَرٍ دَارِسِيٍّ وَكُلِّ مَا عَانَاهُ بِسَبَبِهِ مَوْضِعَ إِقْرَارِ صَرِيحٍ وَمُنَاقَشَةٍ
عَلْنِيَّةٍ، وَسُرَّ الْجَمِيعُ عِنْدَمَا تَدَبَّرُوا كَيْفَ كَانُوا يَكْرَهُونَ مَسْتَرَ دَارِسِيٍّ
دَائِمًا حَتَّى قَبْلَ أَنْ يَعْرِفُوا شَيْئًا عَنِ الْمَوْضُوعِ.

وكانت مس بينت هي الشخص الوحيد الذي كان يتلمس احتمال وجود ظروف مخففة مجهولة عن مجتمع «هارتفوردشير». فقد كان إخلاصها الهادئ الراسخ يدفعها دائماً لالتماس الأعذار وإثارة احتمالات وجود الأخطاء. ولكن الجميع خلافها أدانوا مستر دارسي بوصفه أسوأ الرجال قاطبة.



الفصل الخامس والعشرون

بعد انقضاء أسبوع حفل بدلائل الغرام ومخططات السعادة، حل يوم السبت، فانتزع مستر كولنز من حضرة شارلوت اللطيفة. على أن آلام الفراق لم تثقل عليه بسبب انهماكه في الاستعداد لاستقبال عروسه، حيث إنه كان يأمل في تحديد اليوم الذي سيجعله أسعد الرجال أجمعين، بمجرد عودته التالية إلى «هارتفوردشير». وودع أقرباءه في «لونجبورن» بنفس ما ودعهم به في المرة السابقة من وقار، وكرر تمنياته لبنات عمه الجميلات بالصحة والسعادة ووعد والدهن بخطاب شكر آخر.

وفي يوم الاثنين التالي سعدت مسز بينت باستقبال شقيقها وزوجته اللذين جاءا كعادتتهما لقضاء عيد الميلاد في «لونجبورن». وكان مستر جاردنر رجلاً عاقلاً مهذباً يمتاز على شقيقته تماماً سواء من ناحية الطبع أو الثقافة. وما كان يمكن لسيدتي «نيدر فيلد» أن تصدقا بسهولة أن هذا الرجل الذي يعيش من تجارته، والذي يقطن على بعد قريب من حوانيته، يمكن أن يكون على هذه الدرجة من الأدب ولطف المعشر. أما مسز جاردنر التي كانت تصغر بسنوات كثيرة عن مسز بينت ومسز

فيليس، فقد كانت امرأة محبة وذكية ورشيقة، كما كانت أثيرة عند بنات أخت زوجها اللائي يقمن في «لونجبورن». ولقد كان هناك على وجه الخصوص إعزاز شديد متبادل بين الأختين الكبيرين وبينها. وكثيراً ما نزلتا عندها في منزلها بلندن.

وكانت أولى مهام مسز جاردنر عند وصولها هي توزيع هداياها وتقديم وصف لأحدث الأزياء. وعندما فرغت من هذا بقي لها أن تؤدي دوراً أقل إيجابية، فقد جاء دورها لتنصت إلى غيرها. وكانت لدى مسز بينت حصيلة كبيرة من المظالم تحكي عنها، كما كان لديها الكثير الذي تشكو منه. فقد أسيء إليهم جميعاً أشد إساءة منذ أن رأت زوجها أخيها لآخر مرة. إن اثنتين من بناتها كانتا على وشك الزواج، ولكن الأمر لم يتمخض عن شيء. وأضافت قائلة:

- لست ألوم جين على شيء، فقد كان يمكن لجين أن تقبل مستر بينجلي لو استطاعت إلى ذلك سبيلاً. ولكن ليزي! آه يا زوجة أخي! من الصعوبة بمكان أن يفكر المرء في أنها كان يمكن أن تصبح الآن زوجة مستر كولنز، لو لم يكن عنادها هو السبب. لقد تقدم لطلب يدها في هذه الحجرة بالذات، ولكنها رفضته. ونتج عن ذلك أن ليدي لوكاس ستزوج إحدى بناتها قبلي، وأن ضيعة «لونجبورن» لا تزال كما كانت من قبل موقوفة. الحق يا زوجة أخي أن أسرة لوكاس أناس ماكرون للغاية. إنهم يستولون على كل ما يمكن لأيديهم أن تصل إليه. إنني آسفة بسبب هذا الذي أقوله عنهم، ولكنها الحقيقة. فمما يثير أعصابي ويؤثر

في صحتي أن تخيب آمالي في أسرتي على هذا النحو، وأن يكون لي جيران يفكرون في أنفسهم قبل أي شخص آخر. على أن مجيئك في هذا الوقت بالذات يعتبر أعظم دواعي الراحة، وإني لشديدة السعادة لما تحدثينا به عن الأكمام الطويلة.

ولما كانت مسز جاردنر على علم بجوهر هذه الأخبار نتيجة ما تبادلتها من خطابات مع جين وإليزابيث، فقد ردت على أخت زوجها بإجابة بسيطة، وغيرت دفة الحديث رافة منها بابتيتها.

وعندما انفردت بإليزابيث أفاضت في الحديث عن الموضوع، وقالت:

- يبدو أن الوضع كان يمكن أن يتطور إلى زواج مناسب بالنسبة لجين، وإني لأسفة أن المسألة قد انتهت عند هذا الحد. ولكن هذه الأمور كثيرًا ما تحدث! فمن السهل أن يقع شاب على شاكلة مستر بينجلي في غرام فتاة جميلة لبضعة أسابيع، ثم يسهل عليه نسيانها إذا ما فرقت بينهما الأحداث، لدرجة أن مثل هذه التقلبات أصبحت شائعة الحدوث.

فقالت إليزابيث:

- هذا عزاء في ذاته ممتاز، ولكنه لن يصلح لنا. فنحن لا نعاني نتيجة واقعة من هذا النوع. كما أنه لا يحدث كثيرًا أن يتسبب تدخل الأهل في حث شاب مستقل ماديًا على عدم التفكير في فتاة كان لبضعة أيام سابقة مدللًا في حبها.

- ولكن هذا التعبير «مدلّها في حبها»، قد أصبح مبتذلاً ومشكوكاً فيه وغير محدد، بحيث لا يوحي لي إلا بفكرة بسيطة للغاية. فكثيراً ما تُوصف به المشاعر التي تنشأ عن معرفة لا تمتد إلا لنصف ساعة من الزمان، مثلما تُوصف به الرابطة القوية الحقيقية. أرجو أن تصفي لي كيفية التدله الذي ظهر على حب مستر بينجلي!

- لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا الميل الذي يوحي بالكثير. لقد تزايد عدم اهتمامه الكامل بالآخرين وانشغاله التام بها. وقد كان هذا يتأكد ويتضح أكثر وأكثر في كل مرة التقيا فيها. وفي أثناء الحفل الراقص الذي دعا إليه أساء إلى سيدتين أو ثلاث حين لم يدعهن لمراقبته، كما أنني تحدثت إليه بنفسى مرتين دون أن أحظى بجواب. أيمكن أن تكون هناك أعراض أجمل من هذه؟ أليس انتفاء روح المجاملة هو جوهر الحب ذاته؟

- نعم، ذلك النوع من الحب الذي أظنه قد شعر به. يا لجين المسكينة! إنني آسفة لأجلها؛ لأنها قد لا تستطيع بطباعها هذه أن تغلب على هذه الواقعة بسرعة. كان من الأفضل لك أن تحدث لي يا ليزي، فقد كان يمكنك أن تتخلصي من أثرها بأسرع منها. ولكن أظن أنه يمكن إقناعها بالعودة معنا؟ ربما كان تغيير المناظر نافعاً لها، ولعل التخفف من جو المنزل لفترة بسيطة أن يكون ذا فائدة.

وابتهجت إليزابيث كثيراً لهذا العرض وشعرت بإمكان موافقة شقيقتها السريعة عليه.

وأضافت مسز جاردنر قائلة:

- أرجو ألا تتأثر بأي اعتبار فيما يختص بهذا الشاب. فنحن نعيش في ناحية من لندن جد مختلفة، كما أن كل معارفنا مختلفون تمامًا، ولا نخرج، كما تعرفين، إلا في القليل النادر، بحيث سيكون التقاؤهما أمرًا بعيد الاحتمال، إلا لو جاء بالفعل لرؤيتها.

- وهذا مستحيل تمامًا، فهو الآن يعيش في كنف صديقه، ولن يسمح له مستر دارسي بزيارة جين في مثل هذه الناحية من لندن! ما ظنك في هذا يا خالتي العزيزة؟ لربما كان مستر دارسي قد سمع عن مكان مثل «جريستشيرتش ستريت»، ولكنه بالكاد ما يظن أن اغتسال شهر بأكمله كافٍ لتطهيره من شوائب هذا الشارع فيما لو قُدِّر له في يوم ما أن يدخله. وثقي أن مستر بينجلي لا يتحرك أبدًا من دونه.

- هذا أفضل. آمل ألا يلتقيا على الإطلاق. ولكن ألا تراسل جين مع شقيقته؟ إنها ستضطر إلى زيارتها.

- لسوف تقطع العلاقة كلية.

ولكن رغم اليقين الذي شاءت إليزابيث أن تسبغه على هذا النقطة، بالإضافة إلى المسألة الأهم وهي الموانع التي سوف تحول دون رؤية بينجلي لجين، فقد شعرت في هذا الموضوع بجزع ما لبث أن أقنعها، بعد بحث وإمعان، بأنها لا ترى الأمر ميؤوسًا منه تمامًا. فقد كان من الممكن -بل ومن المحتمل كما خيّل إليها أحيانًا- أن تتجدد عواطفه، ويحول تأثير أصدقائه عليه بفضل ما ينشأ عن مفاتن جين من مؤثرات طبيعية.

وقبلت مس بينت زوجة خالها باغتيال. ولم تشغل أسرة بينجلي حيزًا من أفكارها إلا بمقدار ما كانت تأمل في لقاء كارولاين وقضاء

يوم معها بين حين وآخر دون أن ينالها أي خطر من رؤية شقيقها حيث إنها لم تكن تقطن معه في نفس المنزل.

وقضت أسرة جاردينر أسبوعًا في «لونجبورن»، ولم يمضِ يوم إلا وانقضى إما في اللقاء بأسرة فيليبس وإما بأسرة لوكاس وإما بالضباط. واتخذت مسز بينت احتياطاتها بعناية حتى توفر أسباب الضيافة لشقيقها وزوجته بحيث لم يُدع الزوجين أبدًا لتناول غذائهما في الخارج، ويوم كانا يقضيان وقتهما في المنزل، كان بعض الضباط يدعون دائمًا ليشاركوهما متعة اليوم. وكان مستر ويكهام لا يتخلف أبدًا عن هذه المجموعة من الضباط. وفي هذه المناسبات كانت مسز جاردينر تراقب إليزابيث وتراقبه بامعان بعد أن شعرت بالارتياح حين أخذت إليزابيث تمتدحه بحرارة. ودون ظن منها -من واقع ما رأيته- بقيام علاقة حب جادة بينهما، فقد كان تفضيل كل منهما للآخر واضحًا على نحو يكفي لشعورها ببعض القلق. وقررت أن تتحدث مع إليزابيث في هذا الموضوع قبل مغادرتها «هارتفوردشير»، وتبين لها عدم التبصر في تشجيع مثل هذه العلاقة.

وكانت مسز جاردينر ترى أن ويكهام يستطيع أن يوفر لها نوعًا من المتعة غير مرتبط بشخصه عمومًا. فمنذ عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة كانت قد قضت -قبيل زواجها- وقتًا طويلًا في نفس تلك الناحية من «داربيشير» التي كان هو ينتمي إليها. ولهذا فقد كانا معًا على صلة بمعارف كثيرين. ورغم أن ويكهام لم يتردد على هذه المنطقة كثيرًا بعد وفاة والد دارسي منذ خمس سنوات مضت، إلا أنه كان في استطاعته

أن يزودها بمعلومات جديدة عن أصدقائها السابقين على نحو لم تكن
لتستطيع أن تحصل عليها من سواه.

فقد رأت مسز جاردنير «بيمبرلي»، وكانت معرفتها لمستر دارسي
رحمه الله معرفة شخصية متينة. وكان هذا بالتالي موضوع حديث لا
ينفد؛ وكان في مقارنتها لذكرياتها عن «بيمبرلي» بالأوصاف الدقيقة
التي قدمها ويكهام، وفي إطارها الواجب لشخصية مالكه السابق، ما
يبعث البهجة في نفسه ونفسها معاً. وعندما أُحيطت علماً بمعاملة مستر
دارسي الابن له، حاولت أن تتذكر شيئاً عن الطباع التي اشتهر بها ذلك
الرجل عندما كان صبيّاً، الأمر الذي يمكن أن يتفق وهذه المعاملة.
واستوثقت آخر الأمر مما تذكره من أنها سمعت الناس يتحدثون فيما
مضى عن مستر فيتز وليم دارسي باعتباره صبيّاً شديد الكبرياء حاد
الطباع.



الفصل السادس والعشرون

أبلغت مسز جاردنر تحذيرها لإليزابيث في وقته وبمنتهى الرقة، وذلك في أول فرصة مناسبة سنحت للحديث معها على انفراد. وبعد أن أخبرتها بإخلاص بما تفكر فيه، استطردت قائلة:

- إنكِ يا ليزي فتاة على درجة من التعقل تمنعكِ من الوقوع في الحب لمجرد تحذيركِ منه. ولهذا فلست أخشى أن أحدثكِ بصراحة. فالحق أنني أريدكِ أن تكوني على حذر. لا تورطي نفسك أو تحاولي أن تورطيه في علاقة حب أبعد ما تكون عن الفطنة بسبب انتفاء أسباب الثروة عند كل منكما. ليس لي ما أقوله ضده، فهو شاب لطيف للغاية. ولو كان بحوزته المال الذي يُعتبر من حقه، لما أمكنكِ أن تفعلي أفضل مما تفعلين الآن. ولكن لا يجب عليكِ والحالة هذه أن تنقادي لخيلاتكِ. إني واثقة أن والدكِ يعتمد على حزمكِ وسلوككِ القويم. ويجب عليكِ ألا تخيبي أمل أبيكِ.

- هذا كلام جاد يا خالتي العزيزة.

- نعم، وأملّي أن تكوني جادة أيضًا.

- حسن إذن، لا تنزعجي. لسوف أعتني بنفسي وبمستر ويكهام
أيضًا. فهو لن يقع في غرامي لو استطعت أن أحول بينه وبين ذلك.
- أنت الآن غير جادة يا إليزابيث.

- أستمحك عذرًا. سأحاول مرة ثانية. إنني لا أحب مستر ويكهام
في الوقت الحاضر؛ كلا، بالتأكيد لا أحبه. غير أنه ألطف رجل رأيته
في حياتي، ولا يمكن مقارنته بغيره. ولئن أصبح بالفعل متعلقًا بي،
فاعتقادي أنه يحسن به ألا يفعل. إنني أدرك ما في هذا الأمر من طيش. يا
لهذا الرجل الكريه مستر دارسي! أما رأي والدي فيّ فيسبغ عليّ شرفًا
عظيمًا، ولئن خسرت لم نيت بالتعاسة كلها. على أن والدي مع هذا
منحاز لمستر ويكهام. وقصارى القول يا خالتي العزيزة، أني سأشعر
بأشد الأسف لو أصبحت سببًا في تعاسة أيّ منكما. ولكن طالما أننا
نرى في كل يوم أن الشباب نادرًا ما يتخرجون بسبب الافتقار إلى الثروة
عن الدخول في ارتباطات مع بعضهم بعضًا حيثما نشأ الحب بينهم،
فكيف يتسنى لي أن أعد بأن أكون أشد حكمة من كثيرين غيري على
وجه الأرض، إذا قُدر لي أن أقع ضحية الإغراء؟ أو كيف يمكنني حتى
أن أدرك أن الحكمة تكمن في المقاومة؟ لذلك فإن كل ما أستطيع أن
أعدك به هو ألا أكون في عجلة من أمري. لن أتعجل فأعتقد نفسي محط
إعجابه، بل ولن أتمنى ذلك عندما أكون في صحبته. وباختصار فإنني
سأبذل قصارى ما في وسعي.

- ربما يكون من الأفضل كذلك ألا تشجعيه على المجيء إلى هنا
كثيرًا. ولا يجب على الأقل أن تذكرى والدتك بدعوته.

وقالت إليزابيث وقد ابتسمت ابتسامة واعية:

- مثلما فعلتُ مؤخرًا. هذا صحيح فعلاً، فمن الحكمة أن أمتنع عن ذلك. ولكن لا تتصورى أنه يكثر دائماً من المجيء إلى هنا. إنه لم يُدع في هذا الأسبوع أكثر من مرة إلا بسببك. فأنت تعرفين فكرة أُمي بشأن ضرورة توفير الصحبة الدائمة لأهلها. ولكني سأحاول حقاً وبشرفي أن أفعل ما أظنه أحكم الأمور. وأملّي أن تكوني الآن راضية.

وأكدت لها زوجة خالها أنها راضية فعلاً، وبعد أن شكرتها إليزابيث على رقة تلميحاتها، افترقتا وقد تضمن حديثهما مثلاً رائعاً لنصح قيل دون أن يُقابل باستياء.

وعاد مستر كولنز إلى «هارتفوردشير» بمجرد رحيل أسرة جاردينر وجين. ولكن حيث إنه نزل عند أسرة لوكاس فلم يكن في وصوله إقلاق كبير لمسز بينت. وكان موعد زواجه يقترب بسرعة، وامتثلت مسز بينت أخيراً للدرجة اعتبرت معها الأمر محتوماً، بل وقالت أكثر من مرة بلهجة غير طيبة إنها «تتمنى لهما السعادة». وحُدِّد يوم الخميس موعداً للزفاف. وقامت مس لوكاس يوم الأربعاء بأداء زيارة الوداع. وعندما نهضت مستأذنة، اصطحبتها إليزابيث إلى خارج الحجرة بعد أن خجلت لما أبدته أمها من تمنيات تبدو فيها الفظاظة والنفور، وبعد أن شعرت هي نفسها بأحاسيس التأثير المخلص. وقالت شارلوت وهما تهبطان الدرج معاً:

- سأعتمد عليك يا إليزا في معرفة أخباركِ بين الحين والحين.

- لك أن تثقي في هذا.

- كذلك أطلب منك خدمة أخرى. هل تأتين لرؤيتي؟
- سوف نلتقي كثيرًا، فيما أرجو، في «هارتفوردشير».
- لا أظن أنني سأغادر «كنت» لبعض الوقت. عديني إذن بأن تأتي
إلى «هنسفورد».

ولم تستطع إليزابيث أن ترفض، رغم أنها لم تكن لتتوقع متعة كبيرة
في هذه الزيارة. وأضافت شارلوت قائلة:

- من المتفق عليه أن يحضر والدي وماريا لزيارتي في مارس
المقبل، وأملتي أن توافقي على انضمامكِ لصحبتهما. والحق أنك
ستكونين يا إليزا موضع ترحيب من جانبي شأنك شأن أيٍّ منهما.

وتم الزفاف، وشد العريس والعروس رحالهما إلى «كنت» بمجرد
خروجهما من باب الكنيسة، وقال الجميع واستمعوا لكل ما يمكن أن
يُقال ويُسمع في مثل هذا الموضوع عادة. ولم يمضِ وقت طويل حتى
وصل إلى إليزابيث خطاب من صديقتها. وانتظمت رسائلهما وتواترت
كما كانت من قبل دائمًا، غير أنه كان من المستحيل رفع الكلفة بينهما.
فلم تكن إليزابيث قادرة على مخاطبتها دون أن تشعر بانقضاء كل ما تبعته
الألفة من راحة نفس. ورغم أنها عقدت العزم على ألا تتراخى في كتابة
رسائلها، إلا أن هذه النية كانت إكرامًا لما انقضى لا لما كان. واستقبلت
رسائل شارلوت الأولى بشيء كبير من اللهفة، فلم يكن هناك إلا
الفضول لمعرفة كيف يمكن أن تتحدث عن بيتها الجديد، وكيف يمكن
أن تُعجب بليدي كاثرين، ومدى جرأتها على اعتبار نفسها سعيدة. على
أنه ما إن تليت الخطابات، حتى شعرت إليزابيث أن شارلوت عبرت عن

نفسها في كل مسألة تمامًا كما تنبأت لها أن تفعل. فقد كتبت بأسلوب مرح، وبدا عليها أنها محاطة بكل أسباب الراحة، ولم تُشير إلى شيء إلا وأثنت عليه. فكان البيت والأثاث والجيران والطرق كلها ملائمة لمزاجها، كما كان سلوك ليدي كاثرين رقيقًا وكرمًا للغاية. لقد قدمت نفس الصورة التي رسمها مستر كولنز عن «هنسفورد» و«روزينجز»، وإن خفت بشكل معقول من ألوانها الصارخة. وأدركت إليزابيث أنها يجب أن تنتظر حلول موعد زيارتها لتعرف بنفسها ما تبقى.

وكانت جين قد كتبت بضعة سطور لشقيقتها، لتعلن لها وصولهم إلى لندن في أمان. وعندما كتبت ثانية، راود إليزابيث الأمل في أن تشير جين على نحو ما إلى أسرة بينجلي.

وَكُوِفْتُ لهفتها على هذا الخطاب الثاني بمثل ما تُكافأ به اللهفة عمومًا. فقد قضت جين أسبوعًا في لندن دون أن ترى كارولائين أو دون أن يصلها منها خطاب. على أنها بررت ذلك مفترضة أن خطابها الأخير الذي أرسلته لصديقتها من «لونجبورن» قد فُقد بطريقة ما. واستطردت في خطابها تقول:

وتعتزم زوجة خالي الذهاب غدًا إلى تلك الناحية من لندن، وسأنتهز الفرصة لزيارة الأسرة في «جروسفورد ستريت». وبعثت برسالة ثانية عندما قامت بأداء الزيارة، وكانت قد رأت مس بينجلي. وكتبت تقول:

لا أظن أن كارولائين منشحة النفس، ولكنها سعدت لرؤيتي ولامتني لأنني لم أخطرها بمجيئي إلى لندن. لقد كنت

إذْنٌ على صواب، فلم يصلها خطابي الأخير. وسألت بالطبع عن شقيقهما. وهو على ما يُرام، وإن كان شديد الانشغال مع مستر دارسي لدرجة لم تكونا تريانه إلا في النادر. واكتشفت أن مس دارسي كانت مدعوة لتناول الغداء معهما؛ ووددت لو استطعت رؤيتها. ولم تطل مدة زيارتي فقد كانت كارولان ومسر هيرست تعتزمان الخروج. وأغلب ظني أنني سأراهما هنا قريباً.

وهزت إليزابيث رأسها بعد أن قرأت هذا الخطاب، فقد أفنعتها أن الصدفة وحدها يمكن أن تكشف لمستر بينجلي عن وجود شقيقتها في لندن.

وانصرمت أربعة أسابيع دون أن تراه جين. وحاولت أن تقنع نفسها بأنها لم تكن آسفة على ذلك، غير أنها لم تكن لتستطيع أن تتعافى أكثر من ذلك عن غفلة مس بينجلي. وبعد أن مكثت في المنزل كل صباح لمدة أسبوعين، وابتدعت لها كل مساء عذراً جديداً، ظهرت الزائرة أخيراً. ولكن قصر الزمن الذي قضته معها، بل وتغير طابع سلوكها، لم يسمحا لجين بالاستمرار في خداع نفسها أكثر من ذلك. وكان الخطاب الذي كتبه في هذه المناسبة لشقيقتها دليلاً على مشاعرها:

إن عزيزتي ليزي لن تستطيع قطعاً أن تظفر عليّ بسبب ما أوتيتّه من راحة رأي، عندما أعترف بأنني قد خُدعت تماماً فيما أبدته مس بينجلي نحوي من اعتزاز. ولكن رغم أن الواقعة يا أختي العزيزة قد أثبتت أنكِ على حق، فلا تظننني عنيدة إذا كنت لا أزال أؤكد أن ثقتي فيها -بالنظر إلى حقيقة ما مضى

من سلوكها- كانت طبيعية شأنها شأن ريبتيك. لست أفهم على الإطلاق أسبابها فيما رغبته من توطيد صلتها بي. على أنه لو تكررت نفس الظروف، فيقيني أنني سأقع من جديد ضحية الخداع. إن كارول لاين لم ترد زيارتي إلا أمس، وطوال تلك المدة لم تصلني منها كلمة واحدة. وعندما كان من الجليّ أنها لم تكن مسرورة لمجيئها. وقدمت اعتذارًا شكليًا إلى رغبته في رؤيتي ثانية، وكانت من جميع النواحي شخصًا مختلفًا لدرجة صممت معها بعد خروجها على عدم الاستمرار في العلاقة بعد هذا. إنني أرثي لها، رغم أنني لا أملك إلا أن ألومها. لقد أخطأت أشد الخطأ لاختيارها لي صديقة لها على هذا النحو الذي فعلته. وإنني أستطيع القول وأنا مطمئنة إنها هي التي اتخذت كل الخطوات تجاه قيام الألفة بيننا. ولكنني أرثي لها؛ لأنها تشعر ولا بد أنها كانت تتصرف على نحو خاطئ، ولأنني واثقة تمامًا أن سبب كل هذا هو قلقها على شقيقتها. ولست بحاجة لأن أفيض في شرح ما أعني. ورغم أننا نعلم أن هذا القلق ليس له داعٍ أبدًا، إلا أنها كانت تشعر بهذا القلق، ففي مثل هذا الشعور ما يبرر بوضوح سلوكها نحوي. ولهذا السبب، فمهما كان القلق الذي تستشعره بسببه، فهو قلق طبيعي ومقبول من حيث إنه يستحق إعزاز شقيقته. على أنني لا أملك إلا أن أتعجب لما يمكن أن يراودها الآن من مثل هذه المخاوف؛ لأنه لو كان يهتم بي أدنى اهتمام، لكنا قد التقينا قبل هذا بوقت طويل. فهو يعلم بوجودي في لندن، وأنا على يقين من هذا بسبب ما بدر في حديثها من إشارة عابرة. ومع ذلك

يبدو الأمر -من واقع طريقتها في الحديث- وكأنها تريد إقناعي أنه ميّال فعلاً إلى مس دارسي. لا أستطيع أن أفهم شيئاً. ولو لم أكن أخشى الشطط في حكمي على الأمور، لأغراني القول بأن في هذا ما يوحي بمظاهر الرياء. ولكنني سأحاول أن أطرد كل فكرة مؤلمة، وأن أفكر فحسب في كل ما يجعلني سعيدة، ألا وهو محبتك، والرقعة المستديرة التي يعاملني بها خالي العزيز وزوجته. دعيني أسمع أخبارك بسرعة. لقد أشارت مس بينجلي إلى عدم عودته إلى «نيدر فيلد» ثانية، وإلى هجرانه للبيت، ولكنها لم تكن واثقة من هذا تمام الثقة. ويحسن ألا نذكر عن هذا الأمر شيئاً. إني سعيدة للغاية لما وصلك من أخبار لطيفة عن صديقينا في «هنسفورد». أرجو أن تذهبي لرؤيتهما مع سير وليم وماريا، وإني لعلّى ثقة من أنك ستلقين الراحة كلها هناك.

أختك المخلصة

سبّب هذا الخطاب لإليزابيث بعض الألم، ولكنها ما لبثت أن استردت مرحها عندما فكرت في أن جين لن تكون بعد الآن ضحية خداع، من جانب الأخت على الأقل. فكل الآمال المعلقة على الأخ قد انقضت الآن تماماً. بل إنها لم تكن لتتمنى أي تجديد لاهتمامه بها. فقد سقطت شخصيته في نظرها من كل النواحي؛ وراودها أمل مخلص في أن يتزوج سريعاً من شقيقة مستر دارسي، وذلك كعقاب له، وكمصلحة في ذات الوقت لجين. فلسوف تجعله مس دارسي -وذلك من واقع ما حكاه ويكهام عنها- يندم أشد الندم على ما أضاعه.

وفي هذه الأثناء ذكّرت مسز جاردنر إليزابيث بوعدها فيما يتعلق بمستر وبكهام، وطلبت معرفة أنبائه. وبعثت إليزابيث من الأخبار ما يبعث الراحة في نفس زوجة خالها والضيق في نفسها هي. فقد خمدت حرارة ميله الواضح لها وانقضى حده عليها، إذا أصبح معجباً بإنسانة أخرى. وكانت إليزابيث مفتوحة العينين بحيث رأت كل ذلك. ولكن كان في إمكانها أن تراه وتكتب عنه دون أن تستشعر ألمًا عظيمًا. فلم يكن قلبها قد مُسَّ إلا مسًا طفيفًا، وأرضت غرورها بالاعتقاد بأنها كان يمكن أن تكون موضع اختياره الوحيد لو توفرت الناحية المادية. فقد كانت الثروة المفاجئة التي هبطت على الفتاة التي أخذ الآن يتودد لها، والتي بلغت عشرة آلاف جنيه، بمثابة أبرز ملامح سحرها. ولكن إليزابيث التي لم تكن تتمتع فيما يبدو بنفس وضوح الرؤية في هذه الحالة كما كانت في حالة شارلوت، لم تتعارك معه بسبب رغبته في أن يحقق استقلاله المادي. على العكس من ذلك، فلم يكن هناك ما هو أشد من ذلك قربًا إلى السلوك الطبيعي. وبينما كان باستطاعتها الافتراض أن الأمر لم يكلفه أكثر من مقاومة بسيطة لهجرانها، فقد كانت على استعداد للإقرار أن هذا الوضع يُعتبر إجراءً حكيماً ومناسباً لهما معاً. ومن ثم فقد كان في وسعها أن تتمنى له السعادة وهي مخلصه.

وباحت بكل هذا لمسز جاردنر. وبعد أن قصت عليها كل التفاصيل استطردت في خطابها على النحو التالي:

إنني الآن مقتنعة يا خالتي العزيزة أنني لم أكن غارقة تمامًا في الحب. فلو كنت قد استشعرت حقاً تلك العاطفة الخالصة

التي تسمو بالنفس، لكنت الآن أمقت اسمه وأتمنى له الأذى بكل السبل. غير أن مشاعري ليست طيبة تجاهه فحسب، بل إنها منزهة أيضًا عن الغرض تجاه مس كينج. فلا أستطيع أن أتلمس في نفسي كرهًا لها على الإطلاق، أو عزوفًا عن اعتبارها بأي حال من الأحوال فتاة من طراز ممتاز. وليس في كل هذا حب أي حب. لقد أثبت حذري فعاليته؛ ورغم أنني كنت سأصبح حتمًا هدفًا أكثر تشويقًا لكل معارفي لو أنني جنت به حبًا، فلا أستطيع أن أزعم أنني نادمة على ما أنا فيه من وضع مغمور نسبيًا. ففي بعض الأحيان يدفع المرء ثمنًا باهظًا ليصبح ذا أهمية. إن كيتي وليديا أشد مني تأثرًا بسبب ارتداده عني. إنهما صغيرتان لم تختبرا مسالك الدنيا، ولم تتعرضا بعد للفكرة المكدرة التي تقول بأن الشاب الوسيم لا بد أن يجد -شأنه شأن الدميم- ما يسد به رمقه.



الفصل السابع والعشرون

انقضى يناير وفبراير دون أن تقع لأفراد أسرة «لونجبورن» أحداث أشد من هذه خطورة، إلا ما صاحبها من تنوع لا يتعدى بعض النزعات إلى «ميريتون» في طريق موحل أحياناً، وفي جو بارد أحياناً أخرى. وكان شهر مارس هو الوقت المحدد للذهاب إليزابيث إلى «هنسفورد». ولم تكن في أول الأمر قد فكرت جدياً في الذهاب إلى هناك. ولكنها لم تلبث أن اكتشفت أن شارلوت قد رتبت نفسها على أساس هذا الاتفاق، كما شرعت هي نفسها تفكر تدريجياً في الموضوع باغتراب أعظم وبقين أشد. فقد ضاعف الافتراق من رغبتها في رؤية شارلوت ثانية، كما أضعف من نفورها من مستر كولنز. كذلك كان في هذا المشروع نوع من التجديد؛ فحيث إن الحياة المنزلية لم تكن خالية من العيوب بسبب مثل هذه الأم وأولاء الشقيقات اللاتي تتعذر صحبتهن؛ لذلك كان التغيير البسيط مطلوباً لذاته. وبالإضافة إلى ذلك فقد تسمح لها الرحلة بإلقاء نظرة على جين. وباختصار، ومع اقتراب يوم الرحيل، كان يمكن لأي تعطيل أن يسبب لها أشد الأسف. ومضى كل شيء على خير ما يرام، ووُضعت كل الترتيبات طبقاً لما اقترحه شارلوت في أول

الأمر. فقد كان عليها أن تسافر بصحبة سير وليم وثانية بناته. وأُضيف على الخطة قضاء ليلة في لندن، فاكتملت بذلك أركانها.

وكان الألم الوحيد الذي راود نفسها هو تركها لوالدها الذي كان لا بد أن يفتقدها، والذي أصبح -مع اقتراب موعد السفر- غير متحمس لرحيلها، مما دفعه لمطالبتها بالكتابة إليه، بل وحتى للتعهد بالرد على خطاباتها.

وكان الوداع بينها وبين مستر ويكهام لطيفاً تماماً، بل وأشدّ لطفاً من جانبه. فلم تكن مشاغله الحالية لتنسيه أن إليزابيث كانت أول من أثارت انتباهه واستحقته، وأول من أنصتت له وأشفقت به، وأول من كانت محط إعجابه. وكان في أسلوب توديعه لها وفي تمنياته لها بالمتعة كلها، وفي تذكيره لها بما يجب أن تتوقعه من جانب ليدي كاثرين دي بورو، وفي إعلانه عن ثقته بأن رأيهما فيها -بل ورأيهما في كل إنسان- سوف يكون دائماً موضع اتفاق، كان في كل ذلك نوع من الرجاء والاهتمام شعرت معهما بأن ما يربطها به إعزاز يتصف بغاية الإخلاص. وافترقا وهي مقتنعة بأنه سيكون دائماً -سواء كان متزوجاً أم أعزب- مثلها الأعلى للرجل الودود الرقيق.

ولم يكن رفيقا سفرها في اليوم التالي من النوع الذي يدفعها لتغيير نظرتها في مستر ويكهام. فلم يكن لدى سير وليم لو كاس أو لدى ابنته ماريا -وهي فتاة مرحة وإن كانت ذات رأس فارغ كأبيها- ما يتحدثان فيه على نحو يستحق الإنصات؛ ولم تستمع إليهما إليزابيث إلا بنفس البهجة التي كانت تستمع بها إلى جلبة العربة. وكانت إليزابيث تحب

الاستماع إلى السخافات، ولكنها كانت على معرفة بسخافات سير وليم منذ وقت طويل، فلم يكن باستطاعته أن يقص عليها جديدًا عن عجائب مثوله أمام الملك ولقب فروسيته، كما كان الزمن قد عفاً على مجاملاته مثلما عفاً على أخباره.

ولم تكن الرحلة لتمتد لأكثر من أربعة وعشرين ميلاً، وكانوا قد بدأوا في وقت مبكر يسمح لهم بالوصول إلى «جريستشيرتش ستريت» ظهرًا. وعند اقتراب العربّة من منزل مستر جاردنر، كانت جين تقف في نافذة إحدى حجرات الاستقبال تترقب وصولهم. وعندما دخلوا إلى الممر وجدوا جين في انتظارهم للترحيب بهم، واغتبطت إليزابيث حين دقت النظر في وجهها، فوجدته يفيض بالصحة والجمال كعهده دائمًا. وعلى الدرج كان هناك بعض الأولاد والبنات الصغار الذين لم يكن شغفهم برؤية ابنة عمّتهم يسمح لهم بالانتظار في حجرة الاستقبال، والذين كان حيائهم بسبب عدم رؤيتهم لها منذ عام مضى سببًا في الحيلولة بينهم وبين النزول إلى الطابق الأرضي. وفاض الجو بالمرح والكرم. وانقضى اليوم على أجمل ما يكون، فانصرم الصباح في المرح وزيارة الحوانيت، وفي المساء ذهب الجميع إلى أحد المسارح.

وهناك سعت إليزابيث للجلوس بجوار زوجة خالها، وكانت شقيقتها هي موضوع حديثهما الأول. وفاق ابتئاسها دهشتها لما سمعته ردًا على استفساراتها الدقيقة من أن جين كانت تمر بفترات من الكآبة رغم سعيها الدائم للاحتفاظ بمرحها. ومع ذلك فقد كان من المعقول أن يراود الجميع الأمل في عدم استمرار هذه النوبات. كذلك أفضت لها

مسز جاردنر بتفصيلات زيارة مس بينجلي «لجريستشيرتش ستريت»، وكررت على سمعها محادثات جرت في أوقات متفاوتة بينها وبين جين، مما أثبت أن جين قد وضعت من صميم قلبها حدًا لهذه العلاقة.

ثم مازحت مسز جاردنر ابنة أخت زوجها بسبب هجران ويكهام لها، وهنأتها على حسن احتمالها للموضوع. ثم أضافت قائلة:

- ولكن ما هوية مس كينج يا عزيزتي إليزابيث؟ إنني آسفة لاعتبار صديقنا محبًا للمال.

- ما الفرق بالله عليك يا خالتي العزيزة بين البواعث المادية والحكمة فيما يختص بشؤون الزواج؟ وأين تنتهي حدود الفطنة وتبدأ حدود الطمع؟ لقد كنت تخافين في عيد الميلاد الفائت من زواجه بي بسبب ما في ذلك من طيش ونزق. وأنت الآن تريدين تلمس حب المال فيه بسبب سعيه للحصول على فتاة ذات ثروة لا تزيد على عشرة آلاف جنيه.

- لو أنك ذكرت لي فقط هوية مس كينج، لعرفت كيف أفكر في هذا الأمر.

-إنني أعتقد أنها فتاة من معدن طيب للغاية. ولست أعلم عنها ما يسيء إليها.

- ولكنه لم يُبدِ نحوها أبسط التفات حتى جعلتها وفاة جدها مالكة لهذه الثروة؟

- بلى، ولم يُبدِ هذا الالتفات؟ وإذا لم يكن من المسموح له أن

يحظى بحبي؛ لأن المال يعوزني، فما الذي يدعوه للتودد إلى فتاة لا يعباؤها، وتضارعني في نفس الوقت فقراً؟

- ولكن من السماحة بمكان أن يوجه إليها انتباهه بمجرد هذه الواقعة.

- إن الرجل الذي يحيا في ظروف مؤسفة، لا يجد الوقت لإتباع كل مظاهر اللياقة التي قد يراعيها الآخرون. وإذا كانت هي لا تعترض على هذا، فلمَ نعترض نحن؟

- إن عدم اعتراضها لا يبرر سلوكه. فذلك لا يشير إلا إلى افتقارها لشيء ما، إما الإدراك أو الإحساس.

فصاحت إليزابيث قائلة:

- حسن، كما تشائين. سيكون في ظنك محباً للمال، أما هي فستكون حمقاء.

- لا يا ليزي، ليست هذه مشيئتي واختياري. فأنت تعلمين أنه لمما يؤسفني أن أسيء الظن بشاب عاش في «داربيشير» لمدة طويلة.

- لو كان هذا هو كل ما في الأمر، فإني لا أكن احتراماً كبيراً للشباب الذين يعيشون في «داربيشير»؛ وليس أصدقاؤهم المقربون الذين يقطنون «هارتفوردشير» بأحسن منهم حالاً. لقد ضقت بهم جميعاً. وشكراً لله إذ أشد في الغد رحالي إلى حيث أجد رجلاً لا يتمتع بخصلة واحدة لطيفة، ولا يتحلى بحسن السلوك أو سلامة الإدراك. إن الأغبياء من الرجال هم وحدهم من يستحقون معرفة الناس بهم.

- كوني على حذر يا ليزي، فهذا الكلام يوحي أشد الإيحاء بخيبة الأمل.

وقبل أن تفترقا مع انتهاء التمثيلية، حظيت بسعادة لم تكن تتوقعها، حين دُعيت لمصاحبة خالها وزوجته في سياحة للمتعة كانا يعتزمان القيام بها في فصل الصيف.

وقالت مسز جاردينر:

- إننا لم نحسم بعد أمرنا بشأن ما سنقطعه من مسافة في هذه الرحلة. بيد أننا قد نذهب إلى منطقة «البحيرات».

وما كان يمكن لـإليزابيث أن تجد مشروعاً أشد من هذا إثارةً للابتهاج، ووافقت على الدعوة مباشرةً وبامتنانٍ. وصاحت قائلة وقد تملكتها الفرحة الغامرة.

- يا خالتي العزيزة، أي فرحة، أي سعادة! إنكِ تمنحيني حياة و طاقة جديديتين. وداعاً لمشاعر الحقد وخيبة الأمل. ماذا يكون الرجال بالقياس إلى الصخور والجبال؟ يا لساعات نقضيها يستخفنا فيها الطرب! وإذا عدنا، فلن نتشبه بالآخرين من المسافرين الذين يعجزون عن إعطاء فكرة واحدة دقيقة عما رأوا. إننا سنعرف بالفعل أين كنا، وسنذكر بالتأكيد ما رأينا. إن البحيرات والجبال والأنهار لن تختلط في تصوراتنا، كما أننا إذا حاولنا وصف أي منظر بذاته، لن نبدأ في الشجار بشأن موقعه. لتكن أولى محاولاتنا لنشر ما نعرفه أشد استناداً إلى الحقيقة مما يذيعه السائحون.

الفصل الثامن والعشرون

كان كل شيء في رحلة اليوم التالي جديدًا وشيقًا في عيني إيزابيث. وكانت روحها مريحة؛ لأنها وجدت شقيقتها في خير حال، الأمر الذي أزال كل مخاوفها من ناحية صحتها، كما أن أملها في سياحتها في بقاع الشمال كان بمثابة مصدر للسعادة لا يغيض.

وعندما تركوا الطريق الرئيس وانعطفوا صوب «هنسفورد»، تعلق الأعين بالبحث عن الأبرشية، وتوقع الجميع ظهورها في أي منعطف في الطريق. وكان السياج المحيط «بروزينجز بارك» بمثابة حدودهم على أحد الجانبين. وابتسمت إيزابيث حين تذكرت كل ما سمعته عن قاطنيه.

وأخيرًا بدت الأبرشية للعيان. فالحديقة المنحدرة إلى الطريق، والبيت القائم في وسطها، والسياج الأخضر والسور المجلل بنبات الغار، كل ذلك أوحى باقترابهم من المكان. وظهر مستر كولنز وشارلوت على عتبة الباب، وتوقفت العربّة عند البوابة الصغيرة التي كانت تربط البيت بممشى قصير مفروش بالحصى، بينما كان الجميع يلوحون ويبتسمون. ولم تمض لحظة حتى خرجوا من العربّة، وتهلل

الجميع لرؤية بعضهم بعضًا. ورحبت مسز كولنز بصديقتها بسعادة غامرة، واستشعرت إليزابيث المزيد من الرضى لقدومها عندما وجدت نفسها وقد استقبلت بمثل هذه المودة. وأدركت في التو أن طباع ابن عمها لم تتغير بعد زواجه، فما زالت مجاملاته الرسمية على عهدا. وعوقها لبضع دقائق عند البوابة ليستفسر منها عن أفراد أسرتها جميعًا وليسمع منها ما يرضيه من إجاباتها. ثم اقتيدوا إلى داخل المنزل دون أن يعطلهم إلا الاستماع لما أشار إليه من أناقة المدخل. وما إن دخلوا إلى الردهة حتى رحب بهم للمرة الثانية بكلفة متباهية في مسكنه المتواضع. وكرر في الوقت المناسب دعوتهم لتناول كل ما عرضته عليهم زوجته من المرطبات.

وتهيأت إليزابيث لرؤيته في كل مجده، ولم تملك إلا أن تتخيل وهي تستمع إلى امتداحه لما بالحجرة من تناسب جميل، ولمظهرها العام، ولأثاثها، أنه كان يوجه حديثه إليها بالذات، كما لو كان يود أن يشعرها بما فقدته برفضها إياه. ولكن رغم أن كل شيء قد بدا أنيقًا ومريحًا، لم تستطع أن ترضي مشاعره بأي علامة من علامات الندم؛ بل ونظرت إلى صديقتها متعجبة مما تحس به من مرح برفقة هذا الرجل. وعندما كان مستر كولنز يقول شيئًا يحق لزوجته أن تخجل منه - وهو أمر كان كثير الحدوث - كانت إليزابيث تستدير بعينها لا إراديًا إلى شارلوت. وتبينت في مرة أو مرتين أن وجهها قد شابه احمرار خفيف، ولكن شارلوت كانت بوجه العموم من الحكمة بحيث لم تكن تسمع ما يقال. وبعد أن جلسوا لمدة طويلة تكفي لإبداء إعجابهم بكل قطع

الأثاث في الحجرة، ابتداء من صوان الأواني حتى حاجز نار المدفأة، ولإعطاء تقرير عن رحلتهم وعن كل ما جرى في لندن، دعاهم مستر كولنز لنزهة في الحديقة التي كانت شاسعة وجميلة الترتيب، والتي كان يشرف بنفسه على زراعتها. ولقد كان عمله في حديقته أحد مباهجه الموقرة، وأعجبت إليزابيث بما فرضته شارلوت من سيطرة على ملامح وجهها وهي تتحدث عن فائدة هذا العمل للصحة، وتقر بأنها تشجع عليه بقدر إمكانها. وإذ مضى يقود خطاهم خلال كل ممشى ومنعطف، أخذ يوضح لهم كل ما تقع عليه أبصارهم بدقة متناهية حجت ملامح الجمال، ودون حتى أن يمهلهم فسحة من الوقت للنطق بكلمات المديح التي أخذ يطالبهم بها. فقد كان في استطاعته أن يحصي الحقول في كل اتجاه وأن يحدد عدد الأشجار في أبعد الأدغال عن الأنظار. إلا أن كل المناظر التي يمكن لحديقته أو للريف كله أو للمملكة بأكملها أن تفاخر بها، لم تكن شيئاً يُذكر بالمقارنة ببهاء منظر «روزينجز» الذي تبدى للأعين خلال فجوة بين أشجار تحد الحديقة التي كانت قائمة في مواجهة بيته تقريباً، لقد كان بيتاً حديث الطراز أنيقاً، أحسن تشييده على هضبة مرتفعة.

وكان مستر كولنز يستطيع أن يقودهم من داخل حديقته إلى مرعيه، ولكن لما كانت السيدات غير مستعدات بأحذية مناسبة تواجهن بها ما تبقى على الأرض من جليد، فقد قفلن راجعات. وبينما مضى سير وليم معه، صحبت شارلوت شقيقتها وصديقتها إلى البيت وهي من السعادة في غاية؛ ربما لأن الفرصة قد أُتيحت لها لإطلاعهما عليه دون عون

من زوجها. وكان البيت صغير الحجم نوعاً، ولكنه حسن البناء تتوفر فيه وسائل الراحة. وكان كل شيء موضوعاً في مكانه ومرتباً بأناقة واتساق، الأمر الذي استحقت شارلوت عليه تقدير إليزابيث. وكلما أمكن للذهن أن ينسى مستر كولنز، ظهر حقاً جو عظيم من الراحة في كل مكان. وكان استمتاع شارلوت الواضح بهذا الجو سبباً في أن تفترض إليزابيث حتمية انضواء صاحب البيت في طيات النسيان في كثير من الأحيان.

وكانت قد علمت من قبل أن ليدي كاثرين ما زالت في الريف. وتطرق الحديث إلى نفس الموضوع أثناء اجتماعهم على مائدة الطعام حين شارك مستر كولنز في الحديث قائلاً:

- نعم يا مس إليزابيث، فسيكون لك الشرف لرؤية ليدي كاثرين دي بورو يوم الأحد القادم في الكنيسة، ولست بحاجة إلى القول إنك ستسعدين لمرآها. فهي مثال للطف المعشر والتواضع، ولست أشك في أنك ستتشرفين بشطر من اهتمامها عندما تنتهي الصلاة. وإنني لا أكاد أستشعر أي تردد في القول بأنها سوف تشملك أنت وأخت زوجتي ماريا في كل الدعوات التي تشرفنا بها خلال إقامتك هنا. إنها تسلك مع عزيزتي شارلوت سلوكاً ساحراً. فنحن نتناول الغداء في «روزينجز» مرتين كل أسبوع، ولا يسمح لنا أبداً أن نعود مترجلين، فذائماً ما تصدر ليدي كاثرين أوامرها بإعداد العربة لنا. ومن الأنسب أن أقول إحدى عربات سيادتها، فلديها الكثير.

وأضافت شارلوت قائلة:

- الحق أن ليدي كاثرين امرأة محترمة وعاقلة جدًا، كما أنها جارة شديدة الحذب على جيرانها.

- صحيح تمامًا يا عزيزتي، هذا هو بالضبط ما أقوله. إنها امرأة لا يملك المرء إلا أن ينظر إليها باحترام كبير.

وانقضى معظم المساء في الحديث عن أنباء «هارتفوردشير»، وإعادة رواية ما كان قد كُتب بالفعل في الخطابات. وعندما انفضّ الجمع، أخذت إليزابيث -وهي منفردة بنفسها في حجرتها- تمنع فكرها في مقدار السعادة التي كانت تنعم بها شارلوت، حتى تفهم طريقة حديثها التي تستهدف توجيه زوجها، وهدوء بالها في احتماله، ولتقر في النهاية أن الأمور كلها كانت تسير على ما يرام. وكان عليها كذلك أن تفكر في كيفية انقضاء فترة زيارتها، وفي السياق الهادئ الذي تجري فيه مشاغلها العادية، وأحاديث مستر كولنز المربكة التي كان يقاطع بها كلام الناس، والمباهج المقترنة بصلتهما «بروزينجز» واستشفت كل هذه الأمور بخيالها الحي المنطلق.

وفي حوالي منتصف اليوم التالي، وبينما كانت في حجرتها تستعد لنزهة سيرًا على الأقدام، سمعت في الطابق الأرضي جلبة مفاجئة، وكأن البيت كله قد انغمس في حالة من الفوضى. وبعد أن أصاحت السمع للحظة من الزمن، تناهى إلى أذنيها صوت قدمين ترقيان في الدرج عدواً في سرعة فائقة، كما سمعت شخصاً ينادي عليها بصوت عالٍ. وفتحت الباب، والتقت على قرص الدرج بماريا التي صاحت قائلة وهي تلهث بفعل الاضطراب:

- يا عزيزتي إيزا، أسرعى بالله عليكِ وتعالى إلى حجرة الطعام،
فهناك منظر يستحق الرؤية! لن أقول لكِ ما هناك. أسرعى وتعالى حالاً.

ووجهت إيزابيث إليها الأسئلة دون فائدة، فقد رفضت ماري أن
تضيف جديداً. وجريا معاً إلى حجرة الطعام التي كانت تواجه الممشى،
متلهفتين على رؤية هذه الأعجوبة. وعند بوابة الحديقة كانت تقف
مركبة مكشوفة بداخلها سيدتان. وصاحت إيزابيث قائلة:

- أهذا كل شيء؟ لقد توقعت على أقل تقدير أن تكون الخنازير قد
انطلقت في الحديقة، فإذا بي لا أرى إلا ليدي كاثرين وابنتها!
فقالت ماري وقد أُصيبت بصدمة شديدة لهذه الغلطة:

- ما هذا يا عزيزتي! ليست هذه ليدي كاثرين. إن السيدة العجوز
هي مسز جينكينسون التي تعيش معهما؛ أما الأخرى فهي مس دي بورو.
انظري فقط إليها. إنها مخلوق ضئيل الحجم جداً! مَنْ كان يظن أنها
على مثل هذه النحافة والضآلة!

- إنها لشديدة الوقاحة إذ تستبقي شارلوت خارج منزلها في هذا
الجو البارد. لماذا لا تدخل؟

- تقول شارلوت إنها لا تدخل هنا إلا لماماً. إن دخول مس دي
بورو إلى هذا البيت يُعتبر أعظم منّة على الإطلاق.

وقالت إيزابيث وقد خطرت لها أفكار أخرى:

- إنني أحب منظرها، فهي تبدو علية متجهمة الملامح. أجل
ستصلح له تماماً، إنها ستصبح زوجة مناسبة له فعلاً.

وكان مستر كولنز وشارلوت واقفين معًا عند البوابة يتبادلان مع السيدتين أطراف الحديث. أما سير وليم فقد سرى عن إليزابيث كثيرًا بوقوفه عند باب البيت يفكر بجدية في الجلال المائل أمامه، وبانحنائه كلما نظرت مس دي بورو ناحيته.

وانتهى الحديث أخيرًا، وانطلقت السيدتان في مركبتهما، بينما عاد الآخرون إلى البيت. ولم يكد مستر كولنز يرى الفتاتين حتى بدأ يهنئهما على حظهما السعيد، الأمر الذي شرحته شارلوت بإطلاعهما على خبر دعوة الجماعة كلها لتناول طعام الغداء في «روزينجز» في اليوم التالي.



الفصل التاسع والعشرون

شعر مستر كولنز، نتيجة لهذه الدعوة، بأنه حقق انتصارًا كاملاً. فقد كان يرغب بالدقة في أن تتاح له الفرصة لأن ييسط أمام أنظار زواره المشدوهين عظمة راعيته، وأن يطلعهم على رقتها في معاملته هو وزوجته. وأن تنهياً له مثل هذه المناسبة بمثل هذه السرعة لهو مثال على تفضل ليدي كاثرين بشكل لم يَدِرْ معه كيف يبدي إعجابه به. وقال:

- أقر بأنني ما كان يمكن أن أدهش على الإطلاق لو أن سيادتها قد دعتنا يوم الأحد لتناول الشاي وقضاء المساء في «روزينجز». بل إنني توقعت أن يحدث هذا، على أساس معرفتي بلطف شمائلها. ولكن مَنْ كان يمكن أن يتنبأ بلفتة مثل هذه؟ مَنْ كان يمكن أن يتصور أن نتلقي دعوة للغداء هناك - وهي فضلاً عن ذلك دعوة للجماعة كلها - بمجرد وصولكم؟

وأجاب سير وليم قائلاً:

- إنني أقل منك دهشة لما قد جرى بسبب معرفتي بطباع العظماء من الناس، وهو ما توصلت إليه نتيجة لمركزي في الحياة. ففي دوائر البلاط تكثر مثل هذه الأمثلة الدالة على كرم المحتد.

وانقطع الجميع أو كادوا للحديث عن زيارتهم «لروزينجز» طوال ذلك اليوم وصباح اليوم التالي. وكان مستر كولنز يطلعهم بعناية على ما ينتظرهم حتى لا يرهبهم منظر تلك الحجرات، والخدم الكثيرين والغداء الفاخر.

وقالت إليزابيث عندما شرعت السيدات تنسجن للتزين والاستعداد:

- لا تشغلي بالك يا ابنة عمي العزيزة بملابسك، فليدي كاثرين أبعد من أن تشترط فينا أناقة الملابس التي تليق بشخصها وبابنتها. ولست أنصحك إلا بأن ترتدي أفضل ملابسك، وليس هناك داعٍ لشيء آخر. إن ليدي كاثرين لن تسيء الظن بك بسبب ملابسك البسيطة؛ فهي تحب الاحتفاظ بالفروق الكائنة بين مختلف المراتب الاجتماعية.

وبينما كن يرتدين ملابسهن جاء مرتين أو ثلاث مرات واتخذ موقفه قرب أبواب غرفهن المختلفة ليوصيهن بالإسراع، حيث إن ليدي كاثرين تعترض تمامًا على تعطيلها عن موعد تناول غداها. وقد أدت هذه الحكايات المهيبة عن سيادتها وعن أسلوب معيشتها إلى بث الرعب في قلب ماريا لوكاس التي لم تكن معتادة تمامًا على صحبة الناس. وتطلعت إلى لحظة تقديمها في «روزينجز» برهبة شديدة مشابهة لما أحس به والدها عند مثوله في قصر سانت جيمز.

ولما كان الجو رائعًا، فقد قطعوا مسيرة لطيفة على الأقدام لمسافة تقدر بحوالي نصف ميل عبر الحديقة. وكان لكل حديقة جمالها ومناظرها البهيجة؛ ومن ثم رأت إليزابيث الكثير مما شرح صدرها، رغم أنها لم تستطع أن تبدي الفرح الغامر الذي توقع مستر كولنز أن

يشير المنظر في نفسها. كذلك فلم تتأثر إلا في القليل بتعداده للنوافذ في واجهة البيت، وبما حكاها عن المبلغ الأصلي الذي دفعه سير لويس دي بورو لقاء طلاء هذه النوافذ.

وعندما كانوا يرقون في الدرج متجهين إلى القاعة، تزايد انزعاج ماريا لحظة بلحظة، بل إن سير وليم نفسه لم يكن ساكن الجنان تمامًا. أما إليزابيث فلم تخنها شجاعتها. فلم تكن قد سمعت عن ليدي كاثرين ما يوحي بأنها امرأة غير عادية من حيث تمتعها بمواهب خارقة أو فضائل عجيبة. أما فيما يختص بالأبهة التي تنشأ عن الثروة الطائلة والجاه العظيم، فقد رأت أنها تستطيع أن تواجهها دون روع.

وبعد أن دلفوا إلى القاعة الأمامية التي نوه مستر كولنز -وقد استخفه الطرب- بنسبها الرائعة وزخارفها المتقنة، تبعوا الخدم مارين بغرفة توصل إلى الحجرة التي كانت تجلس فيها ليدي كاثرين وابنتها ومسر جينكينسون. ونهضت سيادتها بتفضل عظيم لاستقبالهم. ولما كانت مسز كولنز قد رتبت الأمر مع زوجها على أن تختص هي بمهمة التعارف، فقد تم هذا على نحو لائق دون أي من تلك الاعتذارات والتشكرات التي كان يعتبرها واجبة.

ورغم أن سير وليم كان قد مثل من قبل في قصر سانت جيمز، إلا أن الرهبة قد تولته تمامًا بتأثير الجلال الذي يحيط به لدرجة أنه لم يستشعر في نفسه من الشجاعة إلا بما يسمح له أن ينحني انحناء كبيرة، وأن يحتل مقعده دون أن ينطق بحرف. أما ابنته فقد جلست على حافة مقعدها -وقد ذهب الرعب بعقلها أو كاد- دون أن تعرف إلى أين

توجه بصرها. ووجدت إليزابيث نفسها في مستوى المشهد الذي تراه، واستطاعت أن ترقب السيدات الثلاث أمامها بمنتهى الهدوء. وكانت ليدي كاثرين امرأة فارعة ضخمة ذات ملامح محددة ربما كانت في يوم ما توحى بالوسامة. ولم يكن في مظهرها ما يرفع الكلفة، كما لم يكن في سلوكها عند استقبالهم ما ينسي زائريها ضالة شأنهم. أما مهابتها فلم تكن ناتجة عن التزامها الصمت، بل إن كل ما كانت تقوله كانت تلفظ به بلهجة باتّة، الأمر الذي أوحى بما تستشعره من أهمية شخصها، والذي سرعان ما ذكر إليزابيث بمستر ويكهام. ولقد توصلت إليزابيث من واقع ملاحظاتها طوال اليوم إلى أن شخصية ليدي كاثرين إنما تُعتبر نموذجًا صادقًا لصورته عنها.

وبعد أن تفحصت الأم التي سريعًا ما اكتشفت في وجهها ومسلكتها بعض الشبه بمستر دارسي، حولت نظرها إلى ابنتها، وعند ذاك شعرت بأنها تشارك ماريا في دهشتها لنحافتها الشديدة وضالة جسمها. ولم يكن بين السيدتين أي شبه في القوام أو في الوجه. فقد كانت مس دي بورو شاحبة عليلة، أما ملامحها فلم يكن فيها ما يميزها رغم أنها لم تكن عاطلة من الجمال. وكانت شحيحة في حديثها، إلا ما كانت تهمس به لمسز جينكينسون في صوت خفيض. ولم يكن في مظهر مسز جينكينسون شيء مميز. وكانت منهمكة كلية في الإنصات لما كانت مس دي بورو تقوله بينما أخذت تخطط ستارة أمسكت بها في وضع مناسب أمام عينيها. وكان الغداء فاخرًا إلى حد كبير. ووجد الجميع كل ما وعدهم به مستر كولنز من خدم كثيرين وأصناف متعددة. كذلك فقد اتخذ مجلسه

- كما تنبأ من قبل - عند الطرف الآخر من المائدة تلبية لمشية سيادتها، وبدا عليه وكأنه شعر بأن الحياة إنما تعجز عن تزويده بأعظم من هذا. وقطع وأكل وأغدق الثناء باغتياب، وامتدح كل طبق بنفسه أولاً، وحذا حذوه سير ولیم الذي كان قد استرد أنفاسه بشكل يسمح له بترديد كل ما كان صهره يقوله؛ وتم كل ذلك بأسلوب تعجبت إليزابيث لقدرة ليدي كاثرين على احتماله. ولكن ليدي كاثرين بدت راضية النفس بإعجابهما المفرط، وابتسمت على نحو لطيف للغاية، خصوصاً عندما كانت تجد أن أي طبق على المائدة كان بالنسبة لهما شيئاً جديداً. ولم يَدُرْ بين أفراد الجماعة حديث كثير. وقد كانت إليزابيث مستعدة للحديث متى طرح للنقاش أي موضوع، ولكنها كانت تجلس بين شارلوت من ناحية ومس دي بورو من ناحية أخرى. وكانت الأولى منهمكة في الإنصات لحديث ليدي كاثرين، أما الثانية فلم تُوجَّهْ إليها كلمة واحدة طوال الغداء. واهتمت مسز جينكينسون أساساً بملاحظة قلة ما كانت مس دي بورو تصيبه من طعام. وبالإلحاح عليها لتجربة طبق آخر، وبإبداء خوفها لثلاث تكون متوعة قليلاً. أما ماريا فقد اعتبرت الحديث على المائدة أمراً غير ممكن بحال، بينما اقتصر الرجلان على تناول الطعام وإبداء إعجابهما بما يأكلان.

وعندما عادت السيدات إلى حجرة الاستقبال، لم يكن أمامهن إلا الاستماع لحديث ليدي كاثرين الذي استمرت فيه دون انقطاع حتى قدمت القهوة. وقد عبرت عن رأيها في كل موضوع بطريقة حاسمة أثبتت أنها لم تألف أن يعارض أحكامها أحد. واستقصت عن شؤون شارلوت

المنزلية بألفة وبدقة، وقدمت لها نصائح كثيرة فيما يختص بمباشرة هذه الشؤون، وأخبرتها بضرورة تنظيم كل الأمور في أسرة صغيرة كأسرتها، وأرشدتها لكيفية العناية بأبقارها وطيورها. وأدركت إليزابيث أنه ما من شيء تافه أثار انتباه هذه السيدة العظيمة إلا وزودها بفرصة تملي فيها رأيها على الآخرين. وفي الفترات التي تخللت حديثها مع مسز كولنز، وجهت أسئلة متعددة لماريا وإليزابيث. واختصت إليزابيث بمعظم أسئلتها حيث إنها لم تكن تعرف عن أسرتها إلا القليل، وألمحت لمسز كولنز بأنها كانت فتاة على غاية من الرقة والجمال. وسألتها في مرات مختلفة عن عدد شقيقاتها، وعما إذا كن يكبرنها أو يصغرنها، وعن احتمال زواج أي منهن، وعن درجة ملاحظتهن، وعن المكان الذي تلقين فيه تعليمهن، وعن نوع العربة التي يمتلكها والدها، وعن اسم والدتها. وشعرت إليزابيث بكل ما في أسئلتها من وقاحة، ولكنها أجابت عليها بمتهى الهدوء. ومن ثم قالت ليدي كاثرين:

- إن ضيعة أبيك موقوفة على مستر كولنز فيما أظن؟

ثم استدارت إلى شارلوت قائلة:

- إنني سعيدة لأجلك بسبب هذا الأمر، ولو أنني لا أري سبباً لمنع الإناث من تملك الضياع. إن أسرة سير لويس دي بورو لم تر ضرورة لهذا. أتعرفين وتنشدين يا مس بينت؟

- قليلاً.

- إذن فسنسعد بسماعك في وقت ما. إن معزفنا من نوع عظيم، ولربما كان أرقى من... سوف تجربينه يومًا. أتعرف شقيقاتك ويغنين؟

- واحدة فقط منهم.

- لماذا لم تتعلمن جميعكن؟ كان يجب أن تتعلمن جميعاً. إن بنات مستر ويب يعزفن كلهن، بينما لا يحظى والدهن بنفس الدخل المرتفع الذي يمتلكه أبوك. أترسمن؟
- لا.

- ماذا؟ ولا واحدة منكن؟

- ولا واحدة؟

- هذا غريب جداً. ولكنني أعتقد أن الفرصة لم تتح لكُن. كان يجب على والدتك أن تصحبكن إلى لندن كل ربيع لتفدن من أساتذة هذا الفن.

- إن أمي لم تكن لتعرض على هذا، ولكن أبي يكره لندن.

- أتركتكن الحاضنة؟

- لم يكن عندنا أي حاضنة.

- ليس عندكن حاضنة. كيف يمكن هذا؟ خمس بنات يتعلمن في المنزل دون وجود حاضنة. لم أسمع من قبل بمثل هذا! لا بد أن والدتك قد استعبدت نفسها تماماً لتثقيفكن.

لم تستطع إليزابيث أن تمنع نفسها من الابتسام وهي تؤكد لها أن الحال كان على خلاف هذا.

- مَنْ إذن علمكن؟ مَنْ أشرف عليكن؟ لا بد أن الإهمال كان من نصيبكن دون حاضنة.

- أعتقد أننا - بالقياس إلى بعض الأسر - قد أهملنا بالفعل. ولكن كل مَنْ أرادت أن تتعلم لم تعوزها الوسيلة إلى ذلك. فقد كنا نلقي التشجيع على القراءة دائماً. وكان بين أيدينا كل ما يلزمنا من أساتذة. أما مَنْ شاءت أن تصرف وقتها عبثاً، فهي وشأنها.

- بلا شك، ولكن هذا هو بالضبط ما كان يمكن للحاضنة أن تحوّل دون وقوعه. ولو كنت على معرفة بوالدتك، لكنت قد نصحتها بحزم شديد باستخدام حاضنة. فمن رأيي دائماً أن من المحال تحقيق شيء في مجال التعليم دون تثقيف مطرد ومنتظم، ولا تستطيع أن تفعل ذلك إلا حاضنة. إنكِ لتدهشين كم من أسر زودتها بالحاضنات على هذا النحو. وإنني لأشعر بالسعادة دائماً عندما أنتقي لكل فتاة ما يناسبها من عمل. إن أربعمائة من بنات أخت مسز جينكينسون قد وجدن أماكن ممتازة نتيجة مسعاي. وبالأمس القريب فقط زكيت فتاة أخرى لم يذكر لي اسمها إلا عرضاً، ولقد اغتبطت بها الأسرة تماماً. هل أخبرتك يا مسز كولنز بزيارة ليدي ميتكاف لي بالأمس لتشكرني؟ لقد وجدت في مس بوب كنزاً ثميناً. لقد قالت لي: «إنكِ أعطيتني كنزاً يا ليدي كاثرين». هل خرجت أي من شقيقاتكِ الصغيرات إلى المجتمع يا مس بينت؟

- نعم يا سيدتي، كلهن.

- كلهن! ماذا، هل خرجت الخمس مرة واحدة؟ غريب جداً! وأنتِ لستِ إلا الثانية في الترتيب! لقد خرجت الصغيرات قبل أن تزوج الكبريات! لا بد أن تكون شقيقاتكِ صغيرات السن جداً.

- أجل، إن أصغر شقيقتي لم تبلغ السادسة عشرة بعد. وقد تكون هذه أصغر من أن تصلح لارتياح المجتمعات. ولكن الواقع يا سيدتي أن من القسوة حرمان الشقيقات الصغيرات من حقهن في مخالطة المجتمعات والتمتع بأسباب اللهو؛ ذلك لأن الكبريات قد لا تنهياً لهن فرص الزواج المبكر، أو قد لا تدفعهن إلى ذلك رغبة. إن آخر الذرية لها ما للبكر من حقوق في الاستمتاع بمباهج الشباب. أما أن يلزمن البيت بسبب هذا الدافع، فهذا غريب. لا أظن من المحتمل أن يدعم هذا الوضع المودة بين الأخوات، أو تهذيب أفكارهن.

فقلت سيادتها:

- والله إنكِ لتعبرين عن رأيك بشكل حاسم بما لا يتناسب مع فتاة صغيرة مثلك. كم عمرك بالله عليك؟

وأجابت إليزابيث قائلة وهي تبسم:

- إنكِ لا تتوقعين مني ولا شك أنا أصدقك القول في هذا، مع علمك بأن ثلاثاً من شقيقتي الصغيرات قد بلغن سن الشباب.

وبدت الدهشة الكاملة على ليدي كاثرين لعدم تلقيها إجابة مباشرة. وخيّل لإليزابيث أنها كانت أول من يجسر على الاستخفاف بمثل هذه المرأة السفهية المبجلة من الجميع.

- إني واثقة أنك لم تتخطي العشرين، فلا حاجة بك إذن إلى إخفاء سنك.

- لم أبلغ بعد الحادية والعشرين.

وبعد أن انضم السيدان إليهن وانتهى الجميع من تناول الشاي، أعدت موائد اللعب. واختارت ليدي كاثرين هي وسير وليم ومستر كولنز وزوجته لعبة «الكواديل». ولما كانت مس دي بورو تفضل لعبة «الكاسينو»، فقد حظيت الفتاتان بشرف الاشتراك مع مسز جينكينسون في تشكيل جماعة اللعب. وخيّمَت البلادة المتناهية على مائدتهن. فلم ينبس أحد بحرف إلا فيما تحتاجه اللعبة نفسها، باستثناء ما قالته مسز جينكينسون تعبيرًا عن مخاوفها من احتمال شعور مس دي بورو بالحرارة الشديدة أو البرد الشديد، أو من وقوعها في دائرة ضوء ساطع أو خاب. أما المائدة الأخرى فشهدت من الأحاديث أكثر من ذلك. فقد كانت ليدي كاثرين هي المتحدث على وجه العموم، تحدد تارة أخطاء الثلاثة الآخرين، وتقص تارة أخرى عن نفسها حكاية. واهتم مستر كولنز بالموافقة على كل ما كانت تقوله سيادتها، شاكرًا إياها على كل قشاط كسبه، ومعتذرًا لها إذا خيّل إليه أنه قد كسب أكثر من اللازم. ولم يتفوه سير وليم بكلام كثير؛ إذ كان يختزن في ذاكرته الأقايصيص والأسماء اللامعة.

وعندما لعبت ليدي كاثرين وابتنتها حتى اكتفيتا، انفضت المائدتان ودعيت مسز كولنز لاستخدام العربة. وقبلت الدعوة بامتنان، فأعدت العربة في الحال. ثم تحلقت الجماعة نار المدفأة لينصتوا إلى ما تقرره ليدي كاثرين بشأن الجو المنتظر في اليوم التالي. وبوصول العربة استدعي الزوار من وسط هذه الإرشادات، وغادروا المنزل وسط عبارات الشكر الجزيل من جانب مستر كولنز، والانحناءات الكثيرة من جانب سير

وليم. وما إن بعدت بهم العربة عن الباب، حتى طلب من إليزابيث على لسان ابن عمها أن تبدي رأيها في كل ما رآته في «روزينجز»، فعبرت عن هذا الرأي على نحوٍ يفضل الواقع، وذلك مراعاة لخاطر شارلوت. إلا أن مديحها لم يُرضِ مستر كولنز رغم ما كلفها من عناء، فلم يلبث أن اضطر إلى التصدي بنفسه لامتداح ليدي كاثرين.



الفصل الثلاثون

لم يُقِم سير وليم إلا أسبوعًا واحدًا في «هنسفورد»، ولكن زيارته كانت كافية لإقناعه بأن ابنته كانت تعيش في راحة تامة، وبأنها كانت تحظى بزواج وجارة لم يكن المرء ليلتقي بمثلهما كثيرًا. وأثناء الفترة التي قضاها سير وليم معهم، كان مستر كولنز يخصص الفترات الصباحية من أيام الزيارة لاصطحابه في مركبته للنزهة ولإطلاعه على معالم الريف. أما بعد أن رحل، فقد استأنفت الأسرة نشاطها المعتاد. وسُرَّت إليزابيث؛ لأن هذا التغيير لم يتسبب في كثرة ظهور ابن عمها بينهما، إذ كان يقضي الآن جل وقته ما بين الإفطار والغداء، إما في العمل في الحديقة أو في القراءة والكتابة وفي التطلع من نافذة مكتبته التي كانت تواجه الطريق. أما السيدات فكنَّ يجلسن في حجرة خلفية. وعجبت إليزابيث في أول الأمر بسبب عدم اختيار شارلوت لصالة الطعام لتكون موضع الاستخدام اليومي، خاصة وأنها كانت أرحب وأبهج نظرًا. ولكنها ما لبثت أن اكتشفت أن لصديقتها عذرًا وجيهاً فيما فعلت. فلو كن يقضين الوقت في حجرة تضارع حجرة مستر كولنز إشراقًا لما مكث في حجرته كثيرًا دون شك. ولهذا فقد سلمت لشارلوت بحسن ترتيبها في هذا الأمر.

وما كان في إمكانهما أن تتبينا في الطريق شيئاً وهما جالستان في حجرة الاستقبال، ولذلك فقد كانتا مدينتين لمستر كولنز بسبب ما كان يمدهما به من معلومات عن العربات التي كانت تعبر الطريق، وعن المرات الكثيرة التي كانت مس دي بورو على وجه الخصوص تظهر فيها داخل مركبتها المكشوفة، وهي فرص لم يكن يدعها تمر دون أن يأتي لإخبارهما بها، رغم أن ذلك كان يحدث كل يوم تقريباً. وكثيراً ما كانت تتوقف عند بيت راعي الكنيسة، وتبادل الحديث مع شارلوت لبضع دقائق، ولكنها لم تكن لتقبل أبداً أن تغادر المركبة.

وكان مستر كولنز يذهب إلى «روزينجز» بين يوم وآخر، كذلك لم تكن تمر بضعة أيام دون أن تشعر زوجته بضرورة الذهاب بنفسها. ولم تكن إليزابيث تفهم مغزى التضحية بكل هذا الوقت إلا عندما تذكرت احتمال وجود اعتبارات أخرى متعلقة بمعاش الأسرة تستلزم مراعاتها على نحو ما. وبين الحين والآخر كانت الأسرة تتشرف بزيارة من جانب سيادتها. وخلال هذه الزيارات لم يكن ما يجري في داخل الحجرة ليخفى عليها. فقد كانت تتفحص ما كن يقمن به من أعمال، وتنعم النظر في أشغالهن وتنصحهن بأدائها على نحو مختلف، كما كانت تنتقد ترتيب الأثاث أو تضبط الخادمة متلبسة بالإهمال. وإذا ما قبلت تناول أي شيء، فلم تكن لتفعل ذلك فيما يبدو إلا بغرض اكتشاف أن شرائح اللحم التي كانت مسز كولنز تقدمها كانت أكبر من أن تناسب وضع أسرتها.

ولم تلبث إليزابيث أن أحست أن هذه السيدة العظيمة - رغم عدم تكليفها بمهمة الإشراف على الأمن في المقاطعة - كانت قاضية شديدة النشاط في نطاق دائرتها التي كانت أدق التفاصيل فيها تبلغ علمها عن طريق مستر كولنز. ومتى بدا على بعض القرويين نزوع إلى الشغب أو شعور بالسخط أو العوز، سارعت إلى القرية لإنهاء خلافاتهم ووضع حد لشكاواهم، وزجرهم حتى يعودوا إلى ما كانوا فيه من صفاء وإحساس بالرخاء.

وكانت متعة الغداء في «روزينجر» تتكرر في الأسبوع مرتين تقريبًا. وباستثناء غياب سير وليم، ومع وجود مائدة واحدة للعب عند حلول المساء. فقد كانت كل أسباب التسلية نسخة متقنة من سابقتها. أما ارتباطاتهم الأخرى فكانت قليلة، حيث إن أساليب العيش في البيوت المجاورة كانت أرفع من مستوى معيشة أسرة كولنز. ومع ذلك فلم يكن في هذا ما يضير إليزابيث، فقد كانت بصفة عامة تقضي وقتها في راحة تامة. وكثيرًا ما كانت تتبادل الأحاديث الشائقة مع شارلوت في جلسات تستمر كل منها حوالي نصف ساعة، كما كان الجو في ذلك الوقت من العام صافيًا بحيث استمتعت أكثر من مرة بنزهات في الهواء الطلق. وكانت نزهتها المفضلة أثناء وجود الزوجين في زيارة ليدي كاثرين هي السير بمحاذاة الغابة الصغيرة التي كانت تحف بجانب الحديقة حيث يوجد ممر لطيف مستور عن الأنظار، لم يكن أحد غيرها يقدره فيما يبدو حق قدره. وهناك كانت تشعر بأنها أبعد من أن يصلها فضول ليدي كاثرين.

وعلى هذا النحو الهادئ انقضى أول أسبوعين من زيارتها. وكان موعد عيد الفصح يقترب، وأصبح من المقرر أن يصاحب الأسبوع السابق عليه وصول وجه جديد ينضم إلى أسرة «روزينجز»، وهو حدث يُعتبر من الأهمية في مثل تلك الدائرة الضيقة. فقد سمعت إليزابيث، بعد وصولها بقليل، أن زيارة مستر دارسي لذلك البيت كانت أمرًا متوقعًا في خلال بضعة أسابيع. ورغم أن الذين لم تكن تفضل صحبتهم من معارفها كانوا قلة، فقد كان في مجيئه ما يمكن أن يزودها بنموذج جديد نسبيًا تتأمله في إطار الحفلات التي تقام في «روزينجز». ولربما استمعت بما تشاهده من إحباط مشروعات مس بينجلي بشأنه، من واقع سلوكه مع ابنة خالته التي كانت ليدي كاثرين تختصه بها بمنتهى الوضوح. وكانت ليدي كاثرين تتحدث عن مجيئه بأعظم الرضى، وتشير إليه بأشد الإعجاب، كما بدا عليها شيء من الغضب عندما علمت أن إليزابيث ومس لوكاس قد رأياه بالفعل أكثر من مرة.

ولم يلبث أن عرف الجميع في بيت الكاهن بوصوله، حيث إن مستر كولنز قضى الصباح كله يذرع المنطقة التي تستشرف المساكن المطلة على درب «هنسفورد» حتى يتسنى له أن يتأكد من وقوع هذا الحدث في وقت مبكر. وبعد أن انحنى والعربة تستدير لتدلف إلى الحديقة، هرول عائدًا إلى البيت يحمل النبأ العظيم. وفي صباح اليوم التالي أسرع إلى «روزينجز» ليقدم احتراماته. وهناك وجد أن من واجبه تقديم هذه الاحترامات إلى اثنين من أبناء شقيقة وشقيق ليدي كاثرين، فقد اصطحب مستر دارسي معه رجلًا باسم كولونيل فيتز وليم، وهو

الابن الأصغر لخاله لورد... واستولت الدهشة العظيمة على أفراد الأسرة عندما عاد مستر كولنز مصحوبًا بالرجلين معًا. ورأتهم شارلوت من نافذة حجرة زوجها وهم يعبرون الطريق، فأسرعت إلى الحجرة الأخرى وأخبرت الفتاتين بما ينتظرهما من شرف عظيم. وأضافت قائلة:

– لك شكري يا إيزا على ما سأحظى به من لفتة كريمة. فلولاكِ لما كان مستر دارسي قد أسرع بالحضور لزيارتي.

ولم تكذب إيزابيث تجد الوقت لتعلن تنصلها من كل حق لها في هذا الشأن، حتى أعلن جرس الباب قدومهم، وبعدها بقليل دلف الرجال الثلاثة إلى الحجرة. وكان كولونيل فيتز وليم الذي سار في المقدمة رجلًا في حوالي الثلاثين من عمره، ليس وسيماً، وإن بدا من هيئته وطريقة حديثه ما يقطع بأنه إنسان مهذب. ولم يُبَدَّ على مستر دارسي أي تغيير عما كان عليه في «هارتفوردشير»، وحيثما كان مستر كولنز بتحفظه المعهود. ومهما كانت مشاعره تجاه صديقتها فقد التقى بها وهو متمالك النفس تمامًا. وحيثه إيزابيث بانحناءة دون أن تنبس بكلمة.

وانغمس كولونيل فيتز وليم مباشرة في الحديث مدفوعًا بما فكر عليه كل رجل حسن التربية من سلاسة طبع وعدم تكلف. وتحدث بطلاوة. أما ابن عمته فقد مضى عليه بعض الوقت وهو جالس دون أن يوجه الحديث إلى أحد، بعد أن كان قد وجه لمسز كولنز ملاحظة عابرة عن البيت والحديقة. إلا أن أدبه قد استيقظ آخر الأمر من سباته،

فاستفسر من إيزابيث عن صحة أفراد أسرتها. وأجابته بطريقتها المعتادة، ثم أضافت قائلة بعد فترة صمت قصيرة:

- إن أختي الكبرى تقيم في لندن منذ ثلاثة شهور. ألم يحدث أن قابلتها هناك أبدًا؟

وكانت تدرك تمامًا أنه لم يلتقِ بها، ولكنها أرادت أن تتبين ما إذا كان وجهه سيوحي بعلمه بما جرى بين جين وشقيقتي مستر بينجلي. وخُيِّلَ إليها أنه اضطرب إلى حد ما وهو يرد بأن الحظ لم يسعده بمقابلة مس بينت. ولم يضيف أي منهما إلى الموضوع جديدًا، ولم يلبث الرجلان بعد هذا أن غادرا المنزل.



الفصل العاوي والثلاثون

كانت أخلاق كولونيل فيتز وليم موضع احترام كبير في بيت راعي الكنيسة، وشعرت السيدات جميعًا بأن وجوده سيكون إضافة قيمة للمتعة التي يلقينها في «روزينجز». ومع هذا فقد مضت بضعة أيام قبل أن تصلهن أي دعوة للذهاب إلى هناك، إذ طالما كان بالبيت زوار لم يكن لوجودهم لزوم. ولذلك فلم يتشرفوا بمثل هذه اللفتة الكريمة إلا في يوم عيد الفصح، أي بعد مضي أسبوع تقريبًا على وصول السيدين. ولم تتعد الدعوة عند ذاك مجرد دعوتهم - وهم يهيمون بمغادرة الكنيسة - للذهاب إلى هناك في المساء. وطوال الأسبوع الأخير لم يكونوا قد رأوا ليدي كاثرين أو ابنتها إلا فيما ندر. أما كولونيل فيتز وليم فقد زار بيت الكاهن أكثر من مرة خلال تلك الفترة، ولكن مستر دارسي لم يظهر إلا في الكنيسة.

وقُبلت الدعوة بالطبع، وانضموا في الوقت المناسب إلى الصحبة المجتمعة في حجرة الاستقبال في بيت ليدي كاثرين. واستقبلتهم سيادتها في أدب، وإن بدا واضحًا أن وجودهم لم يحُز نفس الرضى الذي كان يمكن أن يحوزه لو لم يكن هناك أمامها غيرهم. والحق أنها كانت منهمكة أعظم الانهماك مع ابن أختها وابن أخيها، وكانت

تتحدث إليهما -والى دارسي على وجه الخصوص -أكثر مما كانت تتحدث إلى أي شخص آخر في الحجرة.

وظهرت على كولونيل فيتز وليم معالم السعادة الحقيقية لرؤيتهم، فقد كان أي شيء من قبيل التفريج يعتبر موضع ترحيب في «روزينجز». وفضلاً عن ذلك فقد شدت صديقة مسز كولنز الفاتنة انتباهه إلى حد كبير. واتخذ مجلسه إلى جوارها وأخذ يتحدث حديثاً رشيقياً عن «كنت» و«هارتفوردشير»، وعن السفر والتزام المنزل، وعن الكتب الجديدة والموسيقى لدرجة شعرت معها إليزابيث أنها لم تَلَقْ نصف هذه المتعة من قبل في تلك الحجرة. وتبادلا الحديث بمرح واسترسال أدى إلى شد انتباه ليدي كاثرين نفسها، بالإضافة إلى انتباه مستر دارسي. فلم تلبث عيناه أن اتجهتا -ولأكثر من مرة- إليهما، بنظرة يشيع فيها الفضول. كذلك شاركته سيادتها هذا الشعور بعد فترة، وبأن هذا بوضوح حين لم تتحرج من أن تهتف قائلة:

- ماذا تقول يا فيتز وليم؟ عَمَّ تتحدث؟ ما الذي تقصه على مس بينت؟ دعني أسمع ما تقول.

فقال بعد أن لم يعد قادراً على تحاشي الإجابة:

- نحن يا سيدتي نتحدث في الموسيقى.

- في الموسيقى! إِدَنْ فارفع صوتك بالله عليك. إنها أشد الموضوعات إثارة لشغفي. لا بد أن يكون لي نصيبي في الحديث ما دمتما تتحدثان عن الموسيقى. مبلغ ظني أن إنجلترا كلها لا تضم إلا قلة قليلة من الناس ممن يفوقوني في الاستماع الحقيقي بالموسيقى، أو

في التمتع بذوق طبيعي أرقى. ولو كان قد قُيِّض لي أن أتعلم هذا الفن، لكنت قد صرت نابغة عظيمة. وينسحب هذا القول على آن، لو كانت صحتها قد سمحت لها بالدأب والتحصيل. إني واثقة من أنها كانت تستطيع العزف بروعة. ما مدى تقدم جورجيانا يا دارسي؟

وتحدث دارسي حديث الثناء الحنون عن براعة شقيقته.

وقالت ليدي كاثرين:

- إني لشديدة السعادة لسماعي هذه الأنباء الطيبة عنها. وأرجوك أن تقول لها على لساني إنها لا يمكن أن تتوقع التفوق في هذا الفن إذا لم تتدرب طويلاً.

فأجابها قائلاً:

- كوني على ثقة يا سيدتي أنها ليست بحاجة إلى هذه النصيحة، فهي تتدرب دون انقطاع.

- هذا أفضل كثيرًا، فهو أمر لا يحدث في العادة؛ ولسوف أنبه عليها عندما أكتب لها في المرة القادمة ألا تهمل مرانها لأي سبب من الأسباب. إني كثيرًا ما أقول للفتيات إن تحقيق التفوق في الموسيقى لا يمكن أن يتم دون مران دائم. ولقد قلت لمس بينت مرارًا إنها لن تستطيع إتقان العزف إلا إذا ضاعفت من تدريبها. ورغم أن مسز كولنز لا تمتلك معزفًا إلا أنها ستكون - كما قلت لها كثيرًا - موضع ترحيب كبير إذا جاءت إلى «روزينجز» يوميًا واستخدمت المعزف في حجرة مسز جينكينسون. إنها لن تسبب لأحد إزعاجًا وهي في تلك الناحية من البيت.

وشعر مستر دارسي بالخجل إلى حد ما بسبب ما أظهرته خالته من ملامح سوء التربية، ولم يحر جواباً.

ولما فرغ الجميع من تناول القهوة، ذكر كولونيل فيتز وليم إليزابيث بوعدها أن تعزف له، فقامت وجلست إلى المعزف مباشرة. وشد مقعداً وجلس بجوارها. وأنصت ليدي كاثرين إلى نصف الأغنية، ثم أخذت تتحدث إلى ابن أختها - كما كانت تفعل من قبل - إلى أن ابتعد عنها. وتحرك بما فطر عليه من ترو صوب المعزف، واتخذ موقفه بحيث يتمكن من رؤية وجه العازفة الجميلة. ولاحظته إليزابيث، فانتهزت فرصة إحدى الوقفات المناسبة والتفت إليه قائلة وعلى شفيتها ابتسامة مأكرة:

- إنك تقصد تخويني يا مستر دارسي بمجيئك لسماعي وأنت في مثل هذا الوضع المهيّب. ولكنني لن أنزعج رغم أن شقيقتك تعزف ببراعة فائقة. ففي شخصيتي عناد لا يجزع إرضاء لرغبة الآخرين. إن شجاعتني تتعاضد دائماً مع كل محاولة للإلقاء الرعب في قلبي.

فأجاب قائلاً:

- لن أقول إنك في هذا مخطئة، وذلك لأنك بالفعل لا تعتقدين أنني أفكر في تعمد إزعاجك. ولقد سعدت بمعرفتك لمدة تكفيني لأدرك أنك تجدين متعة عظيمة في التعبير بين الحين والحين عن آراء ليست في واقع الأمر آراءك.

وضحكت إليزابيث من أعماقها لهذه الصورة عن نفسها، وقالت لكولونيل فيتز وليم:

- سوف يعطيك ابن عمك فكرة جميلة عني، كما سيعلمك ألا تصدق حرفاً مما أقول. إني سيئة الحظ خصوصاً عندما ألتقي بشخص يتحلى بمقدرة ممتازة على كشف النقاب عن شخصيتي الحقيقية، وحين يتم هذا اللقاء في مكان كنت أرجو أن أبدو فيه على درجة تستوجب بعض التقدير. فالحق يا مستر دارسي أن إشارتك لكل ما عرفته عني في «هارتفوردشير» من جوانب سيئة هو أمر غير كريم من جانبك، بل واسمح لي أن أقول إنه غير فطن أيضاً. فذلك يستفزني لرد الصاع صاعين، ولربما بدا مني ما يصدّم أقرباءك.

فقال مبتسماً:

- لست أخشاك.

فهتف كولونيل فيتز وليم قائلاً:

- بالله عليك دعيني أسمع اتهاماتك له، فأني أود أن أعرف كيف يسلك أمام الغرباء.

- إذن فستسمع ما عندي، ولكن تهيأ لشيء شديد الفظاعة. فلا بد أن تعرف أنني رأيته في «هارتفوردشير» لأول مرة في حفل راقص. وما ظنك بم فعله في هذا الحفل؟ لقد رقص أربع رقصات ليس غير! إني آسفة لإيلاّمك، ولكن هذا هو ما حدث. لقد رقص أربع رقصات فقط رغم أن الرجال كانوا قليلين. وإني أعلم علم اليقين أنه كانت هناك أكثر من فتاة تلزم مقعدها لافتقارها إلى شريك. لا تستطيع يا مستر دارسي أن تنكر هذه الحقيقة.

- في ذلك الوقت لم أكن أتشرف بمعرفة أي سيدة في الحفل باستثناء الجماعة التي كنت أنتمي إليها.

- هذا حق، فلا يمكن لأي امرئ أن يتعرف إلى غيره في قاعة رقص. حسن يا كولونيل فيتز وليم، ماذا أعزف بعد هذا؟ إن أناملني رهن إشارتك.

وقال دارسي:

- ربما كنت قد أحسنت التصرف لو أنني سعت إلى التعارف، ولكنني لا أحسن تقديم نفسي للغرباء.

فقال إليزابيث وهي ما زالت توجه الحديث إلى كولونيل فيتز وليم:

- ألنا أن نسأل ابن عمك عن السبب في هذا؟ هل لنا أن نسأله عن السبب الذي يجعل رجلاً ذا إدراك وثقافة وصلة بالعالم عاجزاً عن تقديم نفسه للغرباء؟

فقال فيتز وليم:

- يمكنني أن أجيب على سؤالك دون حاجة بنا للجوء إليه. إن السبب يكمن في أنه لا يُحِبُّ أن يجشم نفسه مشقة هذا العمل.

وقال دارسي:

- من المؤكد أنني لا أتمتع بنفس ما يتمتع به بعض الناس من موهبة التحدث بسهولة مع مَنْ لم تقع عليهم من قبل عيناى. فلا أستطيع أن أتبين نبرة حديثهم أو أن أبدو مهتماً مما يشغلهم مثلما يحدث أمامي في كثير من الأحيان.

وقالت إليزابيث:

- إن أناملني لا تمر على أصابع هذا المعزف بنفس المهارة التي تتمتع بها نساء كثيرات. فليس لها نفس القوة أو السرعة، كما أنها لا تحقق نفس الأداء. ولكنني دائماً ما اعتقدت أن هذه غلطتي؛ لأنني لا أحتمل مشقة المران. فالأمر إذن لا يوحى بعدم اعتقادي فيما أناملني من كفاءة؛ ذلك لأنها لا تقل عن أنامل غيري من التقديرات.

وابتسم دارسي وقال:

- إنك على حق تماماً. لقد شغلت وقتك على نحو أحسن مما فعلت. إن أي امرئ يستمتع بالاستماع إلى عزفك في جلسة خاصة لا يمكن أن يرى فيك نقصاً. كلانا لا يحسن الأداء أمام الغرباء.

وهنا قاطعتهما ليدي كاثرين التي نادت عليهما لتعرف موضوع حديثهما. وبدأت إليزابيث على الفور في العزف ثانية. واقتربت ليدي كاثرين، وبعد أن أنصتت لبضع دقائق وجهت حديثها إلى دارسي قائلة:

- يمكن لمس بينت ألا تخطئ في العزف أبداً لو أكثرت من المران، ولو قُيِّضَ لها أن تتلمذ على أستاذ من لندن. إنها تحسن استخدام أناملها إلى حد كبير، وإن لم يكن ذوقها مساوياً لذوق آن. كان يمكن لأن أن تصبح عازفة رائعة لو أن صحتها قد ساعدتها على التعلم.

ونظرت إليزابيث إلى دارسي لترى مدى ترحيبه بالموافقة على امتداح ابنة خالته، ولكنها لم تستطع، لا في تلك اللحظة ولا في غيرها، أن تتبين أي عرض من أعراض الهوى. على أنها توصلت من خلال

متابعتها لسلوكه إزاء مس دي بورو إلى هذه الحقيقة التي تريح مس بينجلي، وهي أنه لو كانت مس بينجلي قريبته، لكاد احتمال زواجه منها يضارع احتمال زواجه من مس دي بورو.

وتابعت ليدي كاثرين إبداء ملاحظاتها على عزف إليزابيث، وأخذت تمزج هذه الملاحظات بإرشادات كثيرة عن الأداء والذوق الفني. وتقبلت إليزابيث كل ذلك بكل ما يقتضيه السلوك المهذب من احتمال، واستمرت في العزف؛ استجابةً لطلب الرجلين، إلى أن أُعدت عربة سيادتها لحملهم جميعاً إلى المنزل.



الفصل الثاني والثلاثون

في صباح اليوم التالي كانت إليزابيث تجلس على انفراد وهي تكتب خطابًا لجين، على حين غادرت مسز كولنز وماريا المنزل لقضاء بعض حاجاتهما في القرية، عندما أجفلت لسماع صوت جرس الباب، وهو الدليل الأكيد على قدوم زائر. ولما لم تكن قد سمعت صوت عجلات عربية، فلم تستبعد أن يكون القادم ليدي كاثرين. وإذا تخوفت من هذا الأمر، فقد أخذت في إخفاء خطابها الذي لم يتم؛ تفاديًا منها لكل الأسئلة المتطفلة، في الوقت الذي فتح فيه الباب. وإذا بدهشة عظيمة تستحوذ عليها حين دخل إلى الحجرة مستر دارسي، وكان وحيدًا لا يصحبه أحد. وبدأت عليه الدهشة كذلك حين وجدها بمفردها، واعتذر لها عن تطفله بإفهامها أنه كان يظن السيدات كلهن موجودات في المنزل.

وعندئذ جلسا معًا؛ وما إن استفسرت عن أفراد الأسرة في «روزينجز»، حتى شعرت بخطر انغماسها في الصمت التام. ومن ثم فقد كان من المحتم عليها أن تفكر في شيء ما. وإذا تذكرت في هذه الطارئة آخر مرة رآته فيها في «هارتفوردشير»، واستشعرت الفضول لمعرفة ما يمكن أن يقوله في موضوع رحيلهم السريع، فقد قالت:

- يا لها من مفاجأة تلك التي ميزت رحيلكم جميعاً عن «نيدر فيلد»
في شهر نوفمبر الماضي يا مستر دارسي! لا بد أن مستر بينجلي قد
دُهِش على نحو أدخل السرور العظيم على قلبه إذ وجدكم معه بمثل
هذه السرعة، لأنه لم يرحل - فيما أذكر - إلا قبلكم بيوم واحد. لعله أن
يكون مع شقيقته في خير حال وقت أن تركت لندن.

- في خير حال، شكرًا لك.

واكتشفت أنها لن تتلقى جوابًا آخر، فأضافت قائلة بعد فترة صمت
قصيرة:

- أظن أن مستر بينجلي لا يفكر في العودة ثانية إلى «نيدر فيلد»،
فهل هذا صحيح؟

- لم أسمعها يقول هذا أبدًا، ولكن من المحتمل ألا يقضي هناك
وقتًا طويلًا في المستقبل، فلديه أصدقاء كثيرون، وهو الآن يمر بفترة من
عمره يتزايد فيها الأصدقاء وتتشعب الروابط باستمرار.

- لو كان في نيته أن يقضي في «نيدر فيلد» شطرًا بسيطًا من وقته،
فسيكون من الأفضل بالنسبة للمنطقة أن يخلي البيت تمامًا، فمن الممكن
عند ذلك أن نحظى بأسرة تستقر فيه. ولكن ربما لم يشغل مستر بينجلي
البيت تمشيًا مع رغبة الناس بقدر ما فعل ذلك تحقيقًا لهواه. ولا بد أن
نتنظر منه الاحتفاظ به أو إخلاءه لنفس السبب.

وقال دارسي:

- لن أدُهِش إذا أخلاه بمجرد أن يظهر عرض مُغرٍ بالشراء.

ولم تحر إليزابيث جواباً. لقد كانت تخشى الاستطراد في الحديث عن صديقه. وإذ لم يَبْقَ لها ما تقوله، فقد استقر رأيها على أن تترك له تحمل مشقة إيجاد موضوع للحديث.

وأدرك هو ما ترمي إليه، ولم يلبث أن بدأ بقوله:

- هذا بيت مريح جداً فيما يبدو! أظن أن ليدي كاثرين قد أدخلت عليه تحسينات كثيرة عندما حل مستر كولنز «بهنسفورد» لأول مرة.

- أعتقد ذلك، وإني واثقة أنها لم تكن لتجد هدفاً تمارس فيه سخاءها، أشد من هذا الهدف مجلبة للسرور.

- يبدو أن مستر كولنز محظوظ للغاية في اختياره لزوجته.

- فعلاً، فمن حق أصدقائه أن يفرحوا بلقائه بوحدة من القليلات ذوات العقل الراجح اللاتي كان يمكن أن يقبلنه زوجاً، أن يسعدنه بعد الزواج. فصديقتي تمتاز بقدرة عظيمة على فهم الأمور، رغم أنني لست واثقة من اعتباري زواجهما من مستر كولنز أشد فعالها اتصافاً بالحكمة. على أنها تبدو سعيدة تماماً، وإذا نظرنا لزواجهما في ضوء العقل لوجدناه بالتأكيد مناسباً لها تماماً.

- لا بد أن إقامتها على بعد مسافة معقولة من أسرتها وأصدقائها هو أمر سارّ تماماً بالنسبة لها.

- أتسميها مسافة معقولة؟ إنها تبلغ خمسين ميلاً تقريباً.

- وماذا في خمسين ميلاً عبر طريق ممهد؟ إنها رحلة لا تزيد عن نصف نهار إلا قليلاً. نعم إنني أسميها مسافة معقولة جداً.

فهتفت إليزابيث قائلة:

- لا أظن أن المسافة ضمن مميزات الزواج، ولست أعتقد أن مسز كولنز قد استقرت في مسكن مجاور لسكن أسرتها.

- إن هذا للدليل على ارتباطك «بهارتفوردشير». فكل ما يتعدى المنطقة المجاورة «للونجبورن» يبدو في نظرك بعيداً.

وبدت على وجهه وهو يتحدث ملامح ابتسامة خيّل لإليزابيث أنها تفهم معناها؛ فلا بد أنه كان يظنها تفكر في جين و«نيذرفيلد». واحمرت وجنتاها وهي تجيب قائلة:

- لا أقصد أن أقول إن المرأة لا تستقر في سكن شديد القرب من سكن أسرتها، فلا بد أن يكون البعد والقرب مسألة نسبية، كما لا بد أن يعتمد على ظروف كثيرة متباينة. فلو توفر المال الذي يجعل تكاليف السفر غير ذات قيمة، لما أصبح بُعد المسافة غرماً. ولكن ليست هذه هي الحالة هنا. فمستر ومسز كولنز يمتلكان دخلاً معقولاً، ولكنه ليس من الوفرة بحيث يسمح برحلات متكررة. وإني لمقتنعة أن صديقتي لن تعتبر نفسها قريبة من أسرتها حتى ولو كانت تسكن على بعد يقل عن نصف المسافة الحالية.

وشد مستر دارسي مقعده قليلاً ناحيتها وقال:

- لا يحق لك أن تتمسكي بهذه الرابطة التي تشدك إلى موطنك. إنك لم تقضي حياتك كلها في «لونجبورن».

ودهشت إليزابيث. وبدأ على مشاعر الرجل بعض التغير؛ وسحب مقعده إلى الوراء وأخذ صحيفة من فوق المنضدة. وقال بصوت بارد وهو ينظر من فوقها:

- هل أعجبتكِ «كنت»؟

وأعقب ذلك حوار قصير عن موضوع الريف، وكان حديث كلا الجانبين هادئًا ومركزًا، ولم يلبث أن انقطع بدخول شارلوت وشقيقتها اللتين عادتا لتوهما من مسيرتهما. وأدهشهما هذا الحديث المتبادل على انفراد. وسرد مستر دارسي خطأه الذي تسبب في تطفله على مس بينت، وبعد أن جلس لبضع دقائق أخرى دون أن يوجه الحديث لأحد، انصرف لحال سبيله.

وقالت شارلوت بمجرد مغادرته المنزل:

- ما معنى هذا؟ لا بد أنه قد وقع في غرامكِ يا عزيزتي إيزا، وإلا لما زارنا على هذا النحو الذي تبين فيه الألفة.

ولكن عندما حكّت إليزابيث عن صمته أصبح الموضوع مستبعدًا، حتى بالنسبة لما كانت ترغب فيه شارلوت. وبعد أن طافت بخيالهن تكهنات متعددة، لم يستطعن آخر الأمر إلا أن يرجعا زيارته لصعوبة إيجاد ما يمكن أن يقوم به، وهو ما كان مرجحًا بالنظر إلى ذلك الوقت من السنة. فقد انتهى موسم ألعاب الخلاء. وأما في داخل البيت فكانت هناك ليدي كاثرين وبعض الكتب ومائدة للبلياردو، ولكنَّ الرجلين لا يمكن أن يلزما المنزل كل الوقت. ولذلك فقد وجد ابنا الخال والعمة في قرب بيت الكاهن أو في جمال المشي إليه أو في الناس الذين يقطنونه

ما يغريهما بالذهاب إلى هناك كل يوم تقريباً. فقد كانا يأتیان في أوقات مختلفة في فترة الصباح، كل بمفرده أحياناً، وأحياناً أخرى معاً، وكانت ليدي كاثرين تصحبهما بين الحين والآخر. وقد اتضح لهما جميعاً أن كولونيل فيتز وليم كان يأتي إلى المنزل لأنه كان يُسرُّ بصحبتهما، وهو اعتقاد دفعهم بالطبع إلى الترحيب به أكثر فأكثر. كذلك فقد أدى استمتاع إليزابيث بوجودها معه، بالإضافة إلى إعجابه الواضح بها، إلى تذكيرها بجورج ويكهام صديقها السابق الأثير لديها. وقد اكتشفت في مقارنتها لهما بعضهما ببعض أن طباع كولونيل فيتز وليم كانت إلى حد ما تفتقر إلى تلك العذوبة الآسرة، وإن رأت أنه يتميز بفكر أنضج.

أما السبب في كثرة حضور مستر دارسي إلى بيت الكاهن، فقد كان إدراكه أمراً أشد صعوبة. فلم يكن ذلك راجعاً لحاجته إلى صحبة الناس، حيث إنه كان كثيراً ما يجلس هناك عشر دقائق متصلة دون أن يفتح فمه. أما إذا تحدث، فقد كان حديثه يبدو نتاجاً للضرورة أكثر منه موضوع اختيار، أو تضحية في سبيل مقتضيات اللياقة، لا إشباعاً لسروره الشخصي. ونادراً ما كان يظهر عليه الحماس فعلاً، ولم تدرِ مسز كولنز ماذا تظن به. فقد كان لجوء كولونيل فيتز وليم بين الحين والحين إلى السخرية من تلبده سبباً في التدليل على أنه شخص مختلف عنه بوجه عام، وهو أمر لم تكن معرفتها بشخصه لتمكنها من التوصل إليه. ولما كانت تظن بأن هذا التغير هو من آثار الغرام، وبأن هدف هذا الغرام هو صديقتها إليزا، فقد أخذت نفسها بجهد جاد لاكتشاف هذا الأمر. وأخذت تراقبه كلما ذهبوا إلى «روزينجز»، وكلما جاء هو إلى

«هنسفورد»، دون أن تحقق نجاحًا كبيرًا. لقد كان بالتأكيد يطيل النظر إلى صديقتها، ولكن التعبير الذي كان يبدو في تلك النظرات كان موضع شك. لقد كانت نظرتيه بمثابة تفرُّس جاد رصين. ولكنها كانت كثيرًا ما تشك فيما إذا انطوت تلك النظرة على إعجاب كبير، بل إنها لم تكن لتبدو في بعض الأحيان إلا نوعًا من شرود الذهن.

وقد أوجت إلى إليزابيث في مرة أو مرتين باحتمال اهتمامه بها، ولكن إليزابيث كانت دائمًا ما تسخر من هذه الفكرة. ولم ترَ مسز كولنز أن الإلحاح في هذا الموضوع صواب، خشية أن تثير آمالًا لا تلاقي إلا إحباطًا. فلم يكن هناك في رأيها أي احتمال للشك في تلاشي كل مشاعر الكراهية عند صديقتها فيما لو خيَّل لها يومًا أنه قد خضع لسلطانها.

وكانت في بعض الأحيان تخطط لزواج إليزابيث من كولونيل فيتز وليم ضمن ما كانت تدبر لها من مشاريع تعكس طيبة قلبها. فقد كان أُلطف الرجال قاطبة، بما لا يدع مجالًا للمقارنة. وكان بالتأكيد معجبًا بها، كما أن مركزه في الحياة كان أشد ما يكون لياقة. ولكن هذه المزايا لم تكن تُقارن بما كان لمستر دارسي من ولاية كبيرة على شؤون الكنيسة، وهو نفوذ لم يكن ابن خاله ليتحلى بأبسط قسط منه.



الفصل الثالث والثلاثون

كثيرًا ما كانت إيزابيث تلتقي بمستر دارسي على نحو غير متوقع أثناء تجوالها في الحديقة. وكانت تشعر بمعاندة الحظ السيئ الذي كان يأتي به إلى حيث لا يصل أحد. واهتمت في أول الأمر بتعريفه أن ذلك المكان ملاذ محجب إلى نفسها؛ محاولة منها للحيلولة دون حدوث هذا الأمر ثانية. ومن ثم فقد كان من الغريب أن يتكرر نفس الشيء مرة ثانية. ومع ذلك فقد حدث مرة أخرى بل وثالثة. وبدا الأمر وكأنه شراسة متعمدة أو تكفير إرادي عن خطيئة ارتكبتها. ففي تلك المناسبات لم يكن الحديث يقتصر على بعض الاستفسارات الرسمية وفترة صمت محرجة، ثم ينتهي كل شيء، ولكنه كان يظن أن الأمر يستلزم اصطحابه لها في طريق العودة إلى البيت. ولم يكن يطيل الحديث أبدًا، كما أنها لم تكن تجشم نفسها مشقة الإكثار من الكلام أو الإنصات. غير أنها ذهبت - في أثناء لقائهما الثالث - بسبب ما وجَّهه لها من أسئلة غريبة غير مرتبطة بعضها ببعض، حول سرورها لوجودها في «هنسفورد»، وغرامها بالسير منفردة، ورأيها في سعادة مستر كولنز وزوجته. وأما فيما يختص بحديثها عن «روزينجز» وبعدم قدرتها على فهم ساكنيه تمام الفهم، فقد بدا عليه توقعه لنزولها هناك إذا ما قُدِّرَ لها أن تجيء

إلى «كنت» مرة ثانية. وكان في كلماته ما يوحي بهذا المعنى. أيمكن أن يكون كولونيل فيتز وليم هو موضع أفكاره. لقد خطر لها أنه لا بد أن يعني -إذا كان يعني شيئاً على الإطلاق- الإشارة إلى ما يمكن أن ينشأ في هذا الصدد. واكتأبت لهذا الخاطر إلى حد ما، ولكنها سعدت كل السعادة عندما وجدت نفسها عند البوابة الكائنة في السياج المواجه للبيت.

وفي أحد الأيام كانت مستغرقة أثناء سيرها في إعادة تلاوة خطاب جين الأخير، وإمعان الفكر في بعض الفقرات التي أثبتت أن جين لم تكن في روح طيبة أثناء الكتابة، عندما رفعت ناظرها فالتقت لا بمستر دارسي الذي كان يمكن لوجوده أن يدهشها ثانية، بل بكولونيل فيتز وليم الذي كان قادمًا نحوها. وقالت وهي تخفي الخطاب بسرعة وتصطنع ابتسامة.

- لم أكن أعلم قبل هذا أنك تمشي في هذه الناحية.

وأجاب قائلاً:

- لقد كنت أطوف بالحديقة كعادتي كل عام، وكان قصدي أن أنهي هذه الجولة بزيارة لأهل البيت. أتمضين أبعد من هذا؟

- لا، كنت أوشك أن أستدير راجعة.

واستدارت بالفعل بناء على قولها هذا وسارا تجاه البيت جنبًا إلى جنب. وقالت:

- أستغادر «كنت» حقًا يوم السبت القادم؟

- نعم، إذا لم يؤجل دارسي السفر ثانية. ولكنني أضع نفسي تحت تصرفه، فهو يدبر الأمر وفق هواه.

- وإن لم يستطع أن يرضي نفسه في هذا التدبير، فهو على الأقل يحظى بأعظم المتعة بسبب حقه في الاختيار. إني لا أعرف أي امرئ يبدو أشد ولعًا من مستر دارسي بسلطة التصرف على هواه.

وأجاب كولونيل فيتز وليم قائلاً:

- إنه فعلاً يُحِبُّ أن يُسَيِّرَ كل شيء وفق إرادته؛ ولكننا جميعاً نفعل ذلك. كل ما هنالك أنه يمتلك من الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الإرادة ما يفضل غيره من الناس. والسبب في ذلك أنه ثري، بينما الآخرون فقراء. إني أتحدث من واقع شعوري. فالابن الأصغر كما تعرفين يجب أن يتعود نكران الذات والاعتماد على الغير.

- في رأيي أن الابن الأصغر لمن يحمل لقب إيرل لا يعرف من هاتين الخصلتين إلا أقل القليل. وليكن حديثنا الآن جاداً؛ ماذا عرفت في حياتك من نكران الذات والاعتماد على الغير؟ ومتى حال افتقارك إلى المال بينك وبين الذهاب أينما تختار أو بين الحصول على ما تشتهي؟

- تلك مسائل عائلية؛ وقد لا أستطيع الادعاء بأنني ووجهتُ بصعاب كثيرة من هذا النوع. أما إذا تعلق الأمر بمسائل ذات خطورة أعظم، فقد أعاني بسبب حاجتي إلى المال. فإن صغار الأبناء لا يستطيعون الزواج حسبما يشاءون.

- إلا إذا شاءوا الزواج بنساء ثريات وهو تصرف كثيرًا ما يلجأون إليه.

- إن عاداتنا في الإنفاق تجعلنا شديدي الاعتماد على غيرنا. وقليلون من هم مثل مركزي في الحياة يستطيعون الزواج دون أن يضعوا للمال بعض الاعتبار.

وفكرت إليزابيث: «أيقصدني بهذا الكلام؟». واحمر وجهها لهذه الفكرة. ولكنها استعادت هدوءها، وقالت في لهجة مرحة:

- وما هو بالله عليك السعر المألوف لابن الإيرل الصغير؟ لا أظنك تطلب أكثر من خمسين ألف جنيه، إلا لو كان الشقيق الأكبر عليلاً.

وأجابها بنفس أسلوبها وانتهى الموضوع عند هذا الحد. ولم تلبث بعد ذلك أن قالت سعيًا منها لقطع الصمت الذي قد يجعله يتصور أنها تأثرت بما جرى بينهما من حديث:

- يُخَيَّلُ إِلَيَّ أن ابن عمك قد اصطحبك معه أساسًا حتى يجد شخصًا ما تحت تصرفه. وإنني لأعجب لعدم سعيه إلى الزواج حتى يضمن راحة من هذا النوع. ولكن ربما كانت شقيقته تقوم بهذا الدور في الوقت الراهن. وحيث إنها تعيش في كنفه، فله أن يفعل بها ما يشاء. فقال كولونيل فيتز ولیم:

- كلا فذلك امتياز يتحتم عليه أن يتقاسمه وإياي؛ فأنا شريكه في الوصاية على مس دارسي.

- أحقًا؟ وأي طراز من الأوصياء أنت؟ أتسبب لك مسؤوليتك عناء

كبيراً؟ إن الفتيات في سنّها أحياناً ما يَكُنَّ غير سلسات القياد. وإذا ما كانت تتصف بنوع المزاج الذي يميز أسرة دارسي، فربما راودتها الرغبة في أن تتصرف على هواها.

وأثناء حديثها لاحظت أنه يحدّق إليها بنظرة جادة. وكان في الطريقة التي سألها بها في عجلة عن أسباب ظنها باحتمال نشوء أي انزعاج بسبب مس دارسي، ما أقنعها بأنها قد أصبحت، على نحو ما، قاب قوسين أو أدنى من الحقيقة. وأجابته مباشرة بقولها:

- لا تنزعج، فلم أسمع عنها ما يسيء إليها، ومبلغ ظني أنها من أشد الناس وداعة في هذا العالم. وهي صديقة عزيزة جداً على سيدتين من معارفي، هما مسز هيرست ومس بينجلي. يُخيل إليّ أنني سمعتك تتحدث عن معرفتك لهما.

- أعرفهما معرفة سطحية؛ وأخوهما رجل لطيف مهذب، وصديق حميم لدارسي.

وقالت إليزابيث بجفاف:

- نعم، فمستر دارسي يظهر كرمًا غير عادي تجاه مستر بينجلي، كما يتعهد برعاية بالغة.

- يتعهد بالرعاية! نعم، أظن بالفعل أن دارسي يتعهد بالرعاية بالنسبة لتلك الأمور التي يكون فيها في أمس الحاجة للرعاية. ولديّ من الأسباب ما يحدو بي إلى الاعتقاد بأن بينجلي مدين له بالكثير، وذلك من واقع ما حكاه لي دارسي أثناء رحلتنا إلى هنا. ولكنني أستمحه عذراً،

فليس من حقي الظن بأن بينجلي كان هو الشخص المقصود بالحديث.
فالأمر كله تخمين في تخمين.

- ماذا تقصد؟

- أقصدُ حادثةً لا يحب دارسي بالطبع أن يخوض الناس فيها، إذ
لو وصلت تفاصيل هذه القصة لأسرة السيدة لكان في ذلك ما يسيء.

- لك أن تعتمد على عدم إفشائي لها.

- وتذكرني أيضًا أنه ليس لدي الكثير من الأسباب التي تدعوني
للوثوق من أن بينجلي هو المقصود. فلم يزد ما قاله لي عن هذا: إنه
يهنى نفسه لما قام به مؤخرًا من إنقاذ صديق له من المتاعب التي كان
يمكن أن تعود عليه بسبب زواج فيه من الطيش قدر كبير. ولكنه لم يذكر
أي أسماء أو أي تفاصيل أخرى. ولم أرتب في أن يكون هذا الصديق
هو بينجلي إلا لأنني أظنه شاب من الطراز الذي يمكن أن يقع في مأزق
من هذا النوع. ولأنني أعرف أنهما كانا معًا طوال الصيف الماضي.

- هل أوضح لك مستر دارسي أسبابه التي دفعته لهذا التدخل؟

- لقد فهمت أنه كانت هناك اعتراضات على السيدة ذات وزن

كبير.

- وما هي الحيل التي استخدمها للتفرقة بينهما؟

فقال فيتز وليم مبتسمًا:

- إنه لم يحدثني عما لجأ إليه من حيل. لقد أخبرني فقط بما

أطلعتك الآن عليه.

ولم تحر إليزابيث جوابًا، واستمرت في سيرها، بينما أخذ قلبها يجيش بالغضب. وبعد أن راقبها فيتز وليم بعض الوقت، سألها عن سبب استغراقها في الفكر؛ فقالت:

- إنني أفكر فيما كنت تقصه عليّ. إن سلوك ابن عمك لا يروق لمشاعري. لماذا يجعل من نفسه حكمًا؟

- أتميلين لتسمية تدخله فضولاً؟

- إنني لا أرى أن لمسترد دارسي أي حق في إصدار حكم على ما في ميول صديقه من لياقة، كما لا أرى سببًا يدعوه بمقتضى حكمه وحده أن يحدد الطريقة التي يحقق بها ذلك الصديق سعادته، ويوجهه إليها. ولكن... (واستمرت في حديثها وقد فطنت إلى ما تقول) حيث إننا لا نعرف عن تفاصيل الموضوع شيئًا، فليس من العدل أن ندين تصرفه. ولا أظن، على كلٍّ، أن العلاقة بين الطرفين كانت تستند إلى مودة حقيقية.

وقال فيتز وليم:

- هذا شك في محله، وإن كان في هذا ما يضعف من قيمة فوز ابن عمتي على نحو مؤسف.

وقيلت هذه العبارة على سبيل الهزل، ولكنها بدت صورة ناطقة لمسترد دارسي بلغ صدقها حدًا جعل إليزابيث تحجم عن الإجابة خشية أن تشي كلماتها بشيء ما. ولهذا غيرت موضوع الحديث بسرعة، وتكلمت في أمور غير ذات أهمية حتى وصلا إلى البيت. وهناك،

وبمجرد أن غادرهن زائرهن، استطاعت وهي في حجرتها أن تمنع الفكر دون انقطاع في كل ما سمعت. ولم يكن من الممكن أن تظن أن المقصودين بالحديث شخصان غير اللذين كانت تعرفهما. فليس هناك في العالم كله إلا رجل واحد يمارس مستر دارسي عليه مثل ذلك النفوذ غير المحدود. كما أنها لم تُشكَّ يوماً في علاقته بالإجراءات التي استهدفت التفرقة بين مستر بينجلي وجين، ولكنها دائماً ما اختصت مس بينجلي بمسؤولية التخطيط والترتيب الأساسيين لهذه الإجراءات. على أنه لو لم يؤد به غروره إلى الضلال، لما تسبب -ولما تسبب مشاعره ونزواته- في كل ما عانت منه جين وما تعاني. لقد حطم -لفترة ما- كل أمل في السعادة لدى أشد صاحبات القلوب الرقيقة لطفًا وسخاء. وليس هناك من يستطيع أن يحدد مدى الأثر الذي سوف ينشأ عما ألحقه بها من أذى.

«كانت هناك اعتراضات على السيدة ذات وزن كبير»، هكذا كانت كلمات كولونيل فيتز وليم. ولربما قامت هذه الاعتراضات على أساس وجود زوج خالة لها يعمل في الريف وكيلاً لمحام، ولوجود خالٍ يعمل في لندن بالتجارة. وهتفت فيما بينها وبين نفسها قائلة: «أما جين نفسها فلا يمكن أن يقوم عليها اعتراض. وهي مثال للجمال والطيبة، ونموذج للامتياز في فهم الأمور ولرقي الفكر وسحر الطباع. كما لا يمكن أن يُثار شيء ضد أبي وهو الذي يتميز -رغم بعض نوازعه الغريبة- بكفاءات لا يجوز لمستر دارسي نفسه أن يهزأ بها، وبوقار لا يحتمل أن يبلغه في يوم ما». وعندما انتقل تفكيرها إلى أمها، إذا بثقتها تنهار إلى حدٍّ

ما. ولكنها لم تسلم بأن لأي اعتراضات من هذه الناحية وزناً كبيراً عند مستر دارسي، إذ كانت مقتنعة بأن كبرياءه يمكن أن تُجرح لافتقار أنسباء صديقه للمكانة الاجتماعية على نحو أشد مما لو كانوا يفتقرون إلى حسن إدراك الأمور. واستقر رأيها آخر الأمر على أن سلوكه قد اهتدى في شطر منه بأسوأ أنواع الكبرياء، وفي شطره الآخر برغبته في الاحتفاظ بمستر بينجلي لشقيقته.

وأُصيبت بصداع من جراء ما أصابها من اضطراب وما ذرفته من دموع بسبب هذا الموضوع. وتفاقم الأمر بحلول المساء لدرجة قررت معها -بالإضافة إلى عدم رغبتها في رؤية مستر دارسي - عدم مصاحبة ابن عمها وزوجته إلى «روزينجز» حيث كانا مدعوين لتناول الشاي. ولم تُلحَّ عليها مستر كولنز في الذهاب بعد أن رأتها بالفعل في حالة غير طيبة، كما منعت زوجها بقدر ما في وسعها من الإلحاح عليها. غير أن مستر كولنز لم يستطع إخفاء مخاوفه من احتمال استياء ليدي كاثرين بسبب بقائها في المنزل.



الفصل الرابع والثلاثون

وعندما غادروا البيت، شاءت إليزابيث -وكانما تريد أن تضاعف بقدر الإمكان من سخطها على مستر دارسي- أن تشغل وقتها بفحص كل الرسائل التي كانت جين قد بعثت بها إليها منذ وجودها في «كنت». ولم تحتوِ الرسائل على أي شكوى فعلية، كما لم تكن فيها أي إثارة لأحداث ماضية أو أي إشارة لمعاناة حالية. غير أن الرسائل جميعًا، بل وكل سطر فيها تقريبًا، كانت تنقصها تلك الروح المرححة التي كانت تلون في العادة أسلوبها في الكتابة، والتي كانت نتاجًا لصفاء ذهن على وفاق مع نفسه، ميال إلى حسن الظن بالآخرين، لم يكدره ضباب الأسى. وأخذت إليزابيث تُنعم النظر في كل جملة تحمل إحياء بالقلق، وتلقي إليها انتباهًا لم تختصها به في قراءتها الأولى. وتسبب افتخار مستر دارسي المخجل بما كان قد استنزله من تعاسة في أن يضاعف من حدة إحساسها بعناء شقيقتها. وكان من قبيل العزاء أن تفكر في انتهاء زيارته «لروزينجز» بعد يومين، كما شعرت بعزاء أعظم لأمل اجتماعها ثانية بجين بعد فترة تقل عن أسبوعين، ولما ستسهم به من محاولات تسترد بها جين مرحها، ومحاولات تستند إلى كل ما تحمله لها من ود.

ولم تستطع أن تفكر في رحيل دارسي عن «كنت» دون أن تتذكر أن ابن خاله سوف يصحبه. غير أن كولونيل فيتز وليم قد أوضح بشكل قاطع أنه لا يستشعر أي نوايا للتودد إليها. ولما كان رجلاً لطيف المعشر، فلم تراودها تجاهه أي أحاسيس تنم عن استيائها.

وما إن انتهت من هذه النقطة، حتى أجفلت لسماع صوت جرس الباب. وانتعشت نفسها قليلاً لما ذهب إليه ظنها من احتمال أن يكون الطارق هو كولونيل فيتز وليم الذي كان قد حضر ذات مرة في ساعة متأخرة من المساء، والذي يمكن أن يكون قد جاء هذه المرة بالذات ليستفسر عنها. بيد أن هذه الفكرة ما لبثت أن تبددت، كما أن مشاعرها ما لبثت أن تأثرت على نحو جد مختلف عندما وقعت عيناها -لدهشتها البالغة- على مستر دارسي وهو يلج باب الحجرة. وشرع من فوره وبطريقة متعجلة يستفسر عن صحتها، بعد أن عزا زيارته لرغبته في أن يسمع منها ما يطمئنه على تحسن صحتها. وأجابته بأدب يشيع فيه البرود. وجلس لبضع لحظات، ثم نهض من مقعده وأخذ يذرع الحجرة جيئةً وذهاباً. واستولت الدهشة على إليزابيث، ولكنها لم تنبس بحرف. وبعد صمت دام دقائق، اتجه ناحيتها وقد بان عليه الاضطراب وبدأ حديثه قائلاً:

- عبثاً ناضلتُ. لا نفع في ذلك. لا سبيل إلى كبح مشاعري. اسمحي لي أن أخبرك بمدى حرارة إعجابي بك وحيي لك.

واتخذت دهشة إليزابيث سمة يصعب التعبير عنها. فقد حملقت واحمرت وارتابت وتولاها الصمت. واعتبر هذا تشجيعاً كافياً، ومن

ثم أعقب كلامه باعتراف صريح بكل ما راود مشاعره منذ فترة طويلة. وأحسن الحديث، ولكنه أفاض في الكلام عن مشاعر أخرى إلى جانب مشاعر القلب، وكان أشد بلاغة في التعبير عن كبريائه منه في الإبانة عن رقة أحاسيسه. فقد كان إدراكه لقلة شأنها في المجتمع، ولما في هذا الزواج من تنزيل لمقامه، وللعقبات التي يستثيرها وضع أسرتها والتي عارض بها العقل السليم ميول العاطفة، كان ذلك كله موضع إفاضة حماسية ترجع فيما يبدو إلى ما كان يهدد مكانته الاجتماعية من ضرر، وإن لم يكن من المقدر لهذه العوامل أن تزكي ما يتقدم به من عرض.

ورغم ما كانت تستشعره من نوازع الكراهية العميقة، إلا أنها لم تكن لتتجاهل ما يوحي به غرام هذا الرجل من ثناء. ومع أن نواياها لم تتغير للحظة واحدة، فقد حزنت في أول الأمر لما سيصيبه من ألم. وما إن اشتعل غيظها لما أعقب عرضه من حديث حتى انصهر في لهيب غضبها كل عطف عليه. ومع ذلك فقد حاولت أن تهدئ ثأرتها حتى ترد عليه في صبر عندما ينتهي من حديثه. واختتم كلامه بإعطائها صورة لقوة تعلقه بها، الذي تعذر عليه قهره رغم كل محاولاته، وبالتعبير عن أمله في أن يكافأ هيامه بقبولها عرضه بالزواج منها. واستطاعت -بينما كان يتحدث- أن ترى بسهولة أنه لم يكن يشك في تلقيه ردًا بالإيجاب. لقد تحدث عن المخاوف والقلق، ولكن وجهه لم يعبر إلا عن الاطمئنان الكامل. ولم يكن هذا الوضع ليؤدي إلا لزيادة هياجها، وما إن انتهى من كلامه، حتى قالت وقد احمرت وجنتاها:

- في حالات مثل هذه، أظن أن التقليد المتبع هو أن يعبر المرء عن إحساسه بالامتنان للمشاعر التي جاهر بها الطرف الآخر، رغم عدم مبادلتها إياها. ومن الطبيعي أن يشعر المرء بالامتنان؛ ولو أنني استشعرت في نفسي أي عرفان بالجميل لقدمت لك الآن شكري. ولكني لا أستطيع ذلك. فلم أكن أرغب أبدًا في حسن تقديرك لي، كما أنك بالتأكيد قد أعلنته على عكس هواك. إنني آسفة لما يمكن أن أكون قد سببته من ألم لأي إنسان. على أن ذلك قد جرى دون وعي مني تمامًا، وأملتي ألا يطول مداه. وإن المشاعر التي حالت طويلاً كما قلت لي دون الإفصاح عن اعتزازك لن تلاقي كبير عناء في التغلب على هذا الاعتزاز بعد هذا الشرح لموقفي.

وبدا على مستر دارسي الذي كان يستند إلى رف المدفأة وعيناه مثبتتان على وجهها أنه يلتقط كلماتها بأحاسيس تغلبت فيها الدهشة على الاستياء. وشحب وجهه بفعل الغضب، وشاع اضطراب فكره في كل ملامحه. وبذل جهدًا جهيدًا لاصطناع الهدوء، فلم يفتح فمه حتى استوثق من نفسه. وكانت فترة الصمت رهيبة بالنسبة لمشاعر إليزابيث. وأخيرًا قال بصوت يشيع في نبراته هدوء مفتعل:

- هذا إذن هو الجواب الذي يحق لي شرف توقعه! وقد تراودني الرغبة في أن أعرف السبب في رفض طلبي على هذا النحو الذي يفترق إلى أصول المجاملة. ولكن ليس للأمر أهمية كبيرة.

فأجابت قائلة:

- إن من حقي كذلك أن أتساءل عن السبب الذي حدا بك أن تخبرني -بوضوح قُصد يستهدف الإساءة إلي وإهانتني - بأنك تحبني ضد مشيئتك وضد منطقك، بل وضد مقتضيات شخصيتك. ألم يكن في ذلك بعض التبرير لعدم المجاملة، هذا إذا كنت بالفعل غير مجاملة؟ ولكن هناك استفزازات أخرى تستثيرني؛ وأنت تعلم ذلك. ولو لم تكن مشاعري قد استقرت على معاداتك أو لو كانت غير مبالية بك أو حتى لو كانت تميل إليك، أفتظن أن أي اعتبار قد يغريني بقبول الرجل الذي تسبب -ربما إلى الأبد- في تحطيم سعادة أخت أحبها أشد الحب؟

واحمر وجه مستر دارسي وهي تنطق بهذه الكلمات، ولكن انفعاله لم يدم طويلاً، وأنصت إليها دون أن يحاول مقاطعتها بينما استمرت تقول:

- إن لديَّ أسباباً كثيرة تدفعني لإساءة الظن بك. فليس هناك من باعث يمكن أن يرر ما قمت به في هذا الموضوع من دور ظالم متعصب. فأنت لا تجسر، لا تستطيع أن تجسر، على الإنكار بأنك كنت السبب الأساسي، إن لم يكن الوحيد، في التفريق بينهما؛ وفي تعريض أحدهما للوم اللاتمين الذين رأوا فيه استسلاماً لنزوات النفس وتقلب المزاج، والأخرى لشماتة الدنيا إذ لمست آمالها التي خابت؛ وفي إغراقهما معاً بين ثنايا تعاسة شديدة.

وتوقفت عن الحديث، ورأت بغضب بالغ أنه كان ينصت إليها بشكل أثبت أنه لم يهتز على الإطلاق بأي إحساس بالندم، بل وأخذ ينظر إليها وعلى شفثيه ابتسامة تشي برية متكلفة. وكررت سؤالها:

- أأتستطيع أن تنكر أنك فعلت هذا؟

فأجاب قائلاً بهدوء كاذب:

- ليست بي رغبة لإنكار أنني فعلت كل ما في وسعي لإبعاد صديقي عن شقيقتك، أو أنني فرح بنجاحي في هذا المسعى. لقد أظهرت إزاءه من الحنو ما يفوق ذاك الذي اختصصت به نفسي.

وازدردت إليزابيث ما ظهر عليه من تصويره لهذه الفكرة المجاملة، غير أن مغزاها لم يخفَ عليها، كما أنها لم تكن لتسترضيها. واستمرت تقول:

- ولكن كراهيتي لا تنبني فحسب على هذه المسألة، فقد استقر رأيي بشأنك قبلها بوقت طويل. لقد استبان ملامح شخصيتك فيما حكاه لي مستر ويكهام منذ عدة شهور مضت. فماذا يمكنك أن تقول في هذا الموضوع؟ وأي صداقة وهمية تلك التي يمكنك أن تستند إليها في الدفاع عن نفسك؟ أو بأي تحوير للحقائق يمكنك أن تخدع الآخرين في هذا الشأن؟

وقال دارسي في نبرة فقدت شيئاً من هدوئها بينما زاد احتقان وجهه:

- إنك تهتمين كثيراً بأمور هذا الرجل.

- من ذا الذي لا يهتم بأمره بعد أن يعرف ما أصابه من نكبات؟

وكرر دارسي ما قالته بلهجة يشيع فيها الاحتقار:

- نكبات! فعلاً، لقد كانت نكباته عظيمة حقاً.

فهتفت إليزابيث قائلة وقد تولتها الحماسة:

- وبسببك أيضًا. لقد تسببت فيما هو عليه الآن من فقر، فقر نسبي
لقد منعت عنه المزايا التي كنت تعلم بأنها لأجله خُصصت. لقد حرمت
أفضل سنوات حياته من ذلك الاستقلال المادي الذي يفوق أهليته له
حقه فيه. لقد فعلت كل ذلك، ومع هذا فبوسعك أن تشير إلى نكباته
باحترار وسخرية.

وصاح دارسي قائلاً وهو يقطع الحجرة بخطى سريعة:

- هذا إذن هو رأيك فيّ! هذا هو تقديرك لي! أشكرك لأنك شرحت
بهذه الاستفاضة. إن أخطائي طبقاً لهذا التقدير غفيرة فعلاً!
ثم أضاف وقد توقف في سيره والتفت ناحيتها:

- ولكن ربما كان يمكن لهذه الإساءات أن تغتفر لو لم تتأذَّ كبرياؤك
باعترافي المخلص بالوساوس التي منعتني طويلاً من التوصل إلى أي
قصد جاد. وكان يمكن إبطال أثر هذه الاتهامات المريعة لو أنني لجأت
إلى الحيلة فأخفيت صراعاتي، واستملت مشاعرك بإقناعك بأنني
مدفوع إليك بميل تام لا تشوبه شائبة، بمقتضيات العقل والتدبر وغير
ذلك. ولكنني أمقت كل أنواع التخفي؛ كما أنني لا أخجل مما قصصت
من أحاسيس. لقد كانت طبيعية وعادلة. أتوقعين مني أن أتهلل فرحاً
لقلة شأن أسرتك؟ أو أن أهني نفسي على ما سأحظى به من أقارب تُعتبر
مكانتهم في الحياة أدناً بالتأكيد من مكانتي؟

وشعرت إليزابيث بغضبها يتزايد مع كل لحظة تمضي، ومع ذلك
فقد حاولت قدر استطاعتها أن تتحدث في هدوء وهي تقول:

- تخطئ يا مستر دارسي إذا ظننت أن الطريقة التي أعلنت بها طلبك قد أثرت فيّ على نحو مختلف، إلا بمقدار ما وفرت عليّ الإحساس بالقلق لما كان يمكن أن أشعر به إزاء رفضي إياك، لو كنت قد سلكت طريقة أشد من هذه تهذيًا.

ورأته يجفل لكلامها هذا، ولكنه لم ينبس بكلمة. واستمرت تقول:
- ما كان في استطاعتك أن تعرض عليّ الزواج بأي طريقة يمكن أن تغريني بقبوله.

واتضحت دهشته للمرة الثانية، ونظر إليها وفي عينيه تعبير متمزج فيه الريبة بالكمد؛ ومضت تقول:

- منذ بداية تعرفي عليك -بل منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها- كانت طباعك التي أوحى إليّ باعتقاد جازم في عجزتك وزهوك وازدراؤك الأناني لمشاعر الآخرين سببًا في تشكيل أساس من الاستنكار شيدت عليه الحوادث التالية كراهية وطيدة. ولم ينقض شهر واحد على معرفتي بك، حتى أحسست بأنك آخر رجل في الدنيا يمكن أن أقتنع بالزواج منه.

- لقد قلت ما فيه الكفاية يا سيدتي. إنني أفهم مشاعرك تمامًا، ولا يبقى لي الآن إلا أن أخجل مما راودني من مشاعر. أطلب عفوك لطول ما استنفدت من وقتك؛ واقبلي أطيب تمنياتي بالصحة والسعادة.

وما إن تفوه بهذه الكلمات، حتى سارع بمغادرة الحجرة، وسمعته إليزابيث في اللحظة التالية وهو يفتح الباب الأمامي ويخرج من البيت.

وكانت ثورة فكرها شديدة الإيلام لها. ولم تدر كيف تسند نفسها، ودفعها وهن حقيقي لأن تلزم مقعدها وتبكي لمدة نصف ساعة. وحين أخذت تتأمل ما جرى، زادت دهشتها لكل ما استعرضته في ذهنها. لقد كان من العسير عليها أن تصدق إمكان تلقيها عرضًا بالزواج من مستر دارسي، وإمكان وقوعه في غرامها طوال هذه الشهور المتعددة، بل وتدلّه في حبها إلى حد يرغب معه في الزواج منها رغم كل الاعتراضات التي دفعته إلى الحيلولة دون زواج صديقه من شقيقتها، والتي يمكن أن تبدى على أقل تقدير بقوة مساوية في حالته! لقد استشعرت إحساسًا بالرضى بسبب ما أثارته -دون وعي منها- من هذا الحب القوي. ولكن كبرياءه، كبرياءه الممقوتة، وجهره الصفيق بما فعله فيما يختص بـجين، وتأكيده الذي لا يغتفر في الإقرار به رغم عدم استطاعته تبريره، وتبلد شعوره الذي بدا في إشارته لمستر ويكهام حين لم يحاول إنكار قسوته تجاهه، كل ذلك ما لبث أن تغلب على الشفقة التي أثارها في نفسها للحظة من الزمن تأملها لواقعة تعلقه بها.

واستمرت تدير في ذهنها أفكارًا شديدة الإثارة، حتى أحست عند سماع صوت عربة ليدي كاثرين بأنها ليست في حالة تسمح لها بمواجهة نظرات شارلوت، فأسرعت إلى حجرتها.



الفصل الخامس والثلاثون

استيقظت إليزابيث في صباح اليوم التالي، فإذا بها مشغولة بذات الأفكار والتأملات التي كانت قد أسلمتها إلى النوم. ولم تكن قد استطاعت أن تخلص نفسها من آثار دهشتها لما جرى، فكان من المستحيل عليها أن تفكر في شيء آخر. ولما كانت عازفة تمامًا عن عمل أي شيء، فقد استقر رأيها سريعًا بعد تناول طعام الإفطار على أن ترفه عن نفسها بالتمتع بالهواء الطلق. واتجهت مباشرة إلى ممشاها الأثير لديها، ولكنها توقفت حين راود فكرها ما تذكرته من ذهاب مستر دارسي إلى هناك في بعض الأحيان. وبدلاً من أن تدلف إلى الحديقة، سارت في الممر الذي أبعداها عن طريق المرور العمومي. وكان سياج الحديقة لا يزال هو الحد الفاصل على جانب الممر، وما لبثت أن اجتازت إحدى البوابات وانطلقت إلى الأرض الخلاء.

وبعد أن زرعت الطريق جيئة وذهاباً مرتين أو ثلاث مرات، جنب ذلك الشطر من الممر، أغراها جمال الصباح بأن تتوقف عند البوابة وتلقي إلى الحديقة بنظرة. وكانت الأسابيع الخمسة التي مضت منذ وصولها إلى «كنت» قد غيرت كثيراً من منظر الريف، فكان كل يوم يمر يضيف جديداً إلى خضرة الأشجار النابتة. وكانت على وشك المضي

في سيرها، حين لمحت رجلاً يخترق الغابة الصغيرة التي تحد الحديقة، وكان يتحرك ناحيتها. ولما كانت تخشى أن يكون القادم مستر دارسي، فقد بدأت تتراجع بسرعة. ولكن القادم أصبح الآن على مقربة منها بحيث يستطيع أن يراها، وإذا به يقدم إلى الأمام في لهفة وينادي عليها. وكانت قد استدارت مبتعدة، ولكن ما إن سمعته ينطق باسمها منادياً -ورغم أن نبرات الصوت كانت تشي بأن مستر دارسي صاحبه- حتى عادت ثانية صوب البوابة. أما هو فكان قد بلغ البوابة أيضاً، فمد لها يده بخطاب أخذته بطريقة لا إرادية، وقال بهدوء متعال:

- كنت أسير منذ هنيهة في الغابة الصغيرة على أمل أن ألقاك. هل تشرفيني بقراءة هذا الخطاب؟

ثم انحنى انحناء بسيطة واستدار متجهاً صوب المزرعة ولم يلبث أن غاب عن الأنظار.

ودون أن تتوقع إليزابيث أي متعة من قراءة الخطاب، فضت غلافه مدفوعة بفضول شديد، وتعجبت حين رأت مظروفاً يحتوي على فرخين من ورق الخطابات، ممتلئين على سعتهما بخط دقيق. كذلك كان المظروف مكتظاً بالكتابة. وبدأت تقرأ وهي تسير في الممر. وكان الخطاب مكتوباً من «روزينجز» مؤرخاً بالساعة الثامنة من ذلك الصباح، ونصه كما يلي:

لا تنزعجي يا سيدتي لدى استلامك هذا الخطاب من أي مخاوف توحى إليك باشتماله على أي تكرار لتلك العواطف، أو أي تجديد لتلك العروض التي عافتها نفسك في الليلة الماضية.

فأنا أكتب دون أي قصد لإيلاملك أو إذلال نفسي بالتعلل بأمنيات لا يمكن نسيانها بسرعة، الأمر الذي يحقق السعادة للطرفين معاً. وكان يمكن توفير الوقت الذي استغرقه تدوين هذا الخطاب والذي ستستغرقه تلاوته، لولا أن شخصيتي قد استلزمت كتابته وقراءته. ولهذا فلا بد أن تغفري لي تطفلي في طلب انتباهك. وإني أعلم أن مشاعرك سوف تسمح بهذا الانتباه دون رغبة منك، ولذلك فإني أطلب به عدالتك.

لقد حملتني في الليلة الماضية وزر ذنبين جد مختلفين في طبيعتهما، وليساً بأي حال على درجة متساوية من الخطورة. أما أولهما فهو أنني سعت إلى إبعاد مستر بينجلي عن شقيقتك دون اعتبار لعواطف أيٍّ منهما؛ وثانيهما أنني حطمت ما قُدرَ لمستر ويكهام من رخاء، وعصفت بآماله تحديداً مني لاعتبارات كثيرة، ولمقتضيات الشرف والنوازع الإنسانية. فأن أقصيَ عن ناظري رفيق شبابي الذي استأثره أبي برعايته، وهو الشاب الذي يكاد لا يجد ما يعتمد عليه في رزقه سوى ولايتنا عليه، والذي نشأ وترعرع آملاً فيما ستدره عليه هذه الولاية، وأن أفعل ذلك عن عمد وطيش، لهو فجور لا يمكن أن يُقارن به التفريق بين شابين لم تطل فترة الوداد بينهما عن بضعة أسابيع. ولكني أرجو أن أبرئ ساحتي مستقبلاً من قسوة ذلك اللوم الذي أهيل عليّ في الليلة الماضية بسخاء فيما يختص بالحالتين السالفتين، وذلك عندما تتم قراءة العرض التالي لتصرفاتي وبواعثي إليها. وإذا

كان في شرحي لهذه التصرفات من وجهة نظري ما يستلزم مني سرد مشاعر قد تتأذى لها أحاسيسك، فلا أملك إلا أن أعبر لك عن أسفي. فلا بد أن أخضع لمقتضيات الضرورة، ومن العبث الاستطراد في أي اعتذار آخر.

لم أكن قد قضيت وقتاً طويلاً في «هارتفوردشير» حين وجدت -شأني شأن الآخرين- أن بينجلي يفضل شقيقتك الكبرى عن أي فتاة أخرى في الريف. ولكن ما إن حلت الأمسية الراقصة في «نيدر فيلد»، حتى راودتني المخاوف من أن يكون قلبه قد تعلق بها. وقد رأيته من قبل في كثير من الأحيان عاشقاً. وفي ذلك الحفل، وأثناء تشرفي بمراقبتك، تنبّهت لأول مرة بما أخبرني به سير وليم لو كاس عرضاً إلى أن مراعاة بينجلي لشقيقتك قد ابتعثت عند الجميع أملاً في زواجهما. فقد تحدث عن هذا الموضوع بصفته حادثاً مؤكداً، تقرر في كل الأمور باستثناء وقت حلوله. ومنذ تلك اللحظة أخذت أراقب سلوك صديقي بامعان، واستطعت إذ ذاك أن أدرك أن تعلقه بمس بينت قد فاق كل ما تلمسته فيه من قبل. كذلك فقد راقبت شقيقتك. وكانت هيئتها وطباعها منبسطة مرحة أخاذة كعهدها دائماً، وإن لم تش بما ينم عن إعزاز محدد الملامح. واقتنعت من مراقبتي لها في ذلك المساء أنها لم تستحبه على إبداء اهتمامه بها عن طريق أي مشاركة من جانبها في عواطفه، وذلك رغم تقبلها لهذا الاهتمام بسرور. فإذا كنت أنت لم تقعي ضحية خطأ في هذا الصدد، فلا

بد أنني أسأت التقدير؛ وإن معرفتك الفائقة بشقيقتك إنما تجعل من الاحتمال الثاني أمرًا مرجحًا. فلو كان هذا صحيحًا، لو كان مثل هذا الزل قد ضلّني إلى حد تسببي في إيلاهما، لكان سخطك عليّ في محله. ولكني لا أتورع عن التأكيد بأن الهدوء الذي كان يرسم على وجه شقيقتك وهيئتها كان ذا طابع يوحى لأشد المراقبين نفاذ بصيرة باعتقاد راسخ بأن من غير المحتمل أن يهتز قلبها بسهولة، وذلك رغم ما أبدته من لطف الطباع. ومن المؤكد أنني كنت شديد الرغبة في الاعتقاد بأنها غير مكترثة، ولكنني أبادر بالقول بأن تحرياتي وقراراتي لا تتأثر في العادة بآمالي أو مخاوفني. فلم أعتقد بأنها غير مكترثة لأنني وددت ذلك، بل اعتقدت في هذا على أساس اقتناع منزه عن الهوى، وكنت في ذلك أمينًا أمانتي فيما وددته عقلاً وفكرًا. أما اعتراضاتي على الزواج؛ فلم تكن فقط تلك التي صرحت في الليلة الماضية بأنها كانت تحتاج - في حالتي - إلى عواطف هائلة لكبتها، إذ لم يكن الافتقار إلى سمو العلاقات الأسرية بمثابة عيب خطير بالنسبة لصديقي مثلما هو بالنسبة لي. فقد كانت هناك أسباب أخرى تدفع إلى النفور، أسباب حاولت جهدي تناسيها - رغم استمرار وجودها على نفس المستوى في حالته وحالتي - لأنها لم تكن ماثلة مباشرة أمام عيني. ولا بد من تبيان هذه الأسباب بشكل موجز. فرغم أن مركز أسرة والدتك كان موضع اعتراض، إلا أنه لم يكن ليقاس أبدًا بذلك الافتقار الكامل لمقتضيات اللياقة

الذي كثيرًا - بل أكاد أقول دائماً - ما ظهر في سلوكها، وفي سلوك شقيقاتك الصغيرات الثلاث، والذي كان والدك يديه في بعض الأحيان. وإني أستمحك عذراً، فمما يؤلمني أن أسيء إليك. ولكن وسط انشغال بالك لعيوب أقرب أقربائك، واستيائك لهذه الصورة التي أصورهم بها، فلك أن تتلمسي العزاء إذا فكرت في أن سلوككما أنت وشقيقتك الكبرى على نحو يعفيكما من تحمل أي شطر من اللوم نفسه، لهو ثناء لا يوجه إليكما، بقدر ما يشرف ما فطرهما عليه من حسن إدراك وسلامة طبع. ولن أضيف إلى ذلك إلا قولي بأن ما جرى في ذلك المساء قد جعلني حاسماً في رأيي فيما يخص الأطراف جميعاً. وتعمقت كل البواعث التي كان يمكن من قبل أن تدفعني دفعاً لحماية صديقي مما قدرت أنه علاقة بالغة التعاسة. وغادر «نيدر فيلد» في اليوم التالي قاصداً لندن، متويهاً - كما تذكرون بالتأكيد - أن يعود بعد وقت قصير. وهنا يلزم أن أشرح الدور الذي قمتُ به. فقد أبدت شقيقته نفس القلق الذي استشعرته أنا تجاهه. وسريعاً ما اكتشفنا اتفاق مشاعرنا، فلم نلبث أن قررنا - وقد أدركنا عدم وجوب تضییع أي وقت في محاولة إبعاد شقيقهما - اللحاق به في لندن دون إبطاء. وبناء على هذا ذهبنا، وهناك تطوعتُ للقيام بمهمة تنوير صديقي بالمساوئ الأكيدة لمثل ما أقدم عليه من اختيار. ووصفت هذه المساوئ له وأكدتها بشدة، ولكن رغم ما كان يمكن لهذه المعارضة أن تهز عزمه أو تعوقه، فلا أظن أنها كانت تنجح في

الحيلولة تمامًا دون وقوع الزواج، لولا أنها وجدت سندًا فيما أثرته -دون تردد- من يقين بعدم اكتراث شقيقتك به. فقد كان قبل هذا يعتقد أنها تبادلته حبه بإعزاز مخلص إن لم يكن مساويًا لما يشعر به. ولكن بينجلي يتصف بتواضع عظيم نابع من طبيعته، بالإضافة إلى ميل قوي للاعتماد على تقديري للأمور لا على تقديره. ولذلك فلم يكن من العسير إقناعه بأنه قد خدع نفسه. أما إغراؤه بعدم العودة إلى «هارتفوردشير» -بعد تمام إقناعه- فلم يكن في حاجة إلى جهد كبير. وليس بوسعي أن ألوم نفسي على كل هذا الذي فعلته؛ وليس هناك إلا سمة واحدة من سلوكي في الموضوع كله لا أشعر بالرضى إذا تأملتتها، ألا وهي ما لجأت إليه من استخدام أساليب الحيلة حتى أخفي عنه وجود شقيقتك في لندن. لقد عرفت هذا الأمر كما عرفته مس بينجلي، ولكن شقيقتها لا يزال حتى الآن جاهلاً به. ولربما كان من الممكن أن يلتقيا دون أن ينشأ عن لقاءهما ضرر، ولكن مشاعر إعزازه لم تكن -فيما بدا لي- قد خبت على نحو يسمح له برؤيتها دون حدوث خطر ما. ولربما كان هذا التكتم، هذا التستر، غير لائق بي، إلا أنه قد حدث، وكان حدوثة تحقيقًا لأفضل الأهداف. وليس لديّ ما أضيفه في هذا الموضوع أو ما أقدمه من اعتذار آخر. وإذا كنت قد جرحت إحساسات شقيقتك، فقد فعلت ذلك دون عمد. ورغم أن البواث التي حكمت تصرفي قد تبدو لك -وهذا طبيعي تمامًا- غير كافية، إلا أنني حتى الآن لا أرى غبارًا عليها.

أما فيما يختص بذلك الاتهام الآخر ذي الخطورة الأشد، الذي يحملني وزر الإساءة إلى مستر ويكهام؛ فلا أملك تفنيده إلا بأن أ طرح أمام ناظريك قصة علاقته بأسرتي. ولست على علم بما اختصني به من اتهام، ولكني على استعداد -في سبيل التدليل على صحة ما سوف أحكيه- لاستدعاء أكثر من شاهد ليس هناك مجال للشك في صدقهم. فمستر ويكهام هو ابن رجل محترم جدًّا، تولى لسنين طويلة الإشراف على إدارة كل الضياع الملحقة «ببيمبرلي»، وأدى سلوكه المحمود في القيام بما عهد إليه إلى دفع والدي بشكل طبيعي إلى خدمته. ولهذا السبب فقد سخا بكرمه على جورج ويكهام الذي كان ابنه في العماد.

وأمدّه أبي بالعون عندما كان في المدرسة، ثم عندما التحق بكمبرج فيما بعد، وهو عون له أهمية بالغة بالنظر إلى أن والده ما كان يمكن أن يزوده بتعليم راقٍ، وهو الذي كان دائماً يشكو الفقر بسبب إسراف زوجته. ولم يكن والدي شغوفاً فحسب بصحبة هذا الشاب الذي كانت طباعه تأسر القلوب في كل حين، ولكنه كان كذلك يحسن الظن به إلى حد بعيد. وقد عزم على أن يوفر له سبل الالتحاق بالسلك الكنسي؛ أملاً في أن يكون هذا العمل مهنته. أما عن نفسي؛ فقد انصرمت سنوات كثيرة وكثيرة قبل أن أبدأ في تغيير رأيي فيه. فالنزعات الشريرة والافتقار إلى المبادئ، وهو ما كان حريصاً على إخفائه عن أفضل أصدقائه، لم تكن لتغيب عن عيني شاب في نفس سنه تقريباً أُتيحت له فرص

رؤيته في لحظات كان فيها يتصرف على سجيته، الأمر الذي لم يكن يُتاح لأبي. وهنا سوف أسبب لك من الألم قدرًا لا يستطيع أن يحس به سواك. ولكن مهما كانت العواطف التي أثارها مستر ويكهام في شخصك، فلن يمنعي ارتياي في طبيعتها من كشف النقاب عن شخصيته الحقيقية. بل إن ذلك يضيف باعثًا جديدًا إلى ما لدي. فقد مات والدي العظيم منذ خمس سنوات تقريبًا، وكانت علاقته بمستر ويكهام حتى آخر وقت وطيدة جدًا بحيث اختصني في وصيته بمسؤولية كفالة ارتقائه على أفضل نحو تسمح به مهنته، وأبدى رغبته في تملكه - في حالة انضمامه لسلك الكهنوت - منزلًا قيمًا بمجرد خلوه. كذلك كان من نصيبه تركة تقدر بألف جنيه. ولم يعيش والده طويلًا بعد وفاة والدي، وفي بحر ستة شهور من وقوع هذين الحدثين، كتب إليّ مستر ويكهام رسالة يخبرني فيها بأنه كان يأمل - بعد أن استقر رأيه نهائيًا على عدم الانضمام إلى السلك الكنسي - في ألا أستكثر عليه أن يتوقع مني إمداده بمزيد من العون المالي السريع، عوضًا عما خُصص له من مزايا لا يستطيع أن ينتفع بها. وأضاف قائلاً إنه يتتوي دراسة القانون، وإنني لا بد أن أكون على علم بأن الفائدة التي تدرها الجنيهات الألف تعتبر عونًا غير كافٍ بالمرة. وتمنيت - أكثر مما اعتقدت - أن يكون صادقًا، ولكنني كنت على أي حال على أتم استعداد لتلبية طلبه. وكنت أعرف أن مستر ويكهام لا يُحب أن يكون كاهنًا. ومن ثم فقد تمت تسوية الموضوع بسرعة،

وتخلى عن كل مطالبه في التمتع بمعونة الكنيسة حتى لو واجه في يوم ما بموقف يدفعه لتلقيها، وأعلن في مقابل ذلك موافقته على استلام مبلغ ثلاثة آلاف جنيه. وبدأ أن كل ما كان بيننا من روابط قد انتهى. وكنت أسيء الظن به لدرجة رفضت معها أن أدعوه إلى «بيمبرلي» أو أقبل صحبته في لندن. وأغلب ظني أنه كان يعيش أساساً في لندن، أما دراسته للقانون فلم تكن إلا ذريعة. أما وقد تحرر من كافة الضوابط، فقد عاش حياة مليئة بالتفاهة والانحلال. ولم أسمع عنه الكثير طوال ثلاث سنوات، ولكن ما إن توفي شاغل المنصب الذي كان قد أُعد له من قبل، حتى طلب مني كتابة أن أوّله لهذا المنصب. وأكد لي أن ظروفه كانت بالغة السوء، وهو قول لم يكن هناك صعوبة في الإيمان بصحته. وقال إنه وجد دراسة القانون غير مربحة تماماً، وإن رأيه قد استقر تماماً على قبول سيامته كاهناً لو أنني زكيت له لشغل المنصب المذكور، وهو أمر لم يكن يشك كثيراً في حدوثه طالما أنه كان على يقين من أنني لا أعول شخصاً آخر خلافه، بالإضافة إلى أنني لا يمكن أن أنسى نوايا والدي المبجل. ولا أظنك لائماً لي على رفضي الموافقة على هذا الرجاء أو مقاومتي لأي إلحاف فيه. وكان استياؤه متناسباً مع ما في ظروف حياته من عسر، وكان دون شك عنيفاً في اغتيابي أمام الآخرين عنفه في توجيه اللوم إلى شخصي. وبعد هذه الفترة انتهى كل مظهر للصدقة بيننا. ولست أعرف كيف كان يعيش، ولكنه اقتحم في الصيف الماضي حياتي

على نحو شديد الإيلام. ولا بد لي أن أذكر الآن حادثة أريد أنا نفسي أن أنساها، ولا يدفعني لكشف النقاب عنها أمام أي إنسان التزام أقل شأنًا من الموقف الحالي. ولست أشك في كتمانك للسرب بعد أن أفضت في كل هذا الحديث. فشقيقتي التي تصغرني بما يزيد على عشر سنواتٍ كانت قد عُهد بها إلى وصايتي ووصاية ابن خالي كولونيل فيتز وليم. ومنذ ما يقرب من عام مضى، أخرجناها من المدرسة ورتبنا لها إقامة في لندن، وذهبت في الصيف الماضي إلى «رامسجيت» بصحبة السيدة التي كانت تشرف على إدارة شؤون منزلها. وإلى هناك شد مستر ويكهام رحاله أيضًا، عن قصد دون شك، فقد ثبت أن علاقة سابقة قد نشأت بينه وبين مسز يونج التي خُدعنا في شخصيتها على نحو مؤسف للغاية. واستطاع من خلال تواطئها وعونها أن يتوحد إلى جورجيانا التي كان قلبها الشفوق يحتفظ بطابع قوي من أثر لطفه معها أيام طفولتها، وأغریت بأن تظن نفسها واقعة في هواه، وأن توافق على الهروب معه. وكانت إذ ذاك في الخامسة عشرة من عمرها، الأمر الذي يبرر سلوكها. ويسعدني أن أضيف -بعد أن بينت نزقها- أنني مدين لها بمعرفة هذه الواقعة. وكنتُ قد لحقتُ بها وبمسز يونج دون ترتيب سابق قبيل يوم أو يومين من الهرب الذي انعقدت النية عليه، وعند ذاك اعترفت لي جورجيانا بكل شيء بعد أن عجزت عن القيام بعمل يستهدف تكدير شقيق والإساءة إليه، هذا الشقيق الذي كانت تضعه في منزلة الوالد.

ولك أن تتصوري بماذا شعرت وكيف تصرفت. وقد حال تقديري
لسمعة شقيقتي وأحاسيسها دون إجراء أي فضيحة علنية. ولكني
كتبت خطاباً إلى مستر ويكهام غادر على أثره المكان، كما عزلت
بالطبع مسز يونج عن وظيفتها. أما هدف مستر ويكهام الأساسي
فكان دون شك الحصول على ثروة شقيقتي وتبلغ ثلاثين ألف
جنيه، وإن كنتُ لا أستبعد أبداً أن يكون أمله في الانتقام مني دافعاً
قوياً على فعلته. والحق أن انتقامه كان يمكن أن يكون تاماً.

هذا هو يا سيدتي سرُّ أمينٍ لكل الأحداث التي كان لها صلة
بكلينا. فإذا لم ترفضي ما قصصته عليك رفضاً باتاً استناداً منك
إلى زيفه، فإني آمل أن تبرئي ساحتي من تهمة القسوة إزاء مستر
ويكهام. ولست أعلم كيف استطاع أن يخدعك، وتحت أي
شكل من أشكال الإفك توصل إليك. ولكن نجاحه في هذا ليس
موضع عجب، طالما أنك لم تكوني قبل هذا على دراية بكل ما
يتعلق بأيِّ منا. وما كان في وسعك أن تكتشفي شيئاً، كما أنك لم
تكوني بالتأكيد ميالة إلى التشكك في أقواله. ولربما تتعجبين لأن
هذا كله لم يسرد على سمعك في الليلة الماضية، ولكني لم أكن
وقتذاك مسيطراً على نفسي على نحو يسمح لي بمعرفة ما يمكن
أو يلزم كشف الستار عنه. وللتثبت من صحة كل ما قيل هنا
أستشهد على وجه الخصوص بشهادة كولونيل فيتز وليم، الذي
لم يكن من الممكن تفادي إطلاعه على تفاصيل هذه الأمور،
وذلك بسبب قرابتنا الوثيقة وعلاقتنا الحميمة؛ بل وبسبب كونه

أحد المنفذين لوصية والدي. فإذا كان مقتك لشخصي يجعل
أقوالي عديمة القيمة، فلا يمكن أن يحول نفس السبب بينك
وبين الثقة في ابن خالي. وحتى تتسنى لك إمكانية استشارته،
فسوف أسعى لانتهاز فرصة ما أسلمك فيها هذا الخطاب أثناء
فترة الصباح. ولن أضيف إلا قولي: فليبارك رب العالمين.

دارسي



الفصل السادس والثلاثون

إذا كانت إليزابيث لم تتوقع أن يحتوي خطاب مستر دارسي - عندما سلمها إياه - تجديدًا لعروضه، فهي كذلك لم تتوقع على الإطلاق أن يشتمل على ما اشتمل عليه من موضوعات. أما وقد حوى الخطاب هذه المشكلات، فيحق للمرء أن يتصور اللفظة التي انتقلت بها من حادثة لأخرى، والتضارب الذي أثارته هذه الموضوعات في مشاعرها. وكان من العسير تحديد أحاسيسها أثناء تلاوتها الخطاب. فقد تولتها الدهشة في أول الأمر إذ فهمت من خطابه أنه يعتقد بأن في وسعه تقديم أي اعتذار، وسرعان ما اقتنعت بأنه لا يملك أي شرح لموقفه إلا ويحاول تكتمه أي امرئ يستشعر أحاسيس الخجل. وبدأت تلاوة روايته لما كان قد جرى في «نيدر فيلد» وقد استبد بها سوء الظن بكل ما كان يمكن أن يقول. وقرأت بلهفة لم تكد تترك لها قدرة على الفهم. ولما كانت نافذة الصبر لمعرفة ما يمكن أن تأتي به الجملة اللاحقة، فقد عجزت عن الانتباه للمعنى الكامن في الجملة التي يقع عليها بصرها. وحكمت في التوبزيف اعتقاده في جمود مشاعر شقيقتها؛ أما ما رواه عن الاعتراضات الحقيقية والبالغة السوء التي أثارها ضد إتمام الزواج فقد دفعته إلى سورة غضب شديد رغبت بمقتضاه عن تقدير موقفه

تقديرًا عادلاً. فلم يعبر عن أي أسف لما فعله، مما كان يمكن أن يرضي خاطرهما، كذلك لم يكن في أسلوبه ندم، بل كان متعاليًا. لقد كان خطابه كله مثالاً للكبرياء والوقاحة.

ولكن عندما أعقب هذا الموضوع روايته عن مستر ويكهام -عندما قرأت بذهن أكثر صفاء إلى حد ما سردًا لأحداث لا بد أن تطيح -في حالة صدقها- بكل ما تعنز به من آراء عن استحقاقه وفضله، هذه الأحداث التي كانت تحمل شبهًا وثيق الصلة لحد الإزعاج بما حكاه هو نفسه عن تاريخ حياته -استشعرت من الأحاسيس ما كان أشد إيلاّمًا وأشدّ عصيًّا على التحديد. وجثمت على أنفاسها مشاعر الدهشة والخوف، بل الرعب أيضًا. وودت لو كذبت ما قرأته تكذيبًا قاطعًا، وأخذت تهتف مرارًا: «هذا كلام زائف! هذا محال! حتمٌ أن يكون هذا زيفًا جسيمًا!». وعندما انتهت من تلاوة الخطاب كله، برغم أنها كانت لا تكاد تذكر شيئًا عن الصفحة الأخيرة أو الصفحتين، أبعدته عن عينيها بسرعة، عازمة على ألا تضع له اعتبارًا أو تنظر إليه ثانية.

واستمرت في سيرها وذهنها في هذه الحالة المضطربة، مشغولة بأفكار لا تستقر على شيء. ولكن لا فائدة، فلم يمضِ نصف دقيقة، حتى فتحت الخطاب من جديد. وبعد أن ضبطت مشاعرها بأقصى ما تستطيع، شرعت ثانية في القراءة المكدرّة لكل ما تعلق بويكهام، وسيطرت على نفسها حتى يتسنى لها فحص المعنى الكامن في كل جملة. وكان عرض علاقته بأسرة «بيمبولي» مطابقًا لما حكاه هو نفسه، كما كان كرم المغفور له مستر دارسي -برغم أنها لم تكن تعلم من

قبل مداه- متفقاً بالمثل مع ما قاله في هذا الشأن. وإلى هنا كانت كل حكاية تؤكد الأخرى؛ ولكن عندما وصلت في تلاوتها إلى الوصية، كان الاختلاف عظيمًا. وكان ما قاله ويكهام عن المنصب الكنسي حيًا في ذاكرتها؛ وإذ أخذت تستعيد نفس كلماته، كان من المحال ألا تشعر بوجود خداع خطير في أحد الجانبين. ومضت عليها بضع لحظات أخذت فيها تمنى النفس بأن أمنياتها لم تكن ضحية الخطأ. ولكن عندما قرأت مرة بعد أخرى -بأشد ما تستطيع من انتباه- ما تلا ذلك مباشرة من تفاصيل حول تخلي ويكهام عن كل مطالبه فيما يختص بالمنصب، وحول تسلمه عوضًا عن ذلك مبلغًا يصل في ضخامته إلى ثلاثة آلاف جنيه، اضطرت أن تتوقف من جديد مترددة. وأبعدت الخطاب، وأخذت تزن كل حادثة مستنيرة بما كانت تستهدفه من موضوعية في البحث، وأمعنت الفكر في كل عبارة لتستشف ما بها من احتمال الصدق، ولكن دون أن تصيب نجاحًا يذكر. فلم يزد الأمر على أن يكون مجرد تأكيدات يتقدم بها كل من الجانبين. واستأنفت القراءة من جديد. ولكن كل سطر أخذ يثبت لها بشكل أكثر اتضاحًا أن المسألة التي كانت تعتقد بإمكان تصويرها على نحو يجعل سلوك مستر دارسي بشأنها مشينًا، قد اتخذت شكلًا يحتم إبراء ساحته تمامًا في كل ما رواه.

وُصِّدَت مشاعرها إلى حد بعيد لتهمتي الإسراف والفجور اللتين لم يتورع عن إلحاقهما بشخصية مستر ويكهام، وضاعف من أثر الصدمة أنها لم تستطع أن تجد من البراهين ما يثبت عسف هاتين التهمتين. فلم تكن قد سمعت عنه شيئًا قبل التحاقه بفرقة «الميليشيا» التي انضم

إليها بعد إلحاح من الشاب الذي التقى به عرضًا في لندن، فجدد معه معرفة سطحية سابقة. ولم يعرف في «هارتفوردشير» شيئًا عن طريقة حياته فيما مضى باستثناء ما رواه هو نفسه. أما فيما يختص بشخصيته الحقيقية، فحتى لو كان في استطاعتها التوصل إلى معلومات كافية، لما شعرت بالرغبة في الاستسفار عنها. فقد أوحى ملامح وجهه ونبرات صوته ولون طباعه لأول وهلة بأنه يحظى بكافة الفضائل. وحاولت أن تذكر مثالًا على طيبة قلبه أو صفة مميزة تشهد على سمو خلقه أو نزعة الخير، الأمر الذي يساعد على إنقاذه من هجمات مستر دارسي، أو يكفر على أقل تقدير -بمقتضى رجحان كفة الفضيلة عنده- عن تلك الأخطاء العارضة التي كانت تود جاهدة لو أدرجت في نطاقها ما أسماه مستر دارسي بالتفاهة والفساد اللذين استمرّا سنوات طويلة. ولكن لم يسعفها استعادة شيء من هذا. وكان بوسعها أن تسترجع صورته في الحال، بكل ما توحى به من سحر اللحظ واللفظ، ولكنها عجزت عن تذكر أي شيء طيب له قيمته أكثر مما أثاره وجوده في المنطقة من استحسان عام ومن اعتزاز كسبه بناء على ما يتمتع به من مكانة اجتماعية عمومًا. وبعد أن توقفت عند هذه النقطة فترة طويلة استأنفت القراءة من جديد. ولكن، وا أسفاه! فقد كان لما تبع ذلك من قصة احتياله على مس دارسي سند من الواقع على أساس ما دار بينها وبين كولونيل فيتز وليم في صباح اليوم السابق؛ وأخيرًا ها هي ذي تُحال إلى كولونيل فيتز وليم نفسه للتثبت من صحة كل التفاصيل، وهو الذي أبلغها فيما سبق بخبر اهتمامه الوثيق بكل شؤون ابنة عمته، والذي لا يدفعها أي دافع

للارتياح فيه. وفي لحظة كادت تحسم أمرها على اللجوء إليه، ولكنها استبعدت هذه الفكرة لما بدا في هذا اللجوء من حرج، وطردتها في آخر الأمر من ذهنها تمامًا لاعتقادها بأن مستر دارسي ما كان يمكن أن يخاطر بمثل هذا الاقتراح لو لم يكن واثقًا تمام الثقة من تعزيز ابن خاله لقوله.

وكانت تتذكر تمامًا كل ما جرى في الحديث الذي دار بينها وبين ويكهام في المساء الذي شهد لقاءهما الأول في منزل مستر فيليبس. وكان الكثير من تعبيراته لا يزال حيًا في ذاكرتها. وصدمتها الآن مظاهر عدم اللياقة في تلك المعلومات التي أفضى بها عند ذاك إلى إنسانة غريبة عليه، واستبد بها العجب إذ فاتها ملاحظة ذلك من قبل. واستلفت نظرها سماجة ما أقدم عليه من فرض نفسه وتناقض ادعاءاته مع سلوكه. وتذكرت أنه كان قد افتخر بعدم تخوفه من رؤية مستر دارسي، وبأن مستر دارسي قد يغادر الريف كليةً، أما هو فسوف يلزم مكانه لا يريم، ومع ذلك فقد تفادى الحفل الراقص الذي أُقيم في «نيدر فيلد» في نفس الأسبوع. كذلك فقد تذكرت أنه لم يقصّ قصته على شخص سواها قبل مغادرة أسرة «نيدر فيلد» للريف، وأن هذه القصة أصبحت موضوع نقاش في كل مكان بعد رحيل أفراد الأسرة، وأنه آنذاك لم يلقَ من الحواجز أو الوسائس ما يمنعه من تلطّيح شخصية مستر دارسي، برغم أنه كان قد أكد لها أن ما يكنه للوالد من احترام يحول دائمًا بينه وبين فضح ولده.

أي اختلاف لوّن الآن كل ما كان يتعلق بشخصه! لقد بدت لها الآن اهتماماته بمس كينج ناشئة عن اتجاهات بغیضة وجشعة ليس إلا. أما ضالة ثروتها فلم تعد دليلًا على اعتدال رغباته، بل برهانًا على شغفه

بالاستيلاء على أي شيء. ولم يكن سلوكه معها هي نفسها ليوحي الآن بأي باعث معقول. فإما أن يكون قد خُدع فيما يختص بمقدار ثروتها، وإما أن يكون قد سعى إلى إرضاء غروره عن طريق تشجيع ميلها إليه، وهو الميل الذي اعتقدت الآن أنها افتقدت تمامًا الحذر في الإبانة عنه. وأخذ كل ما تبقى من مظاهر النضال دفاعًا عنه يشحب شيئًا فشيئًا، ولم تملك -في محاولتها تبرير سلوك مستر دارسي- إلا أن تقر بأن مستر بينجلي قد أكد منذ زمن بعيد -ردًا على سؤال جين- عدم استحقاقه للوم فيما يختص بهذا الموضوع، وبأنها طوال فترة معرفتهما لبعضهما بعضًا -وهي معرفة جمعت بينهما كثيرًا في الأيام الأخيرة، وزودتها بنوع من الدراية الوثيقة بطباعه- لم تَرَ على الإطلاق (برغم سلوكه المتكبر المنفر) ما يوحي بأنه إنسان لا يقيم للمبادئ أو العدالة وزنًا، أو لا يضع للدين أو الأخلاق اعتبارًا؛ وبأنه كان ضمن معارفه وأصدقائه موضع تقدير وتبجيل، وبأن ويكهام نفسه قد أشاد بفضله كشقيق؛ وبأنها كثيرًا ما سمعته يتحدث عن أخته بحنوٍّ، مما يثبت أن في وسعه الإحساس بمشاعر الود؛ وبأنه لو كانت تصرفاته على النحو الذي صورها به ويكهام، فما كان يمكن لمثل هذا الانتهاك الخطير لكل ما هو حق أن يختفي عن أنظار العالم؛ وبأن قيام الصداقة بين شخص يفعل هذا وبين رجل رقيق الحاشية مثل مستر بينجلي هو أمر غير معقول.

وخجلت من نفسها إلى أبعد الحدود. ولم تستطع أن تفكر في أي من دارسي أو ويكهام دون أن تشعر بأنها كانت كفيفة البصر ومتحيزة ومتحاملة وسخيفة.

وهتفت قائلة: «يا لدناءة تصرفاتي؛ أنا التي كنت أتبه فخراً بحصافتي، أنا التي أعليت من شأن نفسي بسبب مواهبي، والتي كثيراً ما ازدريت ما جُبلت عليه أختي من سماحة، وأرضيت غروري بأحاسيس الريبة التي لا يُرجى من ورائها نفع أو التي تستحق لوم اللائمين! يا للهوان الذي يلحقه بي هذا الاكتشاف! ومع ذلك فيا له من هوان عادل! لو أنني كنت عاشقة، لما كان يمكن أن يكف بصري على نحو أتعس مما حدث لي. ولكن حماقتي كانت غروراً لا غراماً. فإذ غمرني السرور حين مال أحدهما إليّ، وتولاني الاستياء حين تجاهلني الآخر، فقد ملت في بدايات معرفتنا إلى التحامل والجهالة، طاردة ما يستلزمه حسن الإدراك للأمور، وذلك حينما كنت أتدبر علاقتي بهذا وذاك. لم يسبق لي أبداً أن اكتشفت نفسي قبل الآن».

وانتقلت أفكارها من نفسها إلى جين، ومن جين إلى بينجلي، وسرعان ما ذكرها ذلك بأن تفسير مستر دارسي لهذا الموضوع قد بدا لها غير كافٍ بالمرة؛ وأعادت قراءة هذا الجزء من الخطاب. وكان التأثير الناشئ عن القراءة الثانية مختلفاً أشد الاختلاف. فكيف يتسنى لها أن تنكر الصدق على تأكيدات في حالة معينة، بينما اضطرت إلى الاعتراف به في حالة أخرى؟ لقد صرّح بأنه لم يستشفّ على الإطلاق أي مظهر لتعلق شقيقتها بصديقه؛ ولم تملك إلا أن تتذكر في هذا المقام ما كانت تفصح به شارلوت من آراء دائمة. كذلك لم تستطع إنكار ما في وصفه لجين من إنصاف، وشعرت أن أحاسيس جين -برغم توقدها- لم تجد سبيلها إلى الظهور إلا بشكل طفيف، وأن هيئتها وطبعها قد كشفا عن سكونية راضية نادراً ما ترتبط مع المشاعر الجياشة.

وعندما وصلت إلى ذلك الشطر من الخطاب الذي ورد فيه ذكر أسرتها بكلمات ملؤها لوم يورث الكمد (وإن كان في محله)، تضاعف إحساسها بالخجل. وصدمتها عدالة الاتهام بعنف عجزت معه عن الإنكار؛ أما الأحداث التي أشار إليها بنوع خاص، كتلك التي جرت في الحفل الراقص الذي أُقيم في «نيدر فيلد»، والتي عززت كل دوافع استنكاره الأولى، فقد تركت على ذهنها من الأثر أقوى مما تركت على ذهنه.

ولم يفتها ملاحظة الشاء الذي اختصها به هي وشقيقتها. وخفف هذا الشاء عما بها، وإن لم يعزها عن الاحتقار الذي اجتذبه بقية أفراد أسرتها إلى أشخاصهم. ولما خطر ببالها أن ما لحق بجين من خيبة أمل قد نشأ في الواقع من تصرفات أوثق أقربائها لها، وعندما فكرت في مدى الأذى العظيم الذي لا بد أن يصيب مآثرهما معًا من جراء مثل هذا السلوك غير اللائق، شعرت بكآبة لم تشعر بها من قبل.

وبعد أن قضت ساعتين تتجول في الممر تراودها شتى الأفكار، وتستزيد من تدبر الأحداث، وتحسم أمرها في كل الاحتمالات، وتُكيّف نفسها بقدر إمكانها لمثل هذا التغير المفاجئ الهام، عاد بها إلى البيت آخر الأمر تَعَبٌ مُنْهَكٌ، بالإضافة إلى ما تذكرته من غيابها الطويل. ودلفت إلى المنزل تحدوها رغبة في الظهور بمرحها المؤلف، وعزم على كبح زمام تلك الأفكار التي لا بد أن تجعلها غير مهيئة للحديث.

وقيل لها على الفور إن سيدي روزينجز قد جاء - كل بمفرده -
لأداء واجب الزيارة، وأن مستر دارسي لم يبقَ إلا بضع دقائق مستأذناً في
الرحيل، أما كولونيل فيتز وليم فقد قضى معهم ساعة على الأقل أملاً
في عودتها، وكاد أن يقرر السعي في أثرها حتى يعثر عليها. ولم يكن
في وسع إليزابيث إلا أن تتكلف الاهتمام بافتقاده؛ ذلك أنها كانت في
الحق قد سعدت بذهابه؛ فلم يعد كولونيل فيتز وليم موضع اهتمامها.
أما فكرها كله فقد كان مشغولاً بالخطاب الذي في حوزتها.



الفصل السابع والثلاثون

غادر السيدان «روزينجز» في صباح اليوم التالي. ولما كان مستر كولنز قد اتخذ مكانه في انتظارهما على مقربة من المنزل حتى يُقدّم لهما عند رحيلهما آيات ولائه، فقد تسنى له أن يعود إلى البيت بأخبار سارة عن تمتعهما بأحسن صحة، وبروح مرحة نوعًا بالنظر إلى المشهد الحزين الذي جرى مؤخرًا في «روزينجز». ثم هروا إلى «روزينجز» ليقدم عزاءه إلى ليدي كاثرين وابنتها، وحمل معه وهو راضي النفس عند عودته رسالة من سيادتها تشير فيها إلى شعورها بالابتئاس الشديد، مما جعلها متلهفة على دعوتهم جميعًا لتناول الغداء معها.

ولم تستطع إليزابيث أن ترى ليدي كاثرين دون أن تذكر أنه كان يمكن لها -لو شاءت- أن تقدّم إليها في هذا الوقت بصفتها زوجة ابن أختها في المستقبل؛ كما لم تستطع أن تفكر -دون ابتسام- فيما كان يمكن أن يكون عليه غضب سيادتها. ووجدت تسلية في هذه التساؤلات: «ماذا كان يمكن أن تقول؟ وكيف كان يمكن أن تتصرف؟».

وكان أول موضوع للحديث هو النقص في عدد أفراد جماعة «روزينجز». وقالت ليدي كاثرين:

- ثقوا أنني شديدة الإحساس بهذا الوضع. لا أظن أن هناك مَنْ يشعر بفقدان الأهل مثلما أشعر. ولكني متعلقة بنوع خاص بهذين الشابين، وأعلم أنهما متعلقان بي بنفس الدرجة. لقد كانا آسفين جدًا على الرحيل، ولكنهما دائمًا ما يشعران بذلك. لقد استجمع الكولونيل العزيز نفسه نوعًا ما حتى قبيل آخر لحظة؛ أما دارسي فقد كان شديد الحساسية، بل أشد حساسية من العام الماضي. إن ارتباطه «بروزينجز» يتزايد ولا شك.

وهنا فاه مستر كولنز بكلمتي ثناء وتلميح، تفضلت الأم وابنتها بالابتسام لدى استماعهما لهما.

وعبرت ليدي كاثرين بعد الغداء عن رأيها بأن مس بينت كانت مكتئبة نوعًا. وبعد أن بررت ذلك في الحال بزعمها أنها لم تكن ترغب في العودة إلى منزلها ثانية بهذه السرعة، أضافت قائلة:

- ولكن إذا كان هذا صحيحًا، فحتمً عليك أن تكتبي إلى والدتك راجية منها الموافقة على بقاءك فترة أخرى. وإني واثقة أن مسز كولنز سوف تكون شديدة السعادة بصحبتك.

وأجابت إليزابيث قائلة:

- إني ممتنة جدًا لسيادتك على دعواتك الطيبة، غير أنه ليس في وسعي قبولها، فلا بد أن أكون في لندن يوم السبت المقبل.

- بهذا إذن تكونين قد قضيت هنا ما لا يزيد على ستة أسابيع. لقد توقعت أن تقضي شهرين، وقلت هذا لمسز كولنز قبل مجيئك. ليس

هناك داع لسفركِ بمثل هذه السرعة. ولا شك أن مسز بينت تستطيع أن تبقى من دونكِ أسبوعين آخرين.

- ولكن والدي لا يستطيع ذلك. لقد أرسل إليّ في الأسبوع الماضي خطابًا يتعجل فيه عودتي.

- إن أباك يستطيع بالطبع أن يستغني عنكِ إذا استطاعت أمكِ ذلك. إن البنات لسن بذوات أهمية كبيرة بالنسبة للوالد، وإذا بقيتما شهرًا آخر بالتمام والكمال، فسيكون بوسعي أن أصطحب إحداكما معي إلى لندن؛ إذ إنني ذاهبة إلى هناك في بداية شهر يونيو لقضاء أسبوع. وسيكون هناك مكان مناسب تمامًا لإحداكن في العربة لو لم يعترض الحوذي دوسون على ذلك. والحق أنه إذا كان الجو لطيفًا فلن أعترض على اصطحابكما معًا، فأنتما نحيلتان.

- إنكِ شديدة الكرم يا سيدتي، ولكني أعتقد أننا يجب أن نلتزم بخطتنا الأصلية.

وبدا على ليدي كاثرين الامتثال للأمر.

- يجب عليكِ يا مسز كولنز أن تبعثي معهما بخادم. أنتِ تعرفين أنني أصرح دائمًا بما في فكري، ولست أحتمل فكرة سفر آنستين بمفردهما. هذا غير لائق تمامًا. يجب أن تجدي وسيلة ترسلي بها أحدهما لمرافقتهما. إنني أمقت هذا السفر المنفرد أشد المقت. فعلى الأنسات أن يوضعن دائمًا تحت الرعاية والاهتمام المناسبين، بمقتضى ما يستلزمه مركزهن في المجتمع. وعندما ذهبت ابنة أختي جورجيانا إلى «رامسجيت» في الصيف الماضي ألححت في ضرورة سفرها مصحوبة بخادمين. فمس

دارسي ابنة مستر دارسي صاحب «بمبرلي»، وليدي آن لم تكن لتستطيع الظهور على نحو لائق بطريقة غير هذه. إنني شديدة الالتفات لكل هذه الأمور. ولذلك يلزم عليك إرسال جون مع الآنستين يا مسز كولنز. إنني سعيدة إذ خطر ببالي أن أذكر هذا الموضوع، فالحق أنه لمما يعيبك أن تدعيهما تسافران بمفردهما.

- سوف يبعث خالي بخادم لاصطحابنا.

- خالك! إنه يستخدم خادمًا، أليس كذلك؟ إنني سعيدة جدًا لأن لديك من يفكر في هذه الأمور. وأين ستستبدلون الجياد؟ في «بروملي» طبعًا. لو أُلححت إلى اسمي في حانة «الجرس»، فلسوف يستقبلكما الناس هناك باهتمام.

ووجهت ليدي كاثرين أسئلة أخرى متعددة تختص برحلتها. ولما لم تكن إليزابيث مكلفة بالإجابة عنها جميعًا، فقد فرض عليها الإصغاء فرضًا، الأمر الذي رأت فيه دلالة على حسن حظها، وإلا لكانت قد افتقدت مسار الحديث وهي على هذه الحال من انشغال البال. وكان على التأمل أن يُخترن لساعات الوحدة. وكلما وجدت نفسها وحيدة أسلمت زمامها لهذا التأمل؛ إذ كان فيه راحة لنفسها عظيمة. ولم يمر عليها يوم دون أن تتنزه منفردة وتنغمس في الاستمتاع باستعادة كل الذكريات المؤلمة.

ولم تلبث أن حفظت خطاب مستر دارسي عن ظهر قلب تقريبًا. ودرست كل جملة؛ وكانت مشاعرها تجاه كاتبه تتباين في بعض الأحيان تباينًا شاسعًا. فعندما كانت تتذكر الأسلوب الذي خاطبها به كانت تفور

بالغضب؛ أما عندما كانت تتدبر مدى الإجحاف الذي أدانته به ووبخته، ارتد غضبها إليها، واستحالت مشاعره التي خاب رجاؤها هدفًا لعطفها. لقد أثار تعلقه بها امتنانها، كما أثارت شخصيته احترامها. ولكنها لم تستطع أن ترضى عنه، كما أنها لم تستطع -ولو للحظة واحدة- أن تندم على رفضها له أو تشعر بأدنى رغبة في أن تراه ثانية على الإطلاق. وكان سلوكها فيما مضى مصدرًا دائمًا للكدر، كما كان في النقائص المؤسفة التي اتسم بها أفراد أسرتها ما يدعو لغمٍّ أقسى وأشد. لقد كان صلاحهم ميؤوسًا منه. فوالدها الذي كان قانعًا بالسخرية من هذه النقائص لم يكن يبذل جهدًا لكبح نوازع الاستهتار المفرط عند بناته الصغيرات. أما أمها فلم تكن على الإطلاق تشعر بالأذى وهي التي تسلك سلوكًا أبعد ما يكون عن الصواب. وكثيرًا ما كانت إليزابيث توحد جهودها مع جين في محاولة لكبح ما فُطرت عليه كاترين وليديا من نزق وطيش. ولكن أين هي فرصة الرقي لحالة أفضل في الوقت الذي تجدان فيه المساندة من تدليل أمهما؟ فكاترين وهي على ما هي عليه من ضعف الشخصية وسرعة الهياج وخضوع تام لتوجيه ليديا، كانت دائمًا ما تستاء لنصحهما؛ أما ليديا العنيدة المهملة فنادرًا ما كانت تنصت إليهما. لقد كانتا جاهلتين تافهتين تياهتين. فطالما كان هناك ضابط في «ميريتون» كانتا تدأبان على مطارحته الغرام؛ وطالما كانت «ميريتون» على مقربة من «لونجبورن»، كانتا لا تنقطعان عن الذهاب إلى هناك باستمرار.

وكان قلقها على جين سببًا آخر من أسباب اضطراب نفسها. وأدت تفسيرات مستر دارسي -التي أعادت بينجلي إلى ما مضى من حسن

ظنها به- إلى تعميق إحساسها بما فقدته جين. لقد ثبت أن حبه كان صادقًا، وأن سلوكه كان خاليًا من كل ما يستوجب اللوم، اللهم إلا لو أخذ عليه ما أضمره من ثقة مطلقة في صديقه. فأى فكرة محزنة إذن، أن تحرم جين -بسبب حماقة أفراد أسرتها وسوء سلوكهم- من وضع مناسب من جميع النواحي، مفعم بالمزايا، مبشر بالسعادة!

وعندما أضيفت إلى هذه الذكريات ما ظهر لها من شخصية ويكهام، فلا يصعب على المرء أن يتصور أن الروح الطروب التي نادرًا ما وقعت من قبل ضحية للكآبة قد تأثرت الآن على نحو يكاد يصبح معه من المحال أن تظهر شيئًا من المرح.

وفي خلال الأسبوع الأخير من إقامتها، كانت ارتباطاتهم «بروزينجز» بنفس الكثرة التي كانت عليها في أول الأمر. كذلك فقد قضوا المساء الأخير هناك؛ وأعادت سيادتها الاستفسار بدقة عن تفاصيل رحلتها، وزودتهما بإرشادات عن أفضل طرق حزم المتاع، كما ألحت على ضرورة وضع الملابس بالطريقة الوحيدة الصحيحة، الأمر الذي أحست معه ماريا -عند عودتها- بضرورة إلغاء كل ما فعلته في الصباح والبدء في ترتيب الحقيبة من جديد.

وعندما افترقوا تفضلت ليدي كاثرين فتمنت لهما رحلة طيبة ودعتهما للمجيء إلى «هنسفورد» ثانية في العام المقبل، أما مس دي بورو فقد بذلت من الجهد ما حدا بها إلى الانحناء لهما، ومد يدها للسلام.

الفصل الثامن والثلاثون

في صباح يوم السبت التقت إليزابيث بمستر كولنز في موعد تناول الإفطار قبيل ظهور الآخرين ببضع دقائق؛ وانتهاز هو هذه الفرصة لأداء تحيات الوداع التي كان يراها من أُلزام الأمور. وقال:

- لست أدري يا مس إليزابيث ما إذا كانت مسز كولنز قد عبرت عن شعورها بما في قدومك إلينا من كرم. ولكنني واثق تمام الثقة من أنك لن تغادري المنزل دون تلقي شكرها على ذلك. وأؤكد لك أننا شعرنا شعورًا عميقًا بما تفضلت علينا به من صحبتك. فنحن نعرف ضالة ما نغري به أي إنسان على زيارة مسكننا المتواضع. فأسلوبنا البسيط في العيش وحجراتنا الصغيرة وخدمنا القليلون وانعزالنا عن العالم، كل ذلك لا بد أن يجعل «هنسفورد» مملة إلى أبعد حد بالنسبة لآنسة في مثل وضعك. ولكنني أرجو أن تقدرى امتناننا لتنازلك وسعينا بكل ما في استطاعتنا حتى نجنبك أي كدر في قضاء وقتك.

وأخلصت إليزابيث في شكرها وتأكيداتهما بما جنته من سعادة. فقد قضت ستة أسابيع في متعة عظيمة؛ كما أن بهجة وجودها مع شارلوت والاهتمام الرقيق الذي لقيته لا بد أن يجعل الشعور بالامتنان من نصيبها هي. وشعر مستر كولنز بالرضى لهذا القول، وأجاب وقد ابتسم في وقار:

- إنه لمن دواعي سروري العظيم أن أسمع أنك لم تقضِ وقتك في ضيق. فقد بذلنا كل ما وسعنا دون شك. ولما كان من حسن حظنا أن استطعنا تقديمك إلى أناس ذوي مكانة عالية، ولما كانت هناك صلات بيننا وبين «روزينجز»، الأمر الذي غير كثيرًا من مشهدنا المنزلي المتواضع، فأظن أن من حقنا أن نميّ النفس بأن زيارتك «لهنسفورد» لم تكن مملة على طول الخط. فوضعنا بالنسبة لأسرة ليدي كاثرين يعتبر نعمة وامتيازًا غير عاديين لا يفاخر بهما إلا القليلون. فأنت ترين مركزنا، وترين دوام ارتباطنا بالدعوات هناك. ولا بد في الحق أن أعترف بأن أي امرئ يعيش في هذه الأبرشية المتواضعة بما فيها من مساوئ، لا يصح أن يستشير في الناس نوازع العطف والشفقة طالما كان يشاركنا التمتع بصلاتنا الوثيقة بأسرة «روزينجز».

ولم تكفِ الكلمات للتعبير عن سمو مشاعره، فاضطر إلى أن يذرع الحجرة جيئةً وذهابًا، بينما حاولت إليزابيث أن تجمع بين المجاملة والصدق في بضع جمل قصيرة.

- لسوف تحمليين يا ابنة عمي العزيزة أخبارًا طيبة جدًا عنا إلى «هارتفوردشير». وإني لأمني النفس على الأقل بأنك سوف تستطيعين أن تفعلي ذلك. لقد شهدت في كل يوم اهتمام ليدي كاثرين العظيم بمسز كولنز. وإني أثق تمامًا بأن صديقتك لم تكن سيئة الحظ في... ولكن من الأفضل ألا نتحدث في هذا الموضوع. دعيني فقط أؤكد لك يا عزيزتي مس إليزابيث أنني أتمنى لك مخلصًا من أعماقي قلبي سعادة في الزواج تكافئ سعادتها. فعزيتي شارلوت وأنا نتفق في نفس الرأي

وفي نفس طريقة التفكير. وهناك تشابه ملحوظ في كل شيء بيننا سواء من ناحية الشخصية أو الأفكار. إن كلاً منا يبدو كأنه قد خُصَّص للآخر. وأمكن لإليزابيث أن تقول وهي مطمئنة إن هذا الحال يبعث على شعور عظيم بالسعادة، كما استطاعت أن تضيف قائلة -بنفس النية المخلصة- إنها تؤمن إيماناً راسخاً بكفاية ما في منزله من وسائل الراحة، وإنها تتهلل فرحاً لها. على أنها لم تأسف حين قوطع تعداد هذه الوسائل بدخول السيدة التي كانت مصدرًا لها. يا لشارلوت المسكينة! لقد كان مما يحزنها أن تتركها في هذا الجو. ولكنها اختارته وهي مدركة تمامًا لما تفعل. وبرغم أن شارلوت كانت آسفة بشكل واضح لرحيل ضيفتيها، إلا أنه لم يَبْدُ في مظهرها ما يوحي بحاجتها إلى العطف والإشفاق. فبيتها وإدارتها لشؤونها، وسكان أبرشيتها وطيورها الداجنة، وكل ما يتعلق بذلك من اهتمامات، لم يكن حتى هذا الوقت قد فقد مفاته.

وأخيراً وصلت العربة، فشدت إلى هيكلها الحقائق ووضعت بداخلها اللفائف، وتهيأت للرحيل. وصحب مستر كولنز إليزابيث إلى العربة بعد أن قام بين الصديقتين وداع حار. وبينما كانا يذرعان الحديقة، كلفها بإبلاغ أسمى احتراماته لجميع أفراد أسرتهما، دون أن ينسى تشكراته لما لقيه من كرم أثناء إقامته في «لونجبورن» في الشتاء الماضي، وكذلك تحياته لمستر جاردنر وزوجته برغم أنه كان يجهل عنهما كل شيء. ثم ساعدها على الصعود إلى العربة وتبعها ماريًا. وأوشك الباب أن يغلق عليهما حين ذكرهما فجأة -وقد بان عليه بعض

الذكر - أنهما قد نسيتا أن تتركا أي رسالة لسيدتي «روزينجز». وأضاف يقول:

- ولكنكما تريدان بالطبع إيصال احتراماتكما المتواضعة إليهما بالإضافة إلى امتنانكما لما أبدياه من كرم إزاءكما أثناء إقامتكما هنا. ولم تعترض إليزابيث على ذلك، وعندئذٍ سمح للباب بالانغلاق، وانطلقت العربّة في سيرها.

وهتفت ماريا قائلة بعد صمت دام بضع دقائق:

- عجباً! لا يبدو أنه قد مر على مجيئنا إلى هنا إلا يوم أو يومان، ومع ذلك فما أكثر ما جرى من أحداث! وقالت رفيقتها وهي تتنهد:

- أحداث كثيرة فعلاً.

- لقد تناولنا طعام الغداء في «روزينجز» تسع مرات بالإضافة إلى دعوتنا إلى الشاي مرتين! ما أكثر ما سأقص من أحداث! وأضافت إليزابيث قولها لنفسها: «وما أكثر ما سأكتتم أنا من أخبار!».

وانقضت رحلتها دون حديث كثير ودون أي إزعاج. ولم تكد تمضي أربع ساعات على مغادرتها «لهنسفورد»، حتى وصلا إلى منزل مستر جاردنر حيث كان من المقدر لهما أن تقضيا بضعة أيام.

وبدت جين في خير حال، وإن لم تجد إليزابيث الفرصة الكافية لتفحص حالتها المعنوية وسط مظاهر التسلية المتعددة التي اختصتها

بها زوجة خالها بما جُبلت عليه من كرم. بيد أنه كان من المفروض أن تعود معها جين إلى المنزل، وفي «لونجبورن» سيتوافر الوقت الكافي للملاحظة الدقيقة.

وفي غضون هذه الفترة بذلت من الجهد قدرًا كبيرًا حتى تستطيع الانتظار إلى أن تعودا إلى «لونجبورن»، فتبوح إذ ذاك لشقيقتها بما قدمه مستر دارسي من عرض للزواج بها. وكانت معرفتها بأن في وسعها إذاعة ما يمكن أن يثير دهشة جين إلى أبعد الحدود، وأن يرضى حتمًا، وفي نفس الوقت أشد الرضى كل ما تبقى لها من خيلاء لم تستطع حتى ذلك الحين أن تتخلص منه بأسانيد المنطق، كل ذلك كان بمثابة إغراء قوي يدفعها إلى الإفشاء بما عندها. ولم يحُلْ دون انطلاقها في الحديث إلا حالة التردد التي أحست بها من حيث مدى ما يمكن أن تصرح به، بالإضافة إلى خشيتها من استطرادها -فيما لو فتحت الموضوع- إلى التصريح بشيء عن بينجلي، الأمر الذي لن يؤدي إلا إلى مضاعفة أحزان شقيقتها.



الفصل التاسع والثلاثون

كان ذلك في الأسبوع الثاني من شهر مايو حين بدأت الأنسات الثلاث رحلتهم معاً من «جريستشيرتش ستريت» قاصدات مدينة.. في «هارتفوردشير». وما إن اقتربت بهن العربية من الحانة المحددة التي كان من المفروض أن تلتقي بهن عندها عربية مستر بينت، حتى لاحظن الحال -مما يدل على دقة الحوذي في المحافظة على مواعده- أن كيتي وليديا تطلان من نافذة إحدى حجرات الطعام في الطابق الثاني. وكانت هاتان قد قضيتا ما يزيد على ساعة في هذا المكان، سعدتا فيهما بزيارة محل لبيع القبعات على الناحية الأخرى من الطريق، وبمشاهدة الديدبان في نوبة حراسته، وبإعداد أطباق السلطة والخيار.

وبعد أن رحبتا بشقيقتيهما، بسطتا منتصرتين مائدة صُفِّ عليها من أنواع اللحم البارد ما تستطيع أن تقدمه عادة خزائن الطعام في أي حالة، وهتفتا قائلتين:

- أليس هذا جميلاً؟ أليست هذه مفاجأة لطيفة؟

وأضافت ليديا قائلة:

- غرضنا أن نستضيفكن جميعاً، ولكن يجب أن تقرضنا المال اللازم، فقد أنفقنا نقودنا في ذلك المحل. (ثم أطلعتهم على مشترياتها) انظرن إلى هذه، لقد ابتعت هذه القبعة؛ لا أظن أنها جميلة جداً ولكني رأيت ألا ضرر من شرائها. سوف أمزقها قطعاً صغيرة حال وصولي إلى المنزل لأرى ما إذا كان يمكن أن أصممها بشكل أفضل مما هي عليه! وعندما ذمت شقيقتهاها القبعة لمنظرها القبيح، أضافت قائلة بعدم اكتراث كامل:

- ولكن المحل كان به قبعتان أو ثلاث أشد من هذه قبعًا. عندما اشتري قطعة من قماش الساتان ذي الألوان الجميلة لأزينها بها من جديد، ستصبح فيما أظن معقولة جداً. وبالإضافة إلى هذا فلن يكون هناك أي قيمة لما سنرتديه في هذا الصيف بعد أن تغادر فرقة... «ميريتون»، ويرحل أفرادها في بحر أسبوعين.

وصاحت إليزابيث قائلة وقد استبد بها سرور غامر:

- أصبح هذا؟

- سوف يقيمون معسكرهم بالقرب من «برايتون»، وإنني لشديدة الرغبة في أن يأخذنا أبي جميعاً إلى هناك لقضاء فصل الصيف! سيكون هذا مشروعاً لطيفاً جداً ولن يكلفنا شيئاً. وسترحب أمي بالذهاب أيضاً، فهذا أقصى ما تتمناه! وإلا فلكما. أن تتصورا أي صيف تعس سوف نقضيه! وقالت إليزابيث لنفسها: «أجل، سيكون هذا بالفعل مشروعاً لطيفاً ومناسباً لنا تماماً. يا الله! «برايتون» ومعسكر مكنتظ بالجنود من حولنا،

نحن اللاتي اضطربت حياتنا بتأثير فرقة واحدة قليلة العدد من رجال «الميليشيا»، وحفلات الرقص الشهيرة في «مرتيون»!.

وقالت ليديا بعد أن جلسن إلى المائدة:

- عندي لكما الآن بعض الأخبار. ما رأيكما؟ إنها أخبار رائعة. أخبار خطيرة، وهي تختص بشخص معين نحبه جميعاً.

ونظرت جين وإليزابيث إلى بعضهما البعض، وطلبتا من الساقبي الانصراف. وضحكت ليديا وقالت:

- فعلاً، هذا بالضبط ما يدفعكما إليه تمسككما بالمظاهر والتزامكما جانب الحذر. لقد ظننتما أن الساقبي لا يصح أن يسمع؛ وكأنه يعاب بهذا على الإطلاق! لست أشك في أنه كثيراً ما يسمع أموراً أسوأ مما سأبوح به إليكما. ولكنه شخص قبيح المنظر! إني سعيدة بانصرافه. لم يسبق لي أن رأيت في حياتي كلها مثل هذه الذقن الطويلة. حسن، ها هي ذي الآن أخباري، إنها خاصة بعزينا ويكهام. أخبار معقولة جداً بالنسبة للساقبي، أليس كذلك؟ ليس هناك خطر من احتمال زواج ويكهام بميري كينج - ها هي ذي الأخبار! لقد ذهبت إلى منزل عمها في ليفربول، وفي نيتها الإقامة هناك. إن ويكهام في أمان.

فأضافت إليزابيث قائلة:

- وميري كينج في أمان كذلك! في أمان من زواج طائش إذا نظرنا إلى الناحية المادية.

- إذا كانت تحبه فهي شديدة الحمق لابتعادها عنه.

وقالت جين:

- ولكنني أرجو ألا يكون أحد الجانبيين قد اشتد تعلقه بالآخر.

- إنني واثقة بعدم وجود أي تعلق من جانبه، وأراهن على أنه لم يكن يعبأ بها على الإطلاق، فَمَنْ ذا الذي يمكن أن يعبأ بمثل هذا الشيء النَمِش ذي الجسم الضئيل والوجه القبيح؟

وصدمت إليزابيث حين دار بخلدها أنه مع قصورها عن هذه الفظاظة في التعبير، إلا أن فظاظة الشعور لم تكن لتختلف كثيرًا عن الإحساس الذي كان قلبها فيما مضى يضمه ويتصور أنه إحساس كريم!

وما إن فرغن جميعًا من تناول طعامهن، ودفعت الشقيقتان الكبريان الحساب، حتى صدر الأمر للعربة بالاستعداد. وجلس الجميع بداخلها مع بعض التحايل، بالإضافة إلى كل صناديقهن وحقائبهن ولفائفهن، إلى جانب مشتريات كيتي وليديا التي لم تكن موضع ترحيب. وصاحت ليديا قائلة:

- يا لجمال ازدحامنا هذا! إنني سعيدة لأنني أحضرت معي قبعتي، حتى ولو بغرض إضافة صندوق آخر! حسن إذن، لنجلس مستريحات مكنونات، ولنتحدث ونضحك طوال رحلتنا إلى البيت. ولنسمع أول كل شيء ماذا جرى لكما منذ سفركما؟ هل رأيتما رجالًا ظرفاء؟ هل غازلكما أحد؟ لقد كنت شديدة الأمل في أن تحصل إحداكما على زوج قبل عودتكما. من رأيي أن جين ستصبح في وقت قصير عانسًا عجوزًا. إنها تكاد تبلغ الثالثة والعشرين! يا إلهي! أي خجل سيملكني لو لم

أتزوج قبل أن أبلغ الثالثة والعشرين من عمري! إن خالتي فيليس متلهفة على زواجكما، بشكل لا يمكنكما تصوره. وهي تقول إنه كان من الأفضل لليزي أن تتزوج مستر كولنز، أما أنا فلا أظن أن مثل هذا الزواج كان سيوحي بأي ظرف. يا إلهي! كم أود أن أتزوج قبل أي منكما! وعند ذاك سوف أصبحكما معي إلى كل الحفلات الراقصة. يا سلام! لقد حظينا أخيرًا بوقت لطيف جدًا في منزل كولونيل فورستر! كان من المتفق عليه أن نقضي اليوم أنا وكيثي هناك، ووعدتنا مسز فورستر بإقامة حفل راقص صغير في المساء (بالمناسبة، مسز فورستر وأنا صديقتان حميمتان!)، وهكذا فقد دعت ابنتي مستر هارينجتون. ولكن هاريت كانت مريضة فاضطرت بن إلى الحضور بمفردها. وخمنا ماذا فعلنا: لقد ألبسنا تشمبرلين ملابس امرأة، حتى يظنه الحاضرون سيدة. تصورا أي متعة! ولم يدرِ بالأمر أحد باستثناء كولونيل فورستر وزوجته وكيثي وأنا، بالإضافة إلى خالتي فقد اضطررنا إلى اقتراض أحد ثيابها. ولا يمكنكما أن تتخيلا حسن منظره! وعندما دخل ديني وويكهام وبرات واثنان أو ثلاثة آخرون، لم يتعرفوا عليه أبدًا. يا إلهي! كم استغرقت في الضحك! وكذلك فعلت مسز فورستر. لقد خلت أنني سأموت من شدة ما ضحكت! وقد دفع هذا بعض الرجال إلى الارتياب، ولم يلبثوا أن اكتشفوا الأمر بعد قليل.

بمثل هذه الحكايات عن أصحابهن، وهذه النكات اللطيفة سعت ليديا -بمعونة تلميحات كيثي وإضافاتها- إلى تسلية رفيقاتها طوال رحلتهم إلى «لونجيورن». ولم تُعرِ إليزابيث انتباهًا كبيرًا لما تسمع، وإن

لم تستطع أن تتحاشى سماع اسم ويكهام الذي تكررت الإشارة إليه.
ولقين عند وصولهن إلى المنزل استقبالا لطيفا. وتهللت مسز بينت
فرحا لرؤية جين في حسننها المعهود، أما مستر بينت فقد وجه حديثه
للإليزابيث أكثر من مرة أثناء الطعام قائلاً عن طيب خاطر:
- أنا سعيد بعودتك يا ليزي.

وكان المجتمعون في حجرة الطعام كثيرين، فقد حضر كل أفراد
أسرة لوكاس تقريباً للقاء ماريا والاستماع إلى الأخبار، وانشغلوا
بالحديث في موضوعات متعددة. وأخذت ليدي لوكاس تستفسر من
ماريا عبر المائدة عن رفاة ابنتها الكبرى وعن حال طيورها. أما مسز
بينت فكانت مهمتها مزدوجة: فهي من ناحية كانت تجمع آخر أخبار
الأزياء من جين التي كانت تجلس على مسافة قريبة منها، ومن ناحية
أخرى كانت توزع هذه الأخبار واحداً بعد آخر على بنات سير وليم
الصغيرات؛ وكانت ليديا تحكي بصوت يعلو على كافة الأصوات،
لكل مَنْ يستطيع أن يسمعها، عن المتع الكثيرة التي صادفتها في ذلك
الصباح. وقالت:

- آه يا ميري، كم وددت لو جئت معنا، فقد استمتعنا كثيراً! فبعد
قيام العربة بنا، رفعنا - كيتي وأنا - الستائر، متظاهرتين بأن العربة كانت
خالية؛ وكان بودي أن نقطع الرحلة كلها على هذه الحال لو لم تكن
كيتي متوعدة نوعاً. وعندما وصلنا إلى حانة «جورج» تصرفنا بمنتهى
الكرم. فقد استضفنا الثلاث الأخريات وقدمنا لهن ألد غداء بارد على
الإطلاق. ولو كنت ذهبت معنا، لكنا قد استضفناكِ أيضاً. وعندما

شرعنا في العودة كانت المتعة أعظم! لقد خُيِّل لي أن من المستحيل علينا دخول العربة. وكدت أموت من فرط الضحك. ثم استبد بنا المرح والطرب طوال رحلة الإياب! فقد تحدثنا وضحكنا بصوت بلغ ارتفاعه حدًّا كان يمكن معه أن يسمعنا أي امرئ على بعد عشرة أميال!

وأجابت ميرى على ما سمعته قائلة بوقار شديد:

- حاشا لي يا شقيقتي العزيزة أن أغض من شأن هذه المتع، فهي بلا شك مناسبة تمامًا لتفكير النساء على وجه العموم. ولكنني أعترف بأن هذه المتع لا تحمل لي من المفاتن شيئاً؛ وإني لأفضل عليها كتاباً. ولكن ليديا لم تسمع من هذا الجواب كلمة واحدة، إذ كانت نادراً ما تنصت لأي إنسان مدة تزيد على نصف دقيقة؛ أما ميرى فلم تكن تلقي إليها انتباهاً على الإطلاق.

وفي فترة بعد الظهر، أخذت ليديا تلح على بقية البنات أن يذهبن إلى «ميريتون»، ليرين كيف حال أصدقائهن. ولكن إليزابيث عارضت المشروع بحزم. فلا يحق أن يقال إن ابنتي مستر بينت لم تطبقا البقاء في البيت نصف نهار فانطلقتا ساعتين في أثر الضباط. كذلك كان هناك سبب آخر لمعارضتها؛ فقد كانت تخشى رؤية ويكهام مرة ثانية، وقررت أن تتحاشاه لأطول فترة ممكنة. والحق أن ما استشعرته من راحة بسبب اقتراب موعد رحيل الفرقة قد أسعدها إلى حد بعيد. فلسوف يغادرون الناحية في ظرف أسبوعين، وكانت تأمل ألا ينغصها بسببه شيء بعد رحيلهم.

ولم تكذ تقضي في المنزل بضع ساعات، حتى اكتشفت أن مشروع «برايتون» الذي ألمحت إليه ليديا أثناء وجودهن في الحانة كان مطروحًا للنقاش بين والديها. وأدركت إليزابيث مباشرة أن أباهما لم تكن لديه أدنى نية للموافقة عليه، وإن رأت إجاباته كانت في نفس الوقت من الغموض والتورية بحيث دفعت أمها - برغم ما أصابها من فتور الهمة - إلى عدم اليأس كلية من الفوز آخر الأمر.



الفصل الأربعون

لم يعد من الممكن لإليزابيث أن تكتُم لهفتها على إحاطة جين علمًا بما قد جرى. وأخيرًا، وبعد أن قررت حذف كل التفصيلات التي كان لشقيقتها بها شأن، وهيأتها لما سيصحبها من دهشة، حكّت لها في صباح اليوم التالي خلاصة ما دار بين مستر دارسي وبينها.

ولم تلبث دهشة مس بينت أن خفت نتيجة ما كانت تشعر به نحو شقيقتها من ميل قوي، الأمر الذي جعل من أي إعجاب بإليزابيث عاطفة طبيعية تمامًا، ولم تمضِ فترة حتى ذاب كل أثر للدهشة وسط مشاعر أخرى. فقد أسفت لأن مستر دارسي قد باح بعواطفه على نحو لم يكن ملائمًا لقبولها، ولكنها حزنت أكثر من ذلك لما سببه له رفض شقيقتها من تعاسة مؤكدة. وقالت:

- لقد أخطأ من جانبه حين كان شديد الثقة في نجاح مسعاه، وكان يجب ألا يظهر بمثل هذا اليقين. ولكن تصوري إلى أي حد يضاعف هذا الرفض من خيبة أمله.

فأجابت إليزابيث قائلة:

- الحق أنني أشعر بأسف عميق من أجله، ولكن لديه من المشاعر الأخرى ما سوف يقضي سريعاً - فيما يحتمل - على إعزازه لي. على أنك لا تلوميني لرفضى إياه؟
- ألومك! أبداً.

- ولكنك تلوميني بسبب حماستي في الحديث عن ويكهام؟
- لا، فأنا لا أعتقد أنك كنتِ على خطأ فيما قلته.
- ولكنك سوف تعرفين كل شيء حين أقص عليك ما حدث في اليوم التالي.

ثم تحدثت عن الخطاب، فأعادت على سمعها كل ما احتواه فيما يختص بجورج ويكهام. وما أعظم ما حملت هذه الأخبار من صدمة لجين المسكينة التي كان يمكن أن تذرع العالم كله عن طواعية دون أن نتصور أن كل هذه الشرور قد تتمثل في الجنس البشري كله بمثل ما تجتمع هنا في فرد واحد. ولم تستطع تبريرات مستر دارسي - برغم إرضائها لمشاعرها - أن تعزي نفسها بعد هذا الاكتشاف. وجاهدت باستماتة لإثبات احتمال الخطأ هنا أو هناك، وحاولت إبراء ساحة أحدهما دون توريط الآخر.

وقالت إليزابيث:

- لن ينفع هذا بشيء، ولن تستطيعي أبداً أن تجعليهما خيرين في كافة الأمور. لك أن تختاري، ولكن يجب أن تكتفي بواحد ليس غير. فبين الاثنين قدر من الفضل لا يكفي إلا لرجل واحد، وقد بدأ هذا الفضل

في الأيام الأخيرة يتزحزح من موضعه كثيرًا. أما أنا فأميل إلى الظن بأن
مستر دارسي حقيق بهذا الفضل كله؛ ولك أن تؤمني بما تشائين.

ومضى بعض الوقت قبل أن تنتزع ابتسامة من شفتي جين.

وقالت:

- لست أذكر متى ووجهتُ بصدمة أبشع من هذه. أويكهام على
هذه الدرجة من الفساد؟ إنه أمر يكاد يستعصي على التصديق. ومستر
دارسي المسكين! تصوري يا عزيزتي ليزي ما عاناه. يا لخيبة أمله
المريرة! أضيفي إلى هذا ما يعرفه من سوء ظنك به! وأن يضطر إلى سرد
هذه القصة عن شقيقته! هذا في الحقيقة أمر مؤسف للغاية، وإنني واثقة
من إحساسك بنفس هذا الشعور.

- لا، فقد انتهى أسفي وإشفاقي عندما رأيتك مفعمة بهما. وأنا
أعرف أنك سوف تنصفينه أشد الإنصاف لدرجة تدفعني بمضي الوقت
إلى فقدان اهتمامي واكترائي. إن إفراطك يوفر عليّ الكثير، وإذا أنت
نعتِ حظه أكثر من ذلك فسوف يصبح قلبي في خفة الريشة.

- يا لويكهام المسكين! إن في وجهه تعبيرًا عن الطيبة وفي سلوكه
بساطة ورقة.

- لا بد أنه قد حدث خلل عظيم في طريقة تثقيف هذين الرجلين.
فقد اكتسب أحدهما كل طيبة الخلق، وحظي الآخر بكل مظاهرها.

- ما خطر لي أبدًا أن مستر دارسي تعوزه مظاهر الطيبة كما حلا لك
أن تصوري.

- ومع ذلك فقد قصدت أن أظهر مهارة غير عادية في الشعور تجاهه بهذه الكراهية الحاسمة دون مبرر. إن مقتًا من هذا النوع يُعتبر منشطًا لعبقرية الإنسان ومُنْفَذًا لممارسة الذكاء. إن المرء قد يكون دائم الإساءة للآخرين دون أن يقول شيئًا منصفًا، ولكنه لن يستطيع أن يداوم على الاستهزاء بشخص ما دون أن يصادف بين الحين والآخر أمرًا مضحكًا.

- إني واثقة يا ليزي أنك لم تستطعي تناول الموضوع كما تفعلين الآن لدى قراءتك للخطاب أول مرة.

- بالفعل لم أستطع. لقد كنت مضطربة، بل شديدة الاضطراب، وربما تعيسة أيضًا. هذا دون أن أجد بجانبني مَنْ أُحدّثه عن مشاعري، دون أن أجد جين لتبعث الراحة في نفسي وتخبرني بأني لم أكن شديدة الضعف والزهو والتفاهة كما كنت أرى نفسي! كم وددتك بجانبني!

- يا لسوء حظك في استخدام تلك التعبيرات القوية أثناء حديثك مع مستر دارسي عن ويكهام! فهي الآن تبدو في غير محلها تمامًا.

- بالتأكيد. ولكن مصيبتني في الحديث بمثل تلك المرارة هي نتيجة طبيعية للأهواء التي كنت أنميها في نفسي. وهناك أمر واحد أحب أن أستشيرك فيه. أريد منك أن تخبريني ما إذا كان يتحتم عليّ أن أصارح معارفنا عمومًا بما خفي من شخصية ويكهام.

وصمتت مس بينت هنيهة، ثم أجابت قائلة:

- ليس هناك مبرر لفضيحتي على هذا النحو الرهيب. ما رأيك أنت؟

- أرى أن محاولة هذا الأمر لا تجوز. فلم يصح لي مستر دارسي بإفشاء ما عرفني إياه من معلومات. على العكس من ذلك، فكل

التفصيلات المتعلقة بشقيقته قصد منها أن توضع موضع سري بقدر الإمكان. فإذا حاولت أن أنور الناس بما تبقى من سلوكه، فمن ذا الذي سيصدقني؟ إن تحامل الناس على مستر دارسي عنيف لدرجة قد يفقد معها نصف الناس الطيبين في «ميريتون» حياتهم إذا حاولوا إظهاره بمظهر أفضل. إني لست كفتاً لهذه المهمة. إن ويكهام لن يلبث أن يرحل، ومن ثم فلن تعني حقيقته شيئاً لأَيٍّ من الموجودين هنا. ولسوف يكتشف الأمر كله في يوم ما وعندئذ قد نهزأ من غبائهم لعدم معرفتهم به من قبل. أما في الوقت الحاضر فلن أفتح فمي بكلمة عن هذا الموضوع. - أنتِ على صواب. إن إفشاء أخطائه على الملاء قد يدمره إلى الأبد. ولربما كان الآن أسفاً على ما فعل، ومتلهفاً على إعادة بناء شخصيته؛ فلا يجب أن ندفع به إلى اليأس.

وسكن هذا الحديث ما في فكر إليزابيث من ثورة جامحة. فقد تخلصت من سرّين أثقلا على نفسها طوال أسبوعين، كما أنها كانت واثقة من أن تجد في جين أدنا صاغية كلما راودتها الرغبة في الحديث في أيٍّ منهما ثانية. بيد أنه كان هناك أمر مستور حالت الفطنة دون إفشائه. فلم تجرؤ على سرد النصف الآخر من خطاب مستر دارسي، أو إطلاع شقيقتها على مدى الإخلاص الذي قدرها به صديقه. فهذه أنباء لا يصح أن يشاركها في معرفتها أحد. وكانت تدرك أن قيام الفهم الكامل بين الأطراف جميعاً هو أقل ما يمكن أن يبرر تخلصها من هذا الحمل الأخير. وقالت: «إذا حدثت تلك الواقعة المستبعدة في يوم ما، فلن أقول عند ذلك إلا ما قد يقوله بينجلي نفسه بطريقة ألطف كثيراً. إني لن أكون حرة في إفشاء هذا الأمر إلا بعد أن يفقد كل ما له من قيمة!».

ومع استقرارها في المنزل، أصبح في إمكانها أن تراقب الوضع الحقيقي لحالة شقيقتها النفسية. ولم تكن جين سعيدة. فقد كانت لا تزال تشعر إزاء بينجلي بمودة غاية في الرقة. ولما لم يكن قد خطر لها قبل هذه الحادثة أنها عاشقة، فقد اتصف إعزازها له بكل حرارة العلاقة الأولى، كما اتسم - بسبب سنها وطباعها - برصانة تفوق ما قد يفاخر به أحياناً مَنْ أحبوا لأول مرة. وكانت تقدر ذكره في حرارة بالغة، وتفضله على كل الرجال بحيث تطلب الأمر منها أن تستجمع كل رجاحة عقلها، وكل مراعاتها لمشاعر أهلها، حتى تكبح انسياقها في تلك الحسرات التي كانت لا بد أن تؤذي صحتها وتقلق أولئك الأهل.

وقالت مسز بينت في يوم ما:

- ما رأيك الآن يا ليزي في حالة جين المحزنة تلك؟ أما أنا فقد قررت ألا أحادث أي امرئ فيها مرة ثانية. لقد قلت هذا لأختي فيليس منذ أيام. ولكني لا أظن أن جين قد التقت به في لندن. إنه شاب لا يستحق أي تقدير أبداً، ولست أعتقد أنه ستتاح لها الآن أدنى فرصة للحصول عليه. فليس هناك خبر عن مجيئه «لنيدر فيلد» ثانية في فصل الصيف، ولم يفتني أن أسأل في ذلك كل مَنْ في إمكانه أن يعرف شيئاً.

- لست أظن أنه سيعيش في «نيدر فيلد» أبداً فيما بعد.

- حسن، كما يشاء. لا يريد أحد مجيئه، برغم أنني لن أكف أبداً عن القول بأنه أساء إلى ابنتي أشد الإساءة، ولو كنت منها لما احتملت ما فعله معي. إني واثقة من أن جين سوف تموت بقلب كسير، وعند ذاك سيشعر بالأسف على فعلته؛ وهنا تكمن راحتي.

ولكن لما كانت إليزابيث لا تستطيع الشعور براحة من مثل هذا التوقع فقد سكنت لا تحير جواباً.

واستطردت أمها تقول بعد هذا مباشرة:

- وإذن فمستر كولنز وزوجته يا ليزي يعيشان مستريحين تمامًا، أليس كذلك؟ حسن جدًا، إنني أتمنى لهما استمرار هذه الراحة. وأي نوع من الطعام يقدمان على مائدتهما؟ الحق أقول إن شارلوت مدبرة ممتازة. ولو كانت تتحلى بنصف ما لدى أمها من مهارة، لكانت تدخر الآن ما فيه الكفاية. لا أعتقد أن هناك أي إسراف في طريقة إدارتهما لشؤون المنزل.

- لا، على الإطلاق.

- ثقي من أنهما يحكمان تدبير أمورهما إلى حد بعيد. نعم، نعم. إنهما يبذلان اهتمامًا كبيرًا حتى لا يتجاوزا دخلهما، ولا يشعرا بوطأة الحاجة إلى المال. حسن، فلينفعهما ذلك! ولهذا أظن أنهما يتحدثان كثيرًا عن الاستحواذ على «لونجبورن» بعد وفاة أبيك. أعتقد أنهما يعتبرانها ملكًا لهما بمجرد حدوث هذه الواقعة.

- كان هذا موضوعًا لم يستطيعا الإشارة إليه أمامي.

- فعلاً، فلو فعلاً ذلك لكان حديثهما من الغرابة بمكان. ولكنني أقطع بأنهما كثيرًا ما يتحدثان في هذا الموضوع فيما بينهما. حسن، لو كانا يشعران براحة النفس لامتلاكهما ضيعة ليست من حقهما قانونًا، فليكن. أما عن نفسي، فإني أخجل من تملك ضيعة لمجرد أنها موقوفة عليّ.

الفصل الحادي والأربعون

فات أول أسبوع على عودتهما وبدأ الأسبوع الثاني. وكان هذا هو آخر فرصة لبقاء الفرقة في «ميرتيون»، وأخذت كل الفتيات في الناحية يذبلن شيئاً فشيئاً. وكاد الاكتئاب يشمل الجميع دون استثناء، ولم يبقَ إلا ابنتا مستر بينت الكبريان وحدهما، اللتان كان بإمكانهما أن تأكلا وتشربا وتناما وتتبعنا ما في حياتيهما من مشاغل. وكثيراً ما لامتهما كيتي وليديا على هذا التبلد، وهما اللتان وصلت تعاستهما أقصى الحدود، وعجزتا عن إدراك مثل هذه القساوة في أي فرد من أفراد الأسرة.

وكثيراً ما كانتا تهتفان قائلتين، وقد اعتصرتهم مرارة الأسى:

- يا للعجب! إلأم سينتهي مصيرنا؟ ماذا سنصنع؟ كيف يتسنى لك أن تبسمي هكذا يا ليزي؟

وشاركتهما أمهما الودودة كل أحزانهما، وعادت إليها ذكريات ما كانت قد احتملته هي نفسها - في مناسبة مشابهة لهذه - منذ خمسة وعشرين عاماً. وقالت:

- لقد بكيت بالفعل طوال يومين متعاقبين عندما ارتحلت فرقة كولونيل ميلار. لقد خُيِّلَ إليَّ آنذاك أن قلبي سيتحطم حزناً.

وقالت ليديا:

- إنني واثقة من أن قلبي أنا سيتحطم.

وقالت مسز بينت:

- لو استطاع المرء أن يذهب إلى «برايتون»!

- فعلاً، لو استطاع المرء أن يذهب إلى «برايتون»! ولكن أبي ليس لطيفاً أبداً.

- إن شيئاً من حمامات البحر سوف يحسن صحتي إلى الأبد.

وأضافت كيبي قائلة:

- كذلك تثق خالتي فيليس أن في ذهابي إلى هناك نفعاً لنفسي عظيماً.

كان هذا هو نوع النحيب الذي يتردد على الدوام في جنبات «لونجبورن هاوس». وحاولت إليزابيث أن تجد في ذلك ترويحاً عن نفسها، ولكن كل إحساس بالمتعة ضاع في طيات الخجل. وشعرت من جديد بعدالة اعتراضات مستر دارسي، ولم تحس من قبل بمثل ما أحست به آنذاك من ميل شديد للصفح عن تدخله في تشكيل آراء صديقه.

ولكن الكآبة التي غلّفت آمال ليديا ما لبثت أن انقشعت حين تلقت من مسز فورستر زوجة قائد الفرقة دعوة لمصاحبتها إلى «برايتون».

وكانت هذه الصديقة الغالية امرأة صغيرة السن جدًا وحديثة العهد بالزواج. وقد جمع بين ليديا وبينها تشابه في المرح وسلاسة الطبع. وفي خلال شهرين من الشهور الثلاثة التي تعرفنا على بعضهما البعض فيها، نشأت بينهما صداقة وطيدة.

ويكاد يكون من المستحيل وصف الفرح الغامر الذي استبد بليديا في هذه المناسبة، وهيامها بمسز فورستر، وسعادة مسز بينت، بالإضافة إلى ما استولى على كيتي من غم وكمد. وطارت ليديا في أرجاء البيت وقد تملكتهاشوة جاش بها قلبها طالبة من الجميع أن يهنئوها، دون أن تراعي على الإطلاق مشاعر أختها. وأخذت تضحك وتتحدث باندفاع لم يند عليها من قبل، بينما لزمت كيتي ذات الحظ العاثر حجرة الجلوس وأخذت تتبرم من بختها في كلمات لا معنى لها ولهجة نكدة مشاكسة. وقالت:

- لست أفهم لماذا لا تدعوني مسز فورستر كما دعت ليديا، برغم أنني لست صديقتها الحميمة. إن حقي في الدعوة لا يقل عن حق ليديا، إن لم يزد من حيث كوني أكبر منها بعامين.

وعبثًا حاولت إليزابيث أن تشيها إلى رشدها، وأن تستحثها جين على الامتثال للأمر الواقع. أما بالنسبة لإليزابيث فقد كانت هذه الدعوة أبعد من أن تثير فيها نفس المشاعر التي أثارتهافي أمها وفي ليديا، بحيث اعتبرتها حكمًا بالهلاك على أي إمكانية لرجاحة الفكر عند أختها. ولما كانت تثق في أن مثل هذه الخطوة سوف تجعلها -في حالة ذبوع أمرها- بغیضة في نظر الناس، فقد نصحت والدها سرًا ألا يسمح لها بالذهاب،

وصورت له كل ما في سلوك ليديا من عدم اللياقة، وقلة النفع الذي يمكن أن يعود عليها من صداقة امرأة كمسز فورستر، واحتمال انسياقها في الطيش والنزق وهي برفقة هذه المرأة في «برايتون» حيث المغريات أكثر توافراً عما هي عليه في «ميريتون» واستمع إليها بإمعان، ثم قال:

- لن يستقر بال ليديا حتى تفضح نفسها في مكان عام، ولا يصح لنا أن نتوقع منها أن تفعل ذلك بأدنى قدر من المشاكل والمتاعب لأفراد أسرتها بمثل ما توفره لها الظروف الحالية.

فقالَت إليزابيث:

- إذا كنت على دراية بالضرر الشديد الذي سيحقق بنا جميعاً والذي سينشأ حتماً من ملاحظة الناس لسلوك ليديا المتهور النزق (بل الذي نشأ بالفعل) فلست أشك في أن حكمك في هذا الموضوع سيختلف.

وكرر مستر بينت كلامها قائلاً:

- نشأ بالفعل! ما هذا! هل أفزعت ليديا بعض عشاقك؟ يا لصغيرتي المسكينة ليزي! ولكن لا تبتسي. فأولئك الشبان المتأفقون الذين لا يحتملون سخافة بسيطة، لا يستحقون إحساساً بالحسرة. هيا وأطلعيني على قائمة المحبين المستحقين للثناء الذين تنحوا بسبب حماقة ليديا.

- إنك في الحقيقة مخطئ؛ فأنا لست مستاءة من أي أضرار من هذا النوع، ولا أشكو الآن من مساوئ تتعلق بشخصي بل بنا جميعاً. فحتمً أن يتأثر مركزنا ووقارنا في نظر الناس بتأثير الطيش الأهوج والتبجح والاستهتار بكل الضوابط، وهي الصفات التي تميز شخصية

ليديا. أستمحك عذراً، فلا بد أن أتحدث بصراحة. فلو أنك لم تعباً يا والدي العزيز بكبح جماح روحها الفائرة، وبتعليمها أن اهتماماتها الحالية لا يصح أن تصبح الشغل الشاغل في حياتها، فلن تلبث أن تبعد عن متناول أي إصلاح. إن شخصيتها ستثبت على ما هي عليه، وستصبح وهي في السادسة عشرة من عمرها امرأة لعباً لا تُبارى تبرز قريناتها في اجتلاب دواعي السخرية من نفسها ومن أفراد أسرتها. بل إنها ستكون لعباً تمارس أسوأ دركات التدلل وأحطها، دون أن تحظى من أسباب الجاذبية إلا بالشباب والقوام الحسن، وستصبح بسبب جهل عقلها وفراغه عاجزة تماماً عن تفادي أي قدر بسيط من ازدراء الناس الذي سوف يثيره تلهفها على عبارات الإعجاب. ولست أستبعد كيتي كذلك من هذا الخطر، فلسوف تنقاد إلى حيثما تقودها ليديا، وهي المغرورة الجاهلة التافهة التي يستحيل عليها أن تضبط مشاعرها! أظن من الممكن يا والدي العزيز أن تهربا من لوم الناس وازدراءهم حيثما يعرفونهما، وأن شقيقتاهما لن يتورطن معهما في هذا العار؟

وأدرك والدها أنها قد أَلقت بقلبها كله في هذا الموضوع، فقال وهو يمسك يدها بحنان:

- لا تقلقي يا حبيبتي، فأينما يعرفكما الناس أنتِ وجين، لا بد أن تلقيا كل احترام وتقدير. ولن يصيبكما أدنى ضرر لأن لكما أختين أو ثلاث أخوات تستبد بهن الحماقة. إننا لن نحظى بأي هدوء في «لونجبورن» لو لم تذهب ليديا إلى «برايتون». فلتذهب إذن. إن كولونيل فورستر رجل عاقل وسوف يبعدها عن أي ضرر حقيقي؛ ومن حظها أنها شديدة

الفقر بحيث لا تصلح فريسة يقتنصها أي إنسان. وستصبح في «برايتون» ذات أهمية أقل مما هي عليه الآن حتى بوصفها لعباً من طراز عادي. فلسوف يجد الضباط نساء يستثنن انتباههم بأفضل مما لديها. لنأمل إذن في أن وجودها هناك سوف يعلمها تفاهة قدرها. وعلى أي حال فهي لا تستطيع أن تهوي إلى أسوأ دركات ودركات، دون أن يصبح لنا حق حبسها بين جدران أربعة طوال ما بقي من حياتها.

واضطرت إليزابيث أن تقنع بهذا الجواب، بينما استمر رأيها الخاص على ما هو عليه وتركته وهي تشعر بالأسف وخيبة الأمل. على أنه لم يكن من طبيعتها أن تضاعف من أسباب ضيقها بإمعان الفكر في هذه الأسباب. فقد كانت واثقة من أداء واجبها، ولم يكن من طبعها أن تبرم بأضرار لا يمكن تجنبها أو أن تضاعف منها بالقلق وانشغال البال. ولو كانت ليديا وأمها قد عرفتا مضمون ما دار بينها وبين والدها، لما كانتا قد أحسستا التعبير عن غضبهما وسط الكلام الذي اندفق من شفاههما معاً. فقد كانت ليديا تتصور أن مثل هذه الزيارة إلى «برايتون» إنما تنطوي على كل إمكانات السعادة في هذا الكوكب الأرضي، ورأت بعين الخيال الخالق شوارع هذه المدينة ذات الشواطئ وقد اكتظت بالضباط. كما رأت نفسها محط اهتمام عشرات منهم لا تعرفهم في الوقت الحاضر، وشدت بصرها إلى فخامة المعسكر وجلاله، بخيامه الممتدة في صفوف متراسة ذات جمال، المزدحمة بكل من هو شاب ممراح يخطف الأبصار بردائه القرمزي. وعملاً على استكمال المشهد، فقد رأت نفسها جالسة تحت خيمة تغازل في رشاقة ستة من الضباط على الأقل في وقت واحد.

ولو كانت قد علمت أن شقيقتها قد سعت إلى إبعادها عن مثل هذه الآمال والأحداث، فأى انفعالات إذن كان يمكن أن تراودها؟ إن أمها هي الوحيدة التي كان يمكن أن تفهم تلك الانفعالات؛ لأنها كانت ستشعر بنفس الشعور تقريباً. فقد كان ذهاب ليديا إلى «برايتون» هو عزائها الوحيد عن الكآبة التي استولت عليها بعد وثوقها من عدم اعتزام زوجها الذهاب إلى هناك.

ولكنهما كانتا جاهلتين تماماً بما دار، واستمر فرحهما الغامر دون فواصل كثيرة حتى مغادرة ليديا للبيت.

وأصبح من المقدر على إليزابيث أن ترى مستر ويكهام لآخر مرة ولما كانت قد التقت به كثيراً منذ عودتها، فقد كاد اضطراب نفسها ينقضي تماماً؛ أما الاضطراب الذي كان يبتعثه ميلها السابق إليه فقد انتهى بالفعل. بل لقد توصلت إلى أن تكتشف تحت ستار الرقة الشديدة التي كانت قد سحرتها في أول الأمر، ادعاء ورتوباً يبعثان على التقزز والظنى. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان في سلوكه الحالي معها ما يثير الاستياء من نواح جديدة. فنيته -التي ما لبث أن أظهرها- في تجديد تلك الملاحظات التي ميزت الشطر الأول من علاقتهما، لم تكن لتؤدي، بعد كل ما حدث منذ ذلك الحين، إلا إلى استفزاز مشاعرها. لقد فقدت كل اهتمام به حين وجدت نفسها وقد وقع عليها الاختيار لتكون هدفاً لمثل هذا الاستظراف التافه المستهتر. وفي الوقت الذي صدت فيه هذه الملاحظات، لم تملك إلا أن تشعر بتعبيره لها إذ كان يظن أنه برغم طول المدة وتنوع الأسباب التي شهدت امتناعه عن ملاطفتها، فلسوف يُرضي تجديدها غرورها ويكفل انجذابها في أي وقت من الأوقات.

وفي آخر يوم لإقامة الفرقة في «ميريتون»، تناول طعام الغداء في «لونجبورن» وسط مجموعة من الضباط الآخرين. ولم تكن إليزابيث تميل كثيرًا إلى وداعه بنفس صافية، بحيث ما إذا استفسر عن الطريقة التي انقضى بها وقتها في «هنسفورد»، حتى ذكرت أن كولونيل فيتز وليم ومستر دارسي قد قضيا ثلاثة أسابيع في «روزينجز»، ثم سألتها ما إذا كان على معرفة بأولهما.

وبدت عليه علامات الدهشة والاستياء والانزعاج، ولكنه أجاب قائلاً، وقد استغرق في الذكريات لحظة، وعادت إلى شفتيه ابتسامة، أنه قد رآه كثيرًا فيما مضى. وبعد أن ألمح أنه كان رجلًا مهذبًا جدًّا، سألتها عن مدى إعجابها به. وكان جوابها في صفه بحماس. وما لبث أن أضاف عقب هذا قائلاً بعدم اكتراث:

- تقولين كم مضى عليه في «روزينجز»؟
- حوالي ثلاثة أسابيع.
- وهل رأيت كثيرًا؟
- نعم، كل يوم تقريبًا.
- إن طباعه تختلف كثيرًا عن طباع ابن عمته.
- نعم تختلف كثيرًا، ولكنني أعتقد أن مسز دارسي يتحسن عندما تتدعم معرفة المرء به.
- وهتف ويكهام قائلاً، وقد بانت في عينيه نظرة لم تفتها ملاحظتها:
- حقًا! أو أستطيع بالله عليك أن أسأل...

ولكنه ضبط نفسه وأضاف قائلاً بلهجة أشد مرحاً:

- أيتحسن في طريقة حديثه؟ هل تفضل بأن يضيف إلى أسلوبه العادي شيئاً من اللياقة (واستطرد يقول بنبرة أشد انخفاضاً وجدية) فأنا لا أجسر على أن أجدد في نفسي أملاً بتحسنه في الأمور الجوهرية.
فقلت إليزابيث:

- لا! فيما يختص بالمسائل الجوهرية؛ فأغلب ظني أنه شديد الشبه بما كان من قبل أصلاً.

وفي أثناء حديثها كان ويكهام يكاد لا يعرف ما إذا كان من حقه أن يتהלل لكلماتها أو يتشكك في مراميها. وكان في وجهها شيء ما جعله ينصت إليها بانتباه متخوف قلق، وهي تضيف قائلة:

- عندما قلت إنه تحسن بعد تدعيم معرفة المرء به لم أقصد بذلك فكره أو سلوكه، وإنما قصدت أن المرء يستطيع أن يفهم طبعه على نحو أفضل، إذا ما توثقت معرفته به.

وظهر انزعاج ويكهام في وجهه المحتقن ونظرته المضطربة. ومضت بضع دقائق لزم فيها جانب الصمت، ثم التفت إليها ثانية بعد أن طرح عن نفسه مشاعر الحرج، وقال بلهجة شديدة الرقة:

- أما وأنتِ تعرفين تمامًا حقيقة مشاعري تجاه مستر دارسي، فلا شك أنك ستقدرين مدى إخلاصي في الشعور بالفرحة؛ لأنه أصبح من الفطنة بحيث يتكلف اصطناع مظهر ما هو صواب. إن كبرياءه في هذه الحالة قد تكون ذات نفع، إن لم يكن لنفسه فلآخرين، إذ لا شك أنه

سيحول بينه وبين أي إساءة غادرة في السلوك كتلك التي عانيت منها. ولست أخشى إلا أن يكون ذلك الضرب من الحذر الذي يُخَيِّلُ إِلَيَّ أنك كنت تشيرين إليه، ناشئاً فحسب بسبب زيارته لخالته التي يرهب رأيها فيه وحكمها عليه. فأنا أعلم أن خوفه منها كان يستبد به دائماً عندما يكونان معاً. ويمكن إرجاع قدر كبير من هذا الخوف إلى رغبته في التعجيل بزواجه من مس بورو، وهو ما يعلق عليه بلا شك أهمية كبيرة.

ولم تستطع إليزابيث أن تكبت ابتسامة لدى سماعها هذا القول، ولكنها لم تجبه إلا بهزة طفيفة من رأسها. وأدركت أنه يود أن يشغلها بالحديث عن الموضوع القديم الخاص بما لحقه من مظالم، ولكنها لم تكن في حالة تسمح لها بترك العنان له. وانقضى ما تبقى من المساء بادعاء المرح المألوف من جانبه، ولكن دون أي محاولة جديدة لاختصاص إليزابيث بملاحظاتة. وافترقا آخر الأمر بأدب متبادل، وربما برغبة متبادلة أيضاً في ألا يلتقيا من جديد.

وعندما انفض الجمع، صحبت مسز فورستر ليديا في عودتها إلى «ميريتون»، حيث كان من المقرر أن تشرعا في رحلتهما في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. وكان وداعها لأفراد أسرتها صاخباً أكثر منه عاطفياً. وكانت كيتي هي الوحيدة التي ذرفت الدموع، بيد أنها بكت بفعل الكمد والحسد. وأفاضت مسز بينت في تمنياتها الطيبة لابنتها بالسعادة، كما ألحت في الإيعاز إليها بعدم تضييع أي فرصة يمكن أن

تستمتع فيها بأقصى ما تستطيع إلى ذلك سبيلاً، وهي نصيحة تضافرت
كل الأسباب لوضعها موضع الانتباه والاهتمام. ووسط مشاعر السعادة
الصاخبة التي عبّرت عنها ليديا في كلمات وداعها، صدرت عن شقيقاتها
عبارات السلام الرقيقة وتاهت قبل أن تبلغ الأذان.



الفصل الثاني والأربعون

لو كانت إليزابيث قد اشتقت كل آرائها من محيط أسرتها، لما كانت قد كونت صورة طيبة عن السعادة الزوجية أو الراحة المنزلية. إذ كان والدها قد وقع أسير الشباب والجمال، وذلك المظهر من سلاسة الطبع الذي يضيفه الشباب والجمال، فقد تزوج من امرأة تسبب قصور فهمها وضيق أفقها في وضع حد نهائي لكل عاطفة حب حقيقي تجاهها في وقت مبكر جدًا من علاقتهما الزوجية. واختفت إلى الأبد كل مشاعر الاحترام والتقدير والثقة، كما انهارت كل آرائه في السعادة المنزلية. ولكن لم يكن في طبع مستر بينت أن يعوض خيبة الأمل التي حطت عليه بسبب نزقه وطيشه بأن يبحث عن الراحة في أيّ من تلك المتع التي كثيرًا ما تُعزّي تعساء الحظ عن حماقتهم أو بلاياهم. فقد كان شغوفًا بالريف وبالكتب، وعلى أساس ميوله هذه نشأت متعه الأساسية. ولم يكن مدينًا لزوجه بشيء، اللهم إلا من حيث إن جهلها وحماقتها قد ساهما في الترويح عنه. وليس هذا نوع السعادة التي يرغب أي إنسان عموماً في أن يكون مدينًا به لزوجه، ولكن حيثما تشح وسائل التسلية الأخرى، فإن الفيلسوف الحق يستطيع أن ينال النفع من أي المصادر التي تتوافر له.

على أن إليزابيث لم تكن غافلة عن سوء التصرف الذي بدا في سلوك والدها كزوج. وكانت دائماً ما ترى ذلك وهي تتألم. ولكنها إذا كانت تحترم كفاءاته وتشعر بالامتنان لمعاملته الحانية لها، فقد حاولت نسيان ما لم تستطع تجاهله. كذلك فقد حاولت أن تبعد عن فكرها ذلك الإخلال المستمر بقواعد اللياقة في العلاقات الزوجية وبالتزاماتها، وهو ما كان والدها يستحق اللوم عليه حين كان يضع زوجته موضع ازدراء بناته. ولكنها لم يسبق لها أن شعرت مثلما تشعر الآن بالأضرار التي لا بد أن تلحق بالأطفال نتيجة مثل هذا الزواج غير المناسب، كما أنها لم تكن من قبل - كما هي الآن - واعية تماماً بالأضرار التي يمكن أن تنشأ من مثل هذا الاستغلال السيئ لمواهبه، وهي المواهب التي قد تؤدي على الأقل - إذا أحسن استغلالها - إلى صيانة وقار بناته، حتى لو لم تستطع توسيع أفق زوجته.

وإذ فرحت إليزابيث برحيل ويكهام، فإنها لم تجد في غياب الفرقة أي سبب طفيف آخر يبعث على الرضى. فقد كان أصدقاءهم أقل تنوعاً عما كانوا من قبل. أما في داخل المنزل فقد كان لها أم وأخت أضفى تبرمهما المستمر من كآبة كل شيء حولهما غمًا حقيقياً على جو البيت. ومع أن كيتي كان يمكن أن تستعيد بمرور الوقت حسن إدراكها الطبيعي للأمور طالما تخلصت مما يقلق ذهنها، إلا أن أختها الأخرى، التي كان يخشى أن تدفعها طباعها إلى ارتكاب المزيد من الشرور، كان يمكن أن تتأصل فيها كل حماقتها وتبجحها وهي في مكان تتعرض فيه لخطر مزدوج، من الشاطئ والمعسكر معاً. وعموماً إذن فقد اكتشفت - ما سبق

أن اكتشفه غيرها أحياناً- أن الواقعة التي تطلعت إليها برغبة متلهفة، لم تأتِ -وقت حدوثها- بكل ما كانت ترجوه لنفسها من راحة بال. ومن ثم فقد كان من الضروري أن تحدد فترة أخرى تبدأ منها السعادة الفعلية، وأن تعين هدفاً آخر تتعلق به آمانيها وآمالها، حتى يمكن لها إذا ما استمتعت بلذة الانتظار أن تعزي نفسها عن الحاضر وتتهياً لخيبة أمل جديدة. وأصبحت رحلتها إلى منطقة «البحيرات» هدفاً لأسعد أفكارها. لقد كانت أفضل عزاء عن كل الساعات المنهكة التي أصبح لا مهرب منها بسبب مشاعر السخط التي أبدتها والدتها وكيّتي. ولئن استطاعت أن تضم جين إلى هذا المشروع، لاكتمل كل جزء فيه.

وفكرت قائلة: «ولكن من حسن الحظ أن يكون لديّ ما تتعلق به آمالي. فلو كان المشروع كاملاً من جميع النواحي، لأصبحت خيبة أمني مؤكدة. ولكنني إذ أصحب معي في هذه الحالة مصدراً لا ينفد من الأسى بسبب غياب شقيقتي عني، فقد يحق لي أن آمل في أن تتحقق لي كل توقعات المتعة التي أنتظرها. فالمشروع الذي يوحى كل شيء فيه بالبهجة لا يتسنى له النجاح مطلقاً. ولا يمكن إبعاد خيبة الأمل إلا إذا صدها ستار من الشعور الطفيف بالكدر».

وعندما سافرت ليديا، كانت قد وعدت بأن تكتب كثيراً وبدقة شديدة لوالدتها ولكيّتي، ولكن خطاباتها كانت دائماً موضع انتظار طويل، كما كانت دائماً قصيرة للغاية. فخطاباتها لم تكن لتشتمل على شيء كثير بالإضافة إلى أنهم قد رجعوا لتوهم من المكتبة حيث صحبهم إلى هناك هذا أو ذاك من الضباط، وحيث رأت من الحلبي الجميلة ما

أفقدتها صوابها، وأنها اشترت رداءً جديدًا أو مظلة جديدة كان يمكن أن تصفها بتفصيل أشد، لولا أنها كانت مضطرة لأن تختم خطابها في عجلة شديدة لأن مسز فورستر كانت تناديهما، فقد كانتا تعزمان الذهاب إلى المعسكر معًا. أما مراسلاتها لشقيقتها فلم تقدم من المعلومات إلا أقل من هذا. فقد كانت خطاباتها لكيتي، برغم طولها نسبيًا، مليئة بخطوط تحت الكلمات مما كان يحول دون إذاعتها علنًا.

وبعد انقضاء أسبوعين أو ثلاثة على غيابها، بدأت معالم الصحة والانطلاق والمرح تظهر في «لونجبورن» من جديد. واتخذ كل شيء سمة أكثر إشراقًا. فالأسر التي كانت تقضي الشتاء في لندن عادت أدراجها وظهرت حُلَى الصيف الجميلة وتجمعات الناس فيه. واستعادت مسز بينت هدوءها الشاكي المألوف؛ وما إن حل منتصف شهر يونيو حتى أبلت كيتي تمامًا بحيث كانت تستطيع دخول «ميريتون» دون أن تذرف الدمع. وكان هذا حدثًا يوحى بكل خير دفع إليزابيث إلى أن تأمل في احتمال التزام شقيقتها جانب العقل بحيث لا يحل عيد الميلاد القادم إلا وتمتنع عن الإشارة إلى أي ضابط أكثر من مرة واحدة في اليوم؛ هذا فيما لو لم يتدخل أي ترتيب ضارٌّ أو مؤذٍ في إجراءات هيئة العمليات العسكرية تبعث بمقتضاه فرقة أخرى لتضرب خيامها في «ميريتون».

وكان الموعد المحدد لبدء رحلتهم إلى الشمال يقترب بسرعة، فلم يبق على حوله إلا أسبوعان، عندما وصل خطاب من مسز جاردنر يؤخر بدءها ويختصر في ذات الوقت من نطاقها. فلسوف يحول عمل مستر جاردنر بينه وبين السفر وذلك حتى بعد مضي أسبوعين من شهر

يوليو، كما أنه لا بد أن يكون في لندن في بحر شهر من الزمن. ولما كانت تلك المدة لا تسمح لهم إلا بفترة قصيرة جداً لا تؤهلهم للذهاب إلى هذا المدى البعيد أو رؤية الكثير مما كانوا يطمعون فيه، أو على الأقل لرؤيته بتمهل وراحة كما كانوا يتتوون، لذلك فقد اضطروا إلى التخلي عن فكرة الذهاب إلى منطقة «البحيرات»، واستبدالها بسياحة أقل اتساعاً؛ ومن ثم فلن يذهبوا طبقاً للخطة الحالية إلى أبعد من «داربيشير» شمالاً. وكانت تلك المقاطعة زاخرة بما تجمل مشاهدته، الأمر الذي يشغل جل أسابيعهم الثلاثة؛ بالإضافة إلى أن هذا المكان يأسر مسز جاردنر بسحر قوي. فلربما كانت المدينة التي قضت فيها فيما مضى بعض سني حياتها، والتي سوف يقضون فيها الآن بضعة أيام، تعد هدفاً لإشباع فضولها يساوي في أهميته كافة ضروب الجمال المشهورة التي تعرف بها «ماتلوك» أو «تشاتسوورث» أو «دافديل» أو «الذروة العالية».

وشعرت إليزابيث بخيبة أمل لا حد لها. لقد هيأت نفسها لمشاهدة منطقة «البحيرات»، وكانت لا تزال تعتقد أن الوقت قد يسنح لذلك. بيد أنه كان من واجبها أن تقنع بالأمر، وأن يهنأ مزاجها؛ وما لبث كل شيء أن عاد إلى وضعه الصحيح.

وكان هناك كثير من الأفكار تقترن بذكر «داربيشير». فقد كان من المستحيل عليها أن ترى هذه الكلمة دون أن تفكر في «بمبرلي» وصاحبه. وقالت لنفسها: «ولكنني لا شك أستطيع ولوج مقاطعته دون أن ينالني عقاب، كما يمكنني سرقة بعض أحجار الفلور دون أن يراني».

وتضاعفت فترة الانتظار، وكان لا بد أن تنقضي أربعة أسابيع قبل وصول خالها وزوجته. ومرت المدة، وإذا بمستر ومسز جاردينر، وأطفالهما الأربعة يظهرون أخيرًا في «لونجبورن». أما الأطفال، وهم بتان في السادسة والثامنة من عمرهما وولدان يصغرانهما، فقد اتفق على تركهم في ظل الرعاية الخاصة لابنة عمتهم جين التي كانوا يؤثرونها جميعًا، والتي هيأها عقلها الراشد وعذوبة طبعها للالتفات إليهم في كل النواحي، من حيث الثقيف أو اللهو أو الحب.

ولم يبقَ مستر جاردينر وزوجته في «لونجبورن» إلا ليلة واحدة، وانطلقا في صباح اليوم التالي مع إليزابيث سعيًا وراء ما هو ممتع وجديد. وكانت هناك متعة أكيدة لا ريب فيها، ألا وهي ملائمة أفراد الصحبة بعضهم لبعض، وهي ملائمة قامت على صحة الجسم واعتدال المزاج مما يمكنهم من احتمال المضايقات، وعلى المرح الذي يبتعث كل صنوف البهجة، وعلى المحبة والذكاء الأمر الذي يمكن معه أن يوفرُوا لأنفسهم كل المتع الممكنة في حالة ما إذا وُوجهوا في رحلتهم بأي عوائق مخيبة للآمال.

وليس هدف هذا الكتاب أن يقدم وصفًا «لداربيشير» أو لأي من الأماكن الهامة التي مروا بها في طريقهم إلى هناك. «فأكسفورد» و«بلنهايم» و«ورويك» و«كنيلويرث» و«بيرمنجهام» وغيرها معروفة بما فيه الكفاية. ولم يشغل اهتمامنا حاليًا إلا جزء بسيط من «داربيشير». فقد اتجهوا إلى مدينة «لامبثون» الصغيرة التي كانت مسز جاردينر قد أقامت فيها فيما مضى، والتي علمت مؤخرًا أن بعض معارفها لا يزالون

يقيمون فيها، وذلك بعد أن شاهدوا كل مواطن الجمال الأساسية في المقاطعة. وعرفت إليزابيث من زوجة خالها أن بيت «بيمبرلي» كان يقع على بعد خمسة أميال من «لامبتون». ولم يكن في طريقهم المباشر إلى المدينة، كما كان يبعد عن هذا الطريق بحوالي ميل أو اثنين. وعندما كانوا يتحدثون عن خط سيرهم في المساء السابق، عبرت مسز جاردينر عن ميلها إلى رؤية المكان من جديد. وأعلن مستر جاردينر عن موافقته وطلب من إليزابيث أن تعلن رضاها عن المشروع. وقالت زوجة خالها:

- ألا تودين يا حبيبتي أن تشاهدي مكانًا سمعت عنه الكثير؟ بل إنه كذلك مكان يقترن به ذكر الكثيرين من معارفك. فأنت تعلمين أن ويكهام قد قضى كل شبابه هناك.

واغتمت إليزابيث. لقد شعرت بأن لا علاقة لها بـ«بيمبرلي»، واضطرت إلى اصطناع العزوف عن مشاهدته. «فلا بد أن تقر بأنها تعبت من رؤية البيوت الكبيرة؛ وبعد أن مرت بالكثير منها، فهي لا تجد لذة في رؤية الأبسطة الناعمة أو الستائر الحريرية».

وعابتها مسز جاردينر على بلاهتها، وقالت:

- لو لم يزد الأمر عن كونه بيتًا جميلًا فاخر الرياش، لما كنت أعبأ به أنا نفسي. ولكن الأراضي المحيطة به رائعة، وهي تضم بعضًا من أجمل غابات الريف.

ولم تضيف إليزابيث شيئًا إلى ما قالتها، ولكن عقلها لم يذعن للأمر. وخطرت لها في الحال إمكانية الالتقاء بمستر دارسي في أثناء استعراضها للمكان. إن ذلك سيكون شيئًا فظيلاً! واحتقنت وجنتها

لمجرد الفكرة، ورأت أن من الأفضل أن تصارح زوجة خالها بالأمر بدلاً من أن تخاطر بالذهاب. غير أنه كان هناك من الاعتراضات ما واجه هذه الفكرة، واستقر رأيها أخيراً على أن تكون تلك المصارحة ملاذها النهائي إذا لم تلقَ جواباً مناسباً على ما تقوم به سرّاً من استفسارات بشأن غياب الأسرة عن البيت.

وبناء على هذا، فقد سألت الخادمة عندما أوت إلى حجرتها ليلاً عما إذا كان «بيمبرلي» مكاناً جميلاً، وعن اسم مالكة وعما إذا كانت الأسرة -وهنا شعرت بانزعاج شديد- قد جاءت لقضاء فصل الصيف فيه. وأعقب السؤال الأخير إجابة بالنفي رحبت بها للغاية. أما وقد تلاشت الآن مصادر قلقها، فقد أُتيح لها أن تشعر بقدر عظيم من الفضول لرؤية البيت. وعندما أُثير الموضوع من جديد في صباح اليوم التالي، وفُتحت في الأمر لأخذ رأيها، أجابت دون تردد وبما أشاعته حولها من جو عدم الاكتراث بأنها لم تكن تحمل للمشروع في الواقع أي اعتراض.

ومن ثم فقد استقر رأيهم على الذهاب إلى «بيمبرلي».



الفصل الثالث والأربعون

في الطريق إلى هناك، أخذت إيزابيث تترقب ببعض الاضطراب بداية غابات «بيمبرلي». وعندما انعطفت بهم العربة آخر الأمر إلى البيت، رفرت روحها في صدرها.

وكانت الرياض شديدة الاتساع، كما كانت تحتوي على مساحات متعددة. ودخلوها من أقل نواحيها ارتفاعاً عن الأرض، وانطلقت بهم العربة لبعض الوقت عبر غابة جميلة تمتد على مساحة شاسعة.

وكان ذهن إيزابيث مشغولاً على نحو لم يؤهلها للحديث، ولكنها رأت كل بقعة فريدة وأبدت إعجابها بها. وارتقوا بالتدرج أرضاً تمتد نصف ميل، ثم وجدوا أنفسهم فوق قمة رابية شاهقة انتهت عندها حدود الغابة، وشدت الأنظار في التو إلى «بيمبرلي هاوس» الذي كان يقع على الناحية الأخرى من الوادي حيث انعطف الطريق في التفافة مفاجئة. وكان البيت بناء ضخماً رشيقياً يستقيم على أرض مرتفعة، ويحده من الخلف خط من التلال العالية ذات الغابات الكثيفة. أما من الأمام فكان هناك جدول ذو أهمية طبيعية تزايد اتساع مجراه بالتدرج، ولكن دون تدخل خارجي. ولم يظهر في شطوطه أي تكلف أو زينة زائفة. وسرت

إليزابيث؛ فلم يسبق لها من قبل أن رأت مكاناً أضفت عليه الطبيعة من عندها مثلما فعلت هنا، أو بقعة كهذه لم يتصدّ فيها الذوق السخيف لجمال الطبيعة. وأبدوا جميعاً إعجابهم بحماسة، وفي تلك اللحظة شعرت بقيمة أن تكون أي امرأة سيدة «بيمبرلي».

وهبطوا الرابية وعبروا الجسر واتجهوا إلى باب البيت. وبينما كانت تتفحص معالم المنزل عن قرب عادت إليها كل مخاوفها من لقاء مالكه. وخشيت أن تكون الخادمة قد أخطأت. وما إن طلبوا رؤية البيت، حتى سمح لهم بالدخول إلى القاعة. وأثناء انتظارهم لمدبرة المنزل أخذت إليزابيث تتعجب من نفسها لوجودها حيث كانت.

وجاءت مدبرة المنزل، وهي امرأة متقدمة في السن ذات وقار، وكانت أقل جمالاً وأشدّ أدباً مما تصورتها. وتبعوها إلى ردهة الطعام، وكانت حجرة واسعة ذات نسب متسقة، كما كان أثاثها أنيقاً. وبعد أن استعرضت إليزابيث ما بها في لمحة عارضة، توجهت إلى النافذة لتستمتع بما تستشرفه من مناظر. وكان للتل المكمل بالغابات الذي هبطوا منه منظر جميل نتيجة للبعد شديد الانحدار. وكانت كل معالم الخلاء جميلة، وألقت ببصرها مبتهجة إلى المشهد كله، إلى النهر والأشجار المتناثرة على شطوطه والتفاف الوادي على مرمى البصر. وبمرورهم في حجرات أخرى كانت تلك المناظر تتخذ أوضاعاً مختلفة، ولكن كل نافذة كانت تستشرف صنوفاً من الجمال. وكانت الحجرات عالية السقوف أنيقة، أما أثاثها فكان متناسباً مع ثروة مالكها. ولكن إليزابيث رأت أن الأثاث لم يكن كثير الزخارف، كما لم يكن جميلاً دون نفع؛

كذلك كان يقل عن أثاث «روزينجز» أبهة ويفوقه أناقة حقيقية. وكان في ذلك ما استحق إعجابها بذوق صاحب البيت.

«وإذن فكان يمكن أن أصبح سيدة على هذا المكان!». هكذا دارت برأسها الأفكار. «لربما كان يمكن أن أكون الآن على معرفة وثيقة بهذه الحجرات! وبدلاً من أن أستعرضها كغريبة، كانت يمكن أن أسعد بها بوصفها ملكاً لي، أرحب فيها بخالي وزوجته كزائرين». ولكنها فطنت إلى نفسها «ولكن هذا محال؛ فخالي وزوجته كانا سيصبحان بالنسبة لي من المفقودين، وما كان ليسمح لي بدعوتهما». وكانت سعيدة الحظ إذ تذكرت هذا، فقد أنقذها من شعور شبيه بالحسرة والأسى.

وتلهفت على سؤال مدبرة المنزل عما إذا كان سيدها غائباً بالفعل، ولكنها لم تجد الشجاعة على ذلك. ومع هذا فقد طرح خالها السؤال آخر الأمر، وأدارت هي وجهها وقد تولاهما الانزعاج، بينما أجابت مسر رينولدز أنه كان غائباً، وأضافت تقول:

- ولكننا نتوقع حضوره غداً بصحبة جماعة كبيرة من الأصدقاء. ويا لسعادة إليزابيث؛ لأن رحلتهم لم تتأخر يوماً واحداً بسبب أي ظرف من الظروف!

واستدعتها زوجة خالها للنظر إلى إحدى الصور، واقتربت فرأت صورة فيها شبه من مستر ويكهام، معلقة وسط غيرها من الصور المصغرة فوق رف المدفأة. وسألته زوجة خالها مبتسمة عن مدى إعجابها بها. وتقدمت منهما مدبرة المنزل، وقالت لهما إن هذه صورة شاب هو ابن خادم سيدها الراحل، رباه على نفقته الخاصة. وأضافت قائلة:

- لقد التحق الآن بالجيش، ولكنني أعتقد أنه يعيش حياة صاخبة.
ونظرت مسز جاردنر إلى ابنة أخت زوجها وهي تبسم، ولكن
إليزابيث لم تستطع رد الابتسامة.

وقالت مسز رينولدز وهي تشير إلى صورة أخرى مصغرة:
- وهذا هو سيدي، وهي صورة طبق الأصل. لقد رُسمت هي
والأخرى في وقت واحد، منذ ثمان سنوات تقريباً.
وقالت مسز جاردنر وهي تنظر إلى الصورة:

- لقد سمعت الكثير عن بهاء سيدك. وإنه لوجه وسيم، ولكنك أنتِ
يا ليزي تستطيعين الحكم على ما إذا كان في الصورة شبه من صاحبها.
وبدا أن احترام مسز رينولدز لإليزابيث قد ازداد نتيجة هذه الإشارة
عن معرفتها لسيدها.

- أتعرف هذه الآنسة مستر دارسي؟

واحمر وجه إليزابيث وقالت:

- معرفة بسيطة.

- أو لا تعتقدين أنه رجل شديد الوسامة يا سيدتي؟

- نعم، شديد الوسامة.

- ثقي أنني لا أعرف أحداً يضارعه وسامة. ولكنك ستشاهدين في
رواق الطابق الثاني صورة له أجمل وأكبر من هذه. فهذه الحجرة كانت
تستأثر بحب سيدي الراحل، وهذه الصور المصغرة لم تبارح مكانها منذ
أن كان على قيد الحياة. لقد كان شديد الشغف بها.

وفسر هذا القول لإليزابيث سبب وجود صورة مستر ويكهام بينها.
ثم لفتت مسز رينولدز انتباههم إلى صورة تمثل مس دارسي رُسمت
لها عندما لم تكن تتجاوز الثامنة من عمرها.
وقال مستر جاردنر:

- وهل تعتبر مس دارسي مليحة كشقيقتها؟

- أجل، إنها أشد الفتيات حلاوة، كما أنها ذات كفاءات مكتملة!
إنها تعزف وتغني طوال اليوم. وهناك في الحجرة المجاورة معزف
جديد وصل لتوه من أجلها، وهو هدية من شقيقتها. إنها تصل إلى هنا
بصحبه غداً.

ولما كان مستر جاردنر يتصف بلطف الطبع وسلاسته، فقد أخذ
يشجعها على الحديث بأسئلته وملاحظاته. وكانت مسز رينولدز تشعر
بوضوح بمتعة كبرى في الحديث عن سيدها وشقيقتها، سواء كان ذلك
عن تفاخر أو تعلق بهما.

- هل يبقى سيدك كثيرًا في «بمبرلي» في خلال العام؟

- ليس بالكثرة التي أتمناها يا سيدي. ولكني أعتقد أنه يقضي نصف
وقته هنا. أما مس دارسي فدائمًا ما تعيش هنا طوال شهور الصيف.

فيما عدا أوقات ذهابها إلى «رامسجيت»؛ هكذا فكرت إليزابيث:

- لو تزوج سيدك، لكثرت رؤيتك له.

- أجل يا سيدي، ولكني لا أعرف متى يكون ذلك؛ كما لا أعرف
أي فتاة تصلح له.

وابتسم مستر جاردينر وزوجته. أما إليزابيث فلم تملك إلا أن تقول:

- إن ظنك هذا يزيد بالتأكيد من فضله.

وقالت الأخرى:

- إنني لا أضيف إلى الحقيقة شيئاً، فضلاً عن أن هذا هو ما سيقوله

كل من يعرفه.

وظنت إليزابيث أن في هذا مبالغة كثيرة، وأنصت إلى المدبرة

بدهشة متزايدة وهي تضيف قائلة:

- إنه لم يوجه لي في حياتي كلها كلمة واحدة جافة، ولقد عرفته

منذ كان في الرابعة من عمره.

وكان هذا المديح أغرب أنواع الشناء كافة، وأشدّها تناقضاً مع

أفكارها عنه. لقد كان اعتقادها بأنه رجل حاد المزاج من أشد آرائها

رسوخاً. واستثير انتباهها المرفه وودت لو سمعت المزيد، وشعرت

بالامتنان إزاء خالها لقوله:

- إن ما قلته لا ينسحب على كثير من الناس. إنك محظوظة لأن لك

مثل هذا السيد.

- نعم يا سيدي، أنا أعرف أنني محظوظة. فلو أنني ذرعت الدنيا

طولاً وعرضاً لما قابلت من هو أفضل منه. ولقد لاحظت دائماً أن

الأطفال الطيبين يصبحون رجالاً طيبين أيضاً عندما يشبون. ولقد كان

دائماً أشد من رأيهم من الأولاد حلاوة طبع وسخاء نفس.

وحملت إليزابيث فيها؛ وفكرت: «أيمكن أن يكون هذا مستر

دارسي؟».

وقالت مسز جاردنر:

- لقد كان والده رجلاً عظيماً.

- نعم يا سيدتي، لقد كان عظيماً بالفعل. وسيصبح ولده نسخة طبق الأصل منه، لطيفاً إزاء الفقراء.

وأنصت إليزابيث وتعجبت وتشككت وتلهفت على معرفة المزيد. ولكن لم يكن في وسع مسز رينولدز أن ترضي شغفها فيما زاد على ذلك. فقد أخذت تسرد موضوعات الصور وأبعاد الحجرات وثمان الأثاث دون أن تثير انتباهها. وإذا استمتع مستر جاردنر كثيراً بذلك الضرب من التحيز للأسرة الذي أرجع إليه ثناءها المفرط على سيدها، فقد عاد بعد وقت قصير إلى نفس الموضوع. وأفاضت بحماس عن أفضله الكثيرة بينما كانوا يرقون في السلم الكبير؛ وقالت:

- إنه أفضل مالك وأفضل سيد على الإطلاق، وليس كأولئك الشباب الماجن في هذه الأيام الذي لا يفكر إلا في نفسه. وما من أحد ضمن مستأجره أو خدمه إلا ويثني عليه. بعض الناس يرون أنه متكبر، ولكنني واثقة بأنني لم أرَ من ذلك شيئاً. ويُخيل إليّ أن السبب في ذلك يرجع إلى أنه لا يثرثر بالكلام شأن غيره من الشباب.

وفكرت إليزابيث... «يا لجمال الصورة التي يرسمها له هذا الكلام!».

وهمست زوجة خالها في أذنها أثناء سيرهما:

- هذا الكلام الجميل عن شخصيته لا يتفق تمامًا مع سلوكه إزاء صديقنا المسكين.

- ربما كنا قد خُدعنا.

- ليس هذا محتملاً. فقد كان مصدرنا موضع ثقة شديدة.

وما إن وصلوا إلى البهو الفسيح في الطابق الثاني حتى اقتيدوا إلى حجرة للجلوس شديدة الجمال، ثم تأثيثها مؤخراً بأناقة ورشاقة تفوقان ما بدا في حجرات الطابق الأرضي. وقيل لهم إن ذلك قد تم منذ وقت قصير لإدخال البهجة على مس دارسي التي أعجبت بهذه الحجرة عندما كانت في «بمبرلي» آخر مرة.

وقالت إليزابيث وهي تسير في اتجاه إحدى النوافذ:

- لا بد أنه أخ طيب القلب.

وقالت مسز رينولدز إنها تتوقع فرحة مس دارسي عند دخولها إلى الحجرة؛ وأضافت قائلة:

- وهذا هو سلوكه دائماً. فكل ما يمكن أن يسعد شقيقته لا بد أن يكون رهن إشارتها. ليس هناك ما لا يمكن أن يفعله من أجلها.

ولم يتبقَّ إلا رؤية رواق اللوحات وحجرتين أو ثلاث من حجرات النوم الأساسية. وكان بالرواق كثير من الرسومات الجميلة، ولكن إليزابيث لم تكن تعرف شيئاً عن فن التصوير. ولما كانت قد شهدت صور الطابق الأرضي الواضحة، فقد استدارت باختيارها لتلقي بنظرة إلى بعض رسومات مس دارسي التي نفذتها بالقلم الملون والتي كانت موضوعاتها أشد تشويقاً وقرباً إلى الفهم.

وكان في الرواق كثير من صور أفراد الأسرة، بيد أنه لم يكن فيها كثير مما يشد انتباه الغريب. وسارت إليزابيث باحثة عن الوجه الوحيد الذي تعرف ملامحه. وأخيرًا جذبت الصورة نظرها، وشهدت فيها شيئًا عظيمًا من مستر دارسي، وعلى شفثيه نفس الابتسامة التي تذكر أنها في بعض الأحيان كانت تراها عندما كان ينظر إليها. ووقفت أمام اللوحة بضع دقائق وقد استغرقت في تأمل عميق، ثم عادت إليها ثانية قبل أن يغادروا الرواق. وقالت لهم مسز رينولدز إن تلك الصورة قد رُسمت عندما كان والده على قيد الحياة.

وفي تلك اللحظة كان ذهن إليزابيث مشحونًا إزاء صاحب الصورة بإحساس أرق مما كانت قد شعرت به في أوج معرفتهما بعضهما لبعض. فلم يكن الشاء الذي أغدقته عليه مسز رينولدز عديم القيمة. فأَي مديح أرفع قيمة من ذاك الذي تعبر عنه خادمة ذكية؟ فقد كانت ترى أن سعادة الكثيرين تكمن في ولايته عليهم بوصفه أخًا ومالك أرض وسيدًا؛ كما كانت ترى عظم المتعة أو الألم الذي كان في وسعه أن يسببه للناس، وعظم الخير أو الشر الذي يتحقق على يديه. لقد كانت كل الأفكار التي عبرت عنها مدبرة المنزل منصفة له. وبينما كانت تقف أمام اللوحة التي كان مصورًا فيها، وإذ شعرت بأن عينيه مثبتتان عليها، فكرت في اعتزازه بها بشعور من الامتنان أعمق مما كان قد أثاره فيها من قبل. وتذكرت حرارة هذا الاعتزاز وخف استيائها مما صحبه من سوء التعبير.

وعادوا إلى الطابق الأرضي بعد أن شاهدوا كل ما كان مسموحًا للناظرين برؤيته من أنحاء البيت، واستأذنوا من مدبرة المنزل التي

عهدت بهم إلى البستاني الذي التقى بهم عند الباب الأمامي.

وبينما كانوا يعبرون المرح متجهين ناحية النهر، استدارت إليزابيث لتلقي على البيت نظرة ثانية؛ وتوقف خالها وزوجته أيضًا. وفي الوقت الذي كانت إليزابيث تخمن فيه تاريخ بناء المنزل، إذ بمالكه نفسه يتجه ناحيتها على حين غرة قادمًا من الطريق الذي كان يفضي إلى مرابط الخيول.

وكان يفصل بينهما عشرون ياردة، وأصبح من المستحيل عليها -وقد كان ظهوره مباغتًا- أن تتحاشى رؤيته لها. والتقت أعينهما في الحال، واحتقنت وجناتهما خجلًا. وحملق فيها، ومضت عليه لحظة بدا فيها كأنه قد تحجر بفعل الدهشة. غير أنه ثاب إلى نفسه بعد قليل وسار في اتجاه الجماعة وتحديث إلى إليزابيث بكلمات إن لم تبد فيها رباطة الجأش فقد أوحى على الأقل بأدب تام.

وكانت قد استدارت بحركة غريزية، ولكنها توقفت إذ رآته يدنو منها وتقبلت تحياته بحرج يستحيل التغلب عليه. ولو لم يكن ظهوره لأول وهلة أو شبهه بالصورة التي كانوا التوهم يتفحصونها كافيين ليتأكد الزوجان من أنهما يريان في تلك اللحظة مستر دارسي، فلا بد أن يكون لتعبير الدهشة الذي أبداه البستاني لدى رؤيته سيده ما أوحى بذلك. ووقفًا على مبعده بينما كان يتحدث إلى إليزابيث التي لم تكذب جسور -وقد تملكها الدهش والارتباك- على أن ترفع ناظرها إلى وجهه والتي لم تدّر بأي جواب ردت على أسئلته المهذبة عن أفراد أسرته. وإذ تعجبت لما طرأ على سلوكه من تغير منذ آخر مرة افترقا فيها،

فقد أدت كل جملة نطق بها إلى مضاعفة ارتباكها. وحين راودتها من جديد كل الأفكار المرتبطة بسوء اللياقة الكامن في وجودها في ذلك المكان، أصبحت الدقائق القليلة التي استمررا يتحدثان فيها بمثابة فترة من أشد أوقات حياتها امتلاءً بالضيق. كذلك لم يَبْدُ عليه أنه يفوقها هدوءًا. فعندما تحدث لم يظهر في نبرته شيء من رصانته المعهودة، وأخذ يكرر أسئلته لها عن وقت مغادرتها «لونجبورن»، وعن إقامتها في «داربيشير»، أكثر من مرة وبطريقة تشيع فيها العجلة، مما كشف صراحة عن تشتت أفكاره.

وأخيرًا بدا أن كل الأفكار قد غابت عن ذهنه؛ وبعد أن وقف لبضع لحظات دون أن يتفوه بحرف، فطن إلى نفسه دفعة واحدة واستأذن مودعًا.

وعند ذاك لحق بها الآخران، وعبرا عن إعجابهما بشخصه. ولكن إليزابيث لم تسمع كلمة واحدة مما قالاه، وتبعتهما في صمت وقد انغمست تمامًا في مشاعرها. وتغلبت عليها أحاسيس الخجل والكمد. فقد كان مجيئها إلى هناك أشد الأمور نحسًا وسوء تقدير. وبالعجوبة ما سيظهر له من وجودها! وأي وضع مشين سيراها عليه مثل هذا الرجل المختال! قد يبدو له الأمر وكأنها تعمدت أن تلقي نفسها في طريقه من جديد. أواه! لِمَ قادتها قدماها إلى هذا المكان؟ أو لِمَ جاء هكذا مستبقًا موعد عودته بيوم؟ لو كانوا قد غادروا البيت مبكرين بعشر دقائق فقط لكانوا قد أفلتوا من نظراته المتفحصة؛ فقد كان واضحًا أنه وصل لتوه، وأنه ترجل في تلك اللحظة عن جواده أو غادر عربته. واحمرت وجنتاها مرة بعد مرة لما صحب هذا اللقاء

من ظروف معاندة. وسلوكه هذا الذي اعتوره تغير مميز، ما معناه؟ إن مجرد الحديث إليها كان مدعاة للدهش، فما باله يتكلم بمثل هذا الأدب ويستفسر عن أفراد أسرتها! لم يسبق لها أبداً أن رأت طباعه وقد تضاءلت فيها معالم الرهبة والجلال، بل لم يسبق له أن تكلم بمثل هذه الرقة والحنو كما فعل في هذا اللقاء غير المنتظر. أي تعارض كان هناك بين حديثه هذا وبين آخر عباراته لها في «روزينجز بارك» عندما وضع في يدها خطابه! ولم تدر كيف تفكر أو كيف تفسر ما رآته.

وكانوا في ذلك الوقت قد دلفوا إلى ممر جميل بجانب المجرى المائي، وقادتهم كل خطوة إلى خضرة أبهى أو نطاق من الغابات أروع منظرًا كانوا في سيرهم يدنون منه. ولكن مضى وقت طويل قبل أن تشعر إليزابيث بأي من هذا، وبرغم أنها ردت بإجابات آلية على ما وجهه لها خالها وزوجته من أسئلة متعاقبة، وبدت كما لو كانت توجه عينيها لما أشاروا إليه من مناظر، إلا أنها لم تميز شيئاً من المشهد الممتد أمامها؛ فقد كانت أفكارها مركزة على تلك البقعة بذاتها التي ينهض عليها «بمبرلي هاوس» حيث كان مستر دارسي موجوداً في ذلك الوقت. وتلهفت على معرفة أي الأفكار كانت تدور برأسه في تلك اللحظة، وبأي أسلوب كان يفكر فيها، وعما إذا كانت -برغم كل شيء- لا تزال عزيزة عليه. ولربما لم يكن مهذباً معها إلا لأنه كان يتصرف على سجيته، ومع ذلك فقد كان هناك في صوته ما لم يكن شبيهاً بسكينة النفس. ولم يكن باستطاعتها أن تعرف ما إذا كان شعوره بالألم قد فاق شعوره بالبهجة عند رؤيته لها، ولكن الأمر المؤكد هو أنه لم يرها وهو ثابت الجنان.

على أن ملاحظات رفيقيها على شروود ذهنها قد أعادتها أخيراً إلى
رشدّها، وشعرت بضرورة الظهور بمظهرها الطبيعي.

وولجوا الغابات، وارتقوا بعض الأراضي المرتفعة بعد أن ودعوا
النهر لفترة من الزمن، وهناك، وحيث وقفوا في أمكنة تسمح فيها
الفجوات بين الأشجار للعين أن تنظر وتتعجب، بدا الكثير من المناظر
الساحرة للوادي وللتلال المواجهة بما على معظمها من غابات ممتدة،
ولما كان يظهر بين الحين والحين من ماء الغدير. وأبدى مستر جاردنر
رغبته في الطواف بغابات الروض كلها، ولكنه خشي أن تفوق مساحتها
قدرتهم على المشي. وقال لهم البستاني بابتسامة ظافرة: إن المسافة
تبلغ عشرة أميال. ووضع ذلك للفكرة حدّاً. فسلكوا الطريق المعهود
الذي أفضى بهم ثانية -بعد وقت قصير- إلى منحدر وسط أشجار
ذات فروع مدلاة، قادهم إلى حافة المجرى عند أضيق أجزائه، وعبروه
على جسر بسيط التكوين يتفق في مظهره مع الجو العام للمشهد من
حوله، وكانت تلك بقعة أقل زينة من الأماكن التي زاروها من قبل. أما
الوادي الذي انكمش هنا فأصبح ممراً، فلم يسمح بالعبور إلا للجدول
ولممشى ضيق وسط الشجيرات الكثيفة الأغصان التي نمت جنب
حافته. وأرادت إليزابيث أن تستكشف منحنياته، ولكن بمجرد أن عبروا
الجسر ورأوا مدى بعدهم عن البيت، لم تستطع مسز جاردنر التي لم
تكن معتادة على المشي مسافات طويلة أن تسير إلى أبعد من هذا، ولم
تفكر إلا في العودة إلى العربة بأسرع ما يمكن. ومن ثم اضطرت ابنة
أخت زوجها إلى الإذعان، ومشوا في اتجاه البيت على الناحية الأخرى

من النهر، ومن أقصر طريق. ولكن سيرهم كان بطيئاً، فقد كان مستر جاردنر شديد الشغف بصيد السمك -برغم أنه نادراً ما استطاع إشباع هوايته- فانهمك في مشاهدة ما كان يظهر في الماء بين الحين والحين من أسماك السلمون، وفي الحديث مع الرجل بشأنها، الأمر الذي لم يتقدم معه في سيره إلا قليلاً. وبينما كانوا يتجولون هكذا ببطء، دُهِشوا مرة ثانية -وكانت دهشة إليزابيث تضارع دهشتها في أول مرة -لمرأى مستر دارسي وهو يتقدم منهم، وعلى بعد ليس بكبير. ولما كان الممر في تلك البقعة أكثر انكشافاً عما كان في الجانب الآخر، فقد مكنهم من رؤيته قبل أن يلتقوا وجهاً لوجه. وبرغم أن الدهشة قد استولت على إليزابيث، إلا أنها كانت على الأقل أكثر تهيؤاً للقاء عما كانت في المرة السابقة، وقررت أن تتصرف وتتحدث في هدوء، لو كان يعتزم بالفعل أن يقابلهم. وشعرت في الحق لبضع لحظات قليلة أنه قد ينحرف إلى ممر آخر. ودامت هذه الفكرة طوال فترة أخفاه فيها عن أنظارهم أحد منعطفات الممر. وما إن انتهى المنعطف، حتى وجدوه أمامهم مباشرة. وبالتفاته منها أدركت أنه لم يتخلَّ عن شيء من سلوكه المذهب. وبعد أن التقوا، بدأت تطري جمال المكان في محاولة منها لمحاكاة أدبه. ولكنها لم تكد تلفظ كلمتي «بديع» و«ساحر»، حتى برزت بعض الذكريات المنكودة الحظ، وخُيِّلَ إليها أن امتداحها «لبيمبرلي» قد يفسر تفسيراً سيئاً. واحمر وجهها ولم تضيف إلى قولها شيئاً.

وكانت مسز جاردنر تقف إلى الخلف على مبعدة، وما إن توقفت إليزابيث عن الكلام، حتى طلب منها أن تشرفه بتقديمه إلى صديقها.

وكانت هذه لفظة مهذبة لم تكن مستعدة لها. واستطاعت بالكاد أن تكبت ابتسامة بسبب ما يسعى إليه الآن من التعرف على بعض أولئك الناس الذين نفرت منهم كبريائه عند تقدمه بعرض الزواج منها. وفكرت قائلة: «يا لدهشته عندما يعلم مَنْ يكونان! إنه يعتقد أنهما من أفراد الطبقة الراقية».

ومع ذلك فقد تمت على الفور إجراءات التعارف؛ وبينما هي تحدد درجة قرابتهما لها، لمحتة بنظرة مأكرة لترى مدى احتماله للأمر، وتوقعت منه أن ينسحب بأسرع ما يمكن من مثل هذه الصحبة المشينة. وكان واضحاً أنه دُهِش لهذه العلاقة. ومع ذلك فقد كبت هذه الشعور بعزم، وبدلاً من أن يمضي مبتعداً عنهم، استدار معهم. وانغمس في حديث مع مستر جاردنر. ولم تستطع إليزابيث إلا أن تبتهج، لم تستطع إلا أن تستشعر الفوز. لقد كان من أسباب العزاء أن يعرف أن لها بعض الأقارب ليس هناك مبرر للشعور بالخجل من صحبتهم. وأنصتت بانتباه تام لكل ما دار بينهما، وتاهت عجباً بكل تعبير وكل جملة فاه بها خالها، مما ميز ذكاءه وذوقه السليم وخصاله الحميدة.

وما لبث الحديث أن انتقل إلى صيد السمك، وسمعت مستر دارسي يدعو بأدب جم ليصطاد هناك في أي وقت يريد طوال إقامته في الناحية، عارضاً عليه في ذات الوقت أن يزوده بعدة الصيد، موضحاً تلك الأجزاء من النهر التي يكثر فيها السمك عادة. وألقت مسز جاردنر إلى إليزابيث -وكانتا تسيران بذراعين متشابكتين- نظرة تعبر عن عجبها. ولم تقل إليزابيث شيئاً، ولكن النظرة أرضتها إلى حد بعيد، فالتحية لا بد

أن تكون من نصيبيها. على أن دهشتها كانت مفرطة، واستمرت تكرر لنفسها هذا القول: «لماذا تغير هكذا؟ وما سبب هذا التغير؟ لا يمكن أن تكون طباعه قد رقت بسببي، لا يمكن أن يكون هذا لأجل خاطري؛ إن تعينني له في «هنسفورد» لا يمكن أن يؤدي إلى مثل هذا التغير؛ محال أن يكون لا يزال يحبني».

وبعد أن ساروا بعض الوقت على هذا النحو، السيدتان في المقدمة، والرجلان إلى الخلف، وبعد أن هبطوا إلى حافة النهر ليتفحصوا عن قرب بعض النباتات المائية الغريبة، حدث في أوضاعهم بعض التغير الطفيف. وحدث هذا التغير بسبب مسز جاردنر التي أنهكها مجهود الصباح فشعرت أن ذراع إيزابيث قاصرة عن احتمالها، ومن ثم فقد فضلت الاعتماد على ذراع زوجها. واحتل مستر دارسي مكانها بجانب إيزابيث وسارا معًا جنبًا إلى جنب. وتحدثت إيزابيث بعد فترة صمت قصيرة. لقد كانت تريد منه أن يعرف أنها تأكدت من غيابه قبل مجيئها إلى هذا المكان، وبالتالي فقد بدأت حديثها بقولها إن وصوله لم يكن على الإطلاق متوقعًا، وأضافت قائلة:

- فقد أخبرتنا مدبرة منزلك أنك لن تكون هنا على وجه اليقين قبل غد. والحق أننا عرفنا حتى قبيل مغادرتنا «بيكويل» أن وصولك إلى الريف لم يكن متوقعًا في القريب.

وأقر بصحة هذا الكلام كله. وقال إن بعض المهام التي كان عليه أن ينجزها مع رئيس خدمه قد استلزمت مجيئه قبيل بضع ساعات من وصول الجماعة التي كان يصحبها في السفر. واستطرد يقول:

- إنهم سوف يلحقون بي في وقت مبكر من صباح غد، وبينهم بعض ممن يعرفونك، كمستر بينجلي وشقيقته.

وردت عليه إليزابيث بانحناء طفيفة ليس غير. وعادت أفكارها في الحال إلى الوقت الذي ذكر فيه اسم مستر بينجلي بينهما آخر مرة. ولو قُدِّر لها أن تحكم بما بان على وجهه من مشاعر، لثبت لها أن فكره لم يكن مشغولاً بغير هذه الذكريات.

واستمر في حديثه بعد برهة:

- كذلك فهناك بين أفراد الجماعة شخص آخر يريد بوجه خاص أن يتعرف بك. أو تسمحين أن أعرفك بشقيقتي أثناء إقامتك في «لامبتون»؟ أو تراني أشتط في الطلب؟

وكانت دهشتها لهذا العرض عظيمة بالفعل، وأصبح من العسير عليها أن تعرف على أي أساس أعلنت قبولها له. وشعرت في التو أنه مهما كان السبب الذي حدا بمس دارسي إلى الرغبة في التعرف بها، فلا بد أن يكون ذلك ناشئاً عن تصرف شقيقها. وقد أرضاها هذا الاحتمال دون أن تتعمق في إمعان الفكر فيه. لقد أصبح مما يُرضي شعورها أن تعرف أن امتعاضه لم يدفعه إلى إساءة الظن بها.

وسارا وهما مستغرقان في الصمت منغمسان في الأفكار. ولم تكن إليزابيث تشعر بالراحة. لقد كان هذا محالاً. ولكنها كانت تشعر بالبهجة، وبأنها موضع تكريم. لقد كانت رغبته في تقديم شقيقته إليها بمثابة تحية عظيمة للغاية. ولم يَمُضِ وقت طويل حتى تخطيا مستر جاردنر وزوجته، وعندما بلغا العربة كان الزوجان متخلفين عنهما بمسافة كبيرة.

وعند ذاك دعاها للدخول إلى المنزل، ولكنها صرحت بأنها لم تكن متعبة، فوقفا على الأرض المعشوشبة جنباً إلى جنب. وفي مثل ذلك الوقت كان يمكن أن يُقال الشيء الكثير، فالصمت كان محرّجاً للغاية. وأرادت أن تتكلم، ولكن بدا كأن هناك خطراً من كل موضوعات الحديث. وتذكرت أخيراً أنها كانت على سفر، فتحدثا عن «ماتلوك» و«دافديل» باستفاضة شديدة. ومع ذلك تباطأ الزمن وزوجة خالها معاً في المسير، وكاد صبرها وتفكيرها ينضب قبل أن تنقضي هذه الخلوة بينهما.

وبوصول مستر جاردنر وزوجته، أُلح عليهم جميعاً في الرجاء بأن يدخلوا إلى المنزل ويتناولوا بعض المرطبات، ولكنهم اعتذروا عن ذلك، وافترقوا بأدب شديد. وعاون مستر دارسي السيدتين على الصعود إلى العربة، وعندما انطلقت بهم رآته إليزابيث وهو يسير متباطئاً تجاه المنزل. وهنا بدأت ملاحظات خالها وزوجة خالها، واعتبره كل منهما أشد سموّاً إلى حد بعيد مما كان يمكن أن يدور بخلد هما. وقال خالها:

- إنه حسن التصرف تماماً، شديد الأدب عديم التكلّف.

وردت زوجة خالها قائلة:

- من المؤكد أن في هيئته شيئاً من الجلال يتركز في مظهره العام، وهو مناسب له تماماً وأستطيع الآن أن أشارك مدبرة المنزل قولها إنني لم أَرِ أثراً للكبرياء التي يصفه بعض الناس بها.

- لم يسبق لي أن دهشت لشيء قدر دهشتي لسلوكه معنا. لقد فاق هذا السلوك حدود المجاملة، وكان بالفعل مراعيّاً شديد الحذب؛ فضلاً

عن أنه لم يكن هناك ضرورة لهذا الاهتمام. فمعرفته بإليزابيث سطحية تمامًا.

فقالت زوجة خالها:

- صحيح يا ليزي أنه ليس وسيماً كويكهام، أو بالأحرى فهو لا يشبهه، فقسمات وجه ويكهام ذات اتساق مكتمل؛ ولكن ماذا دهاك لتقولي لنا إنه بغيض تمامًا؟

والتمست إليزابيث لنفسها الأعذار بقدر استطاعتها، وقالت إنها ازدادت إعجاباً به عندما التقيا في «كنت»، وإنها لم يسبق لها أن رآته بهذا اللطف قبل هذا الصباح.

فأجاب خالها قائلاً:

- ولكن ربما كان هوائياً إلى حد ما في مجاملاته، فكثيراً ما يكون العظماء على هذا النحو، ولذلك فلن أصدق ما قاله لي عن صيد السمك، إذ ربما غير رأيه في يوم آخر واحتجزي خارج أراضييه.

وشعرت إليزابيث أنهما لم يفهما شخصيته تمام الفهم، ولكنها لزمّت الصمت.

واستطردت مسز جاردنر قائلة:

- إنني لا أتصور في الحقيقة - بعدما رأيناه من سلوكه - أن يكون قد تصرف بمثل هذه القسوة إزاء أي إنسان، مثلما فعل إزاء ويكهام المسكين. فليس في نظريته ما يوحي بالشر. على العكس، فعندما يتحدث يتبدى على فمه طابع لطيف. وكذلك ففي وجهه سمة من الوقار

لا تعطي الناظر إليه أي فكرة سيئة عما في قلبه. ولكن المؤكد أن السيدة الطيبة التي أطلعنا على محتويات البيت قد صورت شخصيته على نحو أشد ما يكون جاذبية! وفي بعض الأحيان أمسكت بالكاد عن الضحك بصوت عالٍ. ولكنه سيد سخّي على ما أعتقد؛ والسخاء في نظر الخدم يشتمل على كل فضيلة وفضيلة.

وهنا شعرت إليزابيث بالواجب يحتم عليها أن تقول شيئاً دفاعاً عن سلوكه إزاء ويكهام، ومن ثم فقد أفهمتهما -بقدر ما استطاعت من حيلة- أن ما سمعته من أقربائه في «كنت» يدل على أن تصرفاته وحيي بتفسيرات جد مختلفة، وأن شخصيته لم تكن على الإطلاق معيبة، وكما أن شخصية ويكهام لم تكن أبداً رقيقة على النحو الذي كان شائعاً في «هارتفوردشير». وتأييداً لكلامها هذا، قصّت عليهما تفاصيل المعاملات المالية التي نشأت بينهما دون أن تحدد بالضبط مصدر معلوماتها، مكتفية بأن صرحت بأنه مصدر يُعتمد عليه.

واستولت الدهشة والقلق على مسز جاردنر. ولكن لما كانوا يقربون آنذاك من البقعة التي شهدت مباهاجها السابقة، فقد أفسحت كل الأفكار مكاناً لمفاتيح الذكرى. وانهمكت في إطار زوجها على كل الأماكن الشيقة في تلك الناحية بحيث لم تستطع أن تفكر في شيء آخر. وبرغم ما أصابها من إرهاق بفعل مسيرة الصباح، إلا أنها لم تكد تتناول طعام الغداء مع زوجها وابنة أخته حتى انطلقت ثانية بحثاً عن معارفها السابقين، وانقضى المساء في استمتاع بحديث تجدد بعد انقطاع سنوات عدة.

وكانت أحداث اليوم زاخرة بما يشير اهتمام إيزابيث، إلى حد لم تستطع معه تخصيص انتباه كبير لأيٍّ من هؤلاء الأصدقاء الجدد. ولم يكن بإمكانها أن تفعل شيئاً أكثر من أن تفكر وتفكر في عجب في سلوك مستر دارسي المذهب، بل في رغبته التي تستهدف نشوء صلة المعرفة بينها وبين شقيقته.



الفصل الرابع والأربعون

كانت إليزابيث قد اتفقت مع مستر دارسي على أن يأتي بشقيقته لزيارتها في اليوم التالي لوصولها إلى «بيمبرلي»، ومن ثم فقد عازمت على ألا تتبعد كثيرًا عن النُّزل طوال ذلك الصباح. ولكن ما جازمت به لم يكن صحيحًا، ففي صباح نفس اليوم الذي وصلوا فيه إلى «لامبتون»، جاء هذان الزائران. وكانوا إذ ذاك يتريضون في ذلك المكان بصحبة بعض أصدقائهم الجدد، ورجعوا لتوهم إلى النُّزل لاستبدال ملابسهم استعدادًا لتناول الغداء مع نفس الأسرة، عندما اجتذبهم إلى النافذة صوت عربة في الطريق، فرأوا رجلًا وامرأة يستقلان عربة بعجلتين. وبعد أن تعرفت إليزابيث في الحال على كسوة الخدم، خمنت معنى ما تراه، وسببت لمستر ومسرز جاردينر درجة بالغة من الدهشة عندما أحاطتهما علمًا بما ينتظرهما من دلائل التكريم. واستولى الذهول على خالها وزوجته، وأدى ارتباكها في الحديث، بالإضافة إلى الظرف نفسه وكثير من ظروف اليوم السابق إلى أن تطرأ عليهما فكرة جديدة بشأن هذا الموضوع. ولم يُوحَ بهذه الفكرة شيء من قبل، ولكنهما شعرا

آنذاك بأنه ليس من سبيل لتفسير هذا الاهتمام من جهة هذا الرجل إلا بافتراض أنه ميال إلى إليزابيث. وبينما كانت هذه الأفكار الوليدة تراودهما، كان الاضطراب في مشاعر إليزابيث يتزايد لحظة بعد أخرى. وذهلت أشد الذهول بسبب ما هي فيه من ارتباك؛ غير أنه كان من بين الأسباب الأخرى لقلقها، خشيتها من أن يكون الرجل قد أفاض في مديحها أمام شقيقته بسبب انحيازه لها. ولما كانت أشد تلهفاً منها في الظروف العادية على إرضاء زائريها، فقد كان من الطبيعي أن ترتاب في قدرتها على هذا الإرضاء.

وتراجعت من جنب النافذة وقد خشيت أن يكونا قد شاهداها، وبينما كانت تذرع الحجرة جيئة وذهاباً، تحاول أن تهدئ من نفسها، لمحت في أعين خالها وزوجته من نظرات الدهشة المتسائلة ما زاد الطين بلة.

وظهرت مس دارسي وشقيقها، وحدث ذلك التعارف الرهيب. ولاحظت إليزابيث وهي مندهشة أن صديقتها الجديدة كانت تشعر بحرج يساوي ما تشعر به هي على أقل تقدير. وكانت قد سمعت منذ وصولها إلى «لامبتون» أن مس دارسي كانت شديدة الكبرياء. ولكن بضع دقائق من الملاحظة لسلوكها، أفنعتها بأنها لم تكن إلا شديدة الحياء. ووجدت من العسير أن تستخرج منها كلمة تزيد في تكوينها على مقطع واحد.

كانت مس دارسي طويلة القامة، تفوق إليزابيث طولاً وعرضاً؛ وبرغم أنها لم تكن قد تخطت السادسة عشرة من عمرها إلا بقليل،

فقد كانت ممشوقة القوام، كما كان في مظهرها أنوثة ورشاقة. وكانت أقل من شقيقها وسامة، وإن كان وجهها يوحي برجاجة فكرها وسلاسة طبعها، كما كان سلوكها رقيقاً خالياً تماماً من التكلف. أما إليزابيث التي كانت تتوقع أن تجد فيها فتاة نافذة البصر لا تستشعر الحرج مثلها في ذلك مثل مستر دارسي، فقد أحست براحة كبيرة بعد أن استشفت منها هذه المشاعر المغايرة.

ولم يطل بهم المقام حتى قال لها دارسي إن بينجلي في طريقه أيضاً لزيارتها. ولم تكد تجد فرصة للتعبير عن امتنانها والاستعداد لاستقبال زائر كهذا، حتى سمعوا خطي بينجلي السريعة وهو يرقى في الدرج؛ ولم تمض لحظة حتى دلف إلى الحجرة. وكان غضب إليزابيث عليه قد انقضى منذ وقت طويل؛ ولكن حتى لو كانت لا تزال تستشعر شيئاً منه، ما استطاعت أن تستمر فيما تشعر به إزاء ما صدر عنه من ترحيب ودي غير مفتعل حال رؤيته لها ثانية. واستفسر منها عن أفراد أسرته بأسلوب رقيق وإن كان عاماً، وتصرف وتحدث بنفس البساطة المنطلقة التي ميزت سلوكه دائماً.

ورأى فيه مستر جاردينر وزوجته شخصية لا تقل عذوبة عما رآته هي نفسها. فقد رغبا في رؤيته منذ وقت طويل. والحق أن أفراد الجماعة الذين كانوا أمامهما، أثاروا فيهما انتباهاً يقطعاً. فقد أدى بهما الريب الذي استشعراه إزاء مستر دارسي وإليزابيث إلى ملاحظة كل منهما برغبة في الاستقصاء تمتزج فيها اللفتة بالاحتياط. وما لبثا أن توصلا من هذا الفحص إلى اعتقاد جازم بأن واحداً منهما على الأقل كان يعرف

معنى الحب. أما فيما يختص بمشاعر الفتاة فقد ساورها شك طفيف. غير أنه كان من الواضح تمامًا أن الرجل كان مسرفاً في التعبير عن آيات المديح.

وكانت إليزابيث من جانبها مشغولة بالكثير. فقد أرادت أن تستوثق من مشاعر كل من زائريها، كذلك فقد كانت تريد أن تهدئ من مشاعرها هي، وأن تلاطف الجميع. أما فيما يختص بهذه المهمة الأخيرة التي كانت تخشى من عدم استطاعتها أداءها، فقد كان النجاح المؤكد فيها من نصيبها؛ فأولئك الذين حاولت أن ترضيهم كانوا ميالين إليها. فقد كان بينجلي متهيئاً لكي يرضى، أما جورجيانا فكانت متلهفة، ودارسي عاقد العزم.

وبمجرد أن رأت بينجلي طارت أفكارها بشكل طبيعي إلى شقيقتها؛ ويا لحرارة لهفتها لمعرفة ما إذا كانت بعض أفكاره قد سلكت نفس السبيل! وُحِّلَ لها في بعض الأحيان أنه أصبح مقلِّدًا في الكلام عما كان في المناسبات السابقة، وشعرت باللذة في مرة أو مرتين حين خطر لها أنه كان يسعى -وهو ينظر إليها- إلى تتبع الشبه بينها وبين شقيقتها. ولكن رغم أن هذا الشعور قد يكون من قبيل الوهم، إلا أنها لم تُخدع فيما يختص بسلوكه إزاء مس دارسي التي قيل إنها منافسة لجين. فلم تَبْدُ في عيني أي منهما نظرة واحدة تنم عن إعزاز ذي طابع خاص. ولم يحدث بينهما شيء يمكن أن يبرر آمال شقيقته. وهذا بالها بالنسبة لهذا الموضوع. وقبل أن يرحلوا حدثت واقعتان بسيطتان أو ثلاث استدلت منها -كما فسرتها بلهفة واشتياق- على أن لجين موضعاً في ذاكرته

مغلّفًا بالحنان، وعلى رغبته في قول المزيد الذي قد يُفضي إلى ذكر اسمها، لو كان يجد في نفسه الجرأة على ذلك. فلقد ألمح إليها في لحظة كان الآخرون فيها يتبادلون الحديث، وبنبرة نمت عن شيء من الحسرة الفعلية أنه «قد مضى وقت طويل جدًا منذ أن سعد برؤيتها»، وقبل أن تتمكن من الإجابة أضاف يقول: «إن المدة تزيد على ثمانية أشهر. إننا لم نلتق منذ السادس والعشرين من نوفمبر يوم أن كنا نرقص جميعًا معًا في نيدر فيلد».

وابتهجت إليزابيث إذ وجدت أن ذاكرته بهذه الدقة. وانتهاز الفرصة بعد ذلك ليسألها، دون أن يسمعه أحد من الباقين، ما إذا كانت كل شقيقاتها في «لونجبورن». ولم يكن في السؤال أو في الملاحظة السالفة ما يهم، ولكن نظرة عينيه وأسلوبه في الحديث أضفيا عليهما معنى عميقًا.

ولم يتسنّ لها أن تكثر من النظر إلى مستر دارسي نفسه. ولكنها حينما كانت تلمحه ببصرها، كانت ترى على سيماءه تعبيرًا ينم عن اللطف والرقّة، وطرقت أذنيها في كل ما قاله نبذة بعيدة كل البعد عن التعالي على رفقته أو ازدرائهم، مما أقنعها أن التحسن الذي طرأ على سلوكه والذي لمسته بالأمس قد استطاع على الأقل أن يدوم يومًا واحدًا، برغم كل ما يمكن أن يتأكد بعد ذلك من طبيعته المؤقتة. وعندما رآته هكذا يسعى إلى التعرف على الناس واكتساب حسن ظنهم به، أو لاء الذين كان أي حديث معهم منذ بضعة أشهر مضت يعتبر بمثابة فضيحة؛ وعندما رآته هكذا مهذبًا، ليس معها فقط، ولكن أيضًا مع نفس الأقارب

الذين كان قد احتقرهم صراحة؛ ولما تذكرت المشهد المثير الذي كان آخر ما جمع بينهما في بيت كاهن «هنسفورد»، تبينت أن الاختلاف والتغير كانا من الشدة، على نحو هز أفكارها هزاً بحيث لم تستطع إلا بصعوبة أن تكتم دهشتها فلا تستبين على وجهها، بل حتى وسط أصدقائه الأعراء في «نيذرفيلد» أو أقربائه الموقرين في «روزينجر» لم تره على الإطلاق هكذا دؤوباً على إرضاء من حوله، أو متحرراً من الشعور برفعة منزلته وتحفظه الرصين، في الوقت الذي لا أهمية فيه لما قد ينشأ عن نجاح محاولاته، وفي الوقت الذي قد تؤدي فيه صلة التعارف مع أولئك الذين يوجه إليهم اهتمامه إلى اجتلاب مشاعر السخرية والتوبيخ من جانب السيدات في «نيذرفيلد» و«روزينجر» معاً.

ومكث زوارهم معهم ما يزيد على نصف ساعة، وعندما نهضوا للانصراف، طلب مستر دارسي من شقيقته أن تشاركه في التعبير عن رغبتها في دعوة مستر جاردنر وزوجته ومس بينت لتناول الغداء في «بيمبرلي» قبل مغادرتهم الريف. وأطاعته مس دارسي في الحال برغم ما بدا عليها من تهيب كان عادة ما يصحب سلوكها في توجيه الدعوات. ونظرت مسز جاردنر إلى ابنة أخت زوجها الرغبة في أن تعرف مدى استعدادها هي لقبول الدعوة، وهي التي كانت أكثر المقصودين بها. ولكن إليزابيث كانت قد أشاحت بوجهها. وإذا خطر لمسز جاردنر أن هذا التجاهل المتعمد كان تعبيراً عن الحرج المؤقت أكثر منه دلالة على العزوف عن العرض، وإذا لمست في زوجها الذي كان شغوفاً بصحبة الناس رغبة تامة في قبوله، فقد خاطرت بالموافقة على قبول الدعوة، وتحدد موعدها بعد يومين.

وعبر بينجلي عن سروره العظيم لدى وثوقه من رؤية إليزابيث مرة ثانية، حيث كان لا يزال يريد أن يحدثها في أمور كثيرة، ويستفسر منها عن أشياء عدة تختص بأصدقائها في «هارتفوردشير». وسعدت إليزابيث عندما فسرت ذلك كله برغبته في سماعها تتحدث عن شقيقتها. وعلى هذا الأساس بالإضافة إلى أمور أخرى، فقد وجدت أن بإمكانها -على إثر انصراف زوارهم- أن تتدبر نصف الساعة الأخير بشيء من الرضى، برغم أن متعتها كانت ضئيلة أثناء انقضاء ذلك الوقت. ولما كانت متلهفة على الانفراد بنفسها، بالإضافة إلى خشيتها من استفسارات خالها وزوجته أو تلميحاتهما، فلم تبَقْ معهما إلا وقتًا يكفي لسماع رأيهما الطبيب في بينجلي، ثم أسرع لاستبدال ملابسها.

ولكن لم يكن هناك ما يبرر خشيتها من فضول مستر جاردنر وزوجته، فلم يكونا يرغبان في اضطرابها إلى الحديث. وكان من الواضح أن صلتها بمستر دارسي كانت أوثق مما دار بخلدتهما من قبل؛ كذلك فقد كان من الواضح أنه مدله في حبها. لقد شاهدنا الكثير مما يشير شغفهما، ولكنهما لم يجدا في ذلك مبررًا لأي استفسار.

وأصبح الآن حسن تقديرهما لمستر دارسي مسألة ذات أهمية، وطوال المدى الذي قطعه علاقتهما به، لم يجدا في شخصيته أي عيب. فلم يكن من الممكن ألا يتأثرا بأدبه. ولو قُدِّرَ لهما أن يرسمًا ملامح شخصيته من واقع مشاعرهما الخاصة وما حكته خادمته عنه دون أي إشارة لأي اعتبار آخر، ما أمكن لسكان «هارتفوردشير» الذين لهم به صلة أن يتعرفوا عليه من هذه الصورة. على أنهما كانا يميلان الآن إلى

تصديق مدبرة المنزل، وما لبثا أن شعرا بضرورة عدم التسرع في رفض كلام خادمة عرفته منذ أن كان في الرابعة من عمره، ويوحي سلوكها بالوقار. كذلك لم يكن أصدقاؤهما في «لامبتون» يذكرون أي واقعة تنال بشكل خطير من صحة هذا الكلام. ولم يكن لديهم ما يتهمون به سوى الكبرياء ولربما كان في تصرفاته بعض الكبرياء؛ وحتى لو لم يكن، لكان من المؤكد أن ينسبه إليه سكان بلدة صغيرة لا يزورها أفراد الأسرة. ومع ذلك فقد أقر الجميع بأنه كان رجلاً سخي اليد وافر العطاء للفقراء.

أما فيما يختص بويكهام فقد وجد مستر جاردنر وزوجته بعد وقت قصير أنه لم يكن موضع تقدير كبير من جانب أهل البلدة. ومع أن الجانب الأكبر من شؤونه مع ابن ولي نعمته لم يكن مفهوماً تماماً، إلا أن الناس كانوا يعرفون جيداً أنه وقت مغادرته «داريشير» ترك وراءه ديوناً كثيرة، قام مستر دارسي بعد ذلك بسدادها.

أما إليزابيث فقد ارتبطت أفكارها في ذلك المساء «ببمبرلي» أكثر مما كانت في اليوم السابق. ولم تكن الأمسية كافية -برغم أنها بدت في انقضائها طويلة- لحسم مشاعرها إزاء شخص معين في ذلك القصر، واستلقت متيقظة طوال ساعتين تحاول تحديد هذه المشاعر. فمن المؤكد أنها لم تكن تكرهه. كلا، فقد اختفت الكراهية منذ أمد طويل، بل قد استشعرت في نفسها الخجل منذ ذلك الوقت تقريباً بسبب ما أحست به من كراهية نحوه. أما الشعور بالاحترام الذي نشأ عن اقتناعها بخصاله الحميدة، فقد كف منذ فترة عن أن يكون منفراً لمشاعرها برغم أنها سلمت به في أول الأمر اضطراراً. ولكنه الآن قد تضاعف إلى ما

يشبه الود نتيجة ما استمعت إليه من شهادة الناس التي أعلنت من شأنه، فأبرزت طباعه التي ظهرت بالأمس في صورة محببة إلى النفس. ولكن قبل كل هذا، قبل الاحترام والتقدير، كان هناك في أعماقها دافع ملؤه النية الطيبة لا يمكن تجاهله. لقد كانت تشعر بالامتنان، ليس فقط لأنه أحبها يومًا، ولكن لأنه لا يزال يحبها بالقدر الذي يمكنه من الصفع عما بدا في أسلوب رفضها له من نزق وفظاظة، وعن كل الاتهامات الظالمة التي صحت هذا الرفض. فقد بدا شديد اللفتة في هذا اللقاء العارض لأن يصون العلاقة بينهما، وهو الذي كان لا بد - كما كانت موقنة - أن يتجنب رؤيتها بوصفها ألد أعدائه. ودون أن يفصح بطريقة فجأة عن أي مظهر لاعتزازه بها، ودون أي غرابة في سلوكه معها، فقد كان شديد الاهتمام باكتساب حسن ظن خالها وزوجته، مصممًا على تقديمها إلى شقيقته؛ فمثل هذا التغير في رجل يتصف بكل هذا الكبرياء، لم يكن ليشير الدهشة فحسب، بل الامتنان أيضًا. حتمٌ إذن أن يُعزى هذا التغير إلى الحب، بل إلى الهوى المشبوب؛ ومن ثم فقد كان تأثيره عليها من نوع يستحق التشجيع، من حيث إنه تأثير محبب إلى النفس برغم عجزها عن تحديد طابعه على وجه الدقة. لقد احترمته وقدرته وشعرت بالامتنان نحوه، وأحست باهتمام فعلي بسعادته. ولم تكن لترغب إلا في أن تعرف إلى أي مدى كانت تريد لهذه السعادة أن تعتمد في تحقيقها على شخصها، وإلى أي مدى يمكن أن تتحقق سعادتهما معًا فيما لو استغلت قدرتها التي صور لها خيالها استمرارها في امتلاكها في استحثائه على تجديد عروضه لها.

واستقر الرأي في المساء بين مسز جاردنر وإليزابيث على أن مثل هذه المجاملة البارزة التي أبدتها مس دارسي في زيارتها لهما في نفس يوم وصولها «لبيمبرلي» - فهي قد وصلته في وقت تناولت فيه إفطاراً متأخراً عن مواعده بقليل - لا بد أن تقابل بالمثل، وإن كان لا يمكن أن تُجارى، بإظهار نوع من التصرف المذهب من جانبهما؛ ومن ثم يصبح من المناسب تماماً أن تؤديا واجب الزيارة لها في «لبيمبرلي» في الصباح التالي. وهكذا أصبح لزاماً عليهما أن تذهبا. وسرت إليزابيث لهذا، برغم أنها عندما سألت نفسها عن السبب لم تجد ما تجيب به إلا أقل القليل.

وتركهما مستر جاردنر بعد طعام الإفطار مباشرة؛ فقد تجدد مشروع صيد السمك في اليوم السابق، كما وضع ترتيب أكيد يلتقي بمقتضاه ببعض السادة في «لبيمبرلي» عند انتصاف النهار.



الفصل الخامس والأربعون

أما وقد اقتنعت إيزابيث بأن كراهية مس بينجلي لها قد نبعت أصلاً من مشاعر الغيرة، فلم تملك إلا أن تحس بمدى ما يمكن أن يثيره ظهورها في «بمبرلي» من عدم ترحيب بالنسبة لها، وتملكها الفضول لمعرفة أي قدر من الرقة تبديه تلك السيدة عندما تتجدد الآن تلك الصلة بينهما.

وما إن بلغتا المنزل حتى اقتيدتا عبر القاعة إلى البهو الذي أضفت عليه واجهته البحرية بهجة في فصل الصيف. وكشفت نوافذه المظلة على الخلاء عن منظر ممتع يضم التلال العالية ذات الغابات الكثيفة الكائنة إلى الخلف من المنزل، بالإضافة إلى شجر البلوط الجميل وشجر القسطل الإسباني الذي تنثر هنا وهناك على المرج الأوسط.

وفي هذه الحجرة استقبلتهما مس دارسي التي كانت تجلس بصحبة مسز هيرست ومس بينجلي، والسيدة التي تعيش معها في لندن. وكان استقبال جورجيانا لهما رقيقاً للغاية، وإن صحبه كل ذلك الحرج الذي قد يوحى بسهولة لأولئك الذين كانوا يشعرون بقلّة شأنهم بأنها إنسانة متكبرة متحفظة، برغم أن ذلك الارتباك كان مرجعه حيائها وخشيتها

من التصرف على نحو خاطئ. ومع هذا فقد أنصفت مسز جاردنر وإليزابيث في الحكم عليها والتمستا لها الأعذار.

واكتفت مسز هيرست ومس بينجلي بأن انحنتا لهما احترامًا. وأعقب جلوسهما فترة صمت محرجة - كما جرت العادة دائمًا في مثل هذه الظروف - دامت لبضع لحظات. وكانت مسز أنسلي أول من قطع الصمت، وهي امرأة دمثة الأخلاق لطيفة التقاطيع أثبتت محاولتها لفتح موضوع للحديث أنها بالفعل أشد تهذيبًا عن أي من الاثنتين الأخريين. واسترسل الحديث بينها وبين مسز جاردنر، بمساعدة إليزابيث بين الحين والحين. وبدأ على مس دارسي وكأنها تريد أن تستجمع قدرًا من الشجاعة يؤهلها للاشتراك في الحديث، وخاطرت في بعض الأحيان بقول جملة قصيرة عندما كانت هناك أدنى خطورة في سماعها.

ولم تلبث إليزابيث أن أدركت أنها كانت موضع ملاحظة دقيقة من جانب مس بينجلي، وأنها لم تكن لتلفظ بكلمة واحدة، وعلى الأخص حين توجه حديثها لمس دارسي، إلا وتستشير انتباهها. ولم تكن هذه المراقبة لتمنعها من محاولة التحدث مع مس دارسي، لو لم تكونا جالستين على بعد مناسب يفصل بينهما. ولكنها لم تأسف على تخففها من ضرورة التحدث كثيرًا، فقد استحوذت عليها أفكارها. لقد كانت تتوقع في كل لحظة تمر أن يدخل إلى الحجرة بعض السادة. وودت - بل خشيت - أن يكون من بينهم رب البيت. أما ما إذا كانت تود هذا الأمر أو تخشاه، فهو ما لم تستطع أن تحسمه. وبعد أن جلسن على هذا النحو مدة ربع ساعة دون سماع صوت مس بينجلي، تنبّهت إليزابيث

حين تلقت منها استفسارًا باردًا عن صحة أفراد أسرتها. وردت عليها بعدم اكتراث واقتضاب مماثلين، ولم تضيف تلك كلمة أخرى.

أما التنويع التالي الذي سمحت به زيارتهما فقد أُتيح لهما بدخول الخدم وهم يحملون أطباقًا من اللحم البارد والكعك وتشكيلة من أجمل فواكه الموسم. ولكن هذا لم يحدث إلا بعد أن وجهت مسز أنسلي أكثر من نظرة وابتسامة عميقة المغزى لمس دارسي تذكيرًا لها بمهمتها وانهمك أفراد الجماعة كلها فيما أمامهن. فبرغم أنهن لم يستطعن جميعًا أن يتحدثن، إلا أنهن استطعن أن يأكلهن. وما لبثت أهرامات العنب والخوخ الجميلة أن جمعتن حول المنضدة.

وبينما كانت إليزابيث مشغولة على هذا النحو أُتيحت لها فرصة كبيرة لتحديد ما إذا كانت تخشى ظهور مستر دارسي أو ترغب فيه، وذلك على أساس ما سيغلب عليها من مشاعر عند دخوله الحجرة. وقبل مضي لحظة على ما اعتقدته من أن رغبتها هي الراجحة، بدأت تشعر بالندم على مجيئه.

وكان قد قضى بعض الوقت مع مستر جاردينر الذي كان منهمكًا في صيد السمك هو واثنان أو ثلاثة من ضيوف البيت، ولم يتركه إلا حين علم أن سيدتي الأسرة تتويان زيارة جورجيانا في ذلك الصباح. لم يكذب يظهر حتى اتخذت إليزابيث قرارًا حكيماً بأن تتصرف على سجيتهما تمامًا ودون حرج، وهو قرار كان ضروريًا، أما الالتزام به فربما لم يكن أمرًا سهلاً؛ لأنها رأت أن ريبة الجماعة كلها قد استُثِرت فيما يختص بهما، وأن كل الأعين أخذت تراقب سلوكه لدى دخوله إلى الحجرة.

وارتسمت على وجه مس بينجلي من دون كل الوجوه ملامح الفضول الشديد، وذلك برغم البسمات التي غمرت وجهها كلما تحدثت إلى أحد اللذين تركز فضولها عليهما. فالغيرة لم تكن قد أسلمتها بعد إلى أحضان اليأس، كما أن اهتمامها بمستردارسي لم يكن قد انقضى أبدًا. وبذلت مس دارسي جهدًا كبيرًا في التحدث بمجرد دخول شقيقتها، وأدركت إليزابيث أنه كان متلهفًا على قيام الصلة بين شقيقته وبينها، مما جعله يشجع بقدر الإمكان كل محاولة للحديث من هذا الجانب أو ذاك. ورأت مس بينجلي بدورها كل ذلك، فانتهزت أول فرصة وقد تملكها الطيش بفعل الغضب، وقالت بمجاملة هازئة:

- خبريني بالله عليك يا مس إليزا، ألم تُنقل فرقة... من «ميريتون»؟ لا بد أن في غياب ضباطها خسارة عظيمة لأفراد أسرتك.

ولم تكن لتجسر في حضور دارسي على أن تذكر اسم ويكهام، ولكن إليزابيث أدركت في الحال أنه كان يحتل أبرز مكان بين أفكارها. وللحظة ما شعرت بضيق ناشئ عن الذكريات المتعددة المرتبطة بشخصه، ولكنها بذلت جهدًا كبيرًا لصد الهجوم الخبيث، وردت عليها بعد وقت قصير بلهجة من لا يعنيه الأمر. وفي أثناء حديثها لمحت مستردارسي بنظرة غير مقصودة فرأته ينظر إليها وقد احتقن وجهه، كما لمحت شقيقته وقد استبد بها الارتباك وعجزت عن رفع عينيها. ولو كانت مس بينجلي تعلم مدى الألم الذي كانت إذ ذاك تسببه لصديقتها المحبوبة، لكانت قد أمسكت دون شك عن هذه الإشارة. ولكنها أرادت فحسب أن تزعج إليزابيث عن طريق التلميح إلى رجل كانت تظن أنها

ميالة إليه، حتى تجعلها تفصح عن مشاعر قد تنال من تقدير دارسي لها، وحتى تذكره -فيما يحتمل- بكل الحماقات والسخافات التي أبداهما بعض أفراد أسرتهما في علاقتهم بتلك الفرقة. ولم يكن قد بلغ علمها أدنى إشارة لما كان قد راود ذهن مس دارسي من فرار مع ويكهام. فلم يصرح بهذا الأمر لأي إنسان -بقدر ما سمحت به السرية- باستثناء إليزابيث. وكان شقيقها مهتمًا بوجه الخصوص بإخفائه عن كل أقرباء بينجلي بسبب تلك الرغبة التي عزتها إليه إليزابيث منذ وقت طويل والتي كانت تستهدف أن يصبحوا -فيما بعد- أنسباءها. من المحتم أنه كان قد أعد مثل هذه الخطة؛ ودون قصد منه في أن تؤثر هذه الخطة على محاولته التفريق بين صديقه وبين مس بينت، فمن المحتمل أنها قد أضافت حافزًا جديدًا إلى اهتمامه الذي لا يفتر بخير هذا الصديق.

على أن سلوك إليزابيث المتزن ما لبث أن هدأ من انفعاله. ولما لم تجسر مس بينجلي التي استبد بها الكمد وخيبة الأمل على الدنو من سيرة ويكهام نفسه، فقد استعادت جورجيانا كذلك تماسكها في الوقت المناسب، وإن لم يكن على نحو يؤهلها للحديث بعد ذلك. أما شقيقها الذي كانت تخشى من التقاء عينيها بعينه، فلم يفتن إلى اهتمامها بهذا الموضوع. وإذا بالواقعة التي قصد منها إبعاد أفكاره عن إليزابيث تبدو كأنها قد ركزت هذه الأفكار عليها مصحوبة بمزيد من المرح.

ولم تطل زيارتهما كثيرًا بعد السؤال والجواب المشار إليهما، وبينما كان مستر دارسي يصحبهما إلى عربتهما، أخذت مس بينجلي تنفس عن مشاعرها بانتقادات موجهة إلى شخص إليزابيث وسلوكها

وردائها. ولكن جورجيانا لم تقبل أن تشاركها في هذا. فقد كانت تركية شقيقتها كافية لضمان حسن رأيها. فحكمه معصوم من الزلزل، وهو قد تحدث عن إليزابيث بما لا يترك لجورجيانا أي قدرة لتجد فيها من الصفات خلاف جمال الطلعة ولطف المعشر. وعندما عاد دارسي إلى البهو، لم تستطع مس بينجلي إلا أن تكرر على سمعه شطراً مما كانت تقوله لشقيقته، فهتفت تقول:

- يا لسوء منظر إليزابيث بينت في هذا الصباح يا مستر دارسي! لم يسبق لي أبداً أن رأيت شخصاً يصيبه مثل هذا التغير العظيم مثلاً حدث لها منذ الشتاء الماضي. لقد أظلم وجهها واحتد طبعها! لقد اتفقت لويزا معي على أننا ما كنا لنستطيع أن نتعرف عليها ثانية.

وبرغم أن مستر دارسي لم يكن يميل إلى هذه النعمة في الحديث، إلا أنه قنع بأن أجابها ببرود أنه لم يلحظ عليها أي تغير باستثناء تلويح بشرتها، وتلك نتيجة عادية لارتحالها في فصل الصيف. فردت عليه بقولها:

- أما أنا فأعترف بأنني لا أرى فيها أي جمال. فوجهها شديد النحافة، وبشرتها تفتقر إلى التألّق، وتقاطيعها ليست على الإطلاق وسيمة. كذلك فإن أنفها لا يتميز بشيء، إذ ليس في خطوطه ما يحددها. أما أسنانها فمعقولة، ولكنها لا تشد عن المألوف؛ وأما فيما يختص بعينها اللتين قيل عنهما يوماً إنهما جميلتان، فلا أستطيع أن أتبين فيهما شيئاً غير عادي. إنهما تنمان عن نظرة حادة سليطة لا أحبها أبداً؛ كما أن مظهرها عموماً يكشف عن نوع من الاستقلال عن الغير لا يتمشى مع التقاليد المرعية، وهو أمر غير محتمل.

ولم يكن هذا أفضل أسلوب يمكن أن تنتهجه مس بينجلي للتقرب من دارسي في الوقت الذي كانت تثق فيه من إعجابه بإليزابيث. ولكنَّ الناس الغاضبين ليسوا دائماً حكماء. وعندما رآته أخيراً وقد بدا عليه الغيظ إلى حد ما، شعرت بأنها حققت كل ما كانت تتوقعه من نجاح. عن أنه لزم الصمت عن عمد. وإذ عزمت على دفعه إلى الحديث فقد استطردت تقول:

- أذكر عندما تعرفنا عليها لأول مرة في «هارتفوردشير»، كيف استبد بنا العجب جميعاً عندما وجدناها حسناء يتحدث الناس عن جمالها. وإني لا أتذكر على الأخص ما قلته في إحدى الليالي بعد أن تناولوا طعام الغداء في «نيزرفيلد»: «أتسمونها حسناء! ما أسهل إذن أن أدعو أمها عاقلة أريية». ولكنها أخذت تتحسن في ناظريك، وبخيل إليَّ أنك اعتبرتها جميلة نوعاً في وقت ما.

وأجاب دارسي وقد عجز عن الاستمرار في تمالك مشاعره:

- نعم، ولكن هذا كان رأيي فيها عند أول معرفتي بها، أما الآن فقد مرت شهور عدة منذ أن اعتبرتها واحدة من أشد من عرفت من وسامة. ثم غادر الحجرة تاركاً مس بينجلي تستمتع بما أجبرته عليه من قول لا يسبب ألماً لأحد سواها.

وتحدثت مسز جاردنر عند عودتهما عن كل ما حدث خلال زيارتهما، باستثناء ما كان على الأخص سبباً في استشارة اهتمامهما معاً. وكانت نظرات كل من شاهداه وسلوكه موضع نقاش بينهما، فيما عدا

الشخص الذي جذب انتباههما أكثر من غيره. فقد تحدثنا عن شقيقته وعن أصدقائه وعن منزله وعن فاكهته، وعن كل شيء باستثناءه هو؛ ومع ذلك فقد كانت إليزابيث تتلهف على معرفة رأي مسز جاردنر فيه، وكان من الممكن لمسز جاردنر أن تستشعر غاية الرضى لو كانت إليزابيث قد بدأت بالحديث في الموضوع.



الفصل السادس والأربعون

شعرت إليزابيث بخيبة أمل عظيمة عندما لم تجد خطاباً من جين حال وصولهم إلى «لامبتون»، وتجددت خيبة الأمل هذه في كل صباح مر عليها طوال إقامتهم هناك. ولكن تبرمها ما لبث أن انتهى في اليوم الثالث، والتمست لشقيقتها الأعذار، عندما تسلمت خطابين منها في نفس الوقت، وأدركت من الإشارة المبيّنة على أحدهما أنه أرسل خطأً إلى مكان آخر. ولم تُدهش إليزابيث لهذا، فقد كتبت جين العنوان بطريقة خاطئة تمامًا.

وكانوا إذ ذاك يتهيأون للتريض في الوقت الذي وصل فيه الخطابان. وانطلق خالها وزوجته تاركين إياها لتستمع بالخطابين في هدوء، وكان لا بد أن تهتم أولاً بالخطاب الذي اتجه وجهة خاطئة؛ فقد كُتب منذ خمسة أيام مضت. واحتوت المقدمة على عرض لأخبار معارفهم ومشاعلهم بالقدر الذي تسمح به حياة الريف. ولكن النصف الآخر من الخطاب، الذي كان مؤرخاً بتاريخ يوم تالٍ، ومسطراً بانفعال واضح فقد احتوى على معلومات أهم. وكان نصه كما يلي:

بعد أن كتبت لكِ ما سبق يا عزيزتي ليزي، وقع أمر خطير وغير
منتظر؛ ولكنني أخشى أن أسبب لكِ إزعاجًا. ثقي أننا جميعًا على
خير ما يرام. أما ما سأقصه عليك فيختص بليديا المسكينة. فقد
وصلتنا رسالة عاجلة في منتصف الليلة الماضية بمجرد أن ذهبنا
جميعًا لننام، وكانت الرسالة من كولونيل فورستر يخبرنا فيها أنها
قد سافرت إلى اسكتلندا بصحبة أحد ضباطه؛ وأصدقك القول، مع
ويكهام! ولك أن تتصوري دهشتنا. على أن الأمر لا يبدو في نظر
كيتي غير متوقع تمامًا. إني آسفة، بل شديدة الأسف. إنها زيجة
طائشة من ناحيته وناحيته معًا، غير أنني ميالة إلى التفاؤل، وإلى
الاعتقاد بأن شخصيته قد أُسيء فهمها. وقد أظنه نزقًا عديم التبصر،
غير أن هذه الخطوة -ولنا أن نبتهج لها- لا تشير إلى قلب شرير.
فاختياره يُعتبر على أقل تقدير منزلًا عن الأغراض، فهو يعلم ولا
بد أن أبي لا يستطيع إعطاؤها شيئًا. وقد استولى الحزن على والدتنا
المسكينة، أما والدي فأشد احتمالًا. إني لأشكر الظروف؛ لأننا لم
نطلعهما على ما قبل ضده! وحتم علينا أن ننسى الأمر نحن أنفسنا.
لقد سافرا في حوالي منتصف ليلة السبت الماضي، وهو ما يتكهن
به الجميع، وإن لم يكتشف أحد غيابهما إلا في الساعة الثامنة من
صباح أمس. وقد حررت إلينا الرسالة العاجلة في التو. لا بد أنهما
يا عزيزتي ليزي قد مرا على مبعدة عشرة أميال من منزلنا. ويعشمنا
كولونيل فورستر بوصوله إلينا عن قريب. وكانت ليديا قد تركت
لزوجته بضعة أسطر تطلعها فيها على ما انعقد عزمهما عليه. لا بد أن

أختم الآن خطابي، إذ لا أستطيع أن أبتعد طويلاً عن أُمي المسكينة.
أخشى ألا تستطيعي فهم ما كتبت، ولكني أنا نفسي أكاد لا أعرف
ما قلت.

وما إن انتهت إليزابيث من هذه الرسالة، ودون أن تسمح لنفسها
بفرصة تدبر فيها ما قرأت، أو أن تعرف بالدقة حقيقة ما شعرت، حتى
أمسكت من فورها الرسالة الثانية وفتحتها بصبر نافذ وقرأت فيها ما
يلي، علماً بأنها كانت قد كُتبت بعد سابقتها بيوم واحد:

لا بد أنك قد تسلمت الآن يا أعز شقيقتي خطابي المتعجل.
وأملّي أن يكون هذا الخطاب أقرب إلى الفهم من سابقه.
ولكن برغم أن أُمامي فسحة من الوقت، إلا أنني من شدة الحيرة
والارتباك بحيث لا أستطيع تنسيق أفكارِي. أكاد لا أعرف يا
عزيزتي ليزي عن أي شيء أكتب، ولكني أحمل لك أخباراً سيئة،
ولا يمكن إرجاؤها. فبرغم ما يمكن أن يتصف به زواج مستر
ويكهام بشقيقتنا المسكينة ليديا من طيش ونزق، إلا أننا نتلهف
الآن على ما يطمئنا بأن هذا الزواج قد تم فعلاً؛ إذ إن هناك من
الأسباب ما يدعو إلى الخوف من أنهما لم يذهبا إلى اسكتلندا.
فقد جاءنا كولونيل فورستر بالأمس على إثر مغادرته «برايتون»
منذ يومين بعد ساعات قليلة من رسالته العاجلة إلينا. وبرغم أن
خطاب ليديا القصير لمسز فورستر قد أفهمها أنهما بسبيل السفر
إلى «جرتنا جرين»، إلا أن ديني قد ألمح بما يعبر عن اعتقاده بأن
ويكهام لم يتنوّ الذهاب إلى هناك إطلاقاً، كما لم يقصد الزواج

من ليديا أبداً. ووصل هذا الكلام لكولونيل فورستر الذي فزع من فوره لهذا النذير، وغادر «برايتون» عازماً على تعقب طريقهما. وقد استطاع أن يتعقب أثرهما بسهولة إلى «كلافام»، وكان هذا آخر ما استطاع؛ إذ إنه بمجرد وصوله إلى ذلك المكان، أسرع مبتعدين عنه في مركبة استأجرها، وصرفا العربا التي أقلتتهما من «إيسوم». وكل ما عرف عنهما بعد ذلك، هو أنهما قد شوهدا في الطريق الذي يصل بهما إلى لندن. إن أفكاري مشتتة تماماً. فبعد أن أجرى كولونيل فورستر كل التحريات الممكنة في ذلك الجانب من لندن، عاد ثانية إلى «هارتفوردشير» ووجد بحثه عنهما وهو بادي القلق في كل مفارق الطريق وفي أنزال «بارنت» و«هيتفيلد»، ولكن دون جدوى! فلم يرَ أحد أي اثنين بهذا الوصف يمران بهذا الطريق. وعاد إلى «لونجبورن» مبدئاً اهتمامه الكريم، وصرح لنا بمخاوفه بطريقة رقيقة تكشف عن طيبة قلبه. إنني حزينة حقاً لأجله ولأجل مسز فورستر، ولكنَّ أحدًا لا يستطيع أن يلقي اللوم عليهما. إن مصيبتنا يا عزيزتي ليزي عظيمة جداً. إن والدي ووالدتي يتوقعان أسوأ الأمور. ولكني لا أستطيع أن أسيء الظن به إلى هذا الحد. فقد يكون هناك من الظروف الكثيرة ما يجعل من الأليق بهما أن يتزوجا سرّاً في لندن عن أن يستمرّا في خطتهما الأولى. وحتى لو كان بإمكانه أن يحبك مثل هذه المؤامرة ضد فتاة أسرتها كآسرة ليديا -وهو أمر مستبعد- أفأفترض أنها قد كفت بصرها عن كل الاعتبارات؟ محال! على

أني حزنت عندما فهمت أن كولونيل فورستر لا يميل إلى الثقة في احتمال زواجهما، فقد هز رأسه عندما عبرت عن آمالي في هذا الصدد، وقال إنه يخشى من أن ويكهام ليس موضع ثقة. إن أُمِّي المسكينة مريضة فعلاً ولا تبارح حجرتها. ولو نفّست عن حزنها لكان ذلك أفضل، ولكن ذلك غير متظر منها؛ أما والدي فلم أره من قبل على هذه الحال من شدة التأثير. ولقد انصب الغضب على كيبي المسكينة بسبب تكتمها خبر ارتباط بعضهما ببعض، ولكن طالما أنها كانت قد أوّمتت على هذا الأمر، فلا يحق للمرء أن يعجب. إني سعيدة حقاً يا عزيزتي إليزابيث لأنك اتقيتِ بغيابك بعض هذه المشاهد المحزنة؛ ولكن هل لي أن أعترف لك -وقد انقضت آثار الصدمة الأولى- أنني أتلهف على عودتك؟ على أنني لست أنانية حتى ألح في طلبي هذا لو كان في تحقيقه إقلاق لك. وداعاً! إني أمسك بقلمتي ثانية لأكتب ما ذكرت لك من فوري أنني لن أطلبه، ولكن هناك من الظروف ما لا أملك معه ألا إن ألح عليكم جميعاً بالعودة بأسرع ما يمكنكم. فأنا أعرف خالي العزيز وزوجته معرفة جيدة بحيث لا أخشى هذا الطلب، بالإضافة إلى أن لي رجاء آخر أسأل خالي تحقيقه. إن أبي ذاهب في الحال إلى لندن بصحبة كولونيل فورستر، في محاولة منه لاستكشاف مكانها. ولست على علم بما في نيته أن يفعل، ولكن كمدته العظيم لن يسمح له باتخاذ أي إجراء على أفضل نحو وأضمنه، علماً بأن كولونيل فورستر مضطر للعودة

إلى «برايتون» في مساء الغد. وفي هذا الوضع الاضطرابي ستكون لمشورة خالي ومعونته قيمة لا تعوض. ولسوف يدرك على الفور مشاعري، وإني لأرتكن على كريم خصاله.

«أواه! أين خالي، أين هو؟»، هكذا هتفت إليزابيث وهي تثب من مقعدها بمجرد انتهائها من تلاوة الخطاب وقد عقدت العزم على تعقبه دون أن تضع لحظة من الوقت ثمينة. ولكن ما إن بلغت باب الحجرة، حتى فتحه خادم وأفسح الطريق لمستر دارسي. وأفزعه وجهها الشاحب وحركتها المندفعة، وقبل أن يتمالك نفسه على نحو يسمح له بالحديث، صاحت به على عجل وقد استحوذ على ذهنها التفكير في موقف ليديا: - أستمحك عذرًا، ولكنني لا بد أن أتركك. لا بد أن أعثر حاليًا على مستر جاردينر بخصوص موضوع يستحيل تأجيله. لا أستطيع أن أضيع لحظة واحدة!

وصاح يقول بلهجة يفوق فيها انفعال العاطفة أدب الحديث:

- يا إلهي! ما الخبر؟

ثم تمالك نفسه وقال:

- لن أعطلك دقيقة واحدة، ولكن دعيني أذهب أنا للبحث عن مستر جاردينر وزوجته، أو دعي الخادم يفعل ذلك. إنك لست في خير حال، لا يمكن أن تذهبي أنت بنفسك.

وترددت إليزابيث، ولكنها شعرت بركبتها ترتجفان، وأنها لن تجني كثيرًا بمحاولتها اللحاق بهما. ومن ثم فقد استدعت الخادم،

وكلفته بدعوة سيده وسيدته للحضور إلى البيت حالاً، برغم أنها في حديثها له كانت لاهثة الأنفاس على نحو جعلها تكاد لا تكون مفهومة. وما إن غادر الحجرة حتى جلست عجزاً منها عن حفظ توازنها، وبدأت في حال سيئة، بحيث استحال على دارسي أن يتركها وحيدة أو أن يمتنع عن القول بلهجة تشيع فيها الرقة والحنان:

- اسمحي لي أن أدعو خادمك. أليس هناك ما يمكنك تناوله فيخفف عنك بسرعة؟ كأس من النبيذ ربما، هل آتيك بكأس؟ أنت مريضة جداً.

فأجابته قائلة وهي تحاول أن تتمالك نفسها:

- لا، شكرًا لك، فليس بي شيء. إنني في خير حال؛ إنني مغتمة فحسب بسبب بعض الأخبار المفزعة التي وصلتني حالاً من «لورنجبورن».

وما إن أشارت إلى هذا الأمر، حتى أجهشت بالبكاء، ومضت بضعة دقائق لم تستطع أن تنطق فيها بكلمة أخرى. وشعر دارسي بتوتر مريع، ولم يستطع إلا أن يعبر عن اهتمامه بكلمات غير مفهومة، ويراقبها في صمت شفق. وأخيراً تحدثت مرة أخرى فقالت:

- لقد تسلمت لتوي رسالة من جين بها أخبار فظيعة، ولا يمكن تكتمها عن أي إنسان. إن صغرى شقيقتي قد تركت كل من لهم بها صلة، وهربت؛ لقد أسلمت نفسها لسلطان... مستر ويكهام. لقد غادرا «برايتون» معاً. إنك على معرفة جيدة به بحيث لا يمكنك أن تشك فيما

بقي. فليس لها مال أو روابط اجتماعية أو أي شيء يمكن أن يغريه بها؛
لقد ضاعت إلى الأبد!

وتسمر دارسي في مكانه بفعل الدهشة. وأضافت قائلة بصوت أشد
انفعالاً:

- عندما أفكر في أنه كان بإمكانني أن أمنع هذا الأمر، أنا يا مَنْ
كنت أعرف حقيقته! لو كنت فقط قد شرحت لأسرتي جزءاً بسيطاً مما
أعرف! لو كانت شخصيته قد انكشفت، لما حدث هذا. ولكن الوقت
فات، فات تماماً.

وصاح دارسي قائلاً:

- إني حقاً حزين، حزين ومصدوم، ولكن أهذا أمر أكيد، أكيد
قطعاً؟

- أجل، لقد غادرا «برايتون» معاً في ليلة الأحد الماضي، وعُرف
أنهما سلكا الطريق إلى لندن، ولكن أثرهما انقطع بعد ذلك. إنهما لم
يذهبا إلى اسكتلندا على وجه اليقين.

- وما هي الإجراءات التي اتخذت والمحاولات التي بُذلت
لاستعادتها؟

- لقد ذهب أبي إلى لندن، وكتبت لي جين طالبة معونة خالي على
وجه السرعة. وسنسافر من هنا في بحر نصف ساعة كما آمل. ولكننا لن
نستطيع أن نفعل شيئاً. إني أعرف جيداً أن كل جهودنا عبث في عبث.
كيف يمكن استمالة شخص كهذا؟ بل كيف يمكن اكتشاف مكانهما.

ليس لديّ أدنى أمل . إنه أمر فظيع من جميع نواحيه .

وهز دارسي رأسه في تسليم صامت .

- عندما كانت عيناى مفتوحتين على شخصيته الحقيقية ! لو كنت فقط عرفت ما يجب عليّ أن أفعله ! ولكنى لم أعرف شيئاً . لقد كنت أخشى أن أتخطى حدودى . يا لها من غلطة فظيعة فظيعة !

ولم يحر دارسي جواباً . وبدا عليه أنه يكاد لا يسمعها ، بينما أخذ يذرع الحجرة جيئةً وذهاباً . وقد استغرق في تأمل عميق ؛ وكان مقطب الجبين مكتئباً . وما لبثت إليزابيث أن رأتة ، ففهمت من فورها كل شيء . وغاضت قواها ، فلا بد لكل شيء أن يغيض بعد هذا الدليل على وهن الأسرة ؛ هذا التأكيد بما لحقها من خزي شديد . وما كان باستطاعتها أن تتعجب لشيء أو تدين شيئاً ، غير أن اعتقادها بسيطرته على مشاعره لم يدخل العزاء على قلبها ، ولم يطف من ضائقها . على العكس من ذلك ، لقد كان سلوكه يستهدف بالدقة تفهمها لحقيقة رغباتها ؛ ولم يسبق لها أبداً أن شعرت بإخلاص ، بأنها كان يمكن أن تحبه كما تهواه الآن ، في الوقت الذي لا بد أن ينتفي فيه للحب أي أثر .

ولكن المشاعر الخاصة ، برغم أنها قد تتدخل بين الحين والآخر ، لم تستطع الاستحواذ عليها تماماً . فما لبث موضوع ليديا ، والهوان والتعاسة التي استنزلتها عليهما جميعاً ، أن طغى على كل هم شخصي . وغطت إليزابيث وجهها بمنديلها ، ولم يمضِ عليها وقت طويل حتى فقدت إحساسها بما حولها . وبعد فترة من الوقت دامت عدة دقائق انتبهت لما هي فيه على أثر سماعها لصوت زائرها الذي تحدث إليها

بلهجة تنم عن ضبط النفس وإن كانت تشي بالعطف والحنو:

- أغلب ظني أنك تمنيت انصرافي منذ وقت طويل، فضلاً عن أنني لا أجد ما يرر بقائي سوى القلق الفعلي الذي لا ينفع بشيء. يا ليتني أستطيع أن أقول أو أفعل أي شيء مما يمكن أن يوفر العزاء في مثل هذه الكارثة! ولكني لن أعذبك بأمنيات خاوية قد تبدو كأنها تستهدف اجتلاب شركك عمداً. إن هذا الأمر المنكود سوف يحول، فيما أظن، دون تشرف شقيقتي باستقبالك اليوم في «بمبرلي».

- أجل. أرجوك أن تتكرم بالاعتذار لمس دارسي نيابة عنا. قل إن مهمة عاجلة قد استدعت وجودنا في المنزل على الفور، وتكتم الحقيقة النعسة أطول وقت ممكن. إنني أعلم أن كتمانها لن يطول.

وأكد لها من فوره صيانتها للسر، وعبر ثانية عن أسفه لما هي فيه من ضيق، وتمنى أن ينتهي الأمر نهاية أسعد مما توحى به احتمالات الحاضر. وبعد أن حملها تحياته لخالها وزوجته، غادر الحجرة وهو ينظر إليها نظرة وداع جادة.

وبمجرد انصرافه شعرت إليزابيث بأن من غير المحتمل أن يلتقيا معاً بعد ذلك بنفس مشاعر الود التي ميزت لقاءتهما المتعددة في «داربيشير». وإذ ألقت بنظرة متأملة إلى ماضي علاقتهما التي امتلأت بالتناقضات والتنوع، تنهدت متأسية لما أصاب مشاعرها من تقلب، فإذا بها الآن تود استمرار هذه العلاقة، بينما كانت بالأمس تهتل فرحاً لانفصامها.

فلئن كان الامتنان والتقدير أساسين صالحين لعاطفة الود، لما كان

التغير في مشاعر إليزابيث بعيد الاحتمال أو معيَّباً. أما إذا كان العكس هو الصحيح، إذا كان الإعزاز الناشئ من هذين المصدرين شاذاً وفي غير محله، بالمقارنة بذاك الذي كثيراً ما يُوصف بأنه وليد أول لقاء بالشخص الذي يثير الإعزاز، بل حتى قبل أن يتبادل الشخصان كلمتين، فلن يكون هناك ما يُقال دفاعاً عنها، فيما عدا أنها كانت قد جربت الأسلوب الثاني في انحيازها السريع لويكهام، وأن في إخفاق هذا الأسلوب ما قد يؤهلها لاستكشاف طريقة الارتباط الأخرى التي تبدو أقل تشويقاً. ومهما كان الحال، فقد تملكته الحسرة وهي تراه يغادر الحجرة، ووجدت في هذا الدليل المبكر على ما ستجره عليهم شناعة سلوك ليديا، عناء جديد صاحب أفكارها في هذا الأمر الفظيع. فمنذ أن قرأت رسالة جين الثانية لم يراودها على الإطلاق أي أمل في زواج ويكهام من ليديا. وخيل لها أن جين وحدها من دون الناس جميعاً هي التي يمكن أن تمنى النفس بمثل هذا الأمل. وكان الإحساس بالدهشة هو أقل ما تشعر به في هذا الموضوع. فطوال الوقت الذي كانت فيه محتويات الخطاب الأول عالقة بذهنها، كانت تحس بالدهشة والعجب البالغين من أن ويكهام قد يتزوج من فتاة كان يستحيل أن يقترن بها سعيًا منه وراء الثروة؛ أما كيف أمكن لليديا أن تسلب له، فقد بدا ذلك عصيًا على الفهم! أما الآن فقد أصبح الأمر طبيعيًا تمامًا. فلمثل هذه العلاقة كانت ليديا تتحلى بمفاتن تكفي وتزيد. وبرغم أنها لم تَمِلْ إلى الظن بأن ليديا قد اشتركت عامدة متعمدة في محاولة للهروب دون أن يدور الزواج بخلدتها، فلم تجد صعوبة في الاعتقاد بأن مقدار فضيلتها

وإدراكها للأمور لن يعصمها من أن تصبح لقمة سائغة.

ولم تكن قد لاحظت أبداً طوال إقامة الفرقة في «هارتفوردشير» أن ليديا تميل إليه بأي شكل من الأشكال. ولكنها كانت مقتنعة بأن ليديا لم تكن في حاجة إلا إلى أقل تشجيع لتلقي بنفسها في أحضان أي رجل. وكثيراً ما كان هذا الضابط أو ذاك أثيراً عندها، بمقدار ما كان الاهتمام الذي يبديه يرفعه في نظرها. لقد كانت مشاعرها متأرجحة دوماً؛ ولكن دون أن تفتقر إلى مَنْ تتعلق به. يا لضرر الإهمال والتدليل الخاطيء إزاء فتاة كهذه، ويا لعنف شعورها الآن بهذا الأمر!

لقد كانت شديدة اللفتة لأن تكون في البيت، لتسمع وترى وتصبح في وضع قريب يمكنها من مشاركة جين في الهموم التي لا بد أن تكون الآن من نصيبها وحدها، وسط أسرة مرتبكة على هذا النحو، حيث الوالد غائب والأم عاجزة عن التصرف تحتاج إلى رعاية مستمرة. وبرغم أنها كانت تكاد تكون مقتنعة باستحالة عمل أي شيء لليديا، إلا أن تدخل خالها في الموضوع بدا من الأهمية بمكان. واشتدت عليها وطأة الجزع حتى وصل. فقد أسرع مستر جاردينر وزوجته عائدين وقد استولى عليهما الانزعاج. وظناً مما قاله الخادم أن إليزابيث قد وقعت فريسة مرض مفاجئ. ولكنها طمأنتهما في الحال من هذه الناحية، ثم أطلعتهما بانفعال على سبب استدعائهما عن طريق قراءة الخطابين بصوت مرتفع، والتركيز على حاشية الخطاب الأخير بجهد بان فيه ارتجافها، رغم أن ليديا لم تكن أثيرة لديهما. ولم يملك مستر جاردينر وزوجته إلا أن يشعرا بحزن عميق؛ فقد كان هذا الأمر لا يخص ليديا

وحدها بل يهم الجميع أيضًا. وبعد أن عبّر مستر جاردنر في أول الأمر عن دهشته وجزعه، وعد عن طيب خاطر بإسداء كل عون في طاقته. وبرغم أن إليزابيث لم تكن تتوقع أقل من ذلك، إلا أنها شكرته بدموع الامتنان. ولما كان ثلاثتهم مدفوعين بروح واحدة، فقد حسمت على وجه السرعة كل الأمور المتعلقة برحلتهم. وأصبح من المقرر أن يسافروا بأسرع ما يمكنهم. وهتفت مسز جاردنر قائلة:

- ولكن بماذا ستصرف مع أهل «بيمبرلي»؟ لقد أخبرنا جون أن مستر دارسي كان هنا عندما أرسلت في طلبنا. هل هذا صحيح؟

- نعم. وقد أخبرته بأننا لن نستطيع الوفاء بالتزامنا، لقد سويت كل شيء من هذه الناحية.

وهمهمت مسز جاردنر لنفسها وهي تعدو إلى حجرتها لتجهز حاجياتها: «ما هذا الذي سوته؟ ثم هل هما على علاقة تسمح لها بإفشاء الحقيقة الفعلية؟ آه لو عرفت ما بينهما!؟».

ولكن الأمنيات كانت باطلاً في باطل، أو على أحسن الفروض لم تكن لتصلح إلا لتسليتها وسط العجلة والارتباك اللذين شهدتهما الساعة التالية. ولئن كان في وسع إليزابيث أن تقضي الوقت بلا عمل يشغلها، لتأكدت من أن القيام بأي مهمة يُعتبر بالنسبة لإنسانة في مثل تعاستها أمرًا مستحيلًا. غير أنه كان لديها نصيبها من عمل تقوم به، شأنها في ذلك شأن زوجة خالها، وكان من بين بنود هذا العمل كتابة خطابات لجميع أصدقائهم في «لامبتون»، تلتبس فيها مبررات كاذبة لرحيلهم المفاجئ. غير أنها انتهت من هذه الخطابات جميعًا في ساعة.

ولما كان مستر جاردنر في هذه الأثناء قد سدد حسابه في النُّزْل، فلم يَبْقَ إلا الرحيل. وبعد كل ما شعرت به إليزابيث في الصباح من تعاسة، فقد وجدت نفسها في خلال فترة من الزمن أقصر مما كانت تتوقع، جالسة في عربة تنهب الطريق إلى «لونجبورن».



الفصل السابع والأربعون

قال خالها بعد أن غادروا المدينة:

- لقد أمعنت التفكير ثانية في الموضوع يا إليزابيث، والحق أنني أجد نفسي - بعد أن تدبرت الأمر بعمق - أشد ميلاً مما كنت للاتفاق مع شقيقتك الكبرى في نظرتها. ويبدو لي أنه من غير المحتمل أن يلجأ أي شاب إلى الاحتيال على فتاة لا تفتقر بأي حال من الأحوال إلى الحماية أو الأهل، بالإضافة إلى أنها كانت تقيم بالفعل في بيت قائده؛ وهذا هو ما يجعلني أميل بشدة للتفاؤل. أو يمكن أن يتوقع ألا يهب أهلها لنجدتها؟ أو يمكن أن يعتقد أن الفرقة سوف تضعه ثانية موضع الاعتبار بعدما وجّه من إهانة إلى كولونيل فورستر؟ إن ما أغراه لا يكفي أبداً للمخاطرة.

وهتفت إليزابيث قائلة وقد انتعشت للحظة من الزمن:

- أنظن هذا حقاً؟

وقالت مسرّ جاردينر:

- لقد بدأت أوافق على رأي خالك. إنه في الحق انتهاك خطير للحشمة والشرف، بل إضرار بمصلحته أيضًا، لا أظنه بقادر على اقتراحه. لا أستطيع أن أسيء الظن بوبكهام إلى هذا الحد. فهل تستطيعين أنت يا ليزي أن تسقطيه من نظرك تمامًا، فتظنينه مدانًا هذا؟

- ربما لم يكن ليتجاهل مصلحته الخاصة، أما تجاهله لكل الأمور الأخرى فهو إثم في وسعه ارتكابه. على أنه لو كان الصدق فيما تقولين! ولكني لا أجسر على الأمل في ذلك. فلم يذهب إلى اسكتلندا لو كان جادًا في مسعاه؟

فأجابها مستر جاردنر قائلاً:

- أولاً ليس هناك دليل قاطع على عدم ذهابهما إلى اسكتلندا. ولكن انتقالهما من العربة إلى المركبة التي استأجراها هو قرينة قوية! أضف إلى ذلك أنه لم يُعثر لهما على أثر في طريق «بارنت».

- افرضي إذن أنهما في لندن. ربما ذهبا إلى هناك بغرض الاختفاء، لا لغرض آخر يستوجب الانتقاد. فليس من المحتمل أن يكون المال متوافراً مع أي منهما، ولربما خطر لهما احتمال أن يكون عقد زواجهما في لندن أكثر اقتصاداً في النفقات وأقل تعجلاً عما لو عقدها في اسكتلندا.

- ولكن ما سبب كل هذا التكتُّم؟ وما سبب الخوف من اكتشاف أثرهما! ولماذا يعقدان قرانهما في الخفاء؟ لا، لا، هذا غير محتمل. إن أصدق أصدقائه كان مقتنعاً - كما تريان من خطاب جين - بعدم

عزمه على الزواج بها. إن ويكهام لن يتزوج بامرأة ليس لديها بعض المال. إنه لا يملك أن يفعل ذلك. وأي حقوق تتمتع بها ليديا، بل أي مفاتن تحظى بها بجانب الشباب والصحة والمرح، مما يجعله يتخلى من أجلها عن كل فرصة تعود عليه بالنفع إذا تزوج زواجاً طيباً؟ على أنني لا أستطيع أن أجزم بنوع الروادع التي يمكن أن يواجه بها هذا القرار المهين والتي ستقابلة بها الفرقة لخشيتهما من الفضيحة، إذ ليس لي علم بالآثار التي قد تنشأ نتيجة هذه الخطوة. وأما فيما يختص باعتراضك الآخر، فلا أظنه يستقيم لحظة. فليديا ليس لها أشقاء يهبون لنصرتها؛ ولربما خُيِّل إليه أن والذي -من واقع ما رآه من لسلوكه وتراخيه والاهتمام الضئيل الذي يبديه إزاء ما يجري في داخل أسرته- لن يبذل من الجهد والفكر في هذا الموضوع إلا أقلهما، شأنه شأن أي والد في مثل هذه الظروف.

- ولكن هل تظنين أن ليديا قد غضت النظر عن كل شيء باستثناء حبها له، بحيث ترضى بالعيش معه على أي نحو آخر خلاف الزواج؟
فأجابت إليزابيث قائلة وقد اغرورقت عيناها بالدموع:

- يبدو من المخجل حقاً أن الإحساس بالتزامات الحشمة والفضيلة كما أفهمها قد يسمح بإثارة الشكوك والوساوس فيما يختص بموضوع كهذا. ولكنني لا أعرف ماذا أقول. ربما لا أكون منصفة معها. ولكنها صغيرة السن جداً، ولم يسبق لها أن تعلمت كيف تفكر في موضوعات جادة. ولم يكن لها ما تهتم به طوال الشهور الستة الأخيرة، بل طوال العام كله إلا اللهو والتظاهر الكاذب. لقد تُركت على هواها تقضي

وقتها في تفاهة واستهتار بالغين، وتبنى أي آراء تصادفها. فمذ الوقت الذي اتخذت فيه فرقة... من «ميريتون» مركزاً لها، لم يَدُرْ في رأسها شيء سوى الحب والمغازلة والضباط. لقد عمدت إلى بذل كل ما في وسعها سواء بالتفكير في هذا الموضوع أو التحدث بشأنه لتسيغ على عواطفها - ماذا أقول؟ - قابلية أعظم للتأثر، وهي التي كانت بطبعها ذات حيوية فائقة. وكلنا نعرف أن منظر ويكهام وطريقته في الحديث لهما من السحر ما يمكن أن يأسر قلب أي امرأة.

فقالت زوجة خالها:

- ولكنك ترين أن جين لا تسيء الظن بويكهام إلى الحد الذي تظنه قادراً على القيام بهذه المحاولة.

- وبمن تسيء جين الظن في أي وقت من الأوقات؟ وأين هم أولئك الذين تظنهم قادرين على مثل هذه المحاولة - مهما كان سلوكهم فيما مضى - إلا لو ثبت عليهم ارتكاب الجرم؟ ولكن جين تعلم مثلي تماماً حقيقة ويكهام. فكلانا نعلم أنه شخص فاجر بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وأنه يفتقر إلى الاستقامة والشرف، وأنه مخادع بقدر ما هو خلاب.

وصاحت مسز جاردنر قائلة، وقد أثارها الفضول لمعرفة الوسيلة التي حصلت بها على هذه المعلومات:

- أَوَ تعرفين حقاً كل هذا؟

فاجابت إليزابيث تقول وقد احمرت وجنتاها:

- فعلاً؛ ولقد أخبرتك مؤخراً عن سلوكه الشائن إزاء مستر دارسي؛ كما أنك سمعتِ بنفسكِ عندما كنت في «لونجبورن» آخر مرة كيف تكلم عن الرجل الذي تصرف معه بمثل هذا الصبر والسخاء. كذلك فهناك وقائع أخرى لست في حِلٍّ من سردها، كما أنها لا تستحق منا اهتماماً كبيراً. ولكن أكاذيبه فيما يختص بأسرة «بيمبرلي» لا نهاية لها. لقد تهيأت تماماً إزاء كل ما قاله عن مس دارسي لأن أرى فتاة متكبرة متحفظة بغیضة إلى النفس. ومع ذلك فقد كان هو نفسه يعلم عكس ذلك. لقد كان يعرف على وجه اليقين أنها فتاة لطيفة غير متكلفة كما وجدناها بالفعل.

- ولكن ألا تعرف ليديا شيئاً من هذا؟ أيمكن أن تكون جاهلة بما تعرفينه أنتِ وجين تمام المعرفة؟

- نعم! وهذا... هذا هو أسوأ شيء على الإطلاق. فقبل أن أذهب إلى «كنت» وأرى مستر دارسي وقريبه كولونيل فيتز وليم مرات متعددة، كنت أنا نفسي جاهلة بحقيقة كل شيء. وعندما عدت إلى المنزل كان من المقرر أن تغادر فرقة «ميريتون» في بحر أسبوع أو اثنين. وإزاء هذا الوضع لم نَرَ أنا وجين التي قصصت عليها كل شيء أن الضرورة تقتضينا إذاعة ما نعرفه. فأی نفع يمكن أن يعود على أي امرئ إذا ما تغير رأي الناس فيه؟ وحتى عندما تقرر أن تصحب ليديا مسز فورستر، لم يخطر على بالي أبداً ضرورة تحذيرها. فلم يطرأ على ذهني أبداً احتمال تعرضها لخطر الخديعة. ولك أن تتصورني بسهولة أن حدوث أمر كهذا كان أبعد مما تصل إليه أفكاری.

- وإذْنُ فعندما سافر الجميع إلى «برايتون» لم يكن لديك من الأسباب ما يحملك على الاعتقاد بأنهما مغرمان ببعضهما البعض؟

- على الإطلاق؛ فلست أذكر أن أي عرض من أعراض الغرام قد ظهر عليه أو عليها. ولو كان هناك شيء من هذا القبيل، لما كان يمكن لأسرتنا - كما تعرفين - أن تهمله. فعندما التحق بالفرقة لأول مرة كانت على أتم الاستعداد للإعجاب به؛ ولكن هذا كان أمرنا جميعاً. فقد طاش بسببه صواب كل فتاة في «ميريتون» أو ما حولها طوال الشهرين الأولين. ولكنه لم يختصها بأي اهتمام؛ وبالتالي فقد ضعف ميلها إليه بعد فترة من الإعجاب المفرط المتيماً، وأصبح آخرون من الكتيبة ممن خصوها بإعجابهم، مفضّلين عندها.

وبرغم أنه لم يكن ممكناً إضافة شيء جديد إلى مخاوفهم وآمالهم وتكهّناتهم فيما يختص بهذا الموضوع المثير عن طريق إعادة فتح باب النقاش فيه، إلا أنه من السهل على المرء أن يتصور أنه لم يكن هناك ما يشغلهم عنه طوال الرحلة كلها. فلم يغيب هذا الموضوع عن ذهن إليزابيث على الإطلاق. ولما كان راسخاً في أفكارها بفعل أشد أنواع العناء وتأنيب الضمير، فقد افتقدت اللحظات التي يمكن أن تركز فيها للراحة والسلوى.

وكانوا ينطلقون بأقصى ما يستطيعون من سرعة، وبعد أن قضوا الليل في نزل على الطريق، وصلوا إلى «لونجبورن» في اليوم التالي على موعد الغداء. وكان من دواعي الراحة لإليزابيث أن جين لم يرهقها طول الترقب والانتظار.

وكان أطفال مستر جاردينر يقفون على درجات البيت بعد أن جذبهم صوت عجلات العرب في أطراف المزرعة، وعندما وصلت العرب إلى الباب، كانت المفاجأة السارة التي أضاءت وجوههم وتمثلت في أجسادهم جميعاً على هيئة وثبات مرحة، أول علامة مبهجة للترحيب بالقادمين.

وقفزت إليزابيث من العرب، وأسرعت إلى الردهة بعد أن منحت كل طفل قبلة سريعة، وهناك التقت من فورها بجين التي أخذت تعدو هابطة من الطابق الثاني حيث غرفة أمها.

وبينما كانت إليزابيث تحتضنها بحنان، وبينما الدموع تملأ أعينهما، لم تضيع لحظة في السؤال عما إذا كانت هناك أي أنباء عن الهاربين. وأجابت جين قائلة:

- لم يصلنا شيء حتى الآن. ولكن ما دام خالي العزيز قد جاء، فإني أمل أن يصبح كل شيء على خير ما يرام.

- وهل أبي في لندن؟

- نعم لقد ذهب إلى هناك يوم الثلاثاء كما ذكرت لك في خطابي.

- وهل جاءتكم منه أخبار كثيرة؟

- لم تصلنا أخباره إلا في مرة واحدة، فقد كتب لي بضعة أسطر يوم الأربعاء الماضي ليقول إنه قد وصل في أمان، وليطلعني على خط سيره، وهو ما ألححت عليه أن يفعله. وأضاف إلى ذلك قوله إنه لن يكتب ثانية إلا حين يجد شيئاً مهماً يستحق الذكر.

- وأمي، كيف حالها؟ وكيف حالكم جميعاً؟

- أعتقد أن أُمي في حال لا بأس بها لولا أن روحها المعنوية قد اهتزت كثيراً. إنها في حجرتها في الطابق العلوي، وستشعر بسرور عظيم لدى رؤيتكم جميعاً. إنها حتى الآن لا تغادر غرفة ملابسها. أما ميري وكيّتي فهما والحمد لله في خير حال.

وهتفت بها إليزابيث قائلة:

- ولكن أنتِ، كيف حالكِ أنتِ؟ إنكِ تبدين شاحبة. يا لكثرة ما واجهتِ من متاعب!

على أن أختها قد طمأنتها بأنها في خير حال تمامًا. ودام حديثهما طوال الفترة التي استغرقتها مستر جاردنر وزوجته مع أطفالهما، ولم ينتهِ إلا باقتراب الجماعة كلها منهما. وجرت جين ناحية خالها وزوجته ورحبت بهما وشكرتهما معاً بكلمات تختلط بها الدموع تارة والبسمات تارة أخرى.

وعندما جلسوا جميعاً في حجرة الاستقبال، تكررت بالطبع نفس الأسئلة التي كانت إليزابيث قد وجهتها، وما لبث الجميع أن وجدوا أن جين ليس لديها أخبار جديدة. على أن أملها المستبشر في جانب الخير، الذي أوحى به إليها طيبة قلبها، لم يكن قد زایلها بعد. فكانت لا تزال تتوقع أن ينتهي الأمر كله نهاية حسنة، وأن يصل في أي يوم خطاب سواء من ليديا أو من والدها ليوضح ما أنجزاه من خطوات، ولربما يعلن عقد الزواج أيضاً.

أما مسز بينت التي ذهبوا جميعاً إلى جناحها، فقد استقبلتهم -بعد أن ظلوا يتجاذبون أطراف الحديث بضع دقائق- على النحو الذي كان منتظراً تماماً، بالدموع ونحيب الأسى والطعن في سلوك ويكهام الدنيء، وبالشكوى من عنائها ومن الإساءات الموجهة إليها، موجهة اللوم إلى الناس جميعاً باستثناء شخصها هي، وهي التي لا بد أن تُنسب إليها أخطاء تدليل ابنتها الذي جانبه الصواب. وقالت:

- لو كنت قد استطعت تغليب رأيي في الذهاب إلى «برايتون» بصحبة بناتي جميعاً، لما كان هذا قد حدث أبداً. ولكن ليديا المسكينة لم تجد مَنْ يُعنى بها. لماذا سمح لها مستر فورستر وزوجته بالابتعاد عن أنظارهم؟ إني واثقة من وجود بعض الإهمال من جانبهما، فهي ليست من ذلك النوع من البنات اللاتي يفعلن مثل هذا الشيء، لو كانت قد وُضعت تحت الرعاية الكافية. لقد اعتقدت دائماً أنهما لم يكونا مؤهلين تماماً للإشراف عليها. ولكن رأيي لم يقتنع به أحد مثلما يحدث دائماً. يا لطفلتي العزيزة المسكينة! وها قد ذهب الآن مستر بينت، وإني أعرف أنه سوف يتعارك مع ويكهام أينما لقيه، وسوف يُقتل في هذا العراك، فماذا سيحل بنا جميعاً بعد ذلك؟ إن مستر كولنز وزوجته سوف يلقيان بنا خارج هذا البيت قبل أن يبرد في قبره. فإذا لم تكن كريماً معنا يا أخي، فلست أعرف ما الذي سيحل بنا.

واعترضوا جميعاً على مثل هذه الأفكار المرعبة. وبعد أن أكد لها مستر جاردنر حبه لها وحنوه عليها هي وبناتها جميعاً، قال لها إنه ينوي الذهاب إلى لندن في اليوم التالي، وإنه سوف يساعد مستر بينت في

القيام بكل محاولة تستهدف استعادة ليديا. وأضاف قائلاً:

- لا تستسلمي لانزعاج لا طائل وراءه. فبرغم أنه من الصواب أن يتهياً المرء لأسوأ الاحتمالات إلا أنه لا داعي لاعتبار الأمر سيئاً على وجه اليقين. فلم يمضِ بعد أسبوع على مغادرتهما «برايتون». ولربما استطعنا في خلال بضعة أيام أن نعرف بعض الأخبار عنهما. وحتى يبلغ علمنا أنهما لم يعقدا قرانهما، وأنهما لا يهدفان إلى الزواج، فلا يصح أن نعتبر القضية خاسرة. وبمجرد وصولي إلى لندن سوف أتصل بمستر بينت وأصحبه معي إلى منزلي «بجريستشيرتس ستريت»، وعند ذاك يمكننا أن نقلب الرأي فيما يمكننا عمله.

وأجابت مسز بينت قائلة:

- هذا هو بالضبط يا أخي العزيز أقصى ما أطمح إليه، فعندما تصل إلى لندن، عليك بالعثور عليهما أينما كانا. وإذا لم يكونا قد تزوجا حتى الآن، فاجعلهما يتزوجان. أما فيما يختص بملابس الزفاف، فلا تدعهما ينتظرانها، ولكن قل لليديا إنها سوف تحصل على كل ما تشاء من نقود لشرائها بعد زواجهما. وعليك قبل كل شيء أن تحول بين مستر بينت وبين أي عراك؛ وأن تطلعه على الحالة الرهيبة التي أعيش فيها. وقل له إن الخوف يملكني، وإن جسمي كله يعاني من الرجفة والاضطراب، وإن جنبي يقاسي من التقلصات، ورأسي من الآلام، وقلبي من الخفقان؛ بحيث لا أركن إلى الراحة ليلاً أو نهاراً. وقل لعزيزتي ليديا ألا تصدر أي توجيهات بخصوص ملابسها حتى تقابلني، فهي لا تعرف أفضل المحلات. ما أطيبك يا أخي! إنني أعرف أنك ستفعل كل شيء.

وبرغم أن مستر جاردنير قد طمأنها ثانية بشأن ما سيذله من محاولات جادة في هذه المشكلة، إلا أنه أوصاها بالاعتدال سواء في آمالها أو مخاوفها. وظلوا يتحدثون إليها على هذا النحو حتى صُفّ طعام الغداء على المائدة، فتركوها تنفّس عن انفعالاتها بالاحتداد على مدبرة المنزل التي كانت تخدمها في غياب بناتها.

ومع أن شقيقها وزوجته كانا مقتنعين بأنه لم يكن هناك داعٍ حقيقي لمثل هذا الانعزال عن أفراد الأسرة، إلا أنهما لم يحاولا إبداء اعتراضهما، فقد كانا يعلمان أنها لم تكن من الفطنة بحيث تستطيع أن تمسك لسانها أمام الخدم الذين كانوا يخدمون على المائدة، وفضلاً أن يعهدا إلى واحدة فقط من خدم المنزل يثقان فيها تمام الثقة، أن تطلع على كل مخاوفها وقلقها في هذا الموضوع.

وفي حجرة الطعام لحقت بهم بعد فترة ميري وكيّتي اللتان كانتا مشغولتين كلٌّ في جناحها الخاص، لدرجة منعهما من الظهور قبل هذا الوقت. فقد جاءت الأولى من وسط كتبها، أما الثانية فمن أمام خوان زيتنها. على أن وجهيهما كانا هادئين، كما أنه لم يظهر أي تغيير على أي منهما، فيما عدا أن لهجة كيّتي في الحديث قد شابها من الضيق ما يفوق المعتاد إما بسبب افتقادها لشقيقتها الأثيرة لديها، وإما بسبب علامات الغضب التي استثارها في محيط الأسرة فيما يختص بهذه المسألة. أما ميري فقد كانت متمالكة لنفسها بحيث همست إلى إليزابيث بمجرد جلوسهما إلى المائدة، وقد بدت على وجهها ملامح التفكير الجاد:

- هذا واقعة سيئة جدًّا، وأغلب الظن أنها ستصبح موضوعًا شائعًا للحديث، ولكن لا بد لنا من صد تيار الضغينة، وصب بلسم العزاء الأخوي في قلوبنا الجريحة.

ولما رأت أن إليزابيث لم تكن لديها نية الإجابة عليها، أضافت قائلة:

- رغمًا عن التعاسة التي لا بد أن تلحق بليديا بسبب هذه الواقعة، يحق لنا أن نستقرئ منها هذا الدرس المفيد؛ ألا وهو أن ضياع العفة من أي أنثى هو أمر لا يُعوَّضُ، وأن خطوة واحدة خاطئة لا بد أن تورطها في دمار ليس له حدود، وأن سمعتها هشة مثلما هي جميلة، وأنها لم تكن في سلوكها شديدة الاحتراس إزاء غير المستحقين لها من أفراد الجنس الآخر.

ورفعت إليها إليزابيث عينيها في دهشة، ولكنها كانت من الكمد بحيث لم تحر جوابًا. ومع ذلك فقد استمرت ميري في تعزية نفسها بمثل هذا النوع من الخلاصات الأخلاقية التي أخذت تستنبطها من الإثم المائل أمامها.

وفي فترة ما بعد الظهر تمكنت الأختان الكبريان من الانفراد معًا لمدة نصف ساعة. وانتهزت إليزابيث من فورها هذه الفرصة لإثارة استفسارات كثيرة تحمست جين بالمثل للإجابة عنها. وبعد أن اتفقتا في إبداء مشاعر الأسى فيما يختص بالعواقب الوخيمة التي اعتقدت إليزابيث أنها واقعة لا محالة، والتي لم تزعم مس بينت استحالة وقوعها تمامًا، استطردت إليزابيث تقول:

- قصي عليّ كل ما لم أسمعه حتى الآن من هذا الحادث. زوديني بتفصيلات أخرى. ماذا قال كولونيل فورستر؟ ألم تراوده هو زوجته أي مخاوف قبل أن يقع حادث الفرار؟ لا بد أنهما كانا يشاهدانهما معاً دائماً!

- لقد سلم كولونيل فورستر بأنه كثيراً ما ارتاب في وجود نوع من الميل، وعلى الأخص من جانب ليديا، ولكنه لم يرَ في الأمر مبرراً للانزعاج. إني شديدة الحزن بسببه. لقد كان سلوكه حائياً وكريماً، إلى أبعد الحدود؛ وكان في طريقه إلينا ليؤكد لنا اهتمامه بالحادث قبل أن تراوده أي فكرة عن عدم ذهابهما إلى اسكتلندا. وعندما ظهرت بوادر الخوف من احتمال حدوث هذا الأمر، سارع بالسفر إلى هنا.

- وهل كان ديني مقتنعاً بأن ويكهام لا يتتوي الزواج؟ أكان على معرفة بعزمهما على الفرار معاً؟ وهل التقى كولونيل فورستر بديني نفسه؟

- نعم؛ ولكن عندما استجوبه أنكر معرفته أي شيء عن خطتهما، وامتنع عن إبداء رأيه الحقيقي بشأنها. ولم يكرر التعبير عن اعتقاده في عدم عزمهما على الزواج، الأمر الذي يدفعني إلى الأمل بأن أقواله قد أُسيء من قبل فهمها.

- وإلى أن جاء كولونيل فورستر بنفسه، ألم يراود أي منكم أدنى شك في زواجهما فعلاً؟

- كيف كان يمكن أن تطرأ لنا مثل هذه الفكرة؟ لقد شعرت فقط شيء من القلق والتخوف من جراء احتمال ما يمكن أن تلقاه شقيقتي

من تعاسة في زواجها منه؛ لأنني كنت أعرف أن سلوكه لم يكن دائمًا في جانب الصواب. ولم يكن أبي وأمي على علم بشيء من هذا، ولذلك فلم يشعرا إلا بما في هذا الزواج من حماقة وطيش. ثم اعترفت كيتي -بلهجة يشيع فيها الظفر الطبيعي بسبب ما لديها من معلومات تفوق ما لدينا- بأن ليديا قد هيأت ذهنها في خطابها الأخير لمثل هذه الخطوة. ويبدو أنها كانت تعلم بغرامهما قبل ذلك بأسابيع كثيرة.

- ولكن ليس قبل ذهابهما إلى «برايتون»؟

- لا، لا أظن ذلك.

- وهل بدا على كولونيل فورستر أنه يسيء الظن بويكهام نفسه؟
أيعلم شيئاً عن شخصيته الحقيقية؟

- لا بد أن أعترف لك بأنه لم يتحدث عن ويكهام بما يُرضي، كما كان يفعل من قبل. لقد أبدى رأيه فيه بما يفيد أنه طائش مسرف. ومنذ أن وقع هذا الحادث المؤسف فقد أُشيع أنه غادر «ميريتون» وعليه ديون طائلة. ولكني آمل أن يكون هذا قولاً كاذباً.

- آه لو كنا يا جين أقل تكتماً، لو كنا قد صرحنا بما نعرفه عنه، لما كان هذا قد حدث!

فأجابت شقيقتها قائلة:

- لربما كان هذا أفضل فعلاً.

- ولكننا لم نكن لنجد أي مبرر لتصرفنا إذا ما كشفنا النقاب عن أخطائه في الماضي دون أن نكون على علم بحقيقة مشاعرهما.

- لقد تصرفنا على هدى نية خالصة.

- وهل استطاع كولونيل فورستر أن يعيد على أسماعكم تفاصيل خطاب ليديا إلى زوجته؟

- لقد أحضر الخطاب معه لنراه.

ثم أخرجته جين من بين أوراق مفكرتها، وأعطته إلى إليزابيث. وكانت محتوياته كما يلي:

عزيزتي هاريت

ستضحكين إذا علمت أين ذهبت؛ أما أنا فلست أملك إلا أن أضحك لديشتك صباح الغد بمجرد افتقادي لي. إني ذاهبة إلى «جرتنا جرين»، وإذا لم يمكنك التكهن بشخصية من سيصحبني إلى هناك، فسأظنك ساذجة بلهاء، إذ ليس هناك في هذا العالم إلا رجل واحد أهواه، وهو ملاك من السماء. ولن تقدر لي السعادة من دونه؛ لذلك فلا تظني أن في فراري أذى لشخصي. ولا حاجة بك لإخبارهم في «لونجبورن» برحيلي إذا كنت لا تودين ذلك، فسوف يضاعف هذا من عظم المفاجأة عندما أرسل لهم خطاباً أوقعه باسم «ليديا ويكهام» يا لها من دعاة لطيفة! إني أكاد أعجز عن الكتابة لاستغراقي في الضحك. أرجوك أن تعتذري نيابة عني لبرات لعدم وفائي بوعدتي ومراقصته هذه الليلة. قل لي إنني آمل في صفحه عندما يعرف كل شيء، وأخبريه بأنني سأراقصه في الحفل القادم الذي سنلتقي فيه معاً، وسيكون سروري إذ ذاك عظيماً. سأبعث في طلب ملابسني عندما أصل إلى «لونجبورن».

ولكنني أرجو أن تطلبي من سالي أن تصلح قطعاً كبيراً في ردائي
القطني المشغول قبل أن ترسل ملابسي إلى المنزل. وداعاً. أبلغني
حبي لكونيل فورستر؛ وآمل أن تشربا نخب رحلتنا الطيبة.
صديقتك المحبة.

ليديا بينت

وهتفت إليزابيث قائلة بعد أن فرغت من تلاوة الخطاب:

- آه يا ليديا، أيتها الطائشة المستهترة! يا له من خطاب يُكتب في
لحظة مثل هذه! ولكنه يشير على الأقل إلى أنها كانت جادة في الهدف
من رحلتها. ومهما كان الوضع الذي سيغريها ويكهام بعد ذلك على
اتخاذها، فلن يكون هذا الوضع خطة مرسومة فاضحة من جانبها. آه يا
أبي المسكين! لا بد أنه تأثر بشدة!

- إني لم أرَ من قبل شخصاً صُدم على هذا النحو. لقد مضت عشر
دقائق كاملة قبل أن يتمكن من التفوه بكلمة. أما والدتي فقد وقعت في
الحال فريسة للمرض، وغمر البيت كله اضطراب شديد!

فهتفت إليزابيث قائلة:

- آه يا جين، وهل بقي في البيت خادم واحد لم يَدْرِ بالقصة كلها
قبل انقضاء النهار؟

- لا أعرف؛ وآمل أن يكون هناك من لم تبلغه الأخبار. ولكن الاحتراس
في وقت مثل هذا أمر شديد الصعوبة. فقد تملك والدتي الهوس، وبرغم
أنني حاولت أن أقدم لها كل ما في وسعي من عون، فأغلب ظني أنني لم أقم

بكل ما كان في استطاعتي. ولكن عذري أن الهلع الذي تملكني بسبب ما يُحتمل حدوثه كان قد سلبني قدرتي على التصرف.

- لقد كانت رعايتكِ لها فوق احتمالكِ؛ فصحتكِ ليست جيدة. آه لو كنت بجانبكِ! لقد تحملتِ كل صنوف الهم والقلق وحدكِ.

- لقد كانت ميري وكيتي كريمتين جدًّا، وكان يمكنهما بالتأكيد احتمال نصيبهما من التعب، لولا أنني لم أرَ أن ذلك يتناسب مع قدرة أيٍّ منهما. فكيتي هشة ورقيقة، أما ميري فتتكب على دراستها لفترات طويلة بحيث لا يصح انتهاك ساعات راحتها. ولقد جاءت خالتي فيليبس إلى «لونجبورن» يوم الثلاثاء الماضي بعد سفر أبي، وكانت من الكرم بحيث بقيت معي حتى يوم الخميس. لقد كانت بالنسبة لنا مصدرًا عظيمًا لنفعا وتهدئة نفوسنا. كذلك كانت ليدي لو كاس شديدة الكرم، فقد زارتنا صباح يوم الأربعاء لمواساتنا، وعرضت علينا خدماتها أو خدمات أيٍّ من بناتها، لو كان في ذلك نفع لنا.

فصاحت إليزابيث قائلة:

- كان يحسن بها أن تلزم بيتها. قد تكون سليمة النية، ولكن في ظل مصيبة مثل هذه يتقاطر على المرء جيرانه. فالعون محال، والمواساة لا تُطاق. فليشمتوا بنا على بعدٍ وبقروا عينًا.

ثم شرعت تستفسر عن التدابير التي كان والدها قد عزم على اتخاذها أثناء وجوده في لندن، بهدف استدراج ابنته.

فأجابت جين قائلة:

- أظن أنه كان يعتزم الذهاب إلى «إيسوم»، وهو المكان الذي غيرا فيه جيادهما لآخر مرة، ومقابلة سائقي الجياد ومحاولة استخلاص أي معلومات منهم. كذلك كان هدفه الأساسي أن يكتشف رقم العربة التي استأجراها من «كلافام». فهذه العربة كانت قد جاءت براكب من لندن؛ ولما كان أبي يعتقد أن واقعة انتقال رجل وسيدة من عربة لأخرى قد تستلقت الأنظار، فقد اعتزم أن يجري بعض التحريات في «كلافام». فإذا استطاع بأي حال من الأحوال أن يستدل على البيت الذي كان الحوذي قبل هذا قد أنزل راكبيه عنده، فقد عقد نيته على إجراء استفساراته هناك، وراوده الأمل في أن يكون من المحتمل معرفة مكان وقوف العربة ورقمها، ولكنه كان يتعجل سفره، كما كانت روحه المعنوية مضطربة تمامًا، بحيث إنني وجدت صعوبة شديدة حتى في معرفة هذه المعلومات.



الفصل الثامن والأربعون

كانوا جميعاً يأملون في وصول خطاب من مستر بينت في صباح اليوم التالي، ولكن البريد لم يحمل لهم سطرًا واحدًا منه. وكانت أسرته تعرف أنه كان في جميع الحالات مراسلاً شديد البطء والإهمال، ولكنهم كانوا يتعشمون أن يبذل جهدًا أكبر في ظروف مثل هذه. ومن ثم فقد اضطروا إلى الاعتقاد بأنه لم تكن لديه أخبار طيبة يبعث بها إليهم، غير أنهم كانوا ليسعدون حتى لو تأكدوا من هذا الأمر. وانتظر مستر جاردنر موعد وصول البريد قبل أن يبدأ سفره.

وعندما غادرهم كانوا واثقين على أقل تقدير من تلقيهم أنباء دائمة عما كان يجري، ووعدهم خالهم عند سفره بالإلحاح على مستر بينت بالعودة إلى «لونجبورن» بأسرع ما يستطيع، الأمر الذي كان بمثابة عزاء عظيم لشقيقته التي رأت في ذلك الضمان الأوحد لعدم قتل زوجها في مبارزة.

واستقر الرأي على أن تبقى مسز جاردنر والأطفال في «هارتفوردشير» بضعة أيام أخرى، إذ رأت أن وجودها قد يكون ذا نفع لبنات أخت زوجها. فقد ساهمت معهن بنصيب في رعاية مسز بينت،

كما كانت مصدر راحة عظمى لهن في أوقات فراغهن. كذلك قامت خالتهن بزيارتهن بين الحين والحين، هادفة دائماً - كما قالت - للترويح عنهن وشد أزرن، برغم أنها نادراً ما كانت تغادر البيت دون أن تثبط من روحهن؛ لأنها كانت تحكي باستمرار عن أحدث النماذج عن إسراف ويكهام أو انحرافه.

وبدا أهل «ميريتون» كلهم كأنهم يسعون جاهدين لتلطيف سمعة الرجل الذي كان منذ ثلاثة أشهر ليس غير ملائكة تحيط به هالة من الضياء. فقد قيل عنه إنه مدين لكل تجار المدينة. وامتد تأثير مؤامراته التي تشرفت كلها بالانضواء تحت عنوان الغواية، ليشمل أسر التجار جميعاً. وصرح الجميع بأنه أشد شبان العالم انغماساً في الشر، كما بدءوا يكتشفون أنهم دائماً ما ارتابوا في مظهر كرم أخلاقه. وبرغم أن إليزابيث لم تصدق نصف ما قيل في هذا الصدد، إلا أنها صدقت ما يكفي لتأكيد يقينها بما استقر عليه فكرها فيما سبق من دمار سمعة شقيقتها. بل إن جين التي كانت لا تزال غير واثقة تماماً في هذا الأمر، كادت تصبح ضحية لليأس، وخصوصاً بعد أن حان الوقت الذي كان يحق لهم - برغم كل الاحتمالات - أن يعرفوا عنهما بعض الأخبار إذا كانا قد ذهبا إلى اسكتلندا، وهو ما لم تكن قد يئست منه من قبل تمام اليأس.

وكان مستر جاردنر قد غادر «لونجبورن» يوم الأحد، وفي يوم الثلاثاء تلقت منه زوجته خطاباً. وجاء في هذا الخطاب أنه عثر في الحال على زوج شقيقته فور وصوله، وأقنعه بالمجيء معه إلى «جريستشير تش

ستريت»، وأن مستر بينت قد ذهب إلى «إيسوم» و«كلافام» قبل وصوله، ولكن دون أن يحظى بأي معلومات شافية، وأنه قد استقر الآن رأيه على الاستفسار لدى كافة الفنادق الأساسية في لندن، حيث إن مستر بينت كان يعتقد بإمكان نزولهما في أي منها فور وصولهما إلى لندن، وذلك قبل أن يدبرا لنفسيهما سكناً. أما مستر جاردنر فلم يكن يتوقع أي نجاح من وراء هذا الإجراء؛ ولكن لما كان مستر بينت متحمساً له، فقد عزم على مساعدته في تنفيذه. وأضاف يقول إن مستر بينت بدا كأنه غير مبال على الإطلاق في الوقت الحالي لمغادرة لندن، ووعد بأن يكتب ثانية بعد وقت قصير. كذلك كان بالخطاب حاشية جرى مضمونها على النحو التالي:

لقد كتبتُ خطاباً لكولونيل فورستر أطلب منه أن يستدل - لو كان ذلك ممكناً- من بعض أصدقاء ويكهام من أفراد الكتيبة، على ما إذا كان له أي أقارب أو معارف يمكن أن يعلموا في أي مكان من لندن يختفي. فلو كان هناك أي شخص يستطيع المرء أن يتصل به، مع احتمال الوصول إلى دليل من هذا القبيل، لكان لهذا أهمية كبيرة. أما في الوقت الحاضر فليس لدينا ما يقود خطانا. وأغلب ظني أن كولونيل فورستر سوف يبذل كل ما في وسعه لتتوينا. غير أنني بعد أن فكرت في الأمر ثانية، رأيت أن ليزي قد تستطيع إرشادنا عن أقاربه الذين لا يزالون على قيد الحياة، وهي في هذا المجال قد تفضل أي إنسان آخر.

ولم تتحير إليزابيث في إدراك السبب الذي من أجله نشأ هذا التكريم لسعة علمها ونفوذها، غير أنه لم يكن في وسعها أن تدلي بأي معلومات

مرضية تتفق وما يستحقه هذا الشاء.

فلم تكن قد سمعت عن وجود أي أقارب له، فيما عدا أب وأم فارقا الحياة منذ سنين عدة، على أنه كان من الممكن لبعض رفاقه في فرقة... أن يدلوا بمعلومات أكثر. وبرغم أنها لم تكن شديدة التفاؤل في توقع هذا الأمر، إلا أن اللجوء لكولونيل فورستر كان أمراً يستحق التطلع إليه. وأصبح كل يوم يمر على «لونجبورن» مشحوناً بالقلق، ولكن أشد الفترات مدعاة لانشغال البال كانت تلك التي يُنتظر فيها وصول البريد. وكانت مشاعر التلهف في كل صباح تتركز أول ما تتركز على وصول الخطابات. فقد كانت الرسائل وحدها هي السبيل لإطلاعهم على الأخبار مهما كانت طيبة أو سيئة، ومن ثم فقد كانوا يتوقعون أن تصلهم في أي يوم أنباء هامة.

ولكن قبل أن يكتب مستر جاردينر مرة ثانية، وصل خطاب باسم أبيهن من مصدر مختلف، من مستر كولنز. ولما كانت جين قد تسلمت توجيهات تقضي بفتح كل ما يرد إليه في غيابه من خطابات، فقد قرأته بناء على ذلك. وإذ كانت إليزابيث تعرف أن رسائله كانت دائماً نوعاً من التحف، فقد نظرت من فوق كتفها وقرأت معها. وكانت محتويات الخطاب كما يلي:

سيدي العزيز؛

أشعر أن من واجبي بحكم قرابتنا وبحكم مركزي في الحياة، أن أواسيكم في أحزانكم المؤلمة التي تقاسونها الآن، والتي عرفنا بها بالأمس من خطاب وصلنا من «هارتفوردشير». ولتكن على ثقة يا

سيدي العزيز أن مسز كولنز وأنا نتعاطف بمتهى الإخلاص معكم ومع كل أفراد أسرتم المحترمة في مصابكم الراهن الذي لا بد أن يكون من نوع شديد الإيلام، من حيث إنه نشأ عن سبب لا يمكن أن تمحوه الأيام. ولن أبخل عليكم بأي قول يمكن أن يخفف من هذه النازلة القاسية، أو أن يريح نفوسكم في ظرف مثل هذا لا بد أن يفوق كل الظروف الأخرى إيلامًا لمشاعر والد. فوفاة ابتك كان يمكن أن تكون نعمة إذا قورنت بهذا الأمر. وإنه لمما يضاعف مشاعر الأسى أن يكون هناك من الأسباب ما يدعو للاعتقاد بأن هذه الخلاعة في السلوك من جانب ابتكم قد نشأت - كما أفهمتي عزيزتي شارلوت - من إفراط معيب في تدليلها. على أنني أميل في نفس الوقت - وعملاً على تعزيتكم أنتم ومسز بينت - إلى الظن بأن طباعها لا بد أن تكون سيئة أصلاً، وإلا لما ارتكبت إثماً بمثل هذه الشناعة في هذه السن الغضة. ومهما كان السبب، فإنكم تستحقون العطف الشديد؛ وهذا رأي لا تشاركني فيه مسز كولنز وحدها، وإنما توافقني عليه أيضاً ليدي كاثرين وكريمتهما اللتان أطلعتهما على الموضوع. وإنهما لتقراني على تخوفي من أن هذه الخطوة الفاضحة من جانب إحدى البنات سوف تلحق الأذى بمستقبل الأخريات. فمن ذا الذي سوف يرتبط - كما تفضلت ليدي كاثرين وقالت - بأسرة مثل هذه؟ وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا الاعتبار يجعلني أتدبر بمشاعر الارتياح الشديد واقعة معينة حدثت في شهر نوفمبر الماضي. فلو كان قد وقع غير ما وقع، لكنت قد تورطت

في كل ما حل بكم من حزن وعار. فلتسمح لي إذن يا سيدي العزيز
أن أنصحكم بالتماس العزاء بقدر الإمكان، والتخلي إلى الأبد عن
ابتئكم غير المستحقة لمحبتكم، وتركها تجني ثمار ذنبها الفظيع.
وإني يا سيدي العزيز، إلخ إلخ...

لم يكتب مستر جاردنر ثانية حتى تلقى جوابًا من كولونيل فورستر،
وعندئذ لم يكن فيما أرسله أخبار سارة. فلم يكن أحد يعرف أن لويكهام
قريبًا واحدًا يرتبط به بأدنى صلة، كما كان من المؤكد عدم وجود أي
أقرباء حميمين على قيد الحياة. ولقد كان معارفه السابقون كثيرين،
ولكن منذ انضمامه إلى قوات «الميليشيا»، لم يبد أنه كان على علاقة
صدقة وطيدة مع أيٍّ منهم. ومن ثم فلم يكن هناك أي امرئ يمكن أن
يقال إنه يعرف على سبيل الاحتمال أي أنباء عنه. وبالنظر إلى أحواله
المالية التعسة، فقد كانت هناك دوافع قوية لتكتم مكان وجوده، وذلك
بالإضافة إلى خشيته من اكتشاف أقارب ليديا لهذا المكان. ولقد ذاع
منذ وقت قريب أنه ترك وراءه ديونًا طائلة ناشئة عن لعب الميسر. وكان
كولونيل فورستر يظن أن أكثر من ألف جنيه تلزم لسداد حساباته في
«برايتون»، ولقد كان مدينًا بالكثير في البلدة، ولكن ديونه المتعلقة
بالشرف كانت أشد بشاعة. ولم يحاول مستر جاردنر أن يخفي هذه
التفصيلات عن أسرة «لونجبورن» واستمعت إليها جين بهلع، وصاحت
قائلة:

- مقامر! هذا شيء غير متوقع تمامًا. لم تكن لدي فكرة عن هذا.
وأضاف مستر جاردنر في خطابه أنهن قد يرون والدهن في البيت

في اليوم التالي، وهو يوم السبت. فبعد أن انهارت روحه المعنوية بفشل كل محاولاتهم، لم يملك إلا أن يرضخ لرجاء شقيق زوجته بأن يعود إلى أسرته تاركًا الأمر بين يديه ليفعل ما يراه مناسبًا في مجال استمرار مسعاهم. وعندما سمعت مسز بينت بهذا الخبر لم تعبر عن رضاها بالقدر الذي توقعته بناتها، بالنظر إلى ما كان من قلقها على حياته. فقد صاحت قائلة:

- ما هذا! أعائد هو إلى البيت، ومن دون ليديا المسكينة أيضًا؟ من المؤكد أنه لن يترك لندن قبل أن يعثر عليهما. فمن ذا الذي سيقا تل ويكهام ويضطره إلى الزواج منها، إذا ما انسحب هو بعيدًا؟

ولما أخذت مسز جاردينر تبدي رغبتها في العودة لبيتها، فقد استقر الرأي على أن تذهب هي وأطفالها إلى لندن في نفس الوقت الذي يصل فيه مستر بينت قادمًا منها. ولذلك فقد حملتهم العربة وقطعت بهم المرحلة الأولى من رحلتهم، ثم عادت بصاحبها إلى «لونجبورن».

وارتحلت مسز جارينر وهي في غاية الحيرة بشأن إليزابيث وصديقها القاطن في «داربيشير»، تلك الحيرة التي لازمتها منذ كانت في تلك المقاطعة. فلم تعتمد ابنة شقيقة زوجها إلى ذكر اسمه أمامها، كما أن ما كانت مسز جاردينر قد توقعته إلى حد ما من احتمال تسلمهم رسالة منه بمجرد وصولهم، قد ذهب هباءً منثورًا، فلم تكن إليزابيث قد تسلمت أي خطاب من «بيمبرلي» منذ عودتها.

وقد أدى جو التعاسة في نطاق الأسرة إلى انتفاء ضرورة إيجاد أي مبرر آخر لانخفاض روح إليزابيث المعنوية. ومن ثم فلم يكن من السهل

التكهّن بأسباب ابتئاسها هذا؛ برغم أن إليزابيث -التي أصبحت الآن على دراية جيدة نوعًا بمشاعرها - كانت تدرك تمامًا أنه كان بإمكانها، لو لم تكن على علاقة بدارسي، أن تحتل الإحساس المفزع لفضيحة ليديا على نحو أفضل. فقد ظنت أن هذا الوضع ربما كان قد وفر عليها إحدى ليلتين لا يغمض لهما فيهما جفن.

وعندما وصل مستر بينت، بدا على سيماء هدوءه الفلسفي المعهود. وكان مقلًا في الحديث كعادته دائمًا، فلم يذكر شيئًا عن الموضوع الذي استدعى سفره، كما أن بناته لم يجدن الشجاعة على الخوض فيه إلا بعد مضي بعض الوقت.

ولم تغامر إليزابيث بفتح باب الحديث في الموضوع إلا في فترة ما بعد الظهر عندما انضم إليهن لتناول الشاي. ولما عبرت باختصار عن أسفها بسبب ما لا بد أن يكون قد احتمله، عند ذاك أجابها قائلاً:

- لا تقولي شيئًا من هذا. من ذا الذي ينبغي عليه أن يعاني سواي؟ هذه نتيجة تصرفي، ولا بد أن أشعر بها.

فأجابت إليزابيث قائلة:

- لا يصح أن تكون شديد القسوة على نفسك.

- جيد منك أن تحذريني من ارتكاب مثل هذا الإثم، فالطبيعة البشرية تتعرض له بكثرة! لا يا ليزي، دعيني أشعر مرة واحدة في حياتي بعظم استحقاقي للوم. ولست أخشى أن يتغلب عليّ هذا الإحساس. فسوف ينقضي سريعًا.

- أنظنهما في لندن؟

- نعم، وإلا فأين يمكن أن يحسنا الاختفاء على هذا النحو؟

وأضافت كيكي قولها:

- فضلاً عن أن ليديا كانت ترغب في الذهاب إلى لندن.

فقال والدها بجفاء:

- إذن فهي سعيدة، ولربما طالت إقامتها هناك بعض الوقت.

ثم استطرد بعد فترة صمت قصيرة:

- إنني لا أحمل لكِ يا ليزي أي حقد؛ لأنكِ كنتِ على حق في نصحكِ لي في شهر مايو الماضي، وهو نصح يدل، بالنظر إلى ما حدث، على رجاحة فكر.

وقطع حديثهما دخول مس بينت التي جاءت في طلب نصيب والدتها من الشاي، فصاح قائلاً:

- هذا استعراض مفيد؛ إنه يضيفي على النوائب جلاً! لن يمضي يوم حتى أفعل نفس الشيء. سأجلس في مكتبتي لابساً قلنسوتي ملتحفاً بعباءتي، وسأسبب في إحداث أقصى ما أستطيع من المتاعب. ولكن قد أرجئ ذلك إلى حين فرار كيكي.

فقالت كيكي متبرمة:

- لست أنوي الفرار يا والدي. فلو قدر لي أن أذهب إلى «برايتون» فلسوف يفضل سلوكي سلوك ليديا.

- تذهبين إلى «برايتون»! إني لا أثق في ذهابكِ إلى مكان قريب مثل «إيستون» حتى لو أعطيت لقاء ذلك خمسين جنيهًا! لا يا كيتي، لقد تعلمت على الأقل أن أكون حريصًا، ولسوف تشعرين بنتائج هذا الحرص. فلن يدخل بيتي ضابط واحد بعد الآن، بل لن أسمح له بالمرور عبر القرية. أما الحفلات الراقصة فستمنع منعًا باتًا، إلا إذا لزمّت صحبة إحدى شقيقاتكِ. ولن يسمح لك بالخروج من البيت حتى تبرهني أنكِ قضيتِ في كل يوم عشر دقائق على نحو متزن.

وشرعت كيتي في البكاء بعد أن اعتقدت بجدية كل هذه التهديدات؛ فقال لها:

- لا عليكِ؛ لا تحزني. لو ظللت طوال السنين العشر القادمة فتاة لطيفة، فلسوف أصبحكِ عند انقضائها لشهود عرض عسكري.



الفصل التاسع والأربعون

بينما كانت جين وإليزابيث تمشيان معاً في الممر المحفوف بالشجيرات خلف المنزل، وذلك عقب انقضاء يومين على عودة مستر بينت، شاهدتا مدبرة المنزل آتية ناحيتهما. وإذ اعتقدتا أنها قدمت لاستدعائهما لحجرة والدتهما، فقد تقدمتا لملاقاتها. ولكن بدلاً من أن تستدعيهما كما توقعتا، إذ بها تقول لمس بينت عندما اقتربت منها الأختان:

- أستمحك عذراً يا سيدتي لإزعاجك، ولكني كنت أمل أن يكون لديك أنباء طيبة من لندن؛ ولهذا السبب تجاسرت وجئت أسألك.

- ماذا تقصدين يا هيل؟ إننا لم نسمع أي أخبار من لندن.

فصاحت مسز هيل وقد استولت عليها دهشة كبيرة:

- ألا تعرفين يا سيدتي العزيزة أن سيدي قد تسلم من مستر جاردينر رسالة عاجلة؟ إن الرسول موجود هنا منذ نصف ساعة، ولقد سلم سيدي خطاباً.

وجرت الفتاتان متلهفتين على دخول البيت لدرجة لم تجدا معها وقتًا للحديث. وقطعتا الردهة عدوًا في طريقهما إلى حجرة الإفطار، ومن هناك اتجهتا إلى المكتبة. ولم يكن والدهما موجودًا في هذه أو تلك، وكانتا على وشك البحث عنه في الطابق الثاني عند الدتھما حين التقتا بكبير الخدم الذي قال:

- إذا كنتِ يا سيدتي تبحثين عن سيدي، فهو الآن في طريقه نحو الأيكة الصغيرة.

وإزاء هذه المعلومات عبرتا الردهة ثانية من فورهما، وقطعتا المرج عدوًا في إثر والدهما، الذي كان يمشي قاصدًا غابة صغيرة على جانب مرابط الخيل.

ولم تلبث جين أن تخلفت عن إليزابيث؛ لأنها لم تكن مثلها خفيفة الحركة. كما لم تكن معتادة مثلها على العدو السريع. أما إليزابيث فقد لحقت به وهي لاهثة الأنفاس وھتفت به وهي متلهفة:

- أبي، ما الأخبار؟ ما الأخبار؟ هل بلغك شيء من خالي؟

- نعم، لقد تسلمت منه خطابًا عاجلاً أتى به رسول خاص.

- وماذا يحمل الخطاب من أخبار؟ أهى أخبار طيبة أم سيئة؟

فقال وهو يخرج الخطاب من جيبه:

- أي خير يمكن أن تتوقع؟ ولكن ربما تريدين قراءته.

وتناولته إليزابيث بلهفة من يده؛ وكانت جين قد لحقت بهما، وقال والدهما:

- اقرئيه بصوت عالٍ، فأنا نفسي أكاد لا أدرك ما فيه.

جريستشيرتش ستريت في يوم الاثنين الثاني من أغسطس.

أخي العزيز

في إمكاني أخيرًا أن أرسل لك بعض الأخبار عن ليديا؛ وهي أخبار أتعشم أن تشفي على وجه العموم غليلك، بمجرد أن تركتني يوم السبت، أسعدني الحظ بشكل مكنني من اكتشاف مكانهما في لندن. وإني أحتفظ بتفصيلات هذا الأمر إلى أن نلتقي؛ ويكفيك علمًا بأني قد استدلت عليهما. ولقد رأيتهما معًا...

فصاحت جين قائلة:

- إذن فالأمر كما ظننت دائمًا؛ لقد تزوجا!

واستمرت إليزابيث في تلاوتها:

ولقد رأيتهما معًا؛ ولكنهما لم يتزوجا، كما أنني لم أتبين هناك أي نية لإتمام الزواج. أما إذا كنت على استعداد للوفاء بالالتزامات التي غامرت بالتعهد بها نيابة عنك، فإني أتعشم ألا يمضي وقت طويل قبل أن يعقدا قرانهما. فكل المطلوب منك هو أن تضمن لابنتك، بطريق الوقف، نصيبها العادل من الخمسة آلاف جنيه المخصصة لبناتك بعد وفاتكم ووفاء شقيقتي، وأن تلتزم بالإضافة إلى ذلك بسداد مبلغ مائة جنيه سنويًا لها طوال حياتك. تلك هي الشروط التي لم أتردد -بالنظر إلى كافة

الظروف- في الموافقة عليها نيابة عنك بقدر ما تصورت أنني مخول لذلك. ولسوف أرسل هذا مع رسول خاص حتى لا يضيع وقت طويل قبل أن يصلني جوابك. ولسوف تدرك بسهولة، على أساس هذه التفصيلات أن ظروف مستر ويكهام ليست ميؤوساً منها كما يُشاع. فلقد خدع الناس فيما يختص بهذا الأمر؛ وإنه ليسعدني أن أقرر أنه سيتبقى قدر بسيط من المال -حتى بعد سداد كافة ديونه- يُعطى لليديا بصفة مهر، بالإضافة إلى نصيبها الخاص من ثروتها. فإذا خولتني -كما أعتقد أنك فاعل حتماً- سلطة كاملة أتصرف بمقتضاها نيابة عنك في هذا الموضوع كله، فلسوف أصدر على الفور توجيهاتي إلى مؤسسة هاجرستون طالباً إعداد إجراءات الوقف المناسبة. ولن يكون هناك أي داع يستلزم حضورك إلى لندن ثانية؛ فابق من ثم هادئ البال في «لونجبورن»، واعتمد على ماثرتي وعنايتي. ابعث بردك بأسرع ما تستطيع، ولا يفوتك أن تكتب بوضوح. ولقد رأينا من الأفضل أن تهياً لليديا للزفاف من هذا البيت، وهو أمر أتعشم أن توافق عليه. ولسوف تأتي اليوم لزيارتنا. سأكتب ثانية بمجرد أن يتم الاتفاق على شيء آخر.

المخلص

إدوارد جاردينر

وهتفت إليزابيث قائلة بعد أن فرغت من تلاوة الخطاب:

- أهذا ممكن؟ أيمكن أن يتزوجها؟

وقالت شقيقتها:

- إَدَنْ فويكهام ليس على هذه الدرجة من عدم الاستحقاق كما ظنناه. إني أهنتك يا أبي العزيز.

وقالت إليزابيث:

- وهل رددت على الخطاب؟

- لا، ولكن لا بد من ذلك حالاً.

وعند ذاك أخذت تلح عليه في الرجاء بألا يضيع وقتاً آخر قبل أن يكتب الرد. وصاحت قائلة:

- يا أبي العزيز، عُدْ واكتب ردك في الحال. فكّر في مدى أهمية كل لحظة في مثل هذه الحالة.

وقالت جين:

- دعني أكتب نيابة عنك إذا كنت كارهاً لهذه المهمة الثقيلة.

فأجاب بقوله:

- إني شديد الكراهية لها، ولكن لا بد من أدائها.

وما إن قال ذلك، حتى استدار راجعاً معهما وسار في اتجاه البيت.

وقالت إليزابيث:

- وهل لي أن أسأل؟ ولكن أظن أنه لا بد من موافقتك على هذه الشروط.

- موافقتي عليها! إني فقط مستح من طلبه البسيط هذا.

- أو ينبغي أن يتزوجا؟ ومع ذلك فيا له من رجل بشع!

- نعم، نعم، لا بد أن يتزوجا، فليس في استطاعتنا أن نفعل شيئاً آخر. ولكنَّ هناك أمرين أتوق إلى فهمهما: أولهما ما مقدار المبلغ الذي دفعه خالك ليصل إلى هذه النتيجة؟ وثانيهما كيف سيمكنني سداد هذا المبلغ إليه؟

فصاحت جين قائلة:

- مبلغ! خالي! ماذا تقصد يا سيدي؟

- أقصد أن أي رجل في كامل قواه العقلية لا يقبل الزواج من ليديا على أساس مثل هذا الإغراء الطفيف لا يتعدى مائة جنيه سنوياً خلال حياتي، وخمسة آلاف بعد وفاتي.

فقالت إليزابيث:

- هذا صحيح تماماً، برغم أن الفكرة لم تطرأ لي من قبل. غريب أن تسدد ديونه، ثم يبقى بعد ذلك مال! لا بد أن يكون هذا من فعل خالي! يا له من رجل طيب سخي! أخشى أن يكون قد أرهق نفسه كثيراً؛ فمبلغ طفيف من المال لا يمكن أن يحدث كل هذا الأثر.

فقال والدها:

- كلا، فويكهام ليس من البله بحيث يقبلها بمبلغ يقل درهماً واحداً عن عشرة آلاف جنيه. إني آسف إذ أُسيء به الظن إلى هذا الحد في بداية علاقة قرابتنا.

- عشرة آلاف جنيه! كيف يمكن سداد نصف هذا المبلغ؟

ولم يحر مستر بينت جواباً؛ وسارت الأختان صامتتين وقد استغرقتا في تفكير عميق حتى وصلوا جميعاً إلى المنزل. وعند ذلك اتجه والدهما إلى المكتبة ليحرر الخطاب، أما الفتاتان فقد دخلتا حجرة الإفطار. وهتفت إليزابيث قائلة بمجرد انفرادها بشقيقتها:

- إذن فسيتزوجاً حقاً! يا لغرابة هذا الأمر! وعلينا أن نكون لهذا شاكرين. يجب علينا أن نتהלل طرباً لزواجهما، مهما كانت فرصتهما في السعادة ضئيلة، ومهما كانت شخصيته حقيرة. أواه يا ليديا!

فأجابت جين قائلة:

- إنني أعزي نفسي بالظن بأنه لم يكن ليتزوج ليديا إلا إذا كان يحمل لها إعرزاً حقيقياً. وبرغم أن خالنا الطيب قد قام بشيء ما في سبيل إبراء ذمته من ديونه، فلست أظن أنه قد عرض عليه عشرة آلاف جنيه أو أي شيء من هذا القبيل. إن لديه أطفاله، وربما يُرزق بآخرين، فكيف يمكن أن يستغني ولو عن نصف هذا المبلغ؟

فقالت إليزابيث:

- لو استطعنا يوماً أن نعرف مقدار الديون التي كانت مستحقة على ويكهام، ومقدار المبلغ الذي اختص شقيقتنا به بصفة مهر، لأدركنا بالدقة ما الذي فعله مستر جاردنر من أجلهما؛ لأن ويكهام لا يملك شروى نقير. إن كرم خالي وزوجته لا يمكن أن يُجازى بمثله. فاصطحباهما لها إلى بيتهما، وبسط حمايتهما الشخصية عليها، لهي تضحية من أجلها لا تكفي للاعتراف بقدرها سنين من الامتنان. فهي الآن تعيش معهما بالفعل. ولئن لم يدفعها كرم الخلق هذا إلى الشعور بتعاسة موقفها، فلن تستحق السعادة

في يوم من الأيام. يا له من لقاء عندما ترى زوجة خالي وجهًا لوجه!

فقالت جين:

- لا بد أن نسعى لنسيان كل ما حدث من جانبه أو من جانبها. إنني أتعشم بل أثق في أنهما سيكونان سعيدين. ففي اعتقادي أن موافقته على الزواج منها هو دليل على أنه قد سلك طريقة صحيحة في التفكير. ولسوف تؤدي محبتهم المتبادلة إلى تدعيم الصلة بينهما؛ وإنني أؤمن النفس بأنهما سيتزوجان في هدوء، وسيعيشان بطريقة متزنة على نحو يجعل بمرور الوقت طيشهما السابق نسيًا منسيًا.

فأجابت إليزابيث بقولها:

- لقد سلكا سلوكًا لا يمكن لك أو لي أو لأي امرئ أن ينساه. إن الحديث في هذا لا طائل تحته.

وهنا خطر للفتاتين أن أمهما لا بد أن تكون على الأرجح جاهلة تمامًا بما حدث. ولهذا فقد ذهبتا إلى المكتبة وسألتا والدهما عما إذا كان يريد هما أن تطلعاهما على الخبر، وكان منهنمًا في الكتابة، فأجابهما ببرود دون أن يرفع رأسه:

- كما يحلو لكما.

- أسمح لنا بأخذ خطاب خالي لنقرأه لها؟

- خذا ما تشاءان وابتعدا عني.

وأخذت إليزابيث الخطاب من فوق منضدته التي يكتب عليها، ثم صعدتا معًا إلى الطابق العلوي. وكانت ميري وكيثي بصحبة مسز بينت،

ومن ثم فكان يمكن للخبر أن يبلغ أسماعهن جميعاً في وقت واحد. وبعد أن هيات جين الجو إلى حدٍّ ما للاستماع إلى أخبار طيبة، قرأت الخطاب بصوت مرتفع. أما مسز بينت فلم تستطع أن تتمالك نفسها. وما إن قرأت جين ما عبر عنه مستر جاردينر من أمله في زواج ليديا بين ساعة وأخرى، حتى انبعثت فرحتها، وأدت كل جملة تالية إلى مضاعفة هذه الفرحة. وأصبحت بسبب الابتهاج في حالة من الإثارة تبلغ في عنفها درجة القلق الذي كانت تستشعره بفعل الانزعاج والكمد. لقد كانت معرفتها بأن ابتتها ستتزوج بمثابة أمر فيه الكفاية. فلم تقلقها أي مخاوف بشأن سعادتها كما لم تشعر بالهوان لتذكر شيء من سوء سلوكها. وصاحت تقول:

- يا عزيزتي ليديا! هذا رائع فعلاً! لسوف تتزوج! لسوف أراها ثانية! سوف تتزوج وهي في السادسة عشرة من عمرها! يا أخي الكريم الطيب! كنت أعرف النتيجة سلفاً؛ كنت أعرف أنه سيرتب كل شيء. لشغفي برؤيتها، وبرؤية عزيزي ويكهام أيضاً! ولكن الملابس، ملابس الزفاف! سوف أكتب لزوجة أخي عنها في الحال. ليزي أسرع يا عزيزتي إلى والدك واسأليه عن المبلغ الذي سوف يعطيه لها. ابقي حيث أنت؛ فسأذهب بنفسني. أقرعي الجرس يا كيتي واطلبي هيل. سوف أرتدي ملابسني في لمح البصر. يا عزيزتي ليديا! يا لسعادتنا عندما نلتقي ثانية!

وحاولت ابتتها الكبرى أن تهدئ قليلاً من عنف هذه الفرحة الغامرة عن طريق توجيه أفكارها ناحية الالتزامات التي فرضها تصرف مستر جاردينر عليهم جميعاً. وأضافت تقول:

- فلا بد أن نرجع هذه النهاية السعيدة في كثير من نواحيها إلى كرمه وسخائه. فنحن مقتنعون أنه تعهد بمد مستر ويكهام بعون مالي.

- هذا صواب تمامًا. فمن ذا الذي يفعل ذلك إن لم يكن خالها؟ وأنت تعرفين أنه لو لم يكن لديه أسرة، لأصبحت أنا وبناتي مالكات لثروته كلها؛ وإنها المرة الأولى التي نأخذ فيها منه شيئًا باستثناء بعض الهدايا. إني في غاية السعادة! لن يمر وقت طويل حتى تتزوج إحدى بناتي. مسز ويكهام! يا لجمال وقع هذا الاسم على الأذان! هذا بالإضافة إلى أنها لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها إلا في شهر يونيو الماضي. عزيزتي جين، إني في حالة من الطرب لا أستطيع معها بالتأكيد أن أكتب حرفًا، ولذلك فسوف أُملي عليك ما أريد ولتكتبي نيابة عني. سوف نتفق على مسألة النقود مع والدك فيما بعد، ولكن لا بد أن نأمر بإعداد كافة اللوازم في الحال.

ثم شرعت في بحث طلباتها تفصيلًا، فتعرضت لأقمشة البفّة والتيل والموسلين، وكان يمكن أن تملي عليها في الحال بعض المطالب الوافرة، لولا أن جين أقنعتها بصعوبة، أن تنتظر انتهاء والدها من عمله، فيمكن إذ ذاك استشارته. وقالت لها إن تأخير يوم واحد لن يكون بذي أهمية كبيرة. وكانت والدتها من السعادة بحيث لم تستبد برأيها كعهدها، فقد خطرت لها بعض المشروعات الأخرى. وقالت:

- سأذهب إلى «ميريتون» بمجرد أن أرتدي ملابسني، وسأنقل هذه الأخبار الطيبة لشقيقتي فيليبس. ويمكنني أن أمر في طريق عودتي على ليدي لوكاس ومسز لونج. كيتي، أسرعني واطلبي العربة. إن الهواء

الطلق سوف ينعشني بالتأكيد. هل ترغبين في شيء من «ميريتون» يا بنات؟ ها هي ذي هيل. هل سمعت الأنباء الطيبة يا عزيزتي هيل؟ إن مس ليديا ستتزوج، ولسوف تحصون جميعاً في يوم زفافها على قدر وافر من الخمر تنتشي به نفوسكم.

وبدأت مسز هيل تعبر في الحال عن سرورها. وتقبلت إليزابيث -شأنها شأن الأخريات- تهانيتها، ثم ضاق صدرها لهذه الحماقات، فاعتصمت بحجرتها حتى تستطيع أن تفكر بحرية. فلا بد أن وضع ليديا المسكينة كان على أحسن الفروض شيئاً، غير أنها شكرت الظروف لأنه لم يكن أسوأ مما كان. لقد كانت تشعر بهذا. وبرغم أنها في تطلعها إلى المستقبل لم يكن من حقها أن تتوقع لشقيقتها سعادة معقولة أو رفاهية معيشية، إلا أنها شعرت في استرجاعها لما كان من خوفهم، ولمّا تمضِ ساعتان من الزمان، بمزايا ما تحقق لهم من كسب.



الفصل الخمسون

كثيرًا ما تمنى مستر بينت قبل هذه الفترة من حياته أن يدخر كل عام مبلغًا من المال -بدلًا من إنفاق دخله كله- ليحسن به كفالة حاجيات بناته، وحاجيات زوجته لو قدر لها أن تعيش بعده. وشعر الآن بالحاح هذه الأمنية أضعاف شعوره بها من قبل. فلو كان قد قام بواجبه في هذا الصدد. لما أصبحت ليديا مدينة لخالها سواء بشرفها أو حسن سمعتها، وهو ما لا بد أن تبتاعه الآن بالمال. وعند ذلك كان يمكن أن يعهد لها وحدها باستمالة واحد من أئفه شباب بريطانيا لأن يكون لها زوجًا.

وقد تولاه هم شديد؛ لأن مثل هذا الموضوع الذي لم يكن يحمل لأيٍّ من الأطراف المعنية إلا أقل المزايا، قد أصبح غرمًا يتحمله شقيق زوجته وحده. ولذلك فقد عقد النية على معرفة مدى هذا العون -لو كان ذلك ممكنًا- وعلى الوفاء بالتزاماته بأسرع ما يستطيع.

فعندما تزوج مستر بينت، ساد الظن بأن الاقتصاد في النفقات هو أمر عديم الجدوى تمامًا؛ فقد كان الزوجان سينجبان بالطبع ولدًا يعمل على

إنهاء الوقف على الضيعة بمجرد أن يبلغ سن الرشد، وعلى هذا النحو يمكن إعالة الأرملة والأطفال الصغار. جاءت إلى الدنيا خمس بنات متعاقبات، ومع هذا فلم يصل الولد بعد. وظلت مسز بينت واثقة تمامًا من مجيئه عقب ولادة ليديا بسنوات. على أن هذا الحدث أصبح آخر الأمر ميؤوسًا منه، ولكن الوقت كان قد فات مما جعل التوفير مستحيلًا. ولم يكن الاقتصاد في النفقات من طبيعة مسز بينت، ولم يمنع الأسرة من تجاوز دخلها المحدد إلا كراهية زوجها للاستدانة.

ولقد نص عقد الزواج على منح مسز بينت وأطفالها خمسة آلاف جنيه؛ ولكن كيفية توزيع هذا المبلغ عليهم كانت متروكة لمشينة الأبوين. وكان لا بد الآن من حسم هذا الأمر بالنسبة لليديا على أقل تقدير، ولم يخال مستر بينت أي تردد في الموافقة على الاقتراح المعروف أمامه. ومن ثم فقد خط على الورق مصادقته التامة على كل ما تم من إجراءات، في كلمات توشي بالعرفان بحميل شقيق زوجته وكرمه -برغم الاقتضاب الشديد في صياغتها- واستعداده للوفاء بكافة الارتباطات التي جرى الالتزام بها نيابة عنه. ولم يكن قد خطر له من قبل أن يتم زواج ويكهام بابنته -لو كان إقناعه بهذا الأمر ممكنًا- بما لا يتجاوز بعض المضايقات القليلة كما حدث في هذا الاتفاق الحالي. فالحجنيهات المائة التي كان لا بد له من دفعها لهما لم تكن لتفقد في كل عام إلا ما يُقدَّرُ بحوالي عشرة جنيهات. فلقد كان ما ينفق على ليديا لا يتعدى هذا المبلغ من المال، وذلك بالنظر إلى تكاليف إعالتها ومصرفها الشخصي والهدايا المستمرة التي كانت تأخذ شكل هبات مالية والتي كانت تصلها من والدتها.

كذلك فقد كان إتمام هذه العملية بمثل هذا الإرهاق الطفيف من جانبه، يعتبر مفاجأة أخرى سارة للغاية؛ فلقد كانت رغبته الأساسية في الوقت الحاضر هي أن يلاقي أقل ما يمكن من المتاعب في هذه المسألة. فما إن انقضت ثورة غضبه الأولى التي شددت من همته في البحث عنها، حتى عاد إلى ماضي تراخيه. وأرسل خطابه بسرعة؛ فبرغم أنه كان بطيئاً في التصدي للعمل إلا أنه كان سريعاً في إنجازهِ. وقد طلب في خطابه معرفة تفاصيل أخرى عن المبلغ الذي كان مدينًا به لشقيق زوجته ولكنه عبر عن غضبه الشديد من ليديا، الأمر الذي دفعه لعدم إرفاق أي رسالة لها.

وانتشرت الأخبار السعيدة حالاً في أرجاء البيت، كما ذاعت في الناحية بما يتناسب مع هذا الانتشار من سرعة. وقد قابل الناس هذه الأخبار بفلسفة لائقة. والحق أن الحديث في هذا الموضوع كان يمكن أن يكون أكثر إثارة لو كانت مس ليديا بينت قد وصلت إلى المدينة، أو لو كانت -وهذا هو أفضل الأمور- قد انعزلت عن الدنيا لتقطن في بيت ريفي بعيد. غير أن الناس وجدوا مادة غزيرة للحديث فيما يختص بمسألة عقد زواجها. أما الأمنيات الطيبة بسعادتها التي كانت كل العجائز الحقودات في «ميريتون» قد عبرن عنها فيما مضى، فلم تفقد إلا القليل من حرارتها إزاء هذا التغير في الظروف. فبصحبة مثل هذا الزوج كانت تعاستها أمراً مؤكداً.

ومضى أسبوعان على مغادرة مسز بينت لحجرتها، ولكنها في هذا اليوم السعيد احتلت من جديد مكانها على رأس مائدتها وكانت تحظى

بروح معنوية عالية. ولم ينل أي إحساس بالخجل من شعورها بالظفر. فقد أوشك الآن أن يتم زواج إحدى بناتها، وهو ما كان يُعدُّ أول أمانيتها منذ اليوم الذي بلغت فيه جين السادسة عشرة من عمرها، واقرنت أفكارها وأحاديثها كليةً بكل ما يصاحب حفلات الزفاف الراقية من أقمشة فاخرة وعربات جديدة وخدم وحشم. وقد انهمكت في البحث في أرجاء الناحية عن مكان مناسب لإقامة ابنتها، ورفضت كثيرًا من المنازل على اعتبار أنها تفتقر إلى الاتساع والفخامة، وذلك دون معرفة منها أو تدبر لما سيكون عليه دخلهما. وقالت:

- ربما يصلح «هاي بارك» لو أخلته أسرة جولدينج، أو المنزل الكبير الكائن في «ستوك» لو كانت حجرة الاستقبال أكثر اتساعًا. أما «آشويرث» فبعيد جدًا. لست أحتمل أن تسكن ابنتي بعيدًا عني بعشرة أميال. وفيما يتعلق «ببورفيس لودج» فإن طوابقه العليا فظيعة.

وسمح لها زوجها أن تتحدث دون مقاطعة طوال فترة بقاء الخدم حول المائدة. ولكن ما إن انسحبوا حتى قال لها:

- اسمعي يا مسز بينت. قبل أن تستقري على أحد هذه المنازل، أو عليها جميعًا لسكني ابنتك وزوجها، دعينا نتوصل أولاً إلى فهم صحيح لجوانب الموضوع. فلن يسمح شخص واحد لهما بشغل أي منزل في هذه الناحية. كما أنني لن أشجع طيش أيٍّ منهما عن طريق استضافتهما في «لونجبورن».

وتلت ذلك التصريح مناقشة طويلة، ولكن مستر بينت لم يتزحزح عن موقفه. وما لبثت هذه المناقشة أن أدت إلى مناقشة أخرى، واكتشفت

مسز بينت، بمزيج من العجب والهلع أن زوجها لن يدفع جنيهاً واحداً لشراء ملابس لابنته. فقد أعلن أنها لم تتلقى منه في هذه المناسبة أي إشارة تدل على حبه لها. ولم تستطع مسز بينت أن تفهم هذا الوضع. فإن يصل غضبه إلى مثل هذا الحد من الحمق غير المفهوم بحيث يحرم ابنته من حق يكاد يبدو زواجها من دونه غير شرعي، لهو أمر يفوق كل ما كانت تظنه في حدود الإمكان. لقد كان إحساسها بالعار الذي يمكن أن يلحق بزفاف ابنتها بسبب افتقارها إلى الملابس الجديدة، يفوق أي شعور بالخجل من فرارها مع ويكهام وبقائها معه طوال أسبوعين دون إتمام لهذا الزفاف.

وكانت إليزابيث تشعر بأسف عميق؛ لأنها سيقّت -مدفوعة بما أحست به من كرب شديد- إلى إطلاع مستر دارسي على مخاوفها بشأن شقيقتها. فطالما أن زواجها عن قريب سوف يضع نهاية لائقة لحادث الفرار، فقد كان يحدوهم جميعاً الأمل في تكتّم بدايته المستهجنة عن كل أولئك الذين لم يكن لهم بالموضوع صلة وثيقة.

ولم تكن تخشى من ذيوع النبأ عن طريقه. فقليلون غيره من كان يمكن أن تستأمنهم على سرية هذا الخبر. ولكنه في ذات الوقت كان الوحيد من دون الناس جميعاً الذي يمكن أن تشعر أمامه بالمدلة بسبب علمه بسقطة شقيقتها. على أن ذلك الشعور لم يكن ناشئاً عن أي خوف من إلحاق الأذى بشخصها. فقد كان بينهما على أي الحالات خليج يستحيل عبوره. فحتى لو كان زواج ليديا قد تم على أشرف ما يكون، ما كان من المنتظر أن يرتبط مستر دارسي بأسرة يضاف إلى اعتراضاته

السابقة عليها ما أنشأته من صلة النسب والقرابة الوثيقة مع الرجل الذي كان محققاً في ازدرائه إياه.

ولم تكن لتتعجب من إحجامه عن إقامة مثل هذه العلاقة. فرغبته في اكتساب تقديرها، تلك الرغبة التي أيقنت من أنه كان يشعر بها في «داربيشير»، لم يكن ممكناً أن تستمر بعد ضربة كهذه. لقد شعرت بالهوان والأسى، كما خالجه إحساس بالندم وإن لم تعرف بالدقة على أي شيء كانت نادمة. وأصبحت غيرة من إعزازه لها عندما فقدت الأمل في أن تجني من هذا الإعزاز شيئاً. لقد كانت تريد أن تعرف أخباره في الوقت الذي تضاءلت فيه فرصة الحصول على أي أخبار. واقتنعت بأنها كان يمكن أن تسعد في الحياة معه، وذلك في وقت لم يعد من المحتمل فيه أن يلتقيا من جديد.

فيا له من انتصار يزهو به لو عرف أن عرض الزواج الذي رفضته بترفع منذ ما لا يزيد على أربعة أشهر، يمكن أن يلقي اليوم قبولاً مقترناً بالسعادة والامتنان! ولم يكن يراودها أي شك في أنه أشد الرجال شهامة؛ ولكنه طالما كان بشراً، فلا بد أن يستشعر لذة الانتصار.

وبدأت تدرك في تلك اللحظة أنه كان بالدقة أشد الرجال صلاحية لها، سواء من ناحية طباعه أو ذكائه. وبرغم أن طريقة فهمه للأمور وطبيعة مزاجه كانتا مختلفتين عما تتميز هي به إلا أنهما كانتا بمثابة تحقيق لأمانيتها. فزواج مثل هذا لا بد أن يكون في مصلحة الطرفين. فمن سلاسة طبعها وحيويتها كان يمكن لأفكاره أن ترق ولسلوكه أن يتحسن، كما كان لا بد لها أن تجني نفعاً ذا أهمية كبيرة من رجاحة رأيه وعلمه ودرايته بشؤون هذه الدنيا.

غير أنه لم يكن من المقدر لمثل هذا الزواج السعيد أن يعلم جموع المعجبين حقيقة السعادة الزوجية. وها قد حان الوقت لكي يتم في نطاق أسرته زواج ذو طبيعة مختلفة يقف حائلاً دون إتمام الزواج الآخر.

ولم تكن لتتصور كيف يمكن لويكهام وليديا أن يعيشا على دخل معقول. أما ضالة فرص السعادة الدائمة التي يمكن أن تتاح لشخصين لم يجتمعا معاً إلا لأن عواطفهما كانت أقوى من شعورهما بالفضيلة، فكان أمراً سهلاً عليها التكهن به.

ولم يلبث مستر جاردنر أن كتب لزوج شقيقته خطاباً ثانياً. وقد أجاب باقتضاب على تشكرات مستر بينت بما أكده له من اهتمامه بحماية رفاهة أي فرد من أفراد أسرته، وخلص من ذلك إلى إلحاحه في الرجاء بعدم الإشارة إلى الموضوع مرة أخرى. أما جوهر خطابه فقد ارتكز على إبلاغهم بأن مستر ويكهام قد عقد العزم على ترك «الميليشيا» وأضاف يقول:

لقد تمنيت من كل قلبي أن يفعل ذلك بمجرد الاتفاق على موعد عقد القران. وأظن أنكم توافقون معي على أن انتقاله من تلك الفرقة هو أمر مناسب تماماً له ولليديا على حد سواء. ويتوي مستر ويكهام الالتحاق بالجيش النظامي، ولا يزال هناك بين أصدقائه القدامى من يستطيعون مساعدته في داخل الجيش، وهم على استعداد لبذل كل عون. وإن لديه وعداً بشغل وظيفة ضابط صغير في سلاح المشاة في فرقة الجنرال... التي تعسكر الآن في الشمال. ومن حسن الحظ أن يكون مكانها بعيداً عن هذه

المنطقة. ويبدو عليه أنه سيسلك مستقبلاً سلوكاً حميداً، وأملني أن يكونا أكثر رزانة بين أناس آخرين، حيث يمكن لكل منهما أن يصون كرامته. ولقد كتبت خطاباً لكولونيل فورستر أطلعه فيه على ترتيباتنا الحالية، وأطلب منه العمل على طمأنة دائني مستر ويكهام الكثيرين في داخل «برايتون» وحولها على سرعة سداد مبالغهم، وهو ما التزمت به أمامه. فهل تسمح بأن تقدم تأكيدات مماثلة لدائنيه في «ميريتون» الذين سأرفق بياناً بأسمائهم طبقاً لما سيحدده منهم؟ لقد باح لنا بجملة ديونه كلها، وإني آمل على أقل تقدير في ألا يكون قد خدعنا. وقد أحبط هاجرستون بتعليماتنا في هذا الصدد وسيتم كل شيء في بحر أسبوع. أما هما فسيلحقان بمقر الفرقة التي سيعمل بها، إلا لو دعيا قبل ذلك إلى «لونجبرون». ولقد فهمت من مسز جاردنر أن ابتكم تواقاً جدّاً لرؤيتكم جميعاً قبل ارتحالها من الجنوب. إنها على خير ما يرام، وقد رجتني أن أبلغكم ووالدتها أنها طوع الإشارة دائماً.

المخلص

إدوارد جاردنر

وقدّر مستر بينت وبناته كل المزايا المتعلقة بانتقال ويكهام من فرقة... بنفس الوضوح الذي قدر به مستر جاردنر هذا الأمر. ولكن مسز بينت لم تكن مسرورة مثلهم. لقد كان سكنى ليديا في الشمال بمثابة خيبة أمل شديدة لها، في الوقت الذي تتوقع فيه بوجودها معها

أشد البهجة والفخار؛ لأنها لم تكن بأي حال من الأحوال قد تنازلت عن خطتها التي تقضي بسكناها في «هارتفوردشير». وفضلاً عن ذلك فقد كان مما يؤسف له أن تُنتزع ليديا من محيط فرقة كانت قد تعرفت على كل أفرادها، وكان لها فيها أعزاء كثيرون، وقالت:

- إنها شديدة التعلق بمسز فورستر، وسيكون إبعادها صدمة بالنسبة لها! كذلك فهناك كثيرون من الشبان الذين تحبهم حباً جماً. وقد لا يكون الضباط بمثل هذا العطف في فرقة الجنرال...

أما طلب ليديا بالسماح لها برؤية أسرتها مرة أخرى قبل سفرها إلى الشمال، فقد قُوبل في أول الأمر برفض بات من جانب مستر بينت. ولكن جين وإليزابيث اللتين كانتا تتمنيان معاً أن تحظى شقيقتيهما بلفتة من أبويها بعد زواجهما، حفاظاً على مشاعرهما وكرامتهما، فقد استحثتا والدهما بإلحاح شديد ولكن بمنتهى التعقل واللفظ، لكي يستضيفها هي وزوجها في «لونجبورن» بمجرد عقد قرانهما. وقد أدى هذا إلى إقناعه بأن يرى رأيهما ويتصرف حسب مشيئتهما. وارتاحت أمهما لعلمها باستطاعتها عرض ابنتها المتزوجة أمام أعين أهل الناحية قبل ذهابها إلى المنفى في الشمال. ولهذا فعندما رد مستر بينت على شقيق زوجته، أبلغه سماحه لها بالمجيء للزيارة. وتقرر أن يسافرا إلى «لونجبورن» بمجرد الانتهاء من حفل الزفاف. على أن إليزابيث قد دُهِشت لما أبداه ويكهام من موافقة على خطة مثل هذه؛ ولو قُدِّرَ لها أن تستشير عواطفها وحدها، لكان لقاءها به آخر ما تتمناه.

الفصل الحادي والخمسون

وحل يوم عقد قران شقيقتهما؛ ولربما شعرت جين وإليزابيث بالسعادة من أجلها على نحو يفوق ما شعرت به هي نفسها. وأرسلت العربة للقائهما عند... إذ كان من المتفق عليه أن يعودا فيها على موعد الغداء. وكان وصولهما موضع تخوف من جانب الأختين الكبيرين، وعلى الأخص من جانب جين التي تصورت أن ليديا كانت تشعر بنفس ما كان يمكن أن تشعر به هي نفسها لو كانت هي المذنبه، ومن ثم فقد أحزنها التفكير فيما لا بد أن تحتمله شقيقتها.

ثم جاء. وكان أفراد الأسرة مجتمعين في حجرة الإفطار لاستقبالهما. وزينت البسمات وجه مسز بينت بمجرد أن وقفت العربة عند الباب. واكتست ملامح زوجها بستار كثيف من الرزانة والوقار، أما بناتها فبدأ عليهنّ الانزعاج والقلق والضيق.

وتعالى صوت ليديا في الردهة، وفُتح الباب على مصراعيه واندفعت داخلة إلى الحجرة وهي تعدو. وتقدمت منها أمها فاحتضنتها

ورحبت بها بفرحة غامرة، وسلمت على ويكهام الذي دخل على أثر زوجته، وابتسمت له ابتسامة ود، وتمنت لهما السعادة بلهجة مرحة أكدت فرحتهم جميعاً.

أما الطريقة التي استقبلهم بها مستر بينت الذي اتجها إليه بعد ذلك، فلم تتسم بنفس الدرجة من الود والترحاب. فقد اكتسى وجهه بالصرامة ولم تبدر منه كلمة واحدة. والحق أن صفاقة الزوجين كانت كافية لاستفرازه. وأحست إليزابيث بالاشمئزاز، وصدمت مس بينت في مشاعرها. فقد كانت ليديا هي ليديا، لا تزال نافرة صفيقة متهورة شديدة الصخب عديمة التهيب. واتجهت من أخت لأخرى تطلب تهانئهن جميعاً؛ وبعد أن اتخذوا آخر الأمر أماكنهم، أخذت تنظر في أرجاء الحجرة بلهفة، ولاحظت بعض التعديلات التي جرت في أثاثها، ثم قالت ضاحكة إن وقتاً طويلاً قد مضى منذ أن شهدت هذا المكان آخر مرة.

وكان ويكهام مثلها مغتبطاً، ولكن سلوكه كان لطيفاً دائماً، بحيث أنه لو اتصفت شخصيته وطريقة زواجه بما كان يلزم أن تتصفاه، لكانت ابتساماته وأسلوبه المحبب في الحديث عندما كان يخاطبهم كأقربائه، قد بعثت البهجة في قلوبهم جميعاً. ولم تكن إليزابيث قد ظنته من قبل قادراً على اصطناع مثل هذه الصفاقة، ولكنها لزمت مكانها وقد عقدت العزم فيما بينها وبين نفسها على ألا تضع في المستقبل أي حدود لوقاحة رجل وقح. واحمرت وجنتاها خجلاً كما احمرت وجنتا جين، ولكن وجنتا الشخصين اللذين تسبباً في إرباكهما لم تتأثر في قليل أو كثير.

ولم يفتقر الحاضرون إلى موضوعات للحديث. فلم تكن العروس وأمها تتحدثان بالسرعة التي تكفي للتعبير عما تودان قوله. أما ويكهام الذي جاء مجلسه بقرب إليزابيث فقد بدأ يستفسر عن معارفه في تلك الناحية، بسلسلة شعرت إليزابيث بعجزها عن مجاراتها في إجاباتها. وبدا كلُّ من الزوجين وكأنه يكتنز أسعد الذكريات في هذه الدنيا، فلم يكن في ذكريات الماضي أي ألم بالنسبة لأي منهما. وتعمدت ليديا أن توجه الحديث ناحية موضوعات لم تكن شقيقاتها ليشرن إليها مهما كان الثمن. وصاحت تقول:

- تصوروا أنه مضى على غيابي ثلاثة أشهر! في رأيي أنها فترة لا تزيد على أسبوعين. ومع هذا فقد جرت خلال هذا الوقت حوادث كثيرة. عجباً! من المؤكد أنني عندما غادرتكم لم تدُر في ذهني أي فكرة عن الزواج إلى أن عدت ثانية، برغم أنني فكرت فيما قد ينشأ من موقف لطيف لو كنت قد تزوجت.

ورفع والدها ناظريه، واغتمت جين، ونظرت إليزابيث إلى ليديا نظرة ذات معنى، غير أنها وهي التي لم تكن تسمع أو ترى شيئاً لا تود أن تشعر به، استطردت في حديثها قائلة بمرح:

- أمه، هل يعرف الناس هنا أنني تزوجت اليوم؟ لقد خشيت ألا يكونوا على علم بالأمر. ولما كان وليم جولدينج قد لحقنا في عربته الصغيرة، فقد قررت أن أعرفه بما حدث. ولهذا فقد أنزلت زجاج النافذة من ناحيته وخلعت قفازي، وأسندت يدي على حافة النافذة، وذلك

حتى يتسنى له أن يرى خاتم الزواج. وبعد هذا انحنيت له وابتسمت
وكأن ليس في الأمر شيئاً.

ولم تستطع إليزابيث أن تحتمل، فنهضت من مقعدها واندفعت
خارجة من الحجرة، ولم تعد إلا بعد أن سمعتهم يعبرون القاعة في
طريقهم إلى حجرة الطعام. وعند ذلك لحقت بهم في وقت مناسب
لترى ليديا وهي تمشي بخطوة استعراضية على يمين والدتها ولتسمعها
تقول لأختها الكبرى:

- جين، إنني الآن أحتل مكانك على المائدة، وعليك أن تجلسي
بعدي في الترتيب، فأنا الآن امرأة متزوجة.

ولم يكن من المتوقع أن تستشعر ليديا بمرور الوقت أي إحساس
بالحرج، وهو ما لم تشعر به بتاتاً من قبل. لقد تزايدت راحتها، وارتفعت
روحها المعنوية. وشعرت بالاشتياق لرؤية مسز فيليس وأسرة سير
وليم لوكاس وكل جيرانهم الآخرين، ولسماعهم ينادونها باسم «مسز
ويكهام». وإلى أن يحين هذا، فقد ذهبت بعد الغداء لتطلع مسز هيل
والخادمتين على خاتمتها وتفاخر أمامهن بزواجها.

وقالت لأمتها بعد أن عادوا جميعاً لحجرة الإفطار:

- ماذا تظنين بزوجي يا أماء؟ أليس رجلاً ساحراً؟ إنني واثقة أن
شقيقتي كلهن يحسدنني. ولست آمل إلا في أن يحظين بقسط من حظي
السعيد. لا بد أن يذهبن إلى «برايتون»، فهذا هو أصلح مكان للحصول
على زوج. وا حسرتاه يا أماء على عدم ذهابنا جميعاً!

- هذا صحيح. كان يجب علينا أن نذهب، لو كان رأيي قد ساد.
ولكني يا عزيزتي ليديا لا أحب أن تبتردي هذه المسافة كلها. أهذا
ضروري؟

- نعم، وعلى كلِّ فليس في هذا شيء. إن هذا أحب الأمور إلى
قلبي. ولا بد أن تأتي أنتِ والدي وأخواتي لزيارتنا. إننا سنقضي
فصل الشتاء كله في «نيو كاسل»، وأغلب ظني أنه ستكون هناك بعض
الحفلات الراقصة، وسأهتم بتدبير شركاء في الرقص لهن جميعاً.
فقلت أمها:

- هذا أقصى ما تميل إليه نفسي!
- وعندما تعودون، فيمكنكم أن تعهدوا إليَّ بواحدة أو اثنتين من
شقيقاتي، ولسوف أجد لهما زوجين قبل أن ينتهي الشتاء.
وقالت إليزابيث:

- أشكركِ على ما أوليتني إياه من نصيب في فضلكِ، ولكني لا
أحب طريقتكِ في الحصول على زوج.

ولم يكن من المنتظر أن يبقى زائراهم معهم أكثر من عشرة أيام.
فقد استلم مستر ويكهام تكليفه بالعمل قبل أن يغادر لندن، وكان عليه
أن يلتحق بفرقة بعد أسبوعين.

ولم يشعر أحد - باستثناء مسز بينت - بالأسف لقصر مدة إقامتهما.
وقد استغلت معظم الوقت في زيارة أهل الناحية بصحبة ابنتها، وفي
استقبال ضيوف كثيرين في المنزل. وقد لاقى وجود هؤلاء الضيوف

قبولاً حسناً من الجميع؛ لأنهم كانوا جميعاً يرغبون في تحاشي كل اجتماع يقتصر على أفراد الأسرة.

وكان حب ويكهام لليديا لا يتجاوز ما كانت إليزابيث قد توقعته. فلم يكن حبه لها مساوياً لحبها له. ولم تكن بحاجة كبيرة لما لاحظته آنذاك حتى تستوثق -بتفسيرها للأمور- من أن فرارهما قد حدث نتيجة لقوة حبها لا حبه. وكان يمكن أن تتعجب لسبب اختياره الفرار معها أصلاً دون أن يكون متيماً بها، لو لم تكن على يقين من أن فراره قد أصبح لازماً بسبب وطأة الظروف التي عاصرها. وطالما كان هذا هو الوضع كما تصورته، فهو لم يكن ذلك الشاب الذي يرفض أي فرصة تتيح له صحبة فتاة.

أما ليديا فكانت شديدة التعلق به. لقد كان رجلها العزيز في كل مناسبة. ولم تكن لتسمح بمقارنته بأي إنسان آخر. لقد قام بأروع الأعمال في هذه الدنيا، وكانت على ثقة من أنه سيصطاد في أول سبتمبر القادم عدداً من الطيور يفوق ما سوف يصطاده إنسان آخر في الريف كله.

وفي صباح أحد الأيام، ولم يكن قد مضى على قدومهما وقت طويل، قالت ليديا لإليزابيث بينما كانت تجلس بصحبة أختيها الكبيرين: - ليزي، أظن أنني لم أقصّ عليكِ ما حدث يوم زفافي. إنكِ لم تكوني حاضرة عندما حكيت لوالدتي والآخرين كل شيء عنه. أليسَ تواقة لسماع كيف تم؟

فأجابت إليزابيث قائلة:

- حقًا لا أريد، فلست أرى أن الموضوع يحتمل حديثًا طويلًا.

- إنك غريبة فعلاً! ولكن لا بد أن أخبرك كيف حدث كل شيء.

لقد تزوجنا كما تعرفين في كنيسة القديس كليمنت؛ لأن مسكن
ويكهام يقع في تلك الأبرشية. وتقرر أن نكون جميعًا هناك في الساعة
الحادية عشرة، وكان المفروض أن أذهب أنا وخالي وزوجة خالي
معًا، أما الآخرون فكانوا سيلقوننا في الكنيسة. وحلّ يوم الاثنين
فكنت في غاية الاضطراب! لقد كنت خائفة لئلا يحدث شيء يؤجل
الزواج، وعندئذ كان يمكن أن أفقد عقلي. وطوال الوقت الذي كنت
أرتدي فيه ملابسني كانت زوجة خالي تتحدث إليّ ناصحة وكأنها
تقرأ عظة مكتوبة. وعلى أي حال فلم أسمع أكثر من كلمة واحدة من
كل عشر، فقد كنت أفكر في عزيزي ويكهام كما لا بد أنك خمنت.

وكنت شديدة التلهف على معرفة ما إذا كان سيحضر حفل القران
بمعطفه الأزرق. وهكذا تناولنا إفطارنا في الساعة العاشرة كالعادة،
وخيل إليّ أننا لن ننتهي من تناول الطعام أبدًا، فلا بد بالمناسبة أن
تعرفا أن خالي وزوجته كانا بغيضين جدًا طوال الوقت الذي قضيته
في منزلهما. وصدقاني إنني لم أعبر عتبة الباب مرة واحدة، رغم أنني
عشت هناك أسبوعين! فلم أذهب إلى حفلة واحدة أو رحلة أو أي
شيء. والحق أن لندن كانت محدودة نوعًا فيما يختص بملاهيها،
ولكن «المسرح الصغير» كان مفتوحًا على أي حال. المهم، ما إن
وصلت العربية، حتى استدعي خالي لعمل هام مع ذلك الرجل الفظيع
المدعو مستر ستون. وإذا فُرض واجتماعًا معًا، فلن يكون لما هما فيه

نهاية. وانتابني فزع شديد فلم أعرف ماذا أفعل، فقد كان المفروض أن يسلمني خالي إلى عريسي. فإذا تخلفنا عن موعدنا، ضاعت علينا فرصة الزواج طول اليوم. ولكنه عاد لحسن الحظ بعد حوالي عشر دقائق، وركبنا العربة كلنا. على أنني تذكرت بعد ذلك أنه حتى لو كان قد حيل بينه وبين الذهاب إلى الكنيسة، لما كان الزواج قد تأجل؛ إذ إن مستر دارسي كان يمكن أن يحل محله.

وكررت إليزابيث قولها وقد استبد بها العجب:

- مستر دارسي!

- نعم، فقد كان من المفروض أن يأتي إلى هناك بصحبة ويكهام، ولكن ويحي، لقد نسيت تمامًا! ما كان يصح أن أقول حرفًا واحدًا في هذا الصدد. لقد وعدتهما بمنتهى الإخلاص! ماذا سيقول ويكهام؟ كان يجب أن يكون هذا سرًّا!

فقالت جين:

- إذا كان من المفروض أن يكون هذا الموضوع سرًّا؛ فلا تشيري إليه بكلمة أخرى وثقي بأنني لن أسعى لمعرفة المزيد.

وقالت إليزابيث برغم انتقادها بلهيب الفضول:

- بكل تأكيد، فلن نوجه إليك أي أسئلة.

فقالت ليديا:

- أشكركما، فلو سألتما نيتي لبحثُكما يقينًا بكل شيء، وعند ذاك سيغضب ويكهام أشد الغضب.

واضطرت إليزابيث إزاء هذا التشجيع على الاستفسار، إلى التخلص من إلحاح الرغبة في السؤال عن طريق الابتعاد.

غير أنه كان من المحال أن تعيش في جهل بمثل هذا الموضوع؛ أو على أقل تقدير، كان من المستحيل ألا تحاول الحصول على معلومات شافية. لقد شهد مستر دارسي زفاف شقيقتها. إن هذا الزفاف كان بالدقة مشهدًا واجتماعًا لأناس لم يكن له به أو بهم شأن كبير، كما أن ما أغراه على الذهاب لم يكن بالتأكيد ذا وزن. وتدافعت إلى ذهنها التكهّنات بمعنى هذا الأمر، في تلاحق وهياج، ولكنها لم تقنع بأيّ منها. أما تلك الأفكار التي أحست لها بتمام الرضى والتي صورت سلوكه في أسمى صورة وأنبهها، فقد بدت أشدها استحالة. ولم تستطع احتمال هذا القلق، فمدت يدها على عجل إلى ورقة كتبت عليها رسالة صغيرة إلى زوجة خالها سائلة إيضاحًا لما بدر من ليديا، فيما لو كان ذلك متمشيًا مع السرية المقصودة. وأضافت في رسالتها تقول:

وقد تدركين بسهولة مدى فضولي لمعرفة كيف يمكن لشخص غير مرتبط بأيّ منا، بل غريب نسبيًا على أسرتنا، أن يكون بينكم في وقت مثل هذا. أرجوكم أن تكتبي في الحال، ودعيني أفهم هذا الأمر، إلا لو كان لا بد له -ولأسباب قاهرة- أن يظل في نطاق السرية التي تظنها ليديا ضرورية. ومن ثم فلا بد أن أفنع بالجهل بهذا الموضوع.

وأضافت تقول لنفسها بعد أن فرغت من كتابة الخطاب: «على أنني لن أظل جاهلة، ولئن لم تطلعيني يا زوجة خالي العزيزة بطريقة شريفة،

فلسوف أنحدر بالتأكيد لمستوى الحيل والمناورات لمعرفة كل شيء». أما ما تميزت به جين من إحساس رقيق الجانب بمقتضيات الشرف، فقد حال بينها وبين مفاتحة إليزابيث على انفراد فيما بدر من ليديا عفواً. وسعدت إليزابيث لهذا، إذ كانت تفضل ألا تجد من تناجيه بأسرارها حتى يظهر ما إذا كانت ستتلقى أي إجابات شافية على استفساراتها.



الفصل الثاني والخمسون

سُرَّتْ إليزابيث لاستلام رد على خطابها بأسرع ما يكون. وما إن استحوذت عليه، حتى هُرعت إلى الغابة الصغيرة، حيث كان احتمال مقاطعتها ضئيلاً. وهناك جلست على أحد المقاعد وتهيأت لما ينتظرها من سعادة؛ إذ إن طول الخطاب أقنعها بأنه لن يحتوي رفضاً لسؤالها.

جريستشيرتش ستريت، في ٦ من سبتمبر

ابنة أخي العزيزة - تسلمت خطابك لتوي، ولسوف أخصص هذا الصباح بأكمله للرد عليه، فأنا أستشف أن الكتابة الموجزة لن تستوعب ما يقتضيني إطلاعك عليه. ولا بد أن أقر بدهشتي لما طليته مني، فلم أكن أتوقع أن يصدر منك هذا الطلب. وعلى كلٍّ فلا تظنني غاضبة، فلست أقصد إلا أن أعرفك أنني لم أكن أتصور أن تكون هذه الاستفسارات لازمة لك. اغفري لي سفاهتي لو وشئت ألا تفهمي مرامي. إن خالك مندهش مثلي، وهو لم يكن ليتصرف مثلما فعل إلا لاعتقاده بأنك طرف له بالموضوع علاقة.

ولكن إذا كنتِ في الحق لا تعرفين شيئاً، فلا بد أن أتكلم بوضوح أكثر. ففي يوم عودتي من «لونجبورن»، استقبل خالك زائراً لم يكن على الإطلاق متوقفاً؛ فقد جاء مستر دارسي واختلى به بضع ساعات. وانتهت الزيارة قبل وصولي إلى البيت، ولهذا فلم يستثر فضولي كما استثير فضولك بهذا الشكل الفظيع. فقد جاء ليخبر مستر جاردينر أنه اكتشف المكان الذي تنزل فيه شقيقتك ومستر ويكهام، وأنه رآهما وتحدث مع ليدبا مرة ومع ويكهام مرات. ولقد فهمت أنه غادر «داربيسير» بعدنا بيوم واحد وجاء إلى لندن بنية مطاردهما. وقد ادعى أنه دافعه إلى ذلك هو اعتقاده بأنه السبب في عدم دراية الناس جميعاً بما يتصف به ويكهام من تفاهة قدر، مما يجعل من المستحيل على أي فتاة تحترم نفسها أن تحبه أو تستأنه. ونسب كل شيء إلى كبريائه الخاطئة، واعترف بأنه كان يظن قبل الآن أن كشف الستار عن أعماله المتوارية يعتبر أمراً لا يليق بمكانته، وأن شخصيته يجب أن تكشف نفسها بنفسها. ومن ثم فقد اعتبر أن من واجبه أن يتقدم محاولاً لإصلاح ما حدث من إثم بسببه. أما إذا كان يتصرف بوحى دافع آخر، فإنني واثقة بأن هذا الدافع لا يشينه في شيء. ولقد قضى في لندن بضعة أيام قبل أن يتمكن من اكتشاف مكانهما؛ غير أنه كان لديه ما يوجه خطواته في البحث، وهو ما لم يكن يتوافر لنا، بالإضافة إلى أن معرفته هذه كنت سبباً آخر لعزمه على اللحاق بنا. فهناك سيدة اسمها فيما يبدو مسز يونج كانت في وقت ما تعمل حاضنة لمس

دارسي، ثم فُصلت من عملها لسبب مستهجن لم يصرح به. وعلى أثر ذلك فقد أقامت في منزل واسع في «إدوارد ستريت»، وأخذت منذ ذلك الحين تعول نفسها عن طريق تأجير الحجرات. وكان يعلم أن مسز يونج هذه على علاقة وثيقة بويكهام، فقصدها سعيًا لمعرفة شيء عنه بمجرد وصوله إلى لندن. ولكنه لم يستطع أن يحقق مرامه منها إلا بعد مضي يومين أو ثلاثة. وأغلب ظني أنها رفضت إفشاء السر دون الحصول على رشوة، فقد كانت بالفعل تعلم مكان صديقها. فالحق أن ويكهام كان قد ذهب إليها في يوم وصولهما إلى لندن، وكان يمكن أن ينزلا عندها لو كان في إمكانها استقبالهما في منزلها. على أن صديقنا الكريم استطاع آخر الأمر أن يحصل على العنوان المطلوب. ورأى ويكهام، ثم أصر بعد ذلك على رؤية ليديا. وقد صرح بأن هدفه الأول من رؤيتها كان إقناعها بالابتعاد عن وضعها الراهن المشين والعودة إلى أهلها بمجرد إقناعهم بقبولها، وعرض عليها مساعدته بقدر ما يستطيع. ولكنه وجد أن ليديا مصممة تمامًا على البقاء حيث كانت. فلم تكن تعبأ بأحد من أهلها، ولم تكن في حاجة إلى عون، وأعرضت عن أي دعوة للابتعاد عن ويكهام. وكانت واثقة من أنهما سيتزوجان في يوم ما، ولم تكن ترى أهمية لموعد إتمام الزواج. وطالما كانت تلك هي مشاعرهما، فلم يبقَ إلا أن يكفل زواجهما ويعجل به، بعد أن استشف بسهولة عند أول حديث جرى بينه وبين ويكهام أنه لم يكن يستهدف الزواج منها. فقد اعترف له باضطرابه إلى ترك

الفرقة بسبب بعض الوقائع المتصلة بالشرف التي كانت تطارده أينما حل، ولم يتورع عن تحميل حماقة ليديا وحدها كل العواقب الوخيمة المترتبة على فرارها. وكان رأيها قد استقر على الاستقالة من عمله في الحال، أما وضعه في المستقبل فلم يكن يفكر فيه كثيرًا. وقد كان ينبغي عليه الذهاب إلى مكان ما، وإن لم يكن لا يعرف كنهه، كما كان يعلم أنه يفتقر إلى أي مورد يعيش عليه. وسأله مستر دارسي عن سبب عدم زواجه من شقيقتك في الحال. فبرغم أن مستر بينت ليس شديد الثراء، فربما استطاع أن يفعل من أجله شيئًا، وحينذاك لا بد أن يعود عليه الزواج بالنفع. ولكنه علم بعد استماعه إلى جواب ويكهام عن هذا السؤال، أنه كان لا يزال يتطلع إلى تحقيق ثروة أعظم عن طريق الزواج في بلد آخر. ولذلك فلم يكن من المحتمل في ظل هذه الظروف أن يصمد لأي إغراء يفك في الحال ضائقته. والتقى عدة مرات، فقد كانت هناك أمور كثيرة مطروحة للنقاش. وقد أراد ويكهام بالطبع أن يحصل على أكثر مما عرض عليه، ولكنه ألزم في نهاية الأمر بأن يكون معقولاً في مطالبه. وبعد أن تقرر بينهما كل شيء، كانت خطوة مستر دارسي التالية هي إطلاع خالك على ما جرى، فجاء أول مرة «لجريستشيرتس ستريت» في مساء اليوم السابق لوصولي. ولكن مستر جاردنر لم يكن بالمنزل. وقد عرف مستر دارسي بعد البحث والتحري أن والدك كان لا يزال بصحبته وإن كان سيغادر لندن في صبيحة اليوم التالي. ولم يكن من رأيها أن والدك شخص

يمكن استشارته بمثل ما يمكن استشارة خالك، ومن ثم فقد أرجأ مقابلته له حتى يسافر والدك. ولم يترك اسمه قبل أن يمشي، ولم يعرف حتى اليوم التالي إلا أن أحد السادة قد جاء في أمر يختص بالعمل. وجاء مرة ثانية في يوم السبت. وكان والدك قد سافر، كما كان خالك موجوداً بالمنزل، وطال بينهما الحديث كما ذكرت لك من قبل. والتقى مرة أخرى في يوم الأحد، ورأيت أنا في ذلك اليوم. ولم يتقرر شيء قبل يوم الاثنين، ولكن ما إن توصلنا إلى قرار، حتى أرسل الخطاب العاجل إلى «لونجبورن». غير أن زائرنا كان شديد العناد. ويُخيل إليّ يا ليزي أن ذلك العناد هو برغم كل شيء عيبه الحقيقي. لقد اتهمه الناس في مختلف الأوقات بالوقوع في أخطاء كثيرة، ولكن هذا هو الخطأ الفعلي. فلم يقبل إلا أن يتصدى وحده للقيام بكل شيء، برغم أنني واثقة أن خالك كان على أتم الاستعداد لتحمل المسؤولية كاملة (ولست أقول هذا اجتلاباً للثناء، ومن ثم فلا تلقى للموضوع بالاً). واشتبكا في نقاش طويل كان يفوق ما يستحقه الرجل أو المرأة صاحبا المشكلة. ولكن خالك اضطر آخر الأمر إلى الرضوخ؛ وبدلاً من أن يسمح له بأن يكون ذا نفع لليديا، فقد أجبر على أن يقنع بكونه ضامناً لهذا النفع ليس غير، الأمر الذي جرى على عكس ما يرغب تماماً. والحق أنني أعتقد أن خطابك قد سبب له في هذا الصباح سروراً عظيماً؛ لأنه كان يطلب إيضاحاً يؤدي الإفصاح عنه إلى تخليصه من قناعه المستعار وتخصيص الثناء لمن يستحقه. ولكن هذه المعلومات يا

ليزي لا ينبغي أن يعرفها أحد غيرك، وقد تشارك فيها جين على أكثر تقدير. وأظن أنك تعرفين جيداً ما الذي تم لمصلحة الشابين. فقد اتفق على سداد ديونه التي تبلغ فيما أعتقد ما يزيد كثيراً على ألف جنيه، بالإضافة إلى ألف أخرى تُدفع بصفة مهر لها، ودفع تعويض عن تركه للفرقة. أما سبب قيامه وحده بهذا كله، فهو نفس ما ذكرته لك فيما سبق. فقد نسب إلى نفسه وإلى تحفظه في القول وافتقاره إلى التقدير الصائب للأمور مسؤولية ما حدث من إساءة فهم لشخصية ويكهام، وبالتالي ما جرى من استقباله والتودد إليه. ولربما كان هناك بعض الحقيقة في هذا الكلام، برغم أنني أشك فيما إذا كان تحفظه في القول أو تحفظ أي امرئ غيره يمكن أن يكون مسؤولاً عما وقع. بيد أنه مع كل هذا الكلام الجميل، لك أن تثقي يا عزيزتي ليزي تمام الثقة في أن خالك ما كان ليرضخ لطلباته أبداً، لو لم تكن قد اعتقدنا في تصرفه في هذا الموضوع بدافع مصلحة أخرى. وعندما استقر الأمر على كل هذا، عاد أدراجه إلى أصدقائه الذين كانوا لا يزالون يقيمون في «بيمبرلي»، ولكن اتفق على أن يكون في لندن وقت إتمام الزفاف، وعند ذاك تأخذ كافة المسائل المالية طابعها الأخير. وأظن أنني الآن قد أخبرتك بكل شيء؛ وإنها لرواية ستسبب لك كما قلت دهشة عظيمة. وإنني آمل على الأقل في ألا تعود عليك بأي كدر أو استياء.

وجاءت ليديا إلى منزلنا، وأصبح لويكهام حق التردد علينا دائماً. وكان بالضبط كعهده عندما عرفته في «هارتفوردشير»، ولكنني لم أكن لأقبل أن أقول لك إلى أي حد كنت غير راضية عن سلوكها أثناء إقامتها معنا، لولا ملاحظتي من خطاب جين الذي يحمل تاريخ الأربعاء الماضي أن سلوكها عند عودتها إلى المنزل كان شبيهاً به بالضبط. ومن ثم فما أطلعك عليه الآن لن يسبب لك ألماً جديداً. فقد تحدثت إليها مراراً بلهجة جادة تماماً، أصور لها جانب الإثم فيما فعلته، وأشعرها بكل التعاسة التي تسببت فيها لأفراد أسرتها. ولئن كانت قد استمعت إليّ، فلا بد أن ذلك كان من قبيل حسن الحظ، فأنا واثقة من أنها لم تنصت لكلمة واحدة. وفي بعض الأحيان كنتُ أُسْتَفْزِ تمام الاستفزاز، ولكنني كنت أتذكر آنذاك عزيزتي إليزابيث وجين، وكنت أستمسك بالصبر من أجلهما. وقد التزم مسر دارسي بموعد عودته، وشهد حفل الزفاف كما أخبرتك ليديا. وتناول معنا طعام الغداء في اليوم التالي، وكان لزاماً عليه أن يترك لندن ثانية يوم الأربعاء أو الخميس. أو تغضبين مني يا عزيزتي ليزي لو انتهزت هذه الفرصة لأقول (وهو قول لم أجِد فيما مضى الجسارة الكافية للتعبير عنه) كم أنا شديدة الإعجاب به؟ لقد كانت تصرفاته معنا، من جميع النواحي، لطيفة جداً شأنها شأن تصرفاته عندما كنا في «داربيشير». إن فهمه للأمور وآراءه كلها ترضيني، وهو لا يفتقر إلا إلى قدر قليل من الحيوية، وتلك صفة

يمكن أن تدربه زوجته على اكتسابها في حالة ما إذا تزوج وهو حريص في اختياره. وقد خُيِّلَ إليَّ أنه شديد الدهاء، فهو لم يذكر اسمكِ إلا فيما ندر. ولكن يبدو أن الدهاء هو الذوق السائد هذه الأيام. أرجوكِ أن تصفحي عني إذا كنتُ قد تجاوزتُ الحدود، أو على الأقل لا تعاقبيني إلى حد إبعادي عن «بيمبرلي»، فلن أشعر أبداً بسعادة كاملة إلى أن أطوف بالروض الواسع. وليس هناك أمتع من مركبة صغيرة تجرها فرسان صغيرتان. ولكني يجب أن أكف عن الكتابة؛ فقد اشتدت حاجة الأطفال إليَّ خلال نصف الساعة هذه.

المخلصة

م. جاردنر

أثارت محتويات هذه الرسالة مشاعر إليزابيث، بحيث كان من الصعب عليها أن تحدد ما إذا كان السرور أو الألم هو الذي يستحوذ على النصيب الأوفى من هذه المشاعر! فالظنون الغامضة التي أثارته شكوكةا بشأن ما قام به مستر دارسي من جهد للتعجيل بزواج شقيقتها، تلك الظنون التي خشيت من التماذي فيها باعتبارها عملاً كريماً يبلغ من عظمتها حدّاً يجعل احتمال حدوثه بعيداً، والتي تخوفت في ذات الوقت من صحتها، لثلا تثقل الأفضال كاهلها، هذه الظنون قد أصبحت حقيقة واقعة! فلقد تبعهما إلى لندن عامداً متعمداً، وتحمل كل صنوف المتاعب والإهانات المقترنة بمثل هذا البحث الذي كان لا بد فيه أن يتوسل إلى امرأة يمقتها ويزدريها، وأن يمتهن نفسه مع الرجل الذي كان

يتمنى دائماً تجنب صحبته، والذي كان مجرد النطق باسمه يُعتبر بالنسبة له عقاباً، فيضطر إلى لقاءه مراراً وإلى مناقشته وإقناعه، بل إلى رشوته آخر الأمر. ولقد فعل كل ذلك من أجل فتاة لا يحترمها أو يقدرها. وهمس لها قلبها بأنه فعل ذلك من أجلها وحدها. ولكن ذلك كان أملاً ما لبث أن ضاع بتأثير اعتبارات أخرى، وسريعاً ما شعرت أن غرورها وحده لم يكن كافياً إذا ما أرادت الارتكان على حبه لها، حبه للمرأة التي رفضته من قبل. فمثل هذا الحب لن يكون قادراً على قهر مشاعر طبيعية تستثير فيه مقتاً شديداً لأي علاقة مع ويكهام. عديل لويكهام! إن كل أحاسيس الكبرياء لا بد أن تنفر من هذه الصلة. فمن المؤكد أنه فعل الكثير، وإنها لتخجل من التفكير في عظم ما فعل. ولكنه برر تدخله بعذر لا يتطلب جهداً للاقتناع به. لقد كان من المعقول أن يشعر بخطأ موقفه، وكان إنساناً جواداً قادراً على إظهار هذا الجود. وبرغم أنها لا تعتبر شخصها حافزه الأساسي لما فعل، إلا أنها قد تميل إلى الظن بأن ما تبقى من اهتمامه بها قد يساند ما بذله من محاولات في موضوع يرتبط جوهرياً براحة بالها. ولقد كان من المؤلم، ومن المؤلم للغاية، أن يشعروا بفضل إنسان لن يقبل على الإطلاق أي جزاء على حسنفعاله. فهم مدينون له بعودة ليديا، وبالحفاظ على شخصيتها وبكل شيء. ويا لصدق حزنها على كل شعور غير كريم تجاهه، وكل قول سفيه وجهته إليه! لقد شعرت بالمهانة، ولكنها كانت فخورة لأنه استطاع أن يتغلب على مشاعره إزاء موضوع يتصل بعواطف الإنسان وشرفه. وقرأت ثناء زوجة خالها عليه مرات ومرات. وسُرَّت لما قرأت، وإن لم تشعر بأنها قد أوفته حقه. بل لقد شعرت ببعض السرور -برغم ما امتزج به من

إحساس بالحسرة- عندما وجدت كيف أن خالها يشاطرها الاعتقاد الوثيق بأن الود والثقة كان لهما وجود بين مستر دارسي وبينها.

وانتبهت من جلستها وأفكارها لدى اقتراب شخص ما، وقبل أن تنعطف إلى ممر آخر، كان قد لحق بها ويكهام. وقال وهو يصطحبها:

- أخشى أن أكون قد قطعت عليكِ خلوتكِ يا أختي العزيزة؟
وأجابته بابتسامة:

- بالفعل، ولكن ذلك لا يعني أن وجودك غير مستحب.

- إنني أكون في الحقيقة آسفًا إذا كان الأمر كذلك، فقد كنا دائمًا صديقين، ونحن الآن أفضل مما كنا.

- صحيح. أسيخرج الآخرون للتريض؟

- لا أعرف، فمسز بينت وليديا ستذهبان بالعربة إلى «ميريتون». وإذن فقد رأيت بالفعل «بمبرلي» يا شقيقتي العزيزة؛ لقد عرفت ذلك من خالكِ وزوجته.

وأجابت بالإيجاب.

- أكاد أحسدك على هذه المتعة، ومع ذلك فهي متعة يصعب عليّ تحقيقها، إلا لو عرجت على المكان وأنا في طريقي إلى «نيو كاسل». وأظن أنك رأيت مدبرة البيت العجوز؟ يا لرينولدز المسكينة! لقد كانت دائمًا شديدة التعلق بي. ولكنها بالطبع لم تذكر لك اسمي.

- بل لقد ذكرته.

- وماذا قالت؟

- قالت إنك التحقت بالجيش، وإنها تخشى ألا تكون... قد وفقت.
أنت تعلم أن الأمور يساء فهمها كثيرًا، وخصوصًا لبعد المسافة.
وأجاب وهو يعض شفتيه:

- بالتأكيد.

وتعشمت إليزابيث أن تكون قد ألزمته جانب الصمت، ولكنه ما لبث أن قال بعد قليل:

- لقد دهشت لرؤية دارسي في لندن في الشهر الماضي، وقد التقينا عدة مرات. إنني لأعجب بسبب وجوده هناك.
وقالت إليزابيث:

- ربما كان يستعد لإتمام إجراءات زواجه من مس دي بورو. إن ما يدفعه للذهاب إلى هناك في هذا الوقت من السنة، لا بد أن يكون أمرًا وثيق الصلة بمصالحه.

- لا شك، هل رأيته عندما كنت في «لامبتون»؟ أظن أنني فهمت من
مستر جاردنر وزوجته أنك التقيت به.
- نعم؛ لقد عرفنا بشقيقته.

- وهل أحببتها؟

- جدًا.

- لقد سمعت أنها تقدمت بشكل غير معقول في خلال هذا العام

أو هذين العامين. فعندما التقيت بها آخر مرة، لم تكن شخصيتها توحى بتفتح كثير. إني سعيد جدًا لأنك أُعجبت بها، وآمل أن تكون عند حسن ظنك.

- أظن أنها ستكون كذلك، فقد اجتازت أشد سني عمرها خطرًا.

- هل ذهبتُم إلى هناك عن طريق قرية «كيمبتون»؟

- لا أذكر أننا فعلنا ذلك.

- إني أشير إلى هذه القرية؛ لأنها مركز المنصب الكنسي الذي كان لا بد أن يكون من نصيبي. مكان بالغ الروعة! بيت ممتاز! إنه كان يناسبني من جميع النواحي.

- إلى أي مدى كنت تحب أن تلقي العظات على الناس؟

- إلى حد بعيد جدًا. إني كنت سأعتبرها جزءًا من واجبي، وكنت سأعتاد على الجهد المبذول في هذا الصدد. وعلى كل فلا يحق للمرء أن يتذمر؛ ولكن الحق أن العمل كان سيصبح فرصة رائعة بالنسبة لي! فهدوء هذا الطراز من الحياة وانعزالها كان يتفق مع كل أفكارٍ عن السعادة! ولكن ذلك أمر لم يُقدَّر. هل حدث أن سمعت دارسي يشير إلى هذه الواقعة عندما كنت في «كنت»؟

- لقد سمعت من مصدر أظن أنه موثوق به أن المنصب قد خصص لك بشروط محددة، وتبعًا لمشية السيد الحالي.

- هذا ما سمعت إذن! لقد كان هناك شيء من هذا القبيل. وربما تذكرين أنني ذكرت لك ذلك منذ البداية.

- كذلك فقد سمعت أنه مرت بك فترة لم يكن فيها إلقاء العظات
أمرًا مستساغًا لك، على عكس ما يبدو في الوقت الحاضر، وأنتك
أعلنت بالفعل عن عزمك على عدم الانخراط في سلك الكهنوت، وأن
الموضوع قد انتهى على هذا الأساس.

- وسمعت هذا أيضًا! على أن هذا الذي سمعته ليس بغير أساس.
فأنت تذكرين ما قلته لك بهذا الصدد عندما تحدثنا في الأمر من قبل.
وكانا قد اقتربا آنذاك من باب البيت، فقد أخذت تجد في السير
حتى تتخلص من صحبته. ولما كانت غير راغبة -مراعاة لشقيقتها- في
استفزاز مشاعره، فقد أجابته قائلة بابتسامة لطيفة:

- إننا أخ وأخت كما تعلم يا مستر ويكهام، فلا تدعنا نختلف على
الماضي. أما في المستقبل؛ فإني آمل أن نتحد أفكارنا دائمًا.
ومدت له يدها، فقبلها برشاقة وتودد، برغم أنه لم يكن يعرف كيف
يتجه بناظره، ودلفا إلى المنزل معًا.



الفصل الثالث والاربعسون

أحس مستر ويكهام بتمام الرضى لما دار في هذه المحادثة، بحيث لم يتعب نفسه ثانية، ولم يستثر شقيقته العزيزة إليزابيث بطرق هذا الموضوع مرة أخرى. أما هي فقد سرت لأنها قالت ما يكفي للإلزامه جانب الصمت.

وسريعاً ما حل يوم رحيله هو وليديا، واضطرت مسز بينت إلى التسليم بفكرة الافتراق عنهما. ولما كان زوجها قد رفض رفضاً باتاً خطتها التي تقضي بذهابهم جميعاً إلى «نيو كاسل»، فقد كان من المحتمل أن يستمر هذا الافتراق طوال عام على أقل تقدير. وصاحت مسز بينت قائلة:

- آه يا عزيزتي ليديا، متى سنلتقي ثانية؟

- يا الله! لست أعرف؛ ولا أظن أننا سنرى بعضنا طوال عامين أو ثلاثة.

- اكتبني لي كثيراً يا عزيزتي.

- بقدر ما أستطيع. ولكنك تعرفين أن النساء المتزوجات لا يجدن الوقت الكافي لكتابة الخطابات. أما شقيقتي فيمكن أن يكتبن لي، إذ لن يشغلهن عن ذلك شيء.

وكانت أمارات الوداع التي أبدأها مستر ويكهام أشد رقة مما أبدته زوجته. فقد ابتسم، وكان رقيق الشعور، وقال كلامًا جميلًا.

وقال مستر بينت بمجرد خروجهما من البيت:

- إنه ألطف مَنْ رأيت من الناس، فهو يتكلف الابتسام وييدي التودد لنا جميعًا. إني شديد الفخر به؛ بل إني أتحدى سير وليم لو كاس نفسه أن يجد صهرًا أعلى منه قدرًا.

وشعرت مسز بينت بالاكتئاب الشديد عدة أيام بسبب فقدانها ابنتها. وقالت:

- كثيرًا ما يراودني الظن بأن افتراق المرء عن أحبابه هو أسوأ شيء في الوجود. فمن دونهم يبدو الإنسان كمًّا مهملاً.

فقالت إليزابيث:

- هذا كما ترين يا سيدتي نتيجة حتمية للزواج. وحتم عليك أن تشعرني بالرضى؛ لأن بناتك الأربع الأخريات لا يزلن آنسات.

- ليس هذا هو السبب. إن ليديا لا تتركني لأنها تزوجت، بل لأن كتيبة زوجها ترابط في مكان بعيد. فلو كان مقر الكتيبة أشد قربًا لما كانت قد غادرتنا بمثل هذه السرعة

ولكن الإحساس بالكآبة الذي نشأ نتيجة هذه الواقعة ما لبث أن تبدد، وتفتح ذهنها مرة أخرى بفعل ما أثاره الأمل، عندما شاعت في الناحية بعض الأخبار. فقد صدرت الأوامر لمدبرة المنزل في «نيدر فيلد»

بالتهيؤ لوصول سيدها الذي كان ينوي المجيء في ظرف يوم أو يومين لقضاء بضعة أسابيع في رياضة الصيد. واستولى على مسز بينت تململ شديد. وكانت تنظر إلى جين وتبتسم ثم تهز رأسها، وتكرر هذا كله مرة بعد أخرى.

- حسن جداً؛ وإدَنْ فمستر بينجلي سيصل إلى هنا يا شقيقتي (فقد كانت مسز فيليبس هي أول مَنْ أتاها بالأخبار). هذا عظيم جداً. على أنني لا أعبأ بالأمر كثيراً. فأنت تعلمين أنه لا يعني بالنسبة لنا شيئاً، وإنني على ثقة بأنني لا أريد أبداً أن أراه ثانية. ومع ذلك فأهلاً به في «نيدر فيلد» إذا أراد أن يأتي. ومَنْ يدري ماذا يمكن أن يحدث؟ ولكن ذلك لن يمسننا في شيء. لقد اتفقنا يا أختي منذ وقت بعيد على ألا نلمح بكلمة واحدة لهذا الموضوع. ولكن هل أصبح وصوله أمراً مؤكداً؟

فأجابت الأخرى قائلة:

- ثقي من هذا. فقد كانت مسز نيكولز في «ميريتون» الليلة الماضية. ورأيتها مارة في الشارع، فخرجت عن قصد لأعرف الحقيقة، فأخبرتني أن النبأ لا يحتمل الشك. إنه سيصل إلى هنا يوم الخميس على أكثر تقدير، وربما يوم الأربعاء. لقد قالت لي إنها ذاهبة إلى الجزار بقصد الاتفاق على توريد كمية من اللحم يوم الأربعاء، كما أنها اشترت ثلاثة أزواج من البط مهياً للذبح.

ولم تستطع مس بينت أن تسمع خبر قدومه دون أن تتضرع وجنتاها. فقد مضت عدة شهور منذ آخر مرة ذكرت فيها اسمه لإليزابيث، ولكنها اليوم خاطبتها قائلة بمجرد انفرادها بها:

- رأيتك اليوم تنظرين إليَّ يا ليزي عندما أخبرتنا خالتي بآخر الأنباء، وإني أعلم أنني ظهرت بمظهر من استبد بها الضيق والقلق. ولكن لا تتصورى أن ذلك كان راجعاً لأي سبب سخيف. لقد استولى عليَّ الارتباك للحظة من الزمن ليس إلا؛ لأنني شعرت أن الأعين لا بد أن تتجه إلي. وأؤكد لك أن النبأ لا يؤثر فيَّ سواء بالسرور أو الألم. وإني أحس بالسعادة لسبب واحد، وهو أنه يأتي بمفرده، ومن ثم فلن نراه كثيراً. ولست أقصد من هذا القول أنني أخاف من نفسي، ولكنني أخشى ملاحظات الناس.

ولم تعرف إليزابيث كيف تفسر هذا الأمر. فلو لم تكن قد التقت به في «داريشير»، لظنت أن في وسعه المجيء دون أن يكون له من هدف سوى ما عرفه الناس جميعاً. ولكنها كانت لا تزال تعتقد أنه ميال إلى جين. ولم تستطع أن ترجح أي الاحتمالين أقوى. أترأه يجيء بإذن من صديقه أو يتسلح من الشجاعة بالقدر الذي يسمح له بالقدوم من دون هذا الإذن؟

غير أنها كانت تفكر في بعض الأحيان قائلة لنفسها: «ومع ذلك فمن أشق الأمور ألا يستطيع هذا الرجل المسكين أن يجيء إلى منزل استأجره قانوناً دون أن يثير مجيئه كل هذه الخواطر! لسوف أتركه وشأنه».

واستشفت إليزابيث بسهولة -برغم ما أعلنته شقيقتها وأمنت به فعلاً فيما يختص بتوقع وصوله- أن حالتها النفسية قد تأثرت. فقد كانت أشد اضطراباً وقلقاً مما اعتادت أن تراها.

وما لبث الموضوع الذي كان الوالدان قد تحدثا فيه بحرارة منذ ما يقرب من عام أن طُرح للنقاش من جديد. وقالت مسز بينت:

- بمجرد قدوم مستر بينجلي لا بد أن تزوره طبعًا يا عزيزي.

- لا، لا. لقد أجبرتني على زيارته في العام الماضي، ووُعدت بأنه سيتزوج إحدى بناتي إذا ما ذهبت لرؤيته. ولكن ها قد انتهت الزيارة إلى لا شيء، ولن أقبل أن أذهب في سعي عقيم مرة ثانية.

وأوضحت له زوجته مدى الضرورة المطلقة لمثل هذا الاحترام الذي يجب أن يبديه كافة السادة في الناحية، بمناسبة عودة الرجل إلى «نيذرفيلد». فقال لها:

- إنني أزدري آداب السلوك هذه. إذا كان يريد صحبتنا فعليه أن يسعى إليها. إنه يعرف مكان إقامتنا. لن أقضي ساعات يومي جريًا وراء جيرانني في كل مرة يرحلون فيها ويقدمون.

- كل ما أعرفه هو أن من السماجة الممقوتة ألا تزوره. على أنني قد عزمت على ألا يحول ذلك بيني وبين دعوته إلى الغداء هنا. ولما كان لا بد أن ندعو مسز لونج وأسرّة مستر جولدوينج في أقرب فرصة، فإن ذلك سوف يجعل منا ثلاثة عشر شخصًا، ومن ثم يتبقى على المائدة مكان واحد من أجله.

وإذ شعرت بالعزاء لهذا القرار، فقد استطاعت أن تحتل فضاظة زوجها، برغم أنها شعرت بالكمّد؛ لأنها كانت تعلم أن جيرانها جميعًا سوف يرون مستر بينجلي قبلهم بسبب موقفه ذاك. ومع اقتراب يوم وصوله قالت جين لشقيقتها:

- بدأت أشعر بالأسف لقدمه. لن يكون في الأمر شيء، ففي إمكانية أن أراه بمنتهى عدم الاكتراث، ولكنني أكاد لا أستطيع احتمال سماع هذا الموضوع باستمرار. إن والدتي سليمة النية؛ ولكنها لا تعرف -بل لا يستطيع أحد أن يعرف- مدى ما أقاسيه نتيجة أقوالها. يالسعادتني عندما تنتهي مدة إقامته في «نيذرفيلد»!

فأجابت إليزابيث قائلة:

- آمل أن أقول أي شيء يخفف عنك، ولكن الأمر كله يفوق طاقتي. وحتم عليك أن تشعرني بما تشعرين به. أما ما يحس به الناس عادة من رضى عندما ينصحون الشخص المعاني بالتمسك بالصبر، فهو إحساس لا أستطيعه؛ لأن لديك من الصبر قدرًا وافرًا.

ووصل مستر بينجلي. وسعت مسز بينت عن طريق الخدم إلى معرفة أخبار هذا الحدث في وقت مبكر حتى تُطيل فترة القلق والتبرم من جانبها إلى أبعد حد ممكن. وأحصت الأيام التي لا بد أن تنقضي قبل إرسال دعوتهم، وقد استبد بها اليأس من رؤيته قبل ذلك. ولكن في صباح اليوم الثالث لوصوله إلى «هارتفوردشير»، رآته من نافذة غرفة ملابسها وهو يذلف إلى مرابط الخيل ويتجه إلى البيت.

ونادت على بناتها في لهفة ليشاركنها فرحتها. ولزمت جين مكانها في حزم وهي تجلس إلى المائدة، ولكن إليزابيث اتجهت إلى النافذة رغبة منها في إرضاء والدتها. ونظرت، فلمحت مستر دارسي برفقته، ثم جلست ثانية قرب شقيقتها. وقالت كيتي:

- إن بصحبته رجلاً يا أماه. مَنْ يكون يا ترى؟
- أظنه أحد معارفه يا عزيزتي؛ لست أعرف بالتأكيد.

فأجابت كيبي قائلة:

- عجباً! إنه يشبه بالضبط ذلك الرجل الذي درج على اصطحابه
فيما مضى. إني لا أعرف اسمه، هذا الرجل الطويل المتعجرف.

- يا للعجب، إنه مستر دارسي! أقسم إنه هو. لا بأس، إن أي صديق
لمستر بينجلي سوف يكون دائماً موضع ترحيب هنا. غير أنني لا بد أن
أقول إني أكره رؤية هذا الرجل.

ونظرت جين إلى إليزابيث بدهشة وقلق، فلم تكن تعلم إلا القليل
عن لقائهما في «داربيشير»، ومن ثم فقد شعرت بالحرَج الذي لا بد أن
يستولي على شقيقتها لدى رؤيتها له هذه المرة التي تكاد تكون الأولى
منذ تسلمها خطابه التوضيحي. وكانت الأختان فريستين للقلق، فقد
حملت كل منهما هم الأخرى، فضلاً عن همها؛ وأخذت أمهما تتحدث
عن كراهيتها لمستر دارسي وعن عزمها على ملاطفته لا شيء إلا
لكونه صديقاً لمستر بينجلي. أما هما فلم تسمعا من ذلك شيئاً، غير أنه
كانت لإليزابيث مصادر للقلق لا يمكن لجين أن تعرف عنها شيئاً. فهي
لم تجد بعد الشجاعة الكافية لإطلاعها على خطاب مسز جاردنير أو
على تغير عواطفها تجاهه. فلم يكن هو بالنسبة لجين إلا رجلاً رفضت
شقيقتها عروضه بالزواج منها، وحطت من قيمة فضائله. أما بالنسبة لما
لديها هي من معلومات وافرة، فقد كان هو الإنسان الذي يدين له أفراد
الأسرة جميعاً بأهم ما نالهم من نفع، والذي تنظر إليه بتقدير إن لم يساوِ

في حنوّه تقدير جين لبينجلي، فهو على الأقل يكافئه في درجة اتزانهِ. وكانت دهشتها لقدمه، ولمجيئه على الأخص إلى «نيدرفيدل» وإلى «لونجبورن»، وسعيه عن قصد لرؤيتها مرة ثانية، تكاد تكون مساوية لدهشتها عندما وُوجهت لأول مرة بما تبدل من سلوكه في «داريشير». وعاد إلى وجنتيها بعد شحوبهما الاحمرار، وخالطهما وهج جديد، وارتسمت على وجهها ابتسامة راضية أشاعت البريق في عينيها عندما فكرت في لحظة من الزمن أن حبه وأمانيه لا بد أن تكون كعهدها دائماً؛ ولكنها لم ترغب في الاستكانة إلى هذا الظن، وقالت لنفسها: «لأؤكد أولاً من سلوكه، فالوقت لا يزال مبكراً لاستحثاث الآمال».

وانغمست في تطريز ما بيديها من نسيج، محاولة قدر جهدها أن تستمسك بالهدوء، ودون أن تجسر على رفع ناظرها إلى أن دفعها حب الاستطلاع المشوب بالقلق إلى النظر إلى وجه شقيقتها، بينما كانت الخادمة تتجه صوب الباب. وبدا لها وجه جين أشد شحوباً مما كان، وإن كان أشد سكينه مما توقعته. على أن وجنتيها تضرجتا لدى ظهور الرجلين، ولكنها استقبلتهما بهدوء نسبي وبسلوك يخلو من أي مظهر للاستياء كما يخلو من أي ملاطفة غير لازمة.

أما إليزابيث؛ فكانت في حديثها معهما مقلّة بقدر ما تسمح قواعد المجاملة، وجلست ثانية تستأنف عملها باهتمام لم يستحوذ عليها تماماً. وخاطرت بإلقاء نظرة واحدة على دارسي؛ وكان جاداً كعادته. وخيّل إليها أن صرامته كانت في «هارتفوردشير» أشد مما كانت في «بيمبرلي»، ولكن ربما لم يستطع أن يظهر في حضرة والدتها بنفس

الروح التي ظهر بها أمام خالها وزوجته. وكان ذلك من جانبها تكةناً مؤلماً وإن لم يكن بعيد الاحتمال.

وكذلك لمحت بينجلي للحظة من الزمن، فرأته في هذه اللحظة الخاطفة وقد بدا عليه السرور والارتباك في آن واحد. واستقبلته مسز بينت بقدر من المجاملة أخجل ابتيها، وبخاصة حين قارنا ذلك بانحناءتها الباردة المتكلفة لصديقه وبطريقتها في الحديث إليه.

ولما كانت إلبزابيث بالذات تعرف أن أمها كانت مدينة لمستردارسي بالحفاظ على ابتنها الأثيرة لديها من عار لا سبيل إلى محوه، فقد تأذت واغتمت لدرجة مؤلمة نتيجة ما أبدته أمها من تمييز في غير محله. وبعد أن سألها دارسي عن أحوال مستر جاردنير وزوجته -وهو سؤال لم تستطع الإجابة عنه دون ارتباك- أخلد إلى الصمت أو كاد. ولم يكن يجلس بجوارها، ولربما كان هذا هو سبب صمته؛ ولكنه لم يسلك هذا النحو في «داربيشير». فقد كان هناك يتحدث مع أهلها متى كان عاجزاً عن الحديث معها. أما الآن فقد انقضت دقائق كثيرة دون أن يُسمع له صوت. وعندما كانت ترفع بين الحين والآخر عينيها إلى وجهه، بعد أن كانت تعجز عن قهر حوافز فضولها، كانت تجده ينقل ناظريه بين جين وبينها، وغالبًا ما كان يركز عينية على الأرض وحدها. وكشف سلوكه بوضوح عن استغراق أشد في الفكر ورغبة أقل في الملاطفة عما بدا عليه عندما التقيا آخر مرة. وخاب أملها، ومع ذلك فقد غضبت من نفسها لهذا الشعور. وقالت لنفسها: «هل لي أن أتوقع أمراً مختلفاً؟ ومع ذلك فلماذا قدم إلى هنا؟».

ولم تجد في نفسها ميلاً للحديث مع أحد سواه، وبرغم ذلك فلم تكن تجد لديها الشجاعة الكافية للتحدث معه.

وسألته عن شقيقته، ولكنها عجزت عن المزيد.

وقالت مسز بينت:

- لقد مر وقت طويل يا مستر بينجلي منذ رحيلك.

ووافقها على قولها بسرعة.

- لقد بدأت أخشى ألا تعود ثانية؟ فقد قال الناس إنك كنت تنوي ترك البيت كلية على عيد القديس ميخائيل. ولكنني أتعشم ألا يكون هذا القول صحيحاً. إن تغيرات كثيرة قد حدثت في الناحية منذ رحيلك، فقد تزوجت مس لو كاس واستقرت في بيتها، وكذلك إحدى بناتي. أظنك سمعت بهذا الخبر، ولا بد أنك قرأته حقاً في الصحف. فقد نُشر الخبر في صحيفتي «التايمز» و«الكورير»، برغم أنه لم يظهر كما يجب. لقد قيل فحسب «عقد مؤخرًا قران الوجيه جورج ويكهام على مس ليديا بينت»، دون أن تُذكر كلمة واحدة عن والدها أو عن مكان إقامتها أو أي شيء آخر. وكان هذا كله من ترتيب أخي جاردينر، وإني لأتعجب كيف أساء التصرف إلى هذا الحد. هل قرأت الخبر؟

وأجاب بينجلي بالإيجاب وعبر عن تهانیه. ولم تجسر إليزابيث على رفع عينيها، ومن ثم فلم تدرِ أي تعبير ارتسم على وجه مستر دارسي.

واستطردت والدتها قائلة:

- من دواعي السرور حقاً أن تتزوج إحدى بناتي زواجاً لائقاً. ولكنه من الصعب في نفس الوقت يا مستر بينجلي أن تُتنزع بعيداً عني. قد سافرا إلى «نيو كاسل»، وهي مدينة في الشمال البعيد فيما يبدو، ولسوف يعيشان هناك لفترة لا أدرى مداها. فكتيبته تعسكر هناك، وأظنك سمعت بتركه منصبه في فرقة... وبالتحاقه بالجيش النظامي. شكراً لله! إن له بعض الأصدقاء برغم أنهم قد لا يكونون كثيرين كما يستحق.

ولما كانت إليزابيث تعرف أن هذه العبارة مصوبة إلى مستر دارسي، فقد تولاهما خجل فطيع كادت تعجز معه عن التزام مكانها. على أن ذلك قد دفعها إلى الحديث، على نحو فشلت فيه كل الدوافع السابقة، فسألت مستر بينجلي ما إذا كان ينتوي الإقامة في الريف في الوقت الحاضر. وقال إنه عازم على قضاء بضعة أسابيع.

فقالت أمها:

- بعد أن تصطاد طيورك كلها يا مستر بينجلي، أرجوك أن تأتي إلى هنا لاصطياد أكبر عدد تشاء من زمام مستر بينت. إنني على ثقة أنه سيكون سعيداً للغاية باستضافتك، وأنه سيختصك بأفضل الأسراب.

وتضاعفت تعاسة إليزابيث لمثل هذا الاهتمام المتطفل غير الضروري. ولئن كان قد راودها هي وشقيقتها في الوقت الحالي نفس الأمل الجميل الذي داعبهما منذ عام مضى، لانتهى كل شيء في اعتقادها إلى نفس النهاية المكدرة. وشعرت في تلك اللحظة أن سنوات طويلة من السعادة لن

تعوضها أو تعوض جين عن لحظات كهذه مفعمة بالخزي الأليم.

وخاطبت نفسها قائلة: «إن أول أمنيات قلبي هي ألا ألتقي بعد الآن بأيٍّ منهما. فصحبتهما لن تبعث في نفسي أي بهجة يمكن أن تعوضني عن مثل هذه التعاسة. عساي ألا أرى هذا أو ذاك مرة ثانية!».

على أن التعاسة التي لم تعوضها سعادة أعوام طويلة ما لبثت أن لقيت عقب ذلك فرجاً محسوساً عندما لاحظت كيف أن جمال شقيقتها قد استثار من جديد إعجاب حبيبها السابق. فقد انقضى بعد دخوله وقت لم يحدثها فيه إلا فيما ندر، ولكن اهتمامه بها أخذ يزداد بمضيّ الوقت. لقد وجدها حلوة التقاطيع كما كانت في العام الماضي، كما وجدها رقيقة الطباع غير متكلفة، وإن لم تكن كما عهدتها مقبلة على الحديث. وكانت جين مهتمة بأن تحول دون ظهور أي اختلاف في محياها على الإطلاق، كما كانت مقتنعة بالفعل بأنها أفاضت في الحديث كشأنها دائماً. ولكنَّ بالها كان مشغولاً بدرجة لم تسمح لها بأن تعرف متى كانت تلزم الصمت.

وعندما نهض الرجلان للانصراف. لم تنسَ مسز بينت ما كانت قد انتوته من أداء واجب المجاملة، فدعتهما لتناول طعام الغداء في «لونجبورن» بعد بضعة أيام. وأضافت تقول:

- إنك مدين لي بزيارة يا مستر بينجلي. فعندما ذهبت إلى لندن في الشتاء الماضي وعدتني بأن تتناول طعام الغداء عندنا بمجرد عودتك. فأنت ترى أنني لم أنسَ؛ وأؤكد لك أنني شعرت بخيبة أمل شديدة؛ لأنك لم تعد حتى تفني بوعدك!

وبدت على ملامح بينجلي علامات السذاجة إلى حد ما عندما
وُوجه بهذه الواقعة، وقال شيئاً يتعلق بأسفه لأن بعض شؤون العمل قد
عاقته في ذلك الحين. ثم انصرفا.

وكانت مسز بينت تميل كثيراً إلى دعوتهم للبقاء وتناول الغداء
معهم في ذلك اليوم. ولكن برغم أن مائدتها كانت على الدوام عامرة،
إلا أنها كانت ترى أن دورين كاملين على الأقل من الأطعمة هو الحد
الأدنى الكافي لرجل كانت تحيك من حوله حيلًا متلهفة، ولآخر كانت
تسعى لإرضاء شهيته وكبريائه وهو الذي يتمتع بثروة تبلغ عشرة آلاف
جنيه في العام.



الفصل الرابع والاربعسون

بمجرد انصرفهما خرجت إليزابيث من الحجرة لتستعيد هدوء نفسها، أو بمعنى آخر لتمعن الفكر -دون مقاطعة من أحد- في تلك الموضوعات التي لا بد أن تضاعف من استثارته. فقد كان سلوك مستر دارسي سبباً في إثارة دهشتها وكمدتها.

وقالت لنفسها: «إذا كان لم يأت إلا ليلزم الصمت وليبدو جاداً غير مبالٍ بما حوله، فلماذا جاء أصلاً؟».

ولم تستطع حسم هذا الموضوع على نحو يرضيها:

«إن باستطاعته أن يكون لطيفاً ودوداً إزاء خالي وزوجته عندما يكون في لندن! ولكن لم لا يكون كذلك معي؟ وإذا كان يخشاني، فلم يأتي إلي هنا؟ وإذا لم يكن ليعبأ بي، فلم يلزم الصمت؟ يا له من رجل مكيد! لن أفكر فيه بعد الآن».

والتزمت بقرارها اضطراراً منها لفترة من الزمن، إذ دنت منها شقيقتها التي لحقت بها وقد ارتسمت على عينيها نظرة مرحة أوضحت أنها كانت أشد من إليزابيث رضاء بزازريهم. وخاطبتها قائلة:

- أما الآن وقد انتهى هذا اللقاء الأول، فإني أشعر براحة تامة، إني أعرف قوتي الذاتية، ولن أشعر بالحرَج مرة أخرى لمجيئه. وأنا سعيدة لتناوله طعام الغداء معنا يوم الثلاثاء القادم، فلسوف يرى الناس جميعاً أن كلاً منا يلتقي بالآخر كأَي اثنين يعرفان بعضهما معرفة عابرة.

فقالت إليزابيث ضاحكة:

- نعم، معرفة عابرة حقاً. آه يا جين، خذي حذرِك!

- لا يمكنكِ يا عزيزتي ليزي أن تظنيني من الضعف بحيث أتعرض الآن لجانب الخطر.

- أظنك في خطر شديد من أن توقعيه في حبكِ كما فعلت من قبل. ولم تلتقيا بالرجلين ثانية قبل يوم الثلاثاء. أما مسز بينت فقد انشغلت طوال هذه الفترة باجترار كافة المشروعات السعيدة التي انتعشت في نفسها من جديد بسبب رقة طبع بينجلي وأدبه اللذين ظهرا في زيارة لم تستغرق نصف ساعة.

وفي يوم الثلاثاء اجتمع في «لونجبورن» عدد كبير من الضيوف. أما الرجلان اللذان كان انتظارهما مصحوباً باللهفة الشديدة فقد وصلا في الوقت المناسب، الأمر الذي يشيد بهما كرياضيين يحترمان المواعيد. وعندما توجهوا إلى حجرة الطعام، تنبّهت إليزابيث لترى ما إذا كان بينجلي سيجلس في نفس المكان الذي كان مخصصاً له جوار شقيقتها أيام دعواتهم السابقة له. وكانت أمها من الفطنة -وقد شغلها هذه الأفكار- بحيث امتنعت عن دعوته بنفسها للجلوس. وبدا عليه التردد

لدى دخوله إلى الحجرة، وهنا حدث أن نظرت إليه جين، وحدث أن ابتسمت أيضاً. وحُسم الأمر، فجلس بجانبها.

ونظرت إليزابيث إلى صديقه يراودها إحساس بالظفر، ورأته غير مكترث بما حدث. وكان يمكن أن تتصور أن بينجلي قد تلقى من مستر دارسي موافقة سابقة على أن يكون سعيداً، لو لم ترَ أن عينيه قد اتجهتا إليه وقد ارتسم عليهما تعبير من الانزعاج الطفيف.

وكان سلوكه مع شقيقتها أثناء الطعام يوحي بإعجابه بها، برغم أنه كان أشد تحفظاً عن ذي قبل، مما أقنع إليزابيث بأن سعادة جين وسعادته لن تلبث أن تتحقق، شريطة أن يُترك وشأنه دون تدخل. وبرغم أنها لم تجسر على الاعتماد على نتائج هذا السلوك، إلا أنها شعرت بالسعادة لمتابعته. لقد حقق لها هذا الأمر كل الانتعاش الذي يمكن أن تطمح إليه روحها، حيث إنها كانت إذ ذاك مكتئبة النفس. وكان مستر دارسي بعيداً عنها بقدر ما يسمح طول المائدة بفصلهما. وجاء مجلسه بجانب والدتها. وكانت تعلم أي سرور ضئيل يشيعه هذا الوضع في نفس كلٍّ منهما، أو يجعلهما في حالة نفسية طيبة. ولم تكن من القرب بحيث تسمع ما يدور بينهما من حديث، ولكنها كانت تستطيع أن تتبين ندرة هذا الحديث. كذلك فقد رأت مدى التكلف والبرود اللذين صحبا طريقتهما في الكلام كلما تخاطبا. وكانت فظاظة أمها سبباً في جعل إحساس إليزابيث بما هم مدينون به إليه أشد إيلاماً لأفكارها. وودت في بعض الأحيان لو ضحت بأي شيء في سبيل أن يكون لها الحق في إطلاعه على أن أفراد الأسرة كلهم لا يعرفون عن كرمه شيئاً ولا يشعرون بقيمته.

وراودها الأمل في أن تُتاح في المساء فرصة تجمعهما معاً، وألا تنتهي الزيارة دون أن يتمكنوا من تبادل الحديث في غير التحيات الرسمية التي استوجبها دخوله إلى البيت. ولما كانت قلقة متوترة المشاعر، فقد شعرت بأن الفترة التي انقضت في حجرة الاستقبال قبل دخول الرجلين كانت مرهقة ثقيلة على النفس إلى حد كاد يجعلها سيئة السلوك. وأخذت تتطلع إلى دخولهما باعتباره الهدف الذي تتعلق به كل فرصتها في السعادة ذلك المساء.

وقالت لنفسها: «إن لم يأت إليّ بنفسه، فلسوف أكف عن التفكير فيه إلى الأبد».

وجاء الرجلان؛ وخيّل إليها أنه بدا كما لو كان على وشك تحقيق آمالها. ولكن. وا أسفاه! فقد تحلقت السيدات المائدة حيث كانت مس بينت تعد الشاي وإليزابيث تصب القهوة، وتكافن حولهما بحيث لم يعد هناك مكان خالٍ بجانبها يسمح بتخصيص مقعد له. وعندما اقترب الرجلان، دنت منها إحدى الفتيات واشتد بها التصاقها، وقالت هامسة: - لن يفصلنا الرجال عن بعضنا؛ إني مصممة على هذا. نحن لا نريد أيًا منهم، أليس كذلك؟

وسار دارسي مبتعدًا إلى ناحية أخرى من الحجرة. وتعقبته بعينها، وحسدت كل من تحدث إليهم، ولم تجد من الصبر ما يحملها على تقديم القهوة للضيوف، ثم غضبت من نفسها لشدة حمقها.

«رجل رفضته ذات مرة! كيف أكون من البلاهة بحيث أتوقع لغرامه تجددًا؟ أهنك واحد بين الرجال لا يثور معترضًا على الضعف المتمثل

في تقديم عرض ثانٍ بالزواج لنفس المرأة؟ ليست هناك إهانة لمشاعرهم أشد من هذه شناعة».

على أنها انتعشت إلى حد ما حين أعاد بنفسه فنجان القهوة، واغتنمت الفرصة لتقول:

- ألا تزال شقيقتك في «بيمبرلي»؟

- نعم، ولسوف تبقى هناك حتى عيد الميلاد.

- أو تنزل هناك وحدها؟ هل تركها بقية أصدقائها؟

- إن مسز أنسلي تقيم معها. أما الآخرون فقد ذهبوا إلى «سكار بورو» منذ حوالي ثلاثة أسابيع.

ولم تستطع أن تفكر في شيء آخر تقوله؛ ولكنه قد يكون أكثر منها نجاحًا لو أراد أن يبادلها الحديث. على أنه وقف بالقرب منها صامتًا لبضع دقائق؛ ثم سار مبتعدًا آخر الأمر حين لمح الفتاة تهمس لإليزابيث ثانية.

وعندما رُفعت معدات الشاي وُصفت موائد اللعب، نهضت السيدات جميعًا، وتعشمت إليزابيث إذ ذاك أن يلحق بها بعد برهة، فإذا بكل أفكارها تنقلب رأسًا على عقب حين رآته يقع ضحية ولع أمها الجارف بلعب الورق؛ ولم تمضِ بضعة لحظات حتى انضم إلى بقية اللاعبين. وفقدت آنذاك كل أمل في السعادة. فقد قضوا المساء كله يتنقلون بين مختلف الموائد، ولم تكن لتأمل إلا في أن تتحول عيناه إليها بين الحين والحين فلا يصيب في اللعب نجاحًا مثلها.

وكانت مسز بينت قد استقرت على إبقاء رجلي: «نيدر فيلد»
للعشاء، ولكن عربتهما كانت لسوء الحظ قد استدعيت قبل عربات
الآخرين، ومن ثم فلم تسنح لها فرصة احتجازهما.

وقالت بمجرد أن خرج الجميع:

- هيه يا بنات، ما قولكن في هذا اليوم؟ لقد جرى كل شيء بالتأكيد
على أفضل ما يكون. وكان الطعام من أروع ما رأيته في حياتي. فقد
كان الشواء متقناً، وقال الجميع إنهم لم يروا من قبل فخذاً سمينة بهذا
الشكل. أما الحساء فكان أفضل أضعاف المرات مما وجدناه عند أسرة
سير وليم لوكاس في الأسبوع الماضي. بل إن مستر دارسي نفسه قد
اعترف بأن الطيور كانت إعجازاً في فن الطهي، ولا شك في أن لديه
طاهيتين فرنسيّتين أو ثلاثة على أقل تقدير. ويا عزيزتي جين إنني لم
أرك من قبل في مثل هذا الجمال. لقد قالت مسز لونج هذا أيضاً، فقد
سألته رأيها. وماذا تظنين أنها قالت بالإضافة إلى هذا؟ «آه يا مسز
بينت، لسوف نراها في «نيدر فيلد» بعد طول انتظار!»، لقد قالت هذا
حقاً. في اعتقادي أن مسز لونج هي أفضل الناس جميعاً. أما بنات أختها
فجميلات مہذبات، ولكنهن لسن أنيقات أبداً. إنني أحبهن حباً عظيماً.

وقصارى القول فقد كانت مسز بينت في أحسن حالاتها النفسية.
فقد رأت من سلوك بينجلي إزاء جين ما يكفي لإقناعها بأنها ستحظى به
أخيراً. على أن آمالها فيما سيلحق بأسرتها من خير كانت أبعد ما تكون
عن التعقل -وهي في هذه السعادة الطاغية- بحيث خاب أملها تماماً
لعدم مجيئه في اليوم التالي ليطلب يد ابنتها.

وقالت مس بينت لإليزابيث:

- لقد كان يومًا لطيفًا للغاية، وكان الناس صفوة منتقاة، متناسبين من جميع الوجوه. إنني آمل في أن نلتقي كثيرًا.

وابتسمت إليزابيث:

- لا تفعلي هذا يا ليزي، ولا يحق لك أن ترتابي في موقف. إن ذلك يكدرني تمامًا. أؤكد لك أنني تعلمت الآن كيف أستمتع بحديثه باعتباره شابًا لطيفًا عاقلًا دون أن تراودني أمنية أخرى. إنني مقتنعة تمام الاقتناع حسبما تراه لي من سلوكه الحالي أنه لم يستهدف على الإطلاق كسب ودي. فالأمر لا يتعدى كونه رجلًا يفوق الآخرين من حيث طلاوة حديثه ورغبته في إشاعة جو بهيج.

فقال شقيقته:

- أنت شديدة القسوة؛ ففي الوقت الذي لا تسمحين لي فيه بالابتسام، إذا بك تدفعيني إليه في كل لحظة.

- ما أصعب أن يجد الإنسان من يصدقه أحيانًا! وما أشد استحالة هذا في أحيان أخرى! ولكن لم ترغبين في إقناعي بأنني أحسن من المشاعر أكثر مما أعترف به وأقر؟

- هذا سؤال أكاد لا أعرف كيف أجيبك عنه. فجميعنا نحب أن نصدر الإرشادات، برغم أننا لا نستطيع أن نعلم إلا ما كان غير جدير بالعلم. سامحيني؛ ولكن إذا شئت الاستمرار في شعورك باللامبالاة فلا تصطفيني بأسرارك.

الفصل الخامس والخمسون

بعد مرور بضعة أيام على هذه الزيارة، قدم مستر بينجلي ثانية وبمفرده. أما صديقه فكان قد افترق عنه ذلك الصباح وذهب إلى لندن، وإن كان قد تقرر أن يعود ثانية في ظرف عشرة أيام. وجلس معهم أكثر من ساعة، وكان مرحاً بشكل ملحوظ. ودعته مسز بينت لتناول الغداء معهم، ولكنه عبّر بودّ بالغ عن اعتذاره لارتباطه بموعد آخر.

فقالت:

- أأمل أن نكون أسعد حظاً عندما تزورنا مرة أخرى.

وقالت إن ذلك من دواعي سروره في أي وقت، إلخ، إلخ؛ وإذا سمحت له فإنه سينتهاز أقرب فرصة لزيارتهم.

- أو تستطيع أن تأتي غداً؟

فأجاب بالإيجاب إذ لم يكن مرتبطاً بشيء في اليوم التالي؛ وحازت دعوتها قبولاً سريعاً.

وجاء؛ وكان وصوله في وقت جد مبكر بحيث لم تكن سيدات البيت قد ارتدين ملابسهن بعد. واقتحمت مسز بينت حجرة ابنتها وهي في ملابس البيت ولما تنته من تصفيف شعرها، وصاحت تقول:

- عزيزتي جين أسرعي وانزلي، لقد جاء، لقد جاء مستر بينجلي، جاء فعلاً. أسرعي أسرعي. اسمعي يا سارة، تعالي إلى مس بينت حالاً، وساعديها في ارتداء ملابسها. اتركي الآن شعر مس ليزي.

فقالت جين:

- سننزل بأسرع ما نستطيع، ولكنني أظن أن كيتي يمكن أن تسبقنا، فقد صعدت إلى غرفتها منذ نصف ساعة.

- اللعنة! ما دخل كيتي في الموضوع؟ هيا، أسرعي، أسرعي! أين حزامك يا عزيزتي؟

ولكن جين لم تقبل، بعد ذهاب أمها، أن تنزل إلى الطابق الأرضي إلا بصحبة إحدى شقيقاتها.

وعندما حل المساء، ظهرت لمسز بينت مشكلة العمل على وجودهما منفردين. فبعد تناول الشاي اعتكف مستر بينت في المكتبة كعادته، وصعدت ميري إلى الطابق العلوي حيث معزفها. وهكذا أزيحت عقتان من العقبات الخمس، وأخذت مسز بينت تسدد نظراتها إلى إليزابيث وكاثرين وتغمز لهما لمدة طويلة، دون أن تتأثرا. فقد تعمدت إليزابيث ألا تلاحظها. وعندما التفتت إليها كيتي آخر الأمر قالت لها ببراء متناهية:

- ماذا هناك يا أمه؟ لم تغمزين إليّ هكذا؟ ماذا تريدني أن أفعل؟

- لا شيء يا ابنتي، لا شيء. لم أغمز لك أبداً.

ثم جلست ساكنة لمدة خمس دقائق أخرى. ولكنها نهضت فجأة وقد عازمت على ألا تضع هذه الفرصة الثمينة، وقالت لكيكي:

- تعالى يا حبيبي، أريد أن أحدثك في شيء.

وصحبته إلى خارج الحجرة. وألقت جين نظرة سريعة على إليزابيث أوحت باستيائها من هذا التدبير المسبق، وبرجائها ألا تنساق إليه. ولم تمض بضعة لحظات حتى فتحت مسز بينت الباب نصف فتحة، وقالت منادية:

- عزيزتي ليزي، أريد أن أتحدث معك في شيء.

واضطرت إليزابيث للذهاب.

وقالت لها أمها بمجرد أن بلغت الصالة:

- من الأفضل أن نتركهما وحيدتين، سأصعد أنا وكيكي ونجلس في حجرة ملابسي.

ولم تحاول إليزابيث أن تناقش والدتها، ولكنها جلست في الصالة بهدوء حتى غابت مع كيكي عن ناظرها، فعادت أدراجها إلى حجرة الاستقبال.

أما خطط مسز بينت في ذلك اليوم فلم تُجد نفعاً. فقد كان مستر بينجلي ساحراً من جميع النواحي، باستثناء كونه حبيب ابنتها المنتظر. وجعلت منه بساطته ومرحه بمثابة صحبة شائقة في فترة المساء. واحتمل بصبر فضول الأم غير الموفق، واستمع إلى كل ملاحظاتها السخيفة باحتمال وبشاشة مما أشعر ابنتها بالامتنان.

ولم تكن هناك حاجة لتوجيه الدعوة إليه لتناول العشاء معهم. وقبل أن ينصرف تقرر فيما بينه وبين مسز بينت أن يحضر في الصباح التالي ليصطاد الطير مع زوجها.

وبعد هذا اليوم، لم تعد جين تشير إلى عدم اكتراثها. ولم تتبادل الشقيقتان كلمة واحدة تتعلق بينجلي، ولكن إليزابيث ذهبت إلى فراشها في تلك الليلة سعيدة باعتقادها في أن كل شيء لا بد أن يتقرر على وجه السرعة إلا لو عاد مستر دارسي خلال المهلة المحددة. على أنها كانت واثقة إلى حد ما، وبشكل جاد، بأن كل هذا قد حدث حتمًا برضاء ذلك الرجل.

والتزم بينجلي بموعده، ف قضى الصباح بصحبة مستر بينت حسب الاتفاق السابق. وكان مستر بينت أشد لطفًا مما توقع زميله. فلم يكن في شخصية بينجلي شيئًا من الادعاء أو الحمق مما يمكن أن يستثير سخريته، أو يشمئز له فيؤثر الصمت. كذلك فقد كان أشد تجاوبًا في الحديث وأقل غرابة في الطباع عما كان فيما مضى. وعاد بينجلي معه بطبيعة الأمر لتناول طعام الغداء؛ وفي المساء ابتكرت مسز بينت من الحيل ما أبعد الموجودين جميعًا عنه وعن ابنتها. ولما كانت إليزابيث تريد أن تكتب خطابًا، فقد ذهبت إلى حجرة الإفطار لهذا الغرض بعد تناول الشاي مباشرة. ولما كانت الأخريات يعزمن لعب الورق، فلم ترد هي أن تكون سببًا في إحباط خطط والدتها.

غير أنها حين عادت إلى حجرة الاستقبال بعد انتهائها من كتابة خطابها، وجدت لدهشتها الفائقة أن هناك من المبررات ما يدعوها إلى

الاعتقاد بأن والدتها كانت أشد حذقًا وبراعة مما تصورت. فبمجرد أن فتحت الباب، رأت شقيقتها وبينجلي واقفين معًا جوار المدفأة، كما لو كانا مستغرقين في حديث جاد. ولو لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الارتياب، لدعا إليه ما ارتسم على وجهيهما من تعبير حين استدارا إليها بسرعة وابتعدا عن بعضهما البعض. لقد كان موقفهما يبعث على الحرج الشديد، أما موقفها هي، فقد خُيِّلَ إليها أنه أسوأ بكثير. فلم ينطق أيُّ منهما بحرف واحد؛ وكانت إليزابيث على وشك العودة من حيث جاءت حين نهض بينجلي من مقعده -بعد أن كان قد جلس هو وجين كل في ناحية- وأسر بوضع كلمات إلى شقيقتها، وانطلق من الحجرة خارجًا.

ولم تكن جين لتتكتم عن شقيقتها شيئًا حيثما أدى البوح بالأسرار إلى السعادة، ولذلك فقد احتضنتها في الحال واعترفت لها بانفعال تفيض منه البهجة بأنها أسعد إنسان في الدنيا. وأضافت تقول:

- هذا كثير، كثير جدًا. لا أستحق هذا كله. لِمَ لا يسعد الناس مثلي جميعًا؟

وعبرت إليزابيث عن تهانيتها بإخلاص وحرارة وسرور عجزت الكلمات عن التعبير عنها. وكانت كل عبارة طيبة بمثابة مصدر جديد للسعادة بالنسبة لجين. ولكنها لم تسمح لنفسها بالبقاء مع شقيقتها أو الإفصاح عما بقي من أحاديث. وهتفت تقول:

- لا بد أن أذهب إلى والدتي فورًا. فلن أسمح لنفسني بأي حال أن أتلاعب بلهفتها المُحبة، أو أدعها تعرف النبأ من أي امرئ سواي،

لقد ذهب هو إلى والدي الآن. آه يا ليزي لو تعرفين مدى السعادة التي ستحل بجميع أفراد أسرتي الأعزاء عندما يسمعون ما سأرويه لهم! كيف سأتحمل كل هذه السعادة؟

ومن ثم أسرع إلى والدتها التي كانت تجلس في الطابق العلوي مع كيتي بعد أن فُضت موائد اللعب عن قصد.

أما إليزابيث التي تُركت وحدها، فقد ابتسمت للسرعة والبساطة التي انتهت بها آخر الأمر مسألة سببت لهم توترًا وكمدًا طوال شهور كثيرة مضت. وقالت لنفسها: «هذه إذن هي نهاية ما اصطنعه صديقه من حرص ملهوف، وما أبدته شقيقته من زيف وتحايل. إنها أسعد نهاية وأشدها حكمةً وعقلًا!».

ولم تمض بضع دقائق حتى لحق بها بينجلي الذي كان لقاؤه مع والدها قصيرًا ومباشرًا.

وقال بسرعة وهو يفتح الباب:

- أين شقيقتك؟

- مع أُمي في الطابق العلوي؛ وأغلب الظن أنها ستهبط بعد لحظات.

وعندئذ أغلق الباب وتقدم منها وسألها كشقيقة له أن تختصه بتمنياتها الطيبة ومحبتها. وعبرت إليزابيث بإخلاص ومودة عن فرحتها بما ينتظر أن ينشأ بينهما من علاقة قرابة. وتصافحا بحرارة، ثم أخذت تنصت في الفترة التي سبقت مجيء جين إلى كل ما قاله عن سعادة وعن صفات جين الكاملة. وبرغم كونه عاشقًا، فقد كانت إليزابيث

تعتقد بحق أن كل آماله في السعادة كانت مبنية على أساس رصين؛ لأنها استندت إلى ما لدى جين من إدراك فائق للأمور وطباع ممتازة، بالإضافة إلى تشابه في الحس والذوق بينها وبينه.

وكانت أمسية شملت فرحة غير عادية لهم جميعاً. أما مس بينت فقد أسبغ هدوء بالها وهجاً يفيض بالحيوية العذبة على ملامح وجهها، الأمر الذي جعلها أشد وسامة عما كانت في أي يوم مضى. وشاع الابتسام في وجه كيتي وتعشمت أن يحل دورها سريعاً. ولم تستطع مسز بينت أن تجد من الكلمات ما تعبر به عن رضاها أو تفصح عن استحسانها على نحو يكفي لإرضاء مشاعرها، برغم أنها أخذت تتحدث مع بينجلي في هذا الأمر طوال نصف ساعة. وعندما انضم إليهم مستر بيت على مائدة العشاء، كشفت نبرة صوته وطريقته في الحديث بمنتهى الوضوح عن مدى سعادته الحقيقية.

على أنه لم ينبس بحرف واحد إشارة إلى هذا الموضوع حتى انصرف زائرهم ليلاً. ولكنه استدار -بمجرد انصرافه- إلى ابنته وقال لها:

- أهنتك يا جين، ستكونين امرأة سعيدة للغاية.

واتجهت إليه جين على الفور وقبلته وشكرته على طيبة قلبه. وأجابها قائلاً:

- أنت فتاة طيبة، ومن دواعي سروري الشديد أن أتصورك وقد تزوجت زواجاً موفقاً. وليس لدي أدنى شك في اتفاقكما معاً. فطباعكما متشابهة من جميع النواحي. فكل منكما طبع ممتثل بحيث لن تستقرا

على شيء أبداً؛ وبسيط متساهل لدرجة ستقعان معها ضحيتين لغش الخدم جميعاً؛ وكريم سخي بحيث ستنفقان دائماً من المال ما يزيد على دخلكما.

- أرجو ألا يحدث ذلك. فالطيش والاستهتار في الأمور المالية نقيصتان لن يُغتفرا لي.

وصاحت زوجته قائلة:

- ينفقان ما يزيد على دخلهما! عمّ تتحدث يا عزيزي مستر بينت؟ إن دخله يبلغ أربعة أو خمسة آلاف جنيه في العام، وربما أكثر من ذلك. (ثم وجهت حديثها لابنتها) آه يا عزيزتي جين، إنني كنت أعرف هذا. ودائماً ما قلت إن هذا سيحدث، أخيراً. كنت واثقة أن جمالك لن يضع هباء! أذكر أنني بمجرد أن رأيته عند قدومه لأول مرة إلى «هارتفوردشير» في العام الماضي، ظننت أن لقاء كما معاً أمر شديد الاحتمال. إنه أشد من قابلتهم من الشباب وسامة!

وطوى النسيان ويكهام وليديا. فلم يكن هناك من ينافس جين في درجة قربها إلى نفسها. وفي تلك اللحظة لم تكن لتعبأ بأحد غيرها. أما شقيقتا جين الصغريان فقد بدأتا تتلمسان منها ما يسعهما من طلبات تستطيع في المستقبل أن تمنحهما إياها.

فقد التمسست منها ميري أن تسمح لها بالانتفاع بالمكتبة في «نيدر فيلد»، كما رجتها كي تبقي بحرارة أن تنظم بضع حفلات راقصة هناك كل شتاء.

ومنذ ذلك الوقت أصبح بينجلي زائرًا يوميًا «للونجبورن». وكثيرًا ما كان يأتي قبل الإفطار ويمكث حتى عقب طعام العشاء، إلا في حالة ما إذا دعاه لتناول الغداء جار عديم الإحساس، فيضطر إلى قبول الدعوة وهو لا يجد في نفسه من المشاعر ما يكفي لكرهية صاحبها.

ولم تكن إليزابيث تجد إلا وقتًا قليلًا تتحدث فيه إلى شقيقتها، فطالما كان حاضراً لم تكن جين لتلقي بالاً إلى أحد سواه. ولكنها كانت شديدة النفع ل كليهما معاً في تلك الأوقات التي كانت تفصل بينهما، والتي كانت لا بد أن تطرأ في بعض الأحيان. ففي غياب جين كان دائماً يركن إلى إليزابيث حيث يجد السعادة في الحديث معها؛ وعندما كان بينجلي ينصرف كانت جين تسعى على الدوام إلى مصدر الراحة نفسه.

وفي إحدى الأمسيات قالت:

- لقد جعلني أشعر بسعادة طاغية عندما أخبرني أنه كان يجهل جهلاً تاماً مسألة وجودي في لندن في الربيع الماضي. لم أكن أظن أن هذا ممكن.

فأجابتها إليزابيث قائلة:

- لقد ظننت هذا. ولكن كيف برر هذا الأمر؟

- لا بد أن هذا كان من فعل شقيقتيه. لقد كانتا بالتأكيد معارضتين لعلاقته بي، وهو ما لا أعجب له، طالما أنه كان يمكن أن يختار فتاة تتفوق عليّ من نواحٍ عدة. ولكن عندما تريان -وإنني على ثقة من ذلك-

أن شقيقهما سيسعد معي، فلسوف تشعران بالرضى، وسوف تتحسن علاقاتنا ثانية، برغم أننا لا يمكن أن نعود إلى ما كنا عليه من صفاء.

فقالَت إليزابيث:

- هذه هي أشد العبارات التي سمعتها منك بعدًا عن الصّبح والمغفرة. يا لك من فتاة طيبة! لسوف يكون من دواعي حزني حقًا أن أراك مرة أخرى ضحية لما تبديه مس بينجلي من اعتزاز متكلف.

- أعتقدين يا ليزي أنه عندما ذهب إلى لندن في شهر نوفمبر الماضي كان يحبني حقًا، وأن ما منعه من العودة ثانية لم يكن إلا اقتناعه بأنني كنت غير مبالية به؟

- لا شك أنه ارتكب غلطة بسيطة، غير أن هذا لمما يشيد بحيائه وخفّره.

واستتبع ذلك بطبيعة الأمر إطراء من جانب جين لتهيبه، ولتواضعه في تقدير خصاله الطيبة.

وسرت إليزابيث حين رأت أنه لم يكشف لها عن تدخل صديقه. فبرغم أن جين كانت تحظى بأشد القلوب سماحة وأقدرها على العفو، إلا أن تلك كانت واقعة تعلم تمامًا أنها سوف تستثير مشاعرها ضده. وهتفت جين قائلة:

- إنني بالتأكيد أسعد الناس خطأ! آه يا ليزي، لماذا أتميز هكذا عن أفراد أسرتي جميعًا، وأتفوق عليهم في النعم والمزايا؟ لو قُدِّر لي أن أراك سعيدة مثلي! لو كان من نصيبك رجل آخر مثله!

- لو أعطيتني من الرجال مثله أربعين لما حظيت بمثل سعادتك.
فإلى أن تكون لي طباعك وطيتك، لن أستطيع أن أشعر بمثل شعورك.
لا، لا، دعيني أواجه نصيبي، ولربما التقيت في الوقت المناسب بمستر
كولنز آخر، لو كان لي من حسن الحظ منتهاه.

ولم يكن من الممكن تكتم ما يجري في أسرة «لونجبورن» لفترة
طويلة. فقد أسرت مسز بينت بما جرى لمسز فيليبس، وتطوعت هذه
دون أي استئذان بأن فعلت نفس الشيء مع كل جاراتها في «ميريتون».
وسريعاً ما أعلن الناس أن أسرة مستر بينت هي أسعد الأسر حظاً
في هذه الدنيا، برغم أنه كان قد تأكد بوجه العموم، قبيل هذا الوقت
ببضعة أسابيع ليس غير عندما لازت ليديا بالفرار، أن أفراد هذه الأسرة
قد حل بهم خطب جسيم.



الفصل السادس والخمسون

في صباح أحد الأيام، بعد أسبوع تقريباً من خطبة بينجلي وجين، وبينما كان يجلس مع سيدات الأسرة في حجرة الطعام، أثار انتباه الجميع فجأة صوت عجلات عربية تقترب، ولمحوا من النافذة عربية تجرها أربعة جياذ تسير عبر المروج. وكان الوقت مبكراً بالنسبة لاستقبال أي زوار، بالإضافة إلى أن هيئة العربية كانت مختلفة عما تعودوا رؤيته بين جيرانهم. فقد كانت الجياذ من النوع الذي يُستأجر في محطات الركوب، كما أن العربية نفسها وكسوة الخادم الذي كان يتصدرها لم تكونا مألوفتين في الناحية. ولما كان من المؤكد أن بعض الزوار كانوا قادمين، فقد ألح بينجلي بسرعة على مس بينت أن تتفادى مثل هذه المقابلة المزعجة، وأن تصحبه في نزهة على الطريق المحفوف بالشجيرات. وسارا مبتعدين، واستمر الثلاث الباقيات في تكهناتهن التي لم تصل إلى نتيجة إلى أن فُتح الباب ودخلت الزائرة، وكانت ليدي كاثرين دي بورو.

وكنَّ جميعاً بالطبع يتوقعن حدوث ما يبعث على الدهشة؛ ولكن دهشتهم فاقت كل توقعاتهن. أما إليزابيث فقد استبد بها العجب أشد مما استبد بمسز بينت وكيبي اللتين لم تكونا تعرفانها على الإطلاق.

ودخلت إلى الحجرة بطريقة تكشف عن فظاظة فائقة، ولم ترد على تحية إليزابيث لها إلا بهزة خفيفة من رأسها. وكانت إليزابيث قد ذكرت اسمها لوالدتها على إثر دخولها، برغم أن القادمة لم تسألها القيام بواجبات التعارف.

واستقبلتها مسز بينت بأدب جم، برغم عجبها الشديد، وإن كانت قد شعرت بالزهو لاستضافتها مثل هذه الزائرة ذات المكانة العالية. وبعد أن جلست في صمت فترة قصيرة، قالت لإليزابيث بجفاف:

- أتعشم أن تكوني في خير حال يا مس بينت. هذه السيدة والدتك فيما أظن؟

وأجابت إليزابيث بالإيجاب بكلمات مقتضبة:

- وتلك فيما أعتقد إحدى شقيقاتك؟

فقالت مسز بينت وقد أسعدها أن تتحدث مع ليدي كاثرين:

- نعم يا سيدتي. إنها تجيء في الترتيب قبل الصغرى مباشرة. لقد تزوجت صغرى بناتي مؤخرًا، أما كبراهن فهي الآن في مكان ما حول البيت تسير برفقة شاب سيصبح عما قريب واحدًا من أفراد الأسرة.

فردت عليها ليدي كاثرين بعد فترة صمت قصيرة:

- إن حديقتكم صغيرة جدًا.

- إنها بالطبع لا تُقارن «بروزينجر» يا سيدتي، ولكني أؤكد لك أنها أشد اتساعًا من حديقة سير وليم لو كاس.

- إن حجرة الجلوس هذه لا بد أن تكون متعبة تمامًا في فصل الصيف وقت المساء، فكل واجهاتها غربية.

وأكدت لها مسز بينت أنهم لا يجلسون فيها مطلقًا بعد الغداء؛ ثم أضافت تقول:

- أسمحين لي أن أسأل سيادتكِ عما إذا كنتِ قد تركتِ مستر كولنز وزوجته في خير حال؟

- نعم. على خير ما يرام. لقد رأيتهما الليلة قبل الماضية.

وتوقعت إليزابيث إذ ذاك أن تسلمها خطابًا من شارلوت، فقد بدا هذا كأنه الدافع الوحيد المحتمل لزيارتها. ولكن لم يظهر أثر لأي خطاب، فاستولت عليها الحيرة تمامًا.

ورجتها مسز بينت بأدب شديد أن تتناول شيئًا، ولكن ليدي كاثرين رفضت أن تأكل مما قُدم لها. وكان رفضها قاطعًا خاليًا من اللياقة. ثم قالت لإليزابيث وهي تنهض من مقعدها:

- يظهر يا مس بينت أن هناك على جانب من المرج المحيط بمنزلكم بقعة جميلة نوعًا تنمو بها بعض النباتات البرية. وأكون سعيدة إذا تريضت فيها لو تفضلت عليَّ بصحبتكِ.

فصاحت أمها قائلة:

- اذهبي يا عزيزتي واصحبي سيادتها في مختلف الممرات حول البيت. أغلب ظني أنها ستسر لرؤية المنطقة الخلوية.

وأطاعت إيزابيث. وجرت إلى حجرتها لإحضار مظلتها، ثم عادت، فصحبت ضيفتها الكريمة إلى الطابق الأرضي. وبينما كانتا تعبران الصالة، فتحت ليدي كاثرين باب ردهة الطعام، وباب حجرة الاستقبال، وبعد أن ألقت بنظرة في أنحائهما، أعلنت أنهما حجرتان لطيفتان، واستمرت في طريقها.

وكانت عربتها واقفة أمام الباب، ورأت إيزابيث أن وصيفتها جالسة بداخلها. ومشيا في صمت على الممر المفروش بالحصى الذي يؤدي إلى الغابة الصغيرة. واستقر رأي إيزابيث على ألا تسعى لفتح باب الحديث مع امرأة وقحة وبغيضة إلى أبعد الحدود.

وقالت لنفسها وهي تنظر في وجهها: «كيف يمكن أن أتصور أن هناك شبهاً بينها وبين ابن أختها؟».

وما إن دلفتا إلى الغابة الصغيرة، حتى بدأت ليدي كاثرين حديثها على النحو التالي:

- لا يمكن يا مس بينت أن تتحيري في فهم السبب الذي حدا بي إلى المجيء إلى هنا. فلا بد لقلبك وضميرك أن يوحيا لك بالسبب.

فنظرت إليها إيزابيث بدهشة حقيقية، وقالت:

- أنت في الحق مخطئة يا سيدتي، فلم أستطع أبداً أن أعلل سبب تشرفي برؤيتك هنا.

فأجابت سيادتها بصوت يشيع فيه الغضب:

- لا بد أن تعلمي يا مس بينت أنني امرأة لا يُستهان بها. فمهما شئت لكِ نفسك أن تكوني غير مخلصه، فلن تجديني أبداً على غرارك. لقد اشتهرتُ دائماً بصدقِي وصراحتي، ولن أتخلي قطعاً عن هذا الصدق وهذه الصراحة إذا ما تعلق الأمر بقضية لها مثل هذه الأهمية. فقد بلغتني منذ يومين أنباء مزعجة للغاية؛ إذ سمعت أن شقيقتكِ على وشك الحصول على زيجة تحقق لها نفعاً عظيماً. وليس هذا ما سمعته فحسب، بل عرفت أنكِ أنتِ أيضاً، أنتِ يا مس إليزابيث بينت، سوف تتزوجين على الأرجح بعدها بقليل من ابن أختي، ابن أختي أنا، مستر دارسي. وبرغم أنني واثقة بأن الأمر لا يعدو أن يكون زيفاً صارخاً، وبرغم أنني لن أهينه إلى درجة الظن بإمكان صحة هذا الخبر، إلا أنني قررت من فوري أن أجيء إلى هذا المكان حتى أطلعكِ على حقيقة مشاعري.

فقالَت إليزابيث وقد احمرت وجتتاها دهشة وزرابة:

- لو كنتِ تعتقدين أن صدق هذا النبأ ضرب من المحال، فإنني أتعجب لتجشمكِ مشقة قطع هذه المسافة الطويلة. فماذا تقترحين سيادتكِ في هذا الشأن؟

- إنني أصر على الحصول حالاً على كلمة منك تنفي هذا الخبر أمام الناس جميعاً.

فقالَت إليزابيث ببرود:

- إن مجيئكِ إلى «لونجبورن» لرؤيتي ورؤية أسرتي سيكون مصداقاً لصحة هذا الخبر، لو كان هناك بالفعل شيء من هذا.

- لو! أتنظاهرين إذَنْ بجهلك لهذا الخبر؟ ألم تعملوا على نشره وإذاعته بمثابرة شديدة؟ ألا تعلمين أن مثل هذا الخبر قد ذاع وشاع؟
- لم أسمع بهذا.
- أو تستطيعين بالمثل أن تعلنني أن الخبر لا أساس له من الصحة؟
- لست أدعي أن لديّ من الصراحة مثل ما لدى سيادتك؛ فلك أن تسأليني أسئلة قد لا أجيبك عليها.
- هذا غير محتمل. إني مصرة يا مس بينت على أن أحظى بما يشفي غليلي. فهل تقدم ابن أختي للزواج منك؟
- لقد قلت سيادتك إن الأمر محال.
- هذا ما ينبغي أن يكون، هذا ما يجب أن يكون طالما يحتفظ بعقله سليماً. ولكن حيلك وغوايتك ربما تكون قد دفعته في لحظة افتتان إلى نسيان واجبه قبل نفسه وقبل أسرته جميعاً. ربما كنت قد أوقعته في شراكك.
- لئن كنت قد فعلت هذا، لأصبحثُ آخر مَنْ يقر بالأمر ويعترف.
- أتعرفين مَنْ أنا يا مس بينت؟ إني لم أعتد الاستماع إلى مثل هذه اللغة. إني أكاد أكون أقرب أقربائه، ومن حقي أن أعرف أخص خصائصه.
- ولكن ليس من حقك أن تعرفي أخص خصائصي، كما أن سلوكك هذا لن يحملني على مصارحتك بشيء.

- لا بد أن تفهميني حق الفهم، فهذا الزواج الذي تتطلعين إليه لا يمكن أن يتم. أبدًا، أبدًا. فمستر دارسي خطيب لابتني. والآن ما قولك في هذا؟

- أقول فحسب إنه لو كان الأمر كذلك، فلا يحق لك الافتراض بأنه سوف يطلب يدي.

وترددت ليدي كاثرين لحظة ثم أجابت بقولها:

- إن لخطبتهما وضعًا خاصًا. فمند طفولتهما تقرر أن يكون كل منهما للآخر. وكانت تلك رغبة والدته ووالدتها في آن واحد. فقد استقر رأينا على زواجهما وهما في مهديهما. والآن، ومع دنو اللحظة التي يمكن أن تتحقق فيها بزواجهما رغبات الأختين، إذا بهذا الزواج تعوقه فتاة من أصل وضع ليس لها في هذه الدنيا مكانة، ولا ترتبط بالأسرة بأي صلة أو نسب! أفلا تضعين أي اعتبار لرغبات أهله، أو لخطبته الضمنية لمس دي بورو؟ أو لا تشعرين بكل ما تستوجبه قواعد اللياقة والكياسة؟ أو لم تسمعيني أقول إنه قد أصبح منذ ساعات حياته الأولى مقدرًا عليه الزواج من ابنة خالته؟

- نعم سمعت ذلك، وقد سمعته من قبل أيضًا. ولكن ما شأنني وهذا؟ لو لم يكن هناك من الاعتراضات على زواجي من ابن أختك غير هذا السبب، فلن يحول بالتأكيد بيني وبين هذا الزواج معرفتي بأن والدته وخالته قد رغبتا في زواجه من مس دي بورو. لقد قمتما أنتما الاثنتان بكل ما في وسعكما لترتيب أمور هذا الزواج. أما إتمامه فيعتمد على آخرين. فإذا لم يكن مستر دارسي قد التزم أمام ابنة خالته سواء بواجبات

الشرف أو انعطافات الهوى، فلم لا يقع اختياره على امرأة أخرى؟ وإذا كنتُ أنا موضع اختياره، فلم لا أقبله؟

- لأن الشرف وقواعد الأصول ومقتضيات الفطنة، بل دواعي المصلحة، كلها تحول دون ذلك. أجل يا مس بينت، دواعي المصلحة. فلا تتوقعي أن يعيركِ أحد من أسرته أو أصدقائه التفاتاً لو تصرفتِ عامدة متعمدة ضد رغبات الجميع. فسوف تواجهين باللوم والإهانة والتحقير من كل مَنْ هم على صلة به. سيكون زواجكما فضيحة، بل إن اسمكِ لن يرد على شفاهنا.

فأجابتها إليزابيث قائلة:

- إن هذه لبلايا جسيمة. ولكن لا بد لزوجة مستر دارسي أن يكون لديها من مصادر السعادة غير العادية التي تقترن بالضرورة بظروف حياتها، ما يجعلها على وجه العموم في غير حاجة إلى التبرم.

- يا لك من فتاة عنيدة صلبة الرأي! إني خجلة منك! أهذا عرفانكِ بالجميل إزاء ما أبديته من اهتمام بك في الربيع الماضي؟ أليس لي أن أجازي بالخير على ما فعلتُ؟ دعينا نجلس ها هنا. عليك أن تفهمي يا مس بينت أنني جئت إلى هنا يحدوني عزم لا يلين على تحقيق مرادي، ولن أقبل أن يحال بيني وبينه. إني لم أعتد الخضوع لنزوات هذا أو ذاك من الناس، كما أنه ليس من عاداتي احتمال خيبة الأمل.

- إن هذا سوف يجعل موقف سيادتكِ في الوقت الحاضر أشد إثارة للرناء، ولكنه لن يؤثر عليّ في قليل أو كثير.

- لا أسمح لك بمقاطعتي! استمعي إليّ في صمت. إن ابنتي وابن أختي قد خُلِقا أحدهما للآخر. وهما ينحدران من ناحية الأم من نفس الأصل النبيل، ومن ناحية الأب من أسرتين محترمتين كريمتين عربيتين برغم خلوهما من الألقاب. كما أن ثروتهما من الناحيتين طائلة. ولقد قُدِّرَ كُلُّ منهما للآخر بموافقة كل أعضاء الأسرتين؛ فما الذي يفرق بينهما؟ - ليس إلا المزاعم الفجة لفتاة لا أسرة لها ولا ارتباطات ولا مال! أهذا محتمل؟ إن هذا لا يجب أن يحدث، ولن يحدث! ولو كنتِ تشعرين بمصلحتكِ، لما رغبتِ في ترك الوسط الذي نشأت فيه.

- إن زواجي من ابن أختكِ لن يجعلني أعتبر نفسي وقد تركت ذلك الوسط، فمستر دارسي سيد مهذب، وأنا كريمة سيد مهذب، ومن ثم فنحن على قدم المساواة.

- صحيح، فأنتِ كريمة سيد مهذب. ولكن مَنْ هي أمكِ؟ وَمَنْ هم أحوالكِ وخالاتكِ؟ لا تظنّيني جاهلة بأوضاعهم.

فقالت إليزابيث:

- مهما كانت أوضاع أهلي، فهي لا تهملكِ في شيء ما دام ابن أختكِ لا يعترض عليهم.

- خبريني لأول وآخر مرة، هل أنتِ مخطوبة له؟

وبرغم أن إليزابيث ما كانت لتجيب عن هذا السؤال لمجرد إرضاء ليدي كاثرين، إلا أنها لم تجد بداً من أن تقول بعد فترة تدبر وإمعان فكر: - كلا.

وبدا السرور على ليدي كاثرين، وقالت:

- وهل تعديني بالأ تقبلي أبداً أي ارتباط من هذا النوع؟

- لا أعدك بشيء من هذا.

- إنني مصدومة يا مس بينت ومندهشة. كنت أتوقع أن أرى فتاة ذات فكر راجح. ولكن لا تخدعي نفسك بأي اعتقاد يصور لك أنني قد أتنحى في يوم ما عن قصدي. إنني لن أعود أدراجي حتى تقدمي لي ما أطلبه من ضمان.

- وأنا بالتأكيد لن أعطيك إياه أبداً. فلن يرهبني على الإطلاق شيء كهذا غير معقول بالمرّة. فسيادتك تريدين أن يتزوج مستر دارسي من ابنتك، ولكن هل في إعطائي إياك ما تريدين من وعد ما يجعل زواجهما أشد رجحاناً بأي حال من الأحوال؟ وافترضي أنه متعلق بي، فهل في رفضي قبول طلبه بالزواج ما يدفعه إلى الرغبة في الزواج من ابنة خالته؟ اسمحي لي أن أقول يا ليدي كاثرين إن الحجج التي دعمت بها هذا الطلب الغريب كانت تافهة، بقدر ما كان الطلب نفسه غير موفق. إنك تخطئين إلى حد بعيد في فهم شخصيتي إذا كنتِ تظنين أن في الإمكان استمالي بمثل هذه الحجج. وليس في وسعي أن أحدد إلى أي مدى قد يوافق ابن أختك على تدخلك في شؤونه، ولكن ليس لك يقيناً أي حق في التدخل في شؤوني أنا. ومن ثم فمن حقي أن أطلب منك ألا تلحفي عليّ في الرجاء أكثر من ذلك في هذا الموضوع.

- لا تتسرعي من فضلك، فلم أنته من حديثي بعد، وما زلت أريد أن أضيف إلى كافة اعتراضاتي السابقة اعتراضاً آخر. فأنا على علم

بتفاصيل حادث الفرار المشين الذي ارتكبه صغرى شقيقاتك. إنني أعلم كل شيء عن هذا الموضوع، كما أعلم أن زواج الرجل منها كان من قبيل الترميم على حساب أبيك وخالك. أفتكون فتاة مثل هذه شقيقة لزوجة ابن أختي؟ أو يكون زوجها عديلاً له وهو ابن رئيس الخدم في منزل أبيه الراحل؟ يا للسموات والأرض! فيم تفكرين؟ هل يُقدَّر لخمائل «بيمبرلي» أن تُدنس على هذا النحو؟

فأجابت تقول باستياء ظاهر:

- لم يعد لك الآن ما تقولينه. لقد وجهت إليّ الإهانات على كل لون، ولا بد أن أستاذنك في العودة إلى البيت.

ونهضت من جلستها وهي تتكلم؛ وكذلك نهضت ليدي كاثرين، وقفلتا راجعتين. أما سيادتها فقد استشاطت غضباً:

- إذنْ فأنتِ لا تقيمين وزناً لشرف ابن أختي وسمعته! يا لك من فتاة أنانية عديمة الإحساس! ألا تدركين أن ارتباطه بك لا بد أن يشينه في أعين الجميع؟

- ليس لديّ ما أضيفه يا ليدي كاثرين، فأنتِ تعرفين رأيي.

- أو قررتِ إذنْ أن تستحوذي عليه؟

- إنني لم أقل شيئاً من هذا القبيل. لقد قررتُ فقط أن أتصرف بالطريقة التي أرى أن فيها سعادتِي دون أن يكون في ذلك علاقة بك أو بأي شخص آخر لا يرتبط بي من قريب أو بعيد.

- حسن هذا. إذن فأنت ترفضين إرضائي؛ ترفضين الامتثال لمقتضيات الواجب والشرف والامتنان. إنك عازمة على تحطيم سمعته في نظر أصدقائه جميعاً وعلى جعله هدفاً لسخرية الدنيا قاطبة.

فأجابت إليزابيث قائلة:

- ليس للواجب أو الشرف أو الامتنان أي حق عليّ في الموضوع الحالي. فلن ينتهك أي مبدأ من مبادئها بزواجي من مستر دارسي. وأما فيما يتعلق بامتعاض أسرته أو غضب الناس، فلئن استثير أقاربه بسبب زواجه مني لما اهتممت بذلك لحظة واحدة، ولا أظن أن الناس عموماً يفتقرون إلى الفطنة والتعقل بحيث يسمحون لأنفسهم باحتقارنا.

- إذن فهذا هو رأيك الحقيقي - هذا إذن هو قرارك القاطع! حسن جداً. سأعرف كيف أتصرف. لا تتصورني يا مس بينت أنك ستحققين في يوم ما طموحك. لقد جئتُ أختبرك، وكنت أتعشم أن أجِدكِ عاقلة. ولكن ثقي أنني سأبلغ مرامي.

وأخذت ليدي كاثرين تتحدث على هذا النحو حتى بلغت باب العربة، وعند ذلك أضافت قائلة وهي تلتفت إلى إليزابيث بحركة سريعة:

- إني لا أستاذنك يا مس بينت. بل لا أبعث بسلامي إلى والدتك. فأنت لا تستحقين مثل هذا الاحترام. إني في أشد حالات الاستياء.

ولم تنس إليزابيث بحرف؛ وسارت بهدوء صوب البيت دون أن تحاول دعوة سيادتها إلى الدخول. وسمعت صوت العربة تسرع بعيداً وهي ترقى في الدرج إلى الطابق العلوي. والتقت بها أمها وهي متلهفة

على باب حجرة ملابسها، لتسألها عن السبب في عدم عودة ليدي
كاثرين لتنال قسطاً من الراحة.

فقالت ابنتها:

- لم ترغب في ذلك، فقد فضلت الرحيل.

- إنها امرأة رائعة المظهر. أما زيارتها لنا فقد كانت مجاملة
عظيمة من جانبها! فأغلب ظني أنها لم تأتِ إلا لتطمئننا على مستر
كولنز وزوجته. أعتقد أنها في طريقها إلى مكان ما، ومن ثم فقد رأيت
أن تزوركِ أثناء مرورها «بميريتون». لم يكن هناك فيما أظن موضوع
خاص تحدثكِ فيه يا ليزي؟

واضطرت إليزابيث لاصطناع كذبة صغيرة هنا، فقد كان من المحال
أن تقر بحقيقة ما دار بينهما من حديث.



الفصل السابع والخمسون

لم يكن من السهل على إليزابيث أن تتغلب على ما شاع في نفسها من اضطراب بتأثير هذه المقابلة العجيبة، كما أنها ظلت طوال ساعات عدة تفكر فيها دون انقطاع. فقد ظهر لها أن ليدي كاثرين لم تجشم نفسها بالفعل مشقة هذه الرحلة من «روزينجز» إلا لغرض واحد، وهو فسخ خطبتها المزعومة لمستر دارسي. وكان ذلك بكل تأكيد سعيًا معقولًا من جانبها؛ ولكن إليزابيث عجزت عن التكهن بمنشأ خبر خطبتها، إلى أن تذكرت أن حقيقة كونه صديقًا حميمًا لبينجلي، وحقيقة كونها شقيقة لجين، كان كافيًا لظهور هذه الفكرة في وقت كان فيه الأمل في حدوث زفاف معين سببًا في تلهف الناس على زفاف آخر. ولم يغب عليها هي نفسها أن تشعر بأن زواج شقيقتها لا بد أن يكثر من لقاءاتها مع دارسي. ومن ثم فقد أشاع جيرانها في «لوكاس لودج» هذا الخبر باعتباره أمرًا يكاد يكون مؤكدًا وعاجلاً (فلا بد أن النبأ قد بلغ ليدي كاثرين عن طريق رسائلهم لمستر كولنز وزوجته)، وهو ما كانت لا تظنه ممكنًا إلا في مستقبل الأيام.

على أنها بعد أن أخذت تتأمل تعبيرات ليدي كاثرين، لم تستطع إلا أن تشعر ببعض القلق فيما يتعلق بالنتائج المحتملة لإصرارها على التدخل في هذا الموضوع. فقد خطر لـإليزابيث، من واقع ما ألمحت إليه من عزمها على الحيلولة دون هذا الزواج، أنها قد تتوسل إلى ابن أختها بـرجاء مباشر. ولم تستطع أن تقدر مدى اتفاقه معها في تصور المساوئ المقترنة بزواجه منها. فلم تكن تعرف بالضبط درجة محبته لخالته، أو اعتماده على وجهة نظرها. غير أنه كان من الطبيعي أن تظن أن احترامه لسيادتها كان يفوق احترامها لها. كما كان من المؤكد أن خالته سوف تخاطب أضعف نقطة فيه عندما تعدد له النكبات التي تعود عليه من جراء الزواج من فتاة يعتبر أهلها الأقربون أبعد من أن يكونوا متساوين مع أهله. ولربما شعر، تمشيًا مع أفكاره عن الكرامة، أن الحجج التي بدت في عيني إليزابيث ضعيفة وسخيفة، إنما تشتمل على رأي صائب ومبررات قوية.

فلئن كان قبل اليوم يشعر بالتردد إزاء تصرفاته المقبلة، وهو شعور بدا شديد الاحتمال، لحسنت نصيحة خالته ورجاؤها كل شك عنده، ولشدت في الحال عزمه على أن يعيش في سعادة بالقدر الذي توفره دواعي الكرامة الخالصة من كل عيب. وفي هذه الحالة لن يعود مرة أخرى. فلربما التقت به ليدي كاثرين في طريق عودتها عن طريق لندن، وحتّم إذ ذاك أن يخلف وعده لينجلي بالعودة ثانية إلى «نيدر فيلد».

وأضافت تقول لنفسها: «إذا بلغ صديقه في خلال بضعة أيام أي اعتذار عن عدم وفائه بوعده، فسأفهم الأمر تمامًا. سأضع إذ ذاك نهاية

لكل أمل وأمنية في وفائه. ولئن قنع فحسب بشعور الحسرة لعدم اقترانه بي، في الوقت الذي كان يمكن أن يحظى فيه بودي ويدي، فلن ينصرم وقت طويل حتى تنقضي حسرتي عليه تمامًا».

وعندما عرف بقية أفراد الأسرة شخصية زائرتهم، تعجبوا أشد العجب. ولكنهم اضطروا إلى تسكين دهشتهم بنفس الافتراض الذي أشبع فضول مسز بينت. وتخلصت إليزابيث من كثير من دواعي الإزعاج في هذا الموضوع.

وبينما كانت تهبط الدرج في صباح اليوم التالي، قابلت والدها خارجًا من مكتبته وبيده رسالة. وقال لها:

- كنت على وشك البحث عنك يا ليزي. تعالي إلى غرفتي.

وتبعته إلى هناك، واشتد فضولها لمعرفة ما أراد أن يطلعها عليه عندما خيّل إليها أن الموضوع يرتبط على نحو ما بالخطاب الذي كان يمسك به. وخطر لها فجأة أن الخطاب قد يكون مرسلاً من ليدي كاثرين، وتوقعت في أسمى كل ما سيتلو ذلك من تفسيرات.

ومشت في إثر والدها إلى المدفأة، وجلسا معًا؛ ثم خاطبها بقوله:

- لقد تسلمت هذا الصباح خطابًا أدهشني إلى حد بعيد. ولما كان الخطاب يخصك أساسًا، فلا بد لك أن تعرفي محتوياته. إني لم أكن قبل اليوم أعلم أن اثنتين من بناتي على شفا الزواج. دعيني أهنئك على ما حققته من نصر شديد الأهمية.

واندفعت الدماء إلى وجنتي إليزابيث إذ اعتقدت من فورها أن الخطاب وارد من مستر دراسي لا من خالته، وتأرجحت مشاعرها

بين الابتهاج لإفصاحه على أي حال عن مشاعره، وبين الاستياء لأن الخطاب لم يكن موجهاً إليها، حينما استطرد والدها يقول:

- يبدو عليك أنك على معرفة بالأمر. إن للآنسات قدرة كبيرة على النفاذ لمثل هذه المسائل. ولكنني أتحدى ذكاءك في اكتشاف شخصية الرجل المعجب بك؛ أمّا هذا الخطاب فمن مستر كولنز.

- من مستر كولنز! وماذا يقول؟

- إنه بالطبع يتعرض لأمر وثيق الصلة بالموضوع. فهو يبدأ خطابه بتقديم تهانيه لقرب زواج كبرى بناتي، وهو نبأ عرفه فيما يبدو من بعض سيدات أسرة لو كاس الطبيبات الثرارات. ولن أستخف بلهفتك فأقرأ لك كلماته في هذا الشأن. أما ما يختص بك فيتحدد فيما يلي:

أما وقد قدمت لكم تهاني مسز كولنز المخلصة وتهاني بهذا الحادث السعيد، فاسمحوا لي الآن أن أضيف إشارة صغيرة إلى موضوع آخر علمنا به من نفس المصدر. فالمظنون أن ابنتكم إليزابيث لن يطول بها الوقت الذي تحمل فيه اسم «بينت»، بعد أن تخلت عنه شقيقتها الكبرى. ويحق لنا أن ننظر إلى شريط حياتها المقبل باعتباره أشد شخصيات هذه البلاد شهرة ومجدًا. أيمكنك أن تتكهنني يا ليزي من هو المقصود بهذا القول؟

فهذا الشاب يتمتع على نحو خاص بكل ما يصبو إليه قلب بشر، من أملاك طائلة، وعراقة أصل، وولاية على مناطق شاسعة. على أنني بالرغم من كافة هذه الإغراءات؛ أستأذنكم في تحذير ابنة عمي إليزابيث، وتحذيركم شخصيًا مما يمكن أن تتعرضوا

له من أذى في حالة موافقتكم المتسرة على عرض هذا الرجل،
وهو العرض الذي ستميلون بطبيعة الأمر إلى الاستفادة منه
بأسرع وقت.

ألديك أي فكرة يا ليزي عن شخصية هذا الرجل؟ ولكن ها هو
الأمر يتضح.

إن من يدفعني لتحذيركم من هذا الأمر يكمن فيما يلي:
إن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نتصور أن خالته ليدي كاثرين دي
بورو لا تنظر إلى هذا الزواج نظرة رضى.

إذن فأنت ترين أن مستر دارسي هو المقصود! أظن يا ليزي أنني
الآن قد أدهشتك. أكان بإمكانه أو بإمكان أي شخص من أسرة لوكاس
أن ينتقي رجلاً من دائرة معارفنا يكذب ادعاءاتهم أكثر من هذا الرجل؟
مستر دارسي بالذات الذي لم ينظر أبداً إلى امرأة إلا ليرى فيها عيباً،
والذي ربما لم ينظر إليك مرة واحدة في حياته! هذا عجيب!

وحاولت إليزابيث أن تشارك أباهما في مزاحه، ولكنها لم تستطع إلا
اصطناع ابتسامة واحدة متضررة. فلم يسبق له من قبل أن وجه مزاحه إلى
شيء ما بطريقة لا تثير فيها إلا أقل الرضى.

- ألا تجددين في هذا ما يسلي؟

- طبعاً. أرجوك أن تستمر.

وهنا عاود مستر بينت القراءة:

فبعد أن ألمحت لسيادتها في الليلة الماضية باحتمال عقد

هذا القران، تفضلت كعادتها بأن عبرت من فورها عن شعورها بهذه المناسبة، إذ أصبح من الواضح أنها لن تمنح على الإطلاق موافقتها على ما وصفته أنه زواج شائن، وذلك بالنظر إلى بعض الاعتراضات على أسرة ابنة عمي. وقد رأيت أن من واجبي أن أسارع بإطلاع ابنة عمي على هذا الأمر، حتى تكون هي ومريدها النبيل على بينة مما سيقدمان عليه، فلا يتسرعان بزواج لا يلقي قبولاً مناسباً.

ويضيف مستر كولنز بعد ذلك قوله:

وإني في الحق مسرور؛ لأن الموضوع المحزن الخاص بابنة عمي ليديا قد تمت تسويته على أفضل وجه، ولا يشغلني إلا التفكير في أن حياتهما معاً قبل زواجهما قد شاع خبرها وذاع. على أنني لا يصح أن أتجاهل واجبات وظيفتي، أو أمتنع عن التعبير عن عجبي لما سمعته من استقبالك لهما في منزلكم بمجرد عقد قرانهما. لقد كان هذا تشجيعاً من جانبكم للرزيلة. ولو كنت الكاهن المختص بشؤون «لونجبورن»، لكنت قد اعترضت بشدة على هذا الإجراء. فمن واجبك يقيناً أن تصفحوا عنهما بوصفكم مسيحيان، ولكن ما كان يحق لكم أن تنظروا إليهما، أو تسمحوا بذكر اسميهما في حضرتهن.

هذه هي فكرة المسيحية عن الغفران! أما بقية الخطاب فيختص بأحوال عزيزته شارلوت وعن توقعه لوصول غصن زيتون صغير. ولكن يبدو يا ليزي أنك لم تستمتعي بهذه الأخبار. أرجو ألا تتكدري وتدعي

الاستياء من مثل هذا النبأ السخيف. وإلا فلماذا نعيش إن لم نكن مجالاً
لتندر جيراننا، وإن لم نسخر بدورنا منهم؟

فصاحت إليزابيث قائلة:

- إن في هذا ما يسري عني تمامًا. ولكن الأمر غريب جدًا!

- ومع ذلك فهذا هو بالضبط ما يجعله مسلياً. فلو كانوا قد حددوا
أي رجل آخر لما كان في الأمر شيء. ولكن عدم اكترائه التام بك فضلاً
عن كراهيتك الحادة له إنما يجعلان الأمر سخيفاً على نحو مُسَلٍّ! وبرغم
كراهيتي الشديدة للكتابة، فإني لن أقطع مراسلاتي مع مستر كولنز مهما
كانت الاعتبارات. بل إنني حين أقرأ أحد خطاباتك، لا أملك إلا أن أفضله
على ويكهام نفسه برغم أنني أقدر بشدة وقاحة صهري ورياءه. وخبريني
بالله عليك يا ليزي، ماذا قالت ليدي كاثرين بشأن هذا الموضوع؟ هل
جاءت لتعلن رفضها الموافقة عليه؟

ولم تجب ابنته عن هذا السؤال إلا بضحكة. ولما كان والدها قد
وجه إليها هذا السؤال دون أدنى ارتياب، فلم تشعر بأي ضيق حين
كرره عليها. ولم يسبق لإليزابيث أن شعرت بمثل هذه الحيرة في سعيها
لإظهار غير ما تبطن من مشاعر. وكان من اللازم لها أن تضحك في
الوقت الذي كانت تفضل فيه أن تذرف الدمع. لقد كدرها والدها بأشد
ما يكون من قسوة عندما ألمح إلى ما يشعر به مستر دارسي نحوها من
لا مبالاة. ولم تملك إلا أن تتعجب لمثل هذا العجز عن النفاذ إلى بواطن
الأمور، أو أن تخشى من احتمال أن تكون -على عكس والدها الذي لم
يرَ إلا أقل القليل- قد تخيلت أكثر مما يجب.

الفصل الثامن والخمسون

بدلاً من أن يتلقى مستر بينجلي من صديقه أي خطاب اعتذار كذلك الذي تكهنت إليزابيث بوصوله، إذ به يصحب دارسي إلى «لونجبورن» قبل مضيّ عدة أيام على زيارة ليدي كاثرين. ووصل الرجلان في وقت مبكر؛ وقبل أن تتمكن مسز بينت من إخباره عن رؤيتهم لخالته، وهو الأمر الذي جلست ابنتها لفترة من الزمن في خشية من حدوثه، اقترح عليهم بينجلي الذي أراد الانفراد بجين أن يخرجوا جميعاً للنزهة. ووافق الجميع. ولم يكن السير من عادة مسز بينت، أما ميري فلم يكن لديها من وقت الفراغ لحظة. ولكن الخمسة الباقين تأهبوا للمسير. على أن بينجلي وجين ما لبثا أن سمحا للآخرين بأن يسبقوهما. وتخلفا إلى الوراء، بينما أصبح على إليزابيث وكيثي ودارسي أن يسلبوا بعضهم بعضاً. ولم يقل أيُّ منهم كلاماً كثيراً؛ فقد كانت كيثي تخافه إلى حد لظمت معه الصمت، وكانت إليزابيث تحسم أمرها سرّاً على اتخاذ قرار يائس، أما هو فربما كان يفعل نفس الشيء.

وساروا ناحية بيت أسرة لو كاس؛ لأن كيتي كانت تريد زيارة ماريا. ولما لم تجد إليزابيث داعياً لأن تجعل من هذه الزيارة هدفاً عاماً لهم جميعاً، فقد استمرت تسير معه بجسارة بعد أن انفصلت عنهما كيتي. وحانت لحظة تنفيذ ما عقدت عليه العزم، فخاطبته على الفور بقولها بينما كانت شجاعته في أوجها:

- إني مخلوقة أنانية جداً يا مستر دارسي، ولست أعبأ بمدى إيذائي لمشاعر الآخرين طالما أردت التفرّج عن مشاعري. فلست أملك إلا أن أشكرك على كرمك الذي ليس له نظير إزاء شقيقتي المسكينة. فمنذ أن علمت بهذا الأمر وأنا شديدة اللهفة على الإقرار أمامك بمدى ما أشعر به من امتنان. ولو كان هذا الموضوع معروفاً عند أفراد أسرتي، لما كنت قد عبرت امتناني أنا وحدي.

فأجاب دارسي قائلاً بلهجة تختلط فيها الدهشة بالانفعال:

- إني آسف، آسف جداً لأنك قد علمتِ بأمر قد يسبب لك -إذا ما أُسيء فهمه- قلقاً واضطراباً. لم أكن أظن أن مسز جاردنر غير أهل للثقة في كتمان هذا الأمر.

- لا يجب أن تلوم زوجة خالي. فقد كان تهور ليديا في الحديث هو أول ما كشف لي أنك كنت على صلة بالموضوع. وبالطبع لم أستطع أن أخلد إلى الراحة حتى أعرف كل التفاصيل. دعني أكرر لك الشكر مرات ومرات باسم أفراد أسرتي جميعاً لهذا التعاطف الكريم الذي دفع بك لاحتمال كل هذه المشاق والإهانات في سبيل اكتشاف مكانهما.

فأجاب قائلاً:

- إذا كنت تريدني أن تشكرني، فليكن الشكر منك أنت وحدك.
ولن أحاول من ناحيتي أن أنكر أن رغبتني في إدخال السعادة إلى قلبك
كانت ضمن الحوافز التي دفعتني إلى ما فعلت، بل إنها زادت قوتها. أما
أفراد أسرنا فليسوا مدينين إليّ بشيء. فمع احترامي الكبير لهم، لم
أفكر إلا فيك.

واستبد الحرج بإليزابيث بحيث عجزت عن النطق بكلمة واحدة.
وبعد فترة وجيزة، أضاف صاحبها يقول:

- إنك من كرم النفس بحيث لا تستخفين بمشاعري. فإذا كانت
إحساساتك نحوي لا تزال كما كانت في شهر أبريل الماضي، خبريني
بهذا في الحال. إن مشاعري وأمنياتي لا تزال على عهدهما لم تتغير؛
ولكن كلمة واحدة منك سوف تلزمني الصمت بشأن هذا الموضوع إلى
الأبد.

وإذا استولى على إليزابيث شعور طاغ بالحرج والجزع لما هو فيه،
فقد بذلت من نفسها جهداً للحديث، وأفهمته من فورها - وإن لم يكن
بطلاقة كبيرة - أن مشاعرها قد تغيرت تغيراً عظيماً منذ الوقت الذي
أشار إليه، الأمر الذي يجعلها تتلقى بامتنان وسرور تأكيدات الحال.
وكان من نتيجة هذا الرد أن شعر بسعادة ربما لم يشعر بمثلها من قبل؛
فعبّر عن مشاعره في تلك المناسبة بتأثر وانفعال خليقين برجل متيم.
ولو قدر لإليزابيث أن تواجه عينيه، لأمكنها أن ترى كيف كان التعبير
عن الفرح الحقيقية، الذي انتشر على ملامح وجهه كلها لا ثقاً به تماماً.
ولكن برغم أنها لم تستطع أن تتطلع إليه، فقد كان بإمكانها أن تنصت.

وأفصح لها عن مشاعر أكد لها بمقتضاها مدى أهميتها عنده، الأمر الذي ضاعف من قيمة محبته عندها.

وسارا على غير هدى، فقد كان هناك الكثير مما يشغل الفكر والشعور والحديث، بحيث تعذر عليهما الانتباه لشيء آخر. وما لبثت أن عرفت أنهما كانا مدينين لحسن تفاهمهما الحالي إلى جهود خالته التي زارته في أثناء عودتها عن طريق لندن، وروت له تفاصيل رحلتها إلى «لونجبورن»، ودافع هذه الرحلة ومضمون حديثها مع إليزابيث، مع التركيز بالذات على كل ما عبرت عنه إليزابيث من آراء فهمتها سيادتها على أساس ما أوحى به من صلابة رأي ووقاحة، معتقدة أن مثل هذه الرواية لا بد أن تعضد محاولاتها الرامية إلى الحصول من ابن أختها على الوعد الذي رفضت هي أن تقطعه على نفسها. ولكن ما روته أتى بأثر يختلف تمامًا عما قصدت إليه سيادتها، لسوء حظها. وقال لها:

- لقد راودني بعد كلامها الأمل على نحو لم أسمح به لنفسي من قبل. لقد كنت على علم كافٍ بطباعك بحيث أيقنت أنه لو كنت مصممة على رفضي رفضًا باتًا قاطعًا لكنت قد اعترفت بذلك لليدي كاثرين بمنتهى الصراحة والوضوح.

واحمرت وجتأ إليزابيث وضحكت وهي تجيبه قائلة:

- نعم، فأنت تعرف عن صراحتي ما يكفي لاعتقادك بقدرتي على فعل ذلك. فبعد أن أسأت إليك على هذا النحو الفظيع وجهًا لوجه، لم أكن لأتردد في الإساءة إليك أمام كل أقاربك.

- ما هذا الذي قلته عني ولم أستحقه؟ إن اتهاماتك لي وإن لم تكن

مستندة على أساس سليم، وبرغم أنها بُنيت على مقدمات خاطئة، إلا أن سلوكي نحوك في ذلك الوقت كان يستحق أعنف اللوم. لقد كان يستعصي على الصفح والغفران. إني لا أستطيع أن أفكر فيه دون استبشاع.

فقلت إليزابيث:

- لن نتعارك على أننا كان أجدر بالنصيب الأوفى من اللوم في ذلك المساء. فلئن فحصنا سلوكنا معًا بدقة، لوجدنا أن كلامنا يستحق التعنيف. ولكننا أحرزنا تقدمًا فيما أظن فيما يتعلق بقواعد الأدب منذ ذلك الوقت.

- لا يمكنني أن أصفح عن نفسي بمثل هذه السهولة. إن تذكري لما قلت حينذاك، ولسلوكي وطباعي وتعبيراتي طوال ذلك المساء، لا يزال حتى الآن - بل ظل شهور كثيرة - يؤلمني لأبعد حدود الإيلام. إني لن أنسى أبدًا لومك الذي كان في محله تمامًا: «لو كنت قد سلكت بطريقة أشد من هذه تهديًا». تلك كانت كلماتك. وأنت لا تعرفين، بل لا تكادين تدركين كيف عذبتني هذه الكلمات؛ برغم أنني أعترف أن فترة من الوقت قد انقضت قبل أن أكون من الفطنة بحيث أقر بصدقها.

- لقد كنت بالتأكيد أبعد من أن أتوقع منها هذا التأثير القوي؛ ولم تخطر لي أدنى فكرة عن احتمال شعورك بها على نحو ما شعرت.

- أصدقك في هذا بسهولة. ففي ذلك الوقت كنت تظنيني خاليًا من كل شعور سديد؛ إني على يقين من هذا. لن أنسى ما حييت ذلك التعبير الذي ارتسم على وجهك حين قلت إني ما كان باستطاعتي التقدم إليك على أي نحو يحملك على قبولي.

- لا تكرر ما قلته حينذاك، فهذه الذكريات لن تأتي بنفع يُرجى.
أؤكد لك أنه مضى عليّ وقت طويل شعرت فيه من جرائها بالخجل العميق.

وتعرض دارسي إلى خطابه، وقال:

- هل، هل حدا بكِ بسرعة إلى تحسين رأيك فيّ؟ هل صدقتِ ما جاء به بمجرد قراءته؟

وأوضحت له طبيعة الأثر الذي تركه على نفسها، وكيف أن أهواءها السابقة قد بدأت تتلاشى بالتدريج. فقال لها:

- كنت أعرف أن ما كتبه لا بد أن يسبب لكِ ألمًا، ولكنه كان أمرًا لا محيص عنه. أرجو أن تكوني قد تخلصتِ من هذا الخطاب. إن فيه جزءًا -وعلى الأخص سطره الأولى- أخشى عليكِ من قراءته ثانية. أستطيع أن أتذكر بعض التعبيرات التي قد تعطيكِ الحق في كراهيتي.

- سيُحرق الخطاب بالتأكيد، إذا كنت ترى ذلك ضروريًا لاحتفاظك بإعزازي لك، ولكن برغم أن كلينا نعتقد بحق أن آرائي من الميسور تغييرها، إلا أنها لا تتغير، فيما آمل، بهذه السهولة التي يوحى بها هذا الاعتقاد.

فأجاب دارسي قائلاً:

- عندما كتبت ذلك الخطاب، كنت أظن نفسي في تمام الهدوء والبرود. ولكنني اقتنعت منذ ذلك الوقت بأن الخطاب قد كُتب بروح شديدة المرارة.

- ربما كان الخطاب قد بدأ فعلاً بمرارة، ولكنه لم ينتهِ على نفس النحو. فقد كان الوداع فيه مثلاً لدوافع الخير والشهامة. ولكن لا تفكر بعد الآن في هذا الخطاب، فمشاعر الشخص الذي كتبه من ناحية والذي تسلمه من ناحية أخرى تختلف الآن اختلافاً بيناً عما كانت عليه حينذاك، بحيث يتحتم علينا نسيان كل الظروف المكدرّة التي صاحبتّه. ولا بد لك أن تتعلم شيئاً من فلسفتي: لا تفكر في الماضي إلا إذا جنيت من ذكرياته السرور.

- لا أستطيع أن أشهد لك بأي فلسفة من هذا النوع، فلا بد أن تكون نظرتك إلى الماضي خالية تماماً من أي ملامة، بحيث إن رضاك النابع منها لا يعتبر ناشئاً عن فلسفة، بل عن خلو البال، وهو أفضل كثيراً. ولكن الأمر معي مختلف تماماً. فالذكريات الأليمة تلح عليّ إلحاحاً، بحيث لا يمكن، بل لا يجب مقاومتها. لقد كنت إنساناً أناثياً طوال حياتي، عملياً إن لم يكن نظرياً. ففي طفولتي تعلمت كل ما هو صواب، ولكني لم أتعلم كيف أقوم طباعي. لقد أعطيت مبادئ طيبة، ولكني تركت أطقها في كبرياء وزهو. ولما كنت لسوء الحظ الابن الوحيد (والطفل الأوحّد لسنين عدة) فلقد أفسدني والداي اللذان سمحا لي، برغم كونهما خيرين، (وعلى الأخص أبي الذي كان مثلاً لكل ما هو خير وودود)، وشجعاني، بل إلى حدّ ما علماني أن أكون أناثياً متسلطاً غير عابئ بمن كان خارج حدود أسرتي، عديم التقدير لبقية الناس أجمعين، ميالاً على أقل تقدير إلى إساءة الظن بفكرهم وفضلهم بالمقارنة بشخصي. هكذا كنتُ ابتداءً من الثامنة حتى الثامنة والعشرين من عمري، وهكذا كان

يمكن أن أستمِر لولائكِ يا إليزابيث يا أعز الأعرّاء وأجمل الجميلات! يا لكثرة ما أدين به إليك! لقد علمتني درسًا نافعًا للغاية، وإن بدا في أول الأمر صعبًا حقًا. لقد اكتسبت بتأثيرك ما يجعل بي من اتضاع. إني جئت إليك دون أن يخالجنِي شك في قبولك لي، فإذا بك تكشفين لي عن قصور كل ادعاءاتي عن إرضاء امرأة تستحق كل إرضاء.

- أو كنت مقتنعًا إذن بوجوب رضائي بك؟

- فعلاً، وإلا فماذا تظنين بزهوي وخيلائي. لقد وثقت من أنك كنتِ تتمنين بل تتوقعين توددي إليك.

- لا بد أن سلوكي كان خاطئًا، ولكن ثِق أن هذا كان عن غير عمد، فلم أقصد أبدًا خداعك، أما طباعي فكثيرًا ما كانت تُضلني. ما أشد ما كرهتني بعد ذلك المساء!

- كرهتك! ربما شعرت بالغضب أول الأمر. ولكن غضبي ما لبث أن بدأ يتخذ اتجاهه الصحيح.

- أكاد أخشى أن أسألك عن ظنك بي عندما التقينا في «بيمبرلي». أوجدت في مجيئي أي مبرر للوم؟

- أبدًا بالمرّة، فلم أشعر إلا بالدهشة.

- إن دهشتك لا يمكن أن تكون قد فاقت دهشتي، حينما التقيت بك. ودلني ضميري على أنني لم أستحق مجاملة غير عادية. وأعترف لك بأنني لم أتوقع أن أحظى بأكثر مما أستحق.

فأجاب دارسي بقوله:

- كان هدفي عندئذ أن أظهر لك، بكل ما في طوقي من أدب، أنني لم أكن من الوضاعة بحيث أشعر بالامتعاض مما حدث في الماضي. وكنت آمل في الحصول على عفوك، والتخفيف من سوء ظنك عن طريق إظهارى لك أن توبىخك قد صار موضع اهتمام من جانبى. وأكاد لا أعرف متى بالضبط راودت قلبى آمال أخرى، ولكنى أعتقد أنني شعرت بها بعد أن التقيت بك بحوالى نصف ساعة.

ثم أطلعها بعد ذلك على سرور جوريجيانا بمعرفتها، وعلى خيبة أملها للانقطاع المفاجئ لهذه العلاقة؛ وأدى هذا بالطبع إلى الحديث عن سبب هذا الانقطاع. فعرفت منه أن قراره بالسفر في أثرها من «داربيشير» سعيًا وراء أختها قد اتخذ في النُّزُل قبل مغادرته له، وأن جديته واستغراقه في الفكر آنذاك لم يكن لهما من سبب إلا المشكلات التي ستنشأ حتمًا من مثل هذا السعي.

وعبرت عن شكرها له مرة أخرى، ولكن هذا الموضوع كان مؤلمًا لكل منهما بحيث فضلًا عدم الخوض فيه.

وبعد أن سارا على مهل بضعة أميال، وقد انغمسا في الحديث فلم يفتنا لما حولهما، أدركا آخر الأمر عند النظر في ساعتيهما أن وقت عودتهما للمنزل قد حان.

- تُرى أين مستر بينجلي وجين؟!

وكان هذا التعجب سببًا في فتح باب الحديث في موضوعهما. وكان دارسى سعيًا بخطبتهما، فقد أنبأه صديقه بها حال إتمامها. وقالت إليزابيث:

- ينبغي أن أسألك ما إذا كنت قد دُهِشت لهذا الخبر؟
- على الإطلاق. فعندما سافرت إلى لندن، كنت أشعر أن الأمر سيتم بشكل عاجل.
- هذا معناه أنك قد أصدرت الإذن بذلك. لقد تكهنت بهذا.
- وبرغم أنه أبدى تعجبه لهذا التعبير، إلا أنها أدركت أن تقديرها للأمر لم يجاوز الحقيقة كثيراً. وخاطبها بقوله:
- في المساء السابق على سفري إلى لندن، اعترفت له بأمر كان يجب أن أعترف به منذ زمن طويل. فقد بحث له بكل الأحداث التي جعلت من تدخلني السابق في شؤونه سخافة وسفاهة. وكانت دهشته عظيمة، فلم يكن قد رواده أدنى ظن، وفضلاً عن ذلك فقد أخبرته بخطئي في الافتراض بأن شقيقتك كانت قليلة الاهتمام به، وهو ما كنت أراه فيما مضى. ولما كانت قد أدركت بسهولة أن تعلقه بها لم يفتر، فلم يخالجنني شك في سعادتهما معاً.
- ولم تملك إليزابيث إلا أن تبسم لقدرته على توجيه صديقه بسهولة.
- وقالت له:
- هل بنيت رأيك على ملاحظتك الخاصة عندما أخبرته بأن شقيقتي تحبه، أو على مجرد ما أنبأتك به في الربيع الماضي؟
- على ملاحظتي؛ فقد لاحظتها عن قرب خلال الزيارتين اللتين قمت بهما هنا مؤخراً، واقتنعت بصدق عاطفتها.
- وقد أدى تأكيدك من هذا فيما أظن إلى إقناعه في الحال؟

- نعم؛ فبينجلي رجل حيي دون افتعال. وقد منعه حياؤه من الاعتماد على رأيه الخاص في مسألة حساسة مثل هذه، ولكن ارتكانه إلى رأيي جعل كل شيء سهلاً. وقد اضطررت إلى الاعتراف بأمر واحد أساء إليه، وبحق، لفترة من الزمن. فلم أستطع السماح لنفسي بأن أكرم عنه خبر وجود شقيقتك في لندن طوال أشهر ثلاثة في الشتاء الماضي، ومعرفتي بهذا الأمر وتعمدي إخفاءه عنه. وغضب لهذا. ولكنني أثق أن غضبه لم يدم طويلاً بعد أن زالت من قلبه الشكوك في مشاعر شقيقتك. لقد سامحني الآن بإخلاص.

وتأقت إليزابيث للقول بأن مستر بينجلي كان دائماً صديقاً لطيفاً للغاية، وأنه كان سهل القياد، وأن فضائله لا تُقدَّر، ولكنها ضبطت نفسها. فقد تذكرت أن دارسي لا بد أن يتعلم كيف يحتمل تندر الناس به. على أن الوقت لم يكن قد حان لمثل هذا الأمر. واستطرد في الحديث عن توقعه لما سوف يحظى به بينجلي من سعادة، وإن كانت تلك السعادة بطبيعة الأمور لا ترقى إلى سعادته؛ وهكذا حتى بلغا البيت. وفي القاعة افترقا كلٌّ إلى سبيله.



الفصل التاسع والخمسون

- يا عزيزتي ليزي، إلى أين حملتكِ قدامكِ؟

كان هذا هو السؤال الذي وجهته جين إلى إليزابيث بمجرد دخولها الحجرة، والذي وجَّهه إليها جميع الحاضرين بعد أن جلسوا إلى المائدة. ولم تجد ما تقوله إجابة عن السؤال إلا أنهما تجولا هنا وهناك حتى استعصى عليها معرفة وجهتها. واحمرت وجتتاها وهي تتكلم، ولكن حديثها وتضرج وجهها لم يثيرا في الحاضرين أي ريبة فيما يختص بحقيقة الأمر.

وانقضى المساء في هدوء، ولم يتميز بشيء غير عادي. وتحدث العاشقان المعترف بهما وضحكا، أما غير المعترف بهما فقد لزمَا الصمت. فلم يكن من طبع دارسي أن يعبر عن سعادته في فيض من المرح؛ أما إليزابيث ذات المشاعر المهتاجة المضطربة فكان علمها بسعادتها يفوق إحساسها بهذه السعادة، فإلى جانب شعورها بالحرج الشديد، كان أمامها عدد من المكافآت الأخرى. فقد توقعت شعور أفراد الأسرة المنتظر عندما يعرفون موقفها. وكانت تدرك أنه لم يكن محبوباً من أحد باستثناء جين، بل كانت تخشى من أن الآخرين يشعرون نحوه بكرهية يستحيل أن تمحوها ثروته الطائلة ومكانته المرموقة.

وعندما حل الليل فتحت قلبها لجين. وبرغم أن صفة الارتياب في أقوال الناس كانت أبعد ما تكون عن خصال مس بينت بوجه عام، إلا أنها رفضت بتأتًا أن تصدق ما سمعته.

- أنتِ تمزحين يا ليزي. هذا مستحيل! مخطوبة لمستتر دارسي! لا، لا؛ لن تخدعيني بهذا القول. إنني أعرف أن هذا محال.

- هذه بداية نعسة حقًا! لقد كنت أعتد عليك من دون الآخرين، وإنني واثقة أن الجميع لن يصدقوني إذا كنت تشكين في قلبي. ومع ذلك فأنا جادة فعلاً، ولست أقول إلا الحق. إنه لا يزال يحبني ونحن مخطوبان. ونظرت إليها جين نظرة شك.

- هذا مستحيل يا ليزي؛ فأنا أعرف مدى كراهيتك له.

- أنتِ لا تعرفين شيئاً، ولا بد أن يُنسى كل هذا. ربما لم أكن أحبه في الماضي مثلما أحبه الآن. ولكن الذاكرة القوية تُعتبر في مثل هذه الحالات ذنباً لا صفح له. وهذه هي المرة الأخيرة التي أسمح فيها لنفسني بتذكر ما كان.

وظلت مشاعر مس بينت نهباً للعجب. وأكدت لها إليزابيث مرة أخرى حقيقة ما تقول وبلهجة أكثر جدية.

وصاحت جين قائلة:

- يا للعجب! أيمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ ومع ذلك فلا بد أن أصدقك. أريد يا عزيزتي ليزي أن أهتلك، بل إنني أهتلك فعلاً. ولكن هل أنتِ واثقة -اصفحي عن هذا السؤال- هل أنتِ واثقة تمامًا من سعادتك معه؟

- ليس هناك شك في ذلك. لقد حسمنا أمرنا بالفعل على أن نكون
أسعد زوجين في الدنيا. ولكن هل أنتِ مسرورة يا جين؟ أتحبين أن
يكون لكِ زوج أخت مثل هذا؟

- جدًّا، جدًّا. ليس هناك ما يمكن أن يسعد بينجلي أو يسعدني أكثر
من هذا. ولكننا تدبرنا الأمر، بل تحدثنا فيه كمسألة مستحيلة. أو تحبينه
كما يجب؟ آه يا ليزي، افعلي ما تشائين إلا أن تتزوجي دون حب. أو ائققة
أنتِ تمامًا من أن شعوركِ في محله؟

- نعم، وإنكِ ستدركين أنني أشعر بأكثر مما ينبغي عليّ الشعور به
عندما أطلعكِ على كل شيء.

- ماذا تقصدين؟

- حتم عليّ أن أقر بأنني أحبه أكثر مما أحب بينجلي. أخشى أن
تغضبي من هذا القول!

- ليزي يا أعز الأعراء، كوني جادة. أريد أن أتحدث بمنتهى الجدية.
أطلعيني على كل ما يحق لي علمه دون تأخير. هل لكِ أن تخبريني منذ
متى شعرتِ نحوه بالحب؟

- قد أخذت أشعر بحبه درجة فدرجة، بحيث أكاد لا أعرف متى
بدأ هذا الحب. ولكن يُخَيَّل إليّ أنه بدأ منذ أن رأيت لأول مرة موجه
الجميلة التي تحوط «بيمبرلي».

وألحفت عليها جين مرة أخرى في الرجاء بأن تكون جادة في
حديثها، فأتى هذا الرجاء بالأثر المطلوب، وما لبثت أن طمأنت جين

بأن أكدت لها ارتباطهما معًا. وإذا اقتنعت مس بينت بهذا الأمر، لم تجد ما ترغب فيه بعد ذلك. وقالت:

- أنا الآن في غاية السعادة. إذ سوف يكون نصيبك من السعادة مثل نصيبي. إنني دائمًا ما شعرت بقيمة شخصيته. ولو لم يكن في الأمر سوى حبه لك، لكان عليّ أن أحترمه على الدوام. أما الآن، فبصفته صديقًا لبينجلي وزوجًا لك، لن يكون هناك سوى بينجلي وسواك من هما أدنى إلى قلبي وأعز. ولكنك يا ليزي كنتِ شديدة المكر معي وشديدة التحفظ. فما أقل ما رويته لي عما حدث في «بيمبرلي» و«لامبتون»! إنني مدينة بكل ما أعرف عن هذا الموضوع لشخص آخر وليس لك.

وأخبرتها إليزابيث بدوافع تكتمها. فقد كانت غير راغبة في الإشارة إلى بينجلي، كما أن عدم الاستقرار فيما يختص بمشاعرها قد حدا بها بالمثل إلى تحاشي اسم صديقه. أما الآن فلن تستمر في أن تحجب عنها دوره في زواج ليديا. واعترفت لها بكل شيء، وانقضى نصف الليلة في الحديث.

وفي صباح اليوم التالي، صاحت مسز بينت قائلة وهي تقف بالقرب من نافذة:

- عجبًا! ها هو ذلك الشخص البغيض مستر دارسي يأتي إلينا ثانية بصحبة عزيزنا بينجلي! ماذا يقصد بسلوكه المضجر هذا حين لا يكف عن المجيء إلى هنا؟ لا أظن إلا أنه ذاهب للصيد أو شيء من هذا القبيل، فلا يزعجنا بصحبته. ماذا سنفعل به؟ ليزي، عليك باصطحابه للنزهة ثانية حتى لا يعوق بينجلي.

ولم تكذب إليزابيث تمالك نفسها من الضحك إزاء هذا العرض المناسب للغاية، إلا أنها تكدرت فعلاً لهذا الوصف الذي كانت أمها تلحقه به دائماً.

وما إن دخلا، حتى نظر إليها بينجلي نظرة ذات معنى، وصافحها بحرارة شديدة دلت من دون شك على علمه بالخبر. ولم ينقض وقت حتى قال بصوت عالٍ:

- أليس لديك حول البيت يا مسز بينت ممرات أخرى تتوه فيها ليزي اليوم ثانية؟

فقالت مسز بينت:

- إنني أنصح مستر دارسي وليزي وكيكي بالمسير إلى «أوكهام ماونت» هذا الصباح. إنها مسيرة طويلة ولطيفة، فضلاً عن أن مستر دارسي لم يسبق له أن شهد هذا المنظر.

فأجاب بينجلي قائلاً:

- قد يصلح هذا تماماً لدارسي وليزي، ولكنني أعتقد أن الأمر سيكون صعباً على كيكي. أليس كذلك يا كيكي؟

وصرحت كيكي بأنها تفضل البقاء في البيت. وأبدى دارسي فضولاً شديداً لرؤية المنظر من فوق الجبل، وامثلت إليزابيث في سكون. وإذ صعدت للطابق العلوي لتتھيا للرحلة، تبعها مسز بينت قائلة:

- إنني آسفة أشد الأسف يا ليزي لاضطرارك إلى الانفراد بهذا الرجل البغيض، ولكنني أرجو ألا تحملي لذلك همًا. إنك تفعلين هذا

في سبيل جين كما تعرفين. ولن تطراً لك مناسبة للحديث معه إلا بين الحين والحين، ومن ثم فلا تثقلي على نفسك بالأمر.

واتفقا في أثناء سيرهما على أن يسعى دارسي للحصول على موافقة مستر بينت خلال المساء، واحتفظت إليزابيث لنفسها بمهمة السعي لطلب موافقة والدتها. ولم تكن على ثقة من الطريقة التي ستلقى بها أمها الخبر. إذ كانت في بعض الأحيان تشك فيما إذا كان ثراء الرجل العريض ومركزه يكفيان لجعلها تغلب على مقتها له. ولكن سواء كانت عنيفة في معارضتها للزواج؛ أو عنيفة في ابتهاجها به، فقد كان من المؤكد أن سلوكها سيكون في الحالتين غير موفق في الإشادة بحسن إدراكها للأمور. وما كان ليتمكنها أن تحتمل إنصات مستر دارسي لأول ما يصدر عن فرحتها الغامرة من تعبيرات الطرب، الأمر الذي كان يعد في نظرها أشد سوءاً من إنصاته إلى أول ما يدفعها إليه استنكارها من تصريحات عنيفة.

وفي المساء، ما إن انسحب مستر بينت إلى المكتبة، حتى رأت مستر دارسي ينهض أيضاً ويتبعه. وانفعلت لرؤية هذا الأمر إلى حد بعيد. ولم تكن تخشى اعتراض أبيها، ولكنه كان سيشعر بالتعاسة. فأن تكون هي السبب، أن تكون هي -فتاته الأثيرة عنده- سبباً في تكديره باختيارها، سبباً في إشعاره بالمخاوف والحسرة وقت افتراقها عنه، لهو تفكير يورث التعاسة. وجلست في شقاء حتى ظهر مستر دارسي ثانية، ولم تشعر بتحسن طفيف إلا حين نظرت إليه فوجدته يتسم. ولم تمضِ بضع دقائق، حتى دنا من المائدة حيث كانت تجلس مع كيتي، وبينما تظاهر بإبداء إعجابه بما يبيديها من نسيج تطرزه، قال لها هامساً:

- اذهبي إلى والدك، فهو يريدك في المكتبة.

وراحت من فورها.

وكان والدها يذرع الحجرة جيئةً وذهاباً، وقد بدت عليه ملامح الرصانة والقلق. وقال لها:

- ليزي، ماذا تفعلين؟ هل جنتِ حتى تقبلي هذا الرجل؟ ألم تكرهه دائماً؟

وما أشد ما تمنيت في حرارة إذ ذاك أن تكون آراؤها السابقة أشد تعقلاً عما كانت وتعبيراتها أشد اعتدالاً! لقد كان ذلك سيخلصها من تفسيرات وتأكيدات أصبح في إبدائها أشد الحرج لها. ولكنها أصبحت الآن لازمة؛ فأكدت له بلهجة يشيع فيها بعض الارتباك تعلقها بمستمر دارسي.

- أو بمعنى آخر فقد استقر رأيك على الزواج به. فالحق أنه رجل ثري، ومن ثم فقد يكون لك ملابس وعربات أفخر مما سيكون لدى جين. ولكن هل ستجعلك هذه الأشياء سعيدة؟
فقالت إليزابيث:

- هل لديك أي اعتراض آخر خلاف ما تظنه من عدم اكتراثي به؟
- لا اعتراض لي على الإطلاق، فنحن جميعاً نراه رجلاً متكبراً بغضباً. ولكن هذا كله لا قيمة له إذا كنت تحببته حقاً.

فأجابت قائلة والدموع تترقرق في عينيها:

- أحبه، أحبه فعلاً. إن كبرياءه ليست في الحق صلفاً. إنه لطيف

غاية اللطف، وأنت لا تعرف حقيقة شخصيته. أرجوك إذن ألا تؤلمني بالحديث عنه بمثل هذه الأوصاف.

فقال والدها:

- اسمعي يا ليزي، لقد منحتة موافقتي. إنه من النوع الذي لا أجسر على رفض أي مطلب يتفضل بإبداء رغبته فيه. وأنا الآن أحيل الأمر عليك في حالة ما إذا كنت مصممة على الزواج منه. ولكن دعيني أنصحك بإمعان الفكر في هذه المسألة. فأنا أعرف طبعك يا ليزي، أعرف أنك لن تكوني سواء سعيدة أو محترمة إلا لو كنت تقدرين زوجك حق التقدير، إلا لو كنت تنظرين إليه باعتباره شخصاً راقى الفكر. إن مواهبك المتوقدة سوف تلقي بك في خطر شديد إذا عشت في ظل زواج غير متكافئ. ونادراً ما سيمكنك تفادي الضياع والتعاسة. يا فتاتي، لا تدعيني أحزن لرؤيتك عاجزة عن احترام شريكك في الحياة. أنت لا تعرفين ما أنت مقدمة عليه.

وكانت إليزابيث في إجابتها جادة ورصينة، ورغم ازدياد تأثر مشاعرها. وأخيراً، وبعد تأكيدات المتكررة بأن مستر دارسي كان فعلاً موضع اختيارها، وبعد توضيحها للتغير التدريجي الذي طرأ على تقديرها واحترامها له، وبسطها لثقتها الوطيدة في أن حبه لبس وليد لحظة خاطفة وإنما هو شعور صمد لاختبار شهور كثيرة من الترقب والانتظار، وتعدادها بحماس طاغ لكل خصاله الحميدة، استطاعت أخيراً أن تتغلب على ريبة والدها وأن تحظى برضاه عن هذا الزواج.

وقال لها عندما انتهت من حديثها:

- حسن يا عزيزتي، ليس لديّ ما أقوله، فلو كان هذا هو الحال لكان مستحقاً لك. إني ما كنت أستطيع الافتراق عنك يا عزيزتي ليزي فأسلمك لرجل أقل من هذا شأنًا.

وسعيًا منها لإكمال التأثير المناسب على والدها، روت له بعد ذلك ما قام به مستر دارسي طوعية من أجل ليديا. واستمع إليها بدهشة.

- هذه في الحق أمسية مليئة بالعجائب! إذن فدارسي قد فعل كل شيء. فهو الذي رتب الزواج وقدم المال وسدد ديون الرجل وأتاه بالوظيفة! هذا عظيم جدًّا؛ فسوف يوفر عليّ هذا قدرًا هائلًا من المتاعب والاقتصاد في النفقات. فلو كان خالك هو الذي فعل كل هذا، لصار لزامًا عليّ أن أسدد له ما دفع. ولكنّ هؤلاء العشاق الشباب ذوي المشاعر الجياشة يتصرفون حسبما تهوى عواطفهم. سأحاول أن أعرض عليه ما لا في الغد، ولسوف يثور مبررًا ما فعله بحبه لك، وتنتهي المسألة عند هذا الحد.

ثم تذكر بعد ذلك ما استشعرته من حرج منذ بضعة أيام حين قرأ عليها خطاب مستر كولنز، وبعد أن تندر عليها بعض الوقت، سمح لها أخيرًا بالخروج، وقال لها وهي تغادر الحجرة:

- إذا جاء رجلان يطلبان يديّ ميري وكيّتي، هاتهما إليّ، فليس لديّ ما يشغلني.

وتخفف بال إليزابيث الآن من حمل ثقيل للغاية. وبعد أن قضت نصف ساعة في حجرتها مستغرقة في تأمل هادئ، استطاعت أخيرًا أن

تلتحق بالآخرين وقد سكنت نفسها إلى حدٍّ ما. وحان الآن وقت الانسراح والسعادة، ولكن المساء انقضى في هدوء. ولم تكن إذ ذاك تخشى شيئاً ذا قيمة، أما راحة السكينة والألفة فستحل في وقتها المناسب.

وعندما صعدت أمها في الليل إلى حجرة ملابسها، تبعتها وأعلنت لها الخبر الهام. وكان تأثير النبأ على مسز بينت في غاية الغرابة. فبمجرد أن سمعته، تولاهما الصمت وعجزت عن النفوه بحرف واحد. كذلك فقد مضت دقائق كثيرة وكثيرة قبل أن تدرك مغزى ما سمعت، برغم أنها لم تكن عموماً تتأخر عن تصديق كل ما كان في مصلحة بناتها، أو عن الثقة بكل من وشت ملامحه باحتمال أن يكون في يوم ما حبيباً لأيٍ منهن. وبدأت آخر الأمر تستعيد قدرتها على فهم الأمور، وتتململ في مقعدها، ثم نهضت وجلست وتعجبت واندذهشت:

- عجباً! تصوري! يا سلام! مستر دارسي! مَنْ كان يتصور؟ أو حقُّ هذا فعلاً؟ آه يا ليزي يا أجمل الناس عندي، أي ثراء وأي عظمة سيكونان من نصيبك! أي نقود لإنفاقك الشخصي وأي جواهر وأي عربات! إن جين لا تساوي بجانبك شيئاً، لا تساوي شيئاً أبداً. إني شديدة السرور، شديدة السعادة. يا له من رجل ساحر! يا له من رجل وسيم وممشوق القوام! يا عزيزتي ليزي، أرجوك أن تعتذري نيابة عني لأنني كرهته فيما مضى لهذا الحد البعيد، أُملي أن يصفح. ليزي يا عزيزتي، يا عزيزتي. منزل في لندن! كل ما هو ساحر وفتان! ثلاث بنات متزوجات! عشرة آلاف جنيه في العام! يا إلهي! ماذا سيحل بي؟ سأجن حتماً!

وكان هذا كافيًا للتدليل على أن موافقتها أمر لا شك فيه. وخرجت إليزابيث مسرورة؛ لأنها كانت الوحيدة التي سمعت ذلك السيل المتدفق من الكلمات. ولكن قبل انقضاء ثلاث دقائق على وجودها في حجرتها، لحقت بها أمها وهتفت قائلة:

- يا أعز بناتي، ليس بإمكانني أن أفكر في شيء آخر. عشرة آلاف جنيه في العام، وربما أكثر! كأنه أحد اللوردات! وتصريح خاص بالزواج؛ يجب أن تتزوجي بتصريح خاص. ولكن خبريني يا غالية، ما صنف الطعام الذي يفضلُه مستر دارسي حتى أنهياً لإعدادِه في الغد؟

وكان هذا فألاً سيئاً يشي بما سيكون عليه سلوك أمها إزاء الرجل نفسه. وأدركت إليزابيث أنها لا تزال تتمنى شيئاً معيناً، برغم وثوقها في حبه الجارف لها واطمئنانها إلى موافقة أهلها. ولكن الصباح التالي انقضى على نحو أفضل كثيراً مما توقعت. فلحسن الحظ أحست مسز بينت بالرهبة من زوج ابنتها المنتظر، بحيث لن تخاطر بمخاطبته، إلا في حالة استطاعتها توجيه اهتمامها إليه أو إظهار انقيادها لآرائه!

وسرت إليزابيث لمرأى والدها وهو يحاول جاهداً أن يتعرف به، وما لبث أن أكد لها أنه يرتفع في نظره بإطراد. وقال لها:

- إنني شديد الإعجاب بأزواج بناتي جميعاً. ولربما كان ويكهام هو أثرهم عندي، ولكنني أظن أنني سأعجب بزواجك بنفس درجة إعجابي بزواج جين.

الفصل الستون

طلبت إليزابيث من مستر دارسي -بعد أن استعادت من فورها طابعها المرح- أن يعلل سبب حبه لها أصلاً. وخاطبته بقولها:

- كيف يمكنك أن تبدأ؟ إنني أعرف قدرتك على الاسترسال بشكل رائع ما دمت قد عثرت على البداية. ولكن ما الذي يمكن أن تبدأ به؟

- لا أستطيع تحديد الزمان أو المكان أو النظرة أو الكلام الذي وضع للحب أساسه. لقد كان هذا منذ وقت طويل، وقد شعرت بأنني في منتصف الطريق قبل أن أعلم أنني بدأت المسير.

- لقد قاومت جمالي منذ وقت مبكر، وأما فيما يختص بسلوكي نحوك فقد كان على أقل تقدير أقرب ما يكون إلى الفظاظة، فلم أتحدث إليك أبداً إلا ورغبت أكثر من أي شيء آخر في إيلاكم. والآن، كن صادقاً هل أعجبت بي لوقاحتي؟
- أعجبت بك لتوقد ذهنك.

- يمكنك أن تُسمّي هذا وقاحة، فلم يكن سلوكي يقل عن هذا الوصف كثيراً. فالحق أنك كنت قد سئمت المجاملة وسهولة الانقياد والاهتمام المتطفل. لقد شعرت بالاشمئزاز من النساء اللاتي كن على

الدوام يسعين في حديثهن ونظراتهن وتفكيرهن إلى الاستحواذ على رضاك وحدك. أما أنا فقد أثرت انفعالك واهتمامك؛ لأنني كنت مختلفة عنهن أشد الاختلاف. فلو لم تكن أنت في واقع الأمر لطيفاً، لكرهتني بسبب سلوكي. ولكن برغم ما تجشمتها من مشقة في التخفي، كانت مشاعرك على الدوام نبيلة وقوية، وكنت تحتقر من أعماق قلبك أولئك اللاتي كن يخطبن ودك بدأب ومثابرة. ما رأيك؟ لقد وفرت عليك مشقة تفسير الأمر. والواقع أن هذا التفسير في اعتقادي معقول تماماً، إذا ما تدبرنا جميع الاعتبارات. فالحق أنك لم تكن تعرف عني شيئاً طيباً، ولكن ليس هناك من يفكر في هذا عندما يحب.

- ألم يكن هناك شيء طيب في سلوكك الودود نحو جين أثناء مرضها في «نيدر فيلد»؟

- عزيزتي جين! ومن ذا الذي كان يتصرف نحوها بأقل مما فعلت؟ ولكن لك أن تجعل من هذا التصرف فضيلة كما تريد. فخصالي الحميدة تحت رعايتك، ولك أن تبالغ فيها بأقصى ما تستطيع. وفي مقابل ذلك يكون من واجبي أن أتصيد المناسب لمكايدتك وللعراك معك كلما استطعت إلى ذلك سبيلاً. ولسوف أبدأ من فوري فأسألك عما جعلك قرب النهاية شديد العزوف عن التحدث بصراحة. ما الذي جعلك شديد الحياء مني عندما زرتنا أولاً، ثم حين تناولت طعام الغداء معنا بعد ذلك؟ ولماذا بدا عليك بوجه خاص -عندما زرتنا- كأنك لست عابئاً بي؟

- لأنك كنت جادة وصامتة، ولم تشجعيني على شيء.

- ولكنني كنت محرّجة.

- وكذلك أنا.

- كان يمكنك أن تفيض في الحديث معي عندما جيئت للغداء.

- ربما كان ذلك ممكنًا بالنسبة لرجل كان يشعر بأقل مما كنت أشعر به.

- من سوء الحظ أن تجد جوابًا معقولًا ترد به عليّ، وأن أكون أنا من التعقل بحيث أقبل هذا الجواب! ولكن إلّا ما ترى كنت ستستمر على هذه الحال لو تُركت وشأنك؟ ومتى يا ترى كنت ستتكلّم لو لم أكن قد سألتك؟ إن قراري بتوجيه الشكر لك على كرمك مع ليديا كان له بالتأكيد تأثير عظيم، بل عظيم جدًّا في ظني، وإلا فماذا يمكن أن يحدث للجانب الأخلاقي فينا لو صدرت راحتنا النفسية عن خيانة عهد؟ فما كان ينبغي عليّ أن أكشف الستار عن الموضوع. هذه بداية غير صالحة.

- لست بحاجة إلى تكدير نفسك، فالجانب الأخلاقي سيظل ناصعًا تمامًا. فمحاولات ليديا كاثرين لتفريقنا، تلك المحاولات التي لم يكن لها ما يبررها، كانت سببًا في إنهاء كل شكوكي. إنني لست مدينًا في سعادتي الراهنة لرغبتك المتلهفة في التعبير عن امتنانك. فلم أكن في حالة تسمح لي بالانتظار حتى تطرقي الموضوع. إن كلام خالتي قد أشاع في نفسي الأمل؛ فعزمت أن أعرف في الحال كل شيء.

- لقد كانت ليدي كاثرين ذات نفع لا يحد، وهو ما يجب أن يسعدها طالما أنها تحب أن تكون ذات نفع. ولكن خبرني، لِمَ جئت إلى «نيدر فيلد»؟ ألم يكن هناك لديك من سبب إلا أن تأتي إلى «لونجبورن» لتشعر بالحرج؟ أم تراك كنت تنوي أمورًا أخرى أشد جدية؟

- كان هدفي الحقيقي هو أن أراك، وأن أثبتن فيما لو كان يمكنني أن أمل في كسب قلبك. أما السبب الذي ادعيتَه، أو ذاك الذي زعمته لنفسِي، فقد كان رغبتِي في التأكّد مما إذا كانت شقيقتك لا تزال ميالة إلى بينجلي، والاعتراف له - في حالة ميلها إليه - بهذا الذي بحث له به بالفعل.

- أسيكون لديك من الشجاعة ما يجعلك تخبر ليدي كاثرين بما سيحدث لها؟

- ربما لا أكون يا إليزابيث بحاجة إلى الشجاعة بقدر ما أنا بحاجة إلى الوقت. ومع ذلك فهذا أمر لا بد منه. وإذا جئتني بورقة كتبت لها حالًا.

- ولو لم يكن لديّ أنا نفسي خطاب أكتبه، لكنت قد جلست إلى جوارك وامتدحت سلاسة خطك كما فعلت من قبل آنسة أخرى. ولكني أنا أيضًا لديّ خالة لا يصح أن أهملها أكثر من ذلك.

ولم تكن إليزابيث قد بعثت إلى مسز جاردنر برد على خطابها المطول، على أساس أنها كانت على غير استعداد للإقرار بمدى صحة مبالغة زوجة خالها في تقدير صلتها بمستر دارسي. أما الآن، فإذا كان

لديها ما لديها من أخبار كانت تعرف أنها ستصبح موضع ترحيب، فقد راودها شعور أشبه بالخجل حين رأت أن خالها وزوجة خالها قد افتقدا بالفعل ثلاثة أيام من السعادة. وفي الحال كتبت ما يلي:

كنت أود أن أشكرك من قبل يا زوجة خالي العزيزة -وهو ما كان ينبغي عليّ أن أفعله- على ما زودتني به من تفصيلات مطولة ورقيقة وشافية، ولكني والحق يقال كنت في أشد حالات الانشغال. لقد افترضت في خطابك ما كان يفوق الواقع فعلاً. أما الآن فافتراضي كما تشائين. لك أن ترخي العنان لخيالك، وتستسلمي لكل شطحات تصورك في هذا الموضوع؛ وفيما عدا ظنك بأنني قد تزوجت بالفعل، فلن يكون خطؤك كبيراً. لا بد أن تكتبي ثانية وفي أسرع وقت، وأن تغدقي عليه من المديح أضعاف ما فعلت في خطابك السابق. أكرر لك الشكر مرات ومرات على عدم ذهابكما لمنطقة «البحيرات»، فكيف أمكنني أن أكون من البلاهة بحيث أتمنى هذه الرحلة؟ إن فكرتك عن الفرسين رائعة. فلسوف نطوف بالروض كل يوم. إنني أسعد إنسان في الدنيا. ولربما كان آخرون قد قالوا نفس الشيء من قبل، ولكن أحداً منهم لم يكن له مثل ما لي من حق. إنني أشد سعادة حتى من جين، فجين تبسم ليس إلا، أما أنا فأضحك. يبعث لك مستر دارسي بكل الحب الذي يبقى لك بعدي. لا بد أن تأتوا جميعاً إلى «بيمبرلي» في عيد الميلاد.

المخلصة...

وكان خطاب مستر دارسي لليدي كاثرين مكتوبًا بأسلوب مختلف،
أما الخطاب الذي أرسله مستر بينت لمستر كولنز ردًا على خطابه
الأخير، فقد كان أشد اختلافًا من هذا وذاك.

سيدي العزيز... يجب عليّ أن أجشمك مرة أخرى مشقة
تقديم تهانيك لي، إذ لن تلبث إليزابيث أن تصبح زوجة مستر
دارسي. عليك بمواساة ليدي كاثرين على قدر ما تستطيع.
ولكنني لو كنت مكانك لانهزت إلى صف ابن أختها. إن عطاءه
أجزل.

أما تهاني مس بينجلي لشقيقها بمناسبة قرب زواجه، فكانت أبعد
ما تكون عن الإخلاص برغم اتسامها بالود. بل إنها كتبت لجين خطابًا
في هذه المناسبة. تعبر فيه عن ابتهاجها وتكرر كل مزاعمها السابقة عن
اعتزازها بها. ولم تخدع جين بهذا القول وإن كانت قد تأثرت. ومع أنها
لم تشعر بأي ثقة في كلامها، إلا أنها لم تملك غير أن تكتب لها ردًا أشد
رقة مما كانت تعلم أنها تستحقه.

وكانت الفرحة التي عبرت عنها مس دارسي لدى سماعها نفس
هذه الأنباء صادقة ومخلصة كفرحة شقيقها الذي أبلغها بها. ولم تكن
أربع صفحات بكافية لاحتواء بهجتها، ورغبتها الأكيدة في أن تنال حب
زوجتها أخيها.

وقبل أن يصل أي رد من مستر كولنز، أو أي تهانٍ لإليزابيث من
زوجته، سمعت أسرة «لونجبورن» أن مستر كولنز وزوجته قد وصلا
بالفعل إلى «لوكاس لودج». وسريعًا ما اتضح سبب هذا السفر

المفاجئ. فقد استولى على ليدي كاثرين غضب بالغ لدى قراءتها ما جاء بخطاب ابن اختها، لدرجة أن شارلوت التي تهللت بالفعل لأخبار هذا الزواج، كانت تواقّة للابتعاد حتى تهدأ العاصفة. وفي هذه اللحظة شعرت إليزابيث بسرور حقيقي لمجيء صديقتها، برغم أنه خُيِّل لها في بعض الأحيان أثناء لقاءاتهم، أن هذا السرور قد كلفها كثيراً حين كانت ترى مستر دارسي وقد أصبح هدفاً لمجاملات زوجها المفتعلة المتذلة. على أنه تحمل ذلك بهدوء يستحق الإعجاب. بل إنه استطاع أن ينصت بسكينة راضية إلى سير وليم لو كاس عندما هنأه على اقتناء أبهى جواهر البلاد، وعبر عن آماله في أن يلتقوا جميعاً بين الحين والحين في قصر سان جيمز. ولئن كان قد هز كتفيه امتعاضاً، إلا أنه فعل ذلك بعد أن كان سير وليم قد غاب عن الأنظار.

أما سوقية مسز فيليبس، فكانت امتحاناً آخر -وربما أصعب- لصبره واحتماله. وبرغم أن مسز فيليبس، شأنها شأن شقيقتها، قد شعرت تجاهه برهبة شديدة منعته من الحديث بنفس الألفة التي شجعتها عليها سلاسة طبع مستر بينجلي، إلا أنها كلما تحدثت في شيء كانت تصر على سوقيتها. كما لم يكن من المحتمل أن يدفعها احترامها له لأن تكون أشد تأنقاً في حديثها. وإن كان قد حثها على أن تصبح مقلة فيه. وبذلت إليزابيث كل ما في وسعها لتحميه من حديث أيهما، وكانت دائمة الاهتمام بشغل انتباهه ناحيتها وناحية أولئك الذين يستطيع أن يتحدث إليهم من أفراد أسرته دون أن يشعر بالامتعاض. وبرغم أن المشاعر المقلقة التي نشأت بسبب كل هذا قد حرمت فترة التودد هذه

من كثير من مباحثها، إلا أنها قد ضاعفت من آمال المستقبل؛ وأخذت
إليزابيث تتطلع بانسراح إلى الوقت الذي سيبتعدان فيه عن صحبة الناس
التي لا توفر لأيهما من المتعة إلا أقلها، وينتقلان إلى مجتمع أسرتهما
في «بمبرلي» حيث تتوافر جميع عناصر الراحة والأناقة.



الفصل الحادي والستون

تهللت مشاعر الأمومة عند مسز بينت في اليوم الذي تخلصت فيه من اثنتين من أشد بناتها فضلاً. ويمكننا أن نتكهن بمدى الزهو الطروب الذي استشعرته بعد ذلك وهي تزور مسز بينجلي وتحدث عن مسز دارسي. وبودي لو أقول -إكرامًا لخاطر أفراد أسرتها جميعًا- إن تحقيق رغبتها الجارفة التي تمثلت في زواج العدد الأكبر من بناتها قد استحدث أثرًا رائعًا جعلها طوال أيام حياتها الباقية امرأة عاقلة لطيفة سليمة الإدراك. ولكنه كان من حسن طالع زوجها الذي ربما لم يكن ليسيغ للسعادة المنزلية طعمًا في هذا الضرب غير المألوف من الحياة، أن ظلت بين الحين والحين تشكو من أعصابها وتتصرف بسذاجة على الدوام.

أما مستر بينت فقد افتقد ابنته الثانية إلى أبعد الحدود. وكان حبه لها يدفعه كثيرًا إلى الغياب عن البيت؛ وهو ما لم يستحبه إليه شيء آخر. فقد كان يشعر بالسعادة في الذهاب إلى «بيمبرلي» وبخاصة عندما لم يكن وصوله إلى هناك متوقعًا.

وأقام مستر بينجلي وجين في «نيدر فيلد» عامًا واحدًا. فلم يكن القرب الشديد من أمها ومن أقاربها القاطنين في «ميريتون» شيئًا مرغوبًا فيه، حتى برغم طبعه السلس وقلبها الودود. وهكذا تحققت الرغبة الأثيرة عند شقيقته، فقد ابتاع ضيعة في مقاطعة مجاورة «لداربيشير»؛ وأصبحت جين على مبعدة ثلاثين ميلًا من شقيقتها، بالإضافة إلى ما كانا تتمتعان به من مصادر السعادة كافة.

أما كيتي؛ فقد أصابت نفعًا جزيلاً بقضائها معظم وقتها مع شقيقتها الكبيرين. وتحسنت شخصيتها بشكل ملحوظ في ظل مجتمع أشد رقيًا مما كانت تعرفه عمومًا. فلم تكن مثل ليديا ذات مزاج نافر، ومن ثم فقد أصبحت مع الرعاية والتوجيه السديدين، فضلًا عن بُعدها عن تأثير ليديا، أقل جهلًا وتفاهة وتعرضًا للاستشارة. وحيل بينها بالطبع وبين تعرضها لأي ضرر جديد من جراء صحبة ليديا؛ فبرغم أن مسز ويكهام قد دعتها مرارًا للإقامة عندها، واستمالتها بالوعود بحفلات الرقص وصحبة الشباب، إلا أن والدها لم يوافق على ذهابها أبدًا.

وكانت ميري هي الابنة الوحيدة التي لزمّت المنزل. وكثيرًا ما كانت يُحال بينها وبين السعي للاستزادة من مصادر الكمال، بسبب عجز مسز بينت عن الجلوس بمفردها تمامًا. واضطرت ميري إلى الاختلاط بالعالم أكثر فأكثر، وإن ظلت مستمرة على عهدتها من حيث إصدار الأحكام والتعليقات على كل زيارة من زيارات الصباح. ولما لم تكن تشعر بالضيق من جراء ما يحدث من مقارنات بين جمال شقيقتها وجمالها، فقد خيّل لوالدها أنها استسلمت لما حدث في البيت من تغيير دون مضضٍ.

أما شخصيتا ويكهام وليديا، فلم يطرأ عليهما أي تغيير بعد زواج الأختين. فقد احتمل هو بتفلسف يقينه بأن إليزابيث لا بد أن تكون قد علمت بكل ما لم يكن معروفًا من قبل من جحوده وزيفه؛ وبرغم كل شيء لم يفقد الأمل تمامًا في إمكان استمالة دارسي لكفالة معاشه. وقد انضح لإليزابيث من خطاب التهئة الذي تسلمته من ليديا في مناسبة زواجها، أن مثل هذا الأمل كان يداعب خيال زوجته إن لم يكن يداعب خياله هو. وكان الخطاب كما يلي:

عزيزتي ليزي... أتمنى لك السعادة. إذا كنتِ تحبين مستر دارسي بمقدار نصف حبي لعزيزي ويكهام، لكنتِ ولا بد من السعادة في غاية. إنه لمن دواعي الراحة الشديدة أن أجدكِ في مثل هذا الشراء. وأملِي أن تفكرا فينا حين لا يكون هناك ما يشغل بالكما. إن ويكهام يود بالتأكيد أن يحظى بوظيفة في البلاط، ولست أظن أنه سيكون لدينا من المال ما يكفينا دون بعض العون. إن أي وظيفة ستكون مناسبة تمامًا في حدود حوالي ثلاثة أو أربعة آلاف جنيه في العام. ولكن لا تفتحي مستر دارسي في الموضوع إذا كنتِ لا تفضلين ذلك. المخلصة...

ولما كانت إليزابيث لا تفضل ذلك أبدًا، فقد حاولت في ردها أن تضع حدًا لكل رجاء وانتظار. على أنها كثيرًا ما كانت ترسل لهما من المال ما يخفف عنهما، بقدر ما كان في وسعها، وذلك عن طريق ممارسة الاقتصاد في نفقاتها الخاصة. فقد كان من الواضح لها دائمًا أن مثل هذا الدخل الذي يحصلان عليه، تحت إشراف شخصين ليس

لرغباتهما حدود، ولا يقيمان وزناً للمستقبل، لا بد أن يكون غير كافٍ لإعالتهما. وكلما انتقلا من مكان إلى مكان، كانت واثقة من أنهما سيلجآن إلى جين أو إليها في طلب بعض العون لسداد ديونهما. ولقد كانت طريقة حياتهما غير مستقرة على الإطلاق، حتى بعد أن استتب السلام فاتخذا لهما بيتاً. فكانا دائمي التنقل من مكان إلى مكان سعياً وراء سكن أرخص، ودائمي الإنفاق أكثر مما كان ينبغي عليهما أن يفعلا. وما لبث حبه لها أن هوى إلى عدم المبالاة، أما حبها فلم يستمر إلا إلى فترة أطول؛ وبالرغم من حداثة سنهما وسلوكها، إلا أنها احتفظت بكل حقوقها في نوع السمعة التي أضفاها زواجها عليها.

ومع أن دارسي لم يستقبله أبداً في «بمبرلي»، إلا أنه عاونه كثيراً؛ مراعاة منه لخاطر إليزابيث. أما ليديا فكانت تكثر من زياراتها هناك، عندما كان زوجها يذهب إلى «لندن» أو «باث» استمتاعاً بوقته. وكانا يقضيان في بيت بينجلي وقتاً طويلاً بين الحين والحين، لدرجة أن رحابة صدر بينجلي كانت تضيق بهما، وكان يضطر إلى التفكير في التلميح لهما بضرورة الرحيل.

واغتمت مس بينجلي إلى أبعد الحدود نتيجة لزواج دارسي. ولكن لما قدرت أنه من المناسب لها أن تحتفظ بحقها في زيارة «بمبرلي»، فقد طرحت جانباً كل استياء، وأصبحت أشد تعلقاً بجورجيانا عما كانت، كثيرة الاهتمام بدارسي كعادتها في الماضي، كما سددت لإليزابيث كل ما تأخر عندها من ديون الأدب والكياسة.

وأصبح «بيمبرلي» الآن منزل جورجيانا، وكان الرابط بينها وبين إليزابيث تجسيدًا لما كان دارسي يأمل فيه. فقد استطاعتا أن تُحبا بعضهما بمقدار ما رغبتا في ذلك. وكانت جورجيانا تجل إليزابيث أشد الإجلال، برغم أنها كثيرًا ما كانت تنصت في أول الأمر بدهشة تقرب من الانزعاج إلى طريقتهما في الحديث مع أخيها التي كانت تتسم بالحيوية والمرح. فقد رآته الآن هدفًا للمزاح الصريح، وهو الذي كان يوحى إليها دائمًا باحترام يكاد يغلب على محبتها له. وتلقى عقلها من المعلومات ما لم تصادفه في حياتها من قبل. فعن طريق إرشادات إليزابيث بدأت تدرك أن المرأة قد ترفع الكلفة بينها وبين زوجها، الأمر الذي لن يسمح به الشقيق دائمًا لشقيقته التي تصغره بأكثر من عشر سنوات.

أما ليدي كاثرين؛ فكانت شديدة الغضب من جراء زواج ابن أختها. وإذا أرخت العنان لكل ما تتميز به شخصيتها من صراحة أصيلة، فقد ردت على الخطاب الذي أعلنها فيه بترتيبات هذا الزواج، بلغة بذية، وخصوصًا في حديثها عن إليزابيث، الأمر الذي تسبب في قطع كل الصلات بينهما لفترة من الوقت. ولكنه اقتنع أخيرًا وبإلحاح من إليزابيث بأن يصفح عن الإساءة ويسعى إلى الصلح. وبعد أن أبدت خالته بعض المقاومة في أول الأمر، تلاشى غيظها، إما بسبب حبها له، أو بسبب فضولها لمعرفة كيفية مباشرة زوجته لشؤونها. وتفضلت بزيارتها في «بيمبرلي» برغم الدنس الذي لوث غاباته، ليس فقط من جراء احتلال البيت سيدة مثلها، ولكن أيضًا بسبب زيارات خالها وزوجة خالها القاطنين في لندن.

وكانا على الدوام يرتبطان بمستر جاردنر وزوجته بأوثق الصلات.
فقد كان دارسي وإليزابيث يحبانهما فعلاً؛ ولم تكفَّ إليزابيث -بل
دارسي أيضاً- عن الشعور بأحر آيات الامتنان تجاه الشخصين اللذين
أتيا بها إلى «داربيشير»، فكانا لذلك بمثابة العامل الذي ألف بينهما
برباط الزواج.

النهاية



